كتاب الاعلام بأعلام بيت الله الحرام تاريخ
مكة المشرفة تأليف الامام العالم العلامه
الرحلة الفهامه قطب الدين الحنفي
رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح
جنته بمنه وكرمه
آمين
م

فهرست الكتاب المسمى بالاعلام بأعلام بيت الله الحرام تاريخ مكة المشرفه

(تم الفهرست)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل المسجد الحرام حرما آمنا ومثابة للناس وأمر بتطهير الكعبة البيت الحرام والعاكفين وأزال عنها الخوف والباس وقيض لعمارة حرمه الأمين أعظم الخلفاء والسلاطين وأجلسهم على سرير السعادة أكرم جلاس نحمده على حصول المراد ونشكره على الكرامة والاسعاد بهذا الحرم الشريف الذى سواء العاكف فيه والباد ونشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له البر السلام ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المنزل عليه قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام القائل من بنى مسجدا لله ولو كمفحص قطاة أو أصغر بنى الله له بيتا فى الجنة دار السلام صلى الله عليه وعلى آله الكرام وصحبه العظام نجوم الهدى ومصابيح الظلام ما طاف بالبيت العتيق طائف واعتكف بالمسجد الحرام عاكف ووقف بعرفات والمشعر الحرام واقف

(وبعد) فلما وفقنى الله تعالى لخدمة العلم الشريف وجعلنى من جيران بيته المعظم المنيف تشوقت نفسى الى الاطلاع على علم الآثار وتشوقت الى فن التاريخ وعلم الأخبار لاشتماله على حوادث الزمان وما أبقاه الدهر من أخبار وقائع الدوران وأحوال السلف وما أبقوا من الآثار والاحداث بعد ما صاروا الى الاجداث فان فى ذلك عبرة لمن اعتبر وايقاظا بحال من مضى وغبر واعلاما بأن ساكن الدنيا على جناح سفر ومفاكهة للفضلاء وافادة لمن يأتى بعد من البشر فان من أرخ فقد حاسب على عمره ومن كتب وقائع أيامه فقد كتب كتابا من بعده بحوادث دهره ومن قيد ما شاهد فقد أشهر أحوال اهل عصره من لم يكن فى عصره ومن كتب التاريخ فقد أهدى الى من بعده أعمارا وبوأ

مسامحوهم

مسامعهم وأبصارهم ديارا ما كانت لهم ديارا واعلم أهل الآفاق ببلاد ما كانت لهم مستقرا ولا دارا

فانني أن أرى الديار بعيني * فلعلي أرى الديار بسمعي

وقد أفادنا الائمة السالفون بأخبارهم واطلعونا على ما دثر وبقي من آثارهم فأبصرنا ما لم نشاهده بابصارهم وأحطنا بما لم نحط به خبرا باخبارهم فرحمهم الله تعالى أجمعين وبوأهم جنات عدن فيها خالدين وقال

لقد غرسوا حتى أكلنا واننا * لنغرس حتى يأكل الناس بعدنا

فاردنا افادة من بعدنا ببعض ما رأينا وشاهدنا واعلامهم ببعض ما شاهدنا وعهدنا استدعاء الدعاء منهم والاسترحام وطلبا للمثوبة من الله الملك السلام وقد قلت في هذا المقام

لم يبق منا غير آثارنا * وتمحى من بعد أخلاق

وكلنا مرجعنا للفنا * وانما الله هو الباقي

(تنبيه) لا يخفى على ضمائر أولي البصائر وخواطر أهل الفضل الباهر ان المسجد الحرام الذي هو حرم أمن للانام زاده الله شرفا وتعظيما ومنحه عزا وعظمة واجلالا وتكريما اعظم مساجد الدنيا واشرف مكان خصه الله تعالى بالشرف والعليا يجب تعظيمه وتكريمه على كافة الانام سيما سلاطين الاسلام الذين هم ظل الله في العالم وخلائف الله في الارض على كافة بني آدم وقد بنى هذا المسجد ووسعه عدة من الخلفاء امراء المؤمنين وغيرهم ورممه جملة من اكابر السلاطين وسنشرحه ان شاء الله تعالى وكان آخر ما شاهدنا من آخر ايام الصبا الى الكهولة ما عمره المهدي العباسي وزيادة دار الندوة للمعتضد العباسي وزيادة دار ابراهيم للمقتدر العباسي ثم مالت الأروقة الثلاثة من الجانب الشرقي من المسجد الحرام سنة تسعمائة خمسة وتسعين وفارق السطح المتصل برباط المرحوم السلطان قايتباي والمدرسة الافضلية لصاحب اليمن التي صارت الآن من وقف الخواجا ابن عباد الله وصاروا يرجعون ذلك من كل جانب من السلطنة الشريفة في أيام السلطان الاعظم الاكرم السلطان سليمان خان عليه الرحمة والرضوان الى أن مال هذا الجانب الشرقي ميلا عظيما ظاهرا محسوسا بحيث كان يخشى سقوطه ثم علق وأسند بالأخشاب في أيام السلطان الاعظم والخاقان الاكرم ملك ملوك العصر والزمان الحليم السليم الكثير الاحسان السلطان سليم خان ابن سليمان خان أنزل الله عليه شآبيب الرحمة والرضوان فعرض ذلك عليه فبرز امره الشريف ببناء جميع المسجد من جوانبه الاربعة على أحسن وضع واجمل صورة فأمر ان يجعل مكان السطح قبب محكمة راسخة الأساس لان خشب السقف يبلى بتقادم الزمان وتأكله الأرضة والقبب امكن وازين في سنة تسعمائة سبع وتسعين فلما وصل اليه الحكم الشريف شرع فيه لأربع عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاول سنة ثمانية وتسعين على وجه جميل بغاية الاحكام والاتقان واسس على تقوى من الله ورضوان الى ان نقل من سرير سلطنة الدنيا الى ملك لا يبلى وعز لا يفنى وسلطان لا يزول ونعيم لا ينفد ولا يحول في جنة عالية فيها عين جارية بها سرر مرفوعة واكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة ثم كمل اتمام عمارة المسجد الحرام في ايام دولة السلطان الاعظم الهمام اجل عظماء ملوك الاسلام سلطان سلاطين الارض ما انبسطت البسيطة بالعرض القائم بوظائف النفل والسنة والفرض خداوندكار العالم وسلطانه وامير المؤمنين الذي جلس على كرسي الخلافة فاقدر كسرى وايوانه الذي غزى بلبان العدل والاحسان ونشأ على طاعة

الله وعبادته منذ كان والى الآن واحب العلماء والصالحين وامدهم بالخيرات الحسان الى آن وعجز عن القيام بحق شكره لسان كل ملسان مجدد معالم المسجد الحرام هو وابوه وجده ومشيد مدارس العلوم الدينيه وقد شمها سعده وحده ناشر الوية الأمن والامان فى جميع الممالك والبلاد ظل الله الممدود على كافة العباد السلطان الأعظم والليث الغشمشم والبحر الغطمطم السلطان مراد جعل الله السلطنة والخلافة كامة باقية فيه وفى عقبه الى يوم التناد وأزال بنور عدله ظلم الظلم والعناد وشتت بسيف قهره شمل اهل الكفر والالحاد وهدم معاول بأسه وسطوته الكنائس والبيع وعمر بصيب معدلته وصيب عدله ورأفته المساجد والجمع كما قال الله القوى القادر فى محكم كتابه العظيم الباهر انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وفى ذلك أقول

ان سلطاننا مراد الظل الله * فى الارض باهر السلطان
ملك صار من مضى من ملوك الا * رض وجامع المعانى
ملك هو فى الحقيقة عندى * ملك صيغ صيغة الانسان
ملك عادل فكل ضعيف * وقوى فى حكمه سيان
سيفه والمنون طرفا رهان * على قتل العدو يبتدران
كل المسجد الحرام بناء * فاق فى العالمين كل المبانى
هكذا هكذا والا فلالا * انما الملك فى بنى عثمان

ولما كان هذا البنيان العظيم الاركان أثرا باقيا على صفحات الزمان دالا على عظم شأن من أمر ببنائه من أعيان الانسان كما أشار اليه القائل فى سالف الأزمان

ان البناء وان تعاظم أمره * أضحى يدل على عظيم البانى

جمعت فى هذه الأوراق من أخبار ذلك مارق وراق تسير به الركبان الى سائر الآفاق وتنير فى صفحات الدهر كالشمس فى الاشراق ويحفظ فى خزائن الملوك والسلاطين كأنفس الاعلاق فكان كتابا حسنا فى بابه ممتعا من تعلق بأسبابه أنيسا تجمل مؤانسته وجليسا لا تمل مجالسته جمع بين لطائف تاريخيه وأحكام شرعيه ومواعظ نافعه وفوائد بارعه ﴿وسميته الاعلام بأعلام بيت الله الحرام﴾ وخدمت به خزائن كتب هذا السلطان الأعظم الشاب الاعدل الأكرم المطيع لله ولأوامر خير الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم أحد السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة تحت ظله يوم لا ظل الا ظله ويشملهم بفيض فضله العظيم فلا فضل الا فضله خلد الله تعالى على الاسلام والمسلمين ظلال سلطنته القوى المتين لتأييد هذا الدين المبين وأنام الأنام فى ظل أمانه وعدله المكين وأبقاه على سرير السلطنة العادلة دهرا طويلا وثبته على نهج الكتاب والسنة ولن تجد لسنة الله تحويلا * والله أسأل أن يكسو هذا المؤلف من حسن القبول حلة لا يخلقه كر الليالى والأيام ويجعلنا من المقبولين فى بابه العالى الفائزين بالنظر الى وجهه الكريم فى دار السلام وقد رأينا أن نقسم هذا الكتاب المستطاب الى مقدمة وعشرة أبواب وخاتمة والأبواب الى فصول بحسب الاحتياج والى الله المرجع والمآب

﴿الباب الأول﴾ فى وضع مكة المشرفة شرفها الله تعالى وحكم بيعها وشرائها وحكم المجاورة بها

﴿الباب الثانى﴾ فى بناء الكعبة المعظمة زادها الله تعالى شرفا وتعظيما

﴿الباب الثالث﴾ فى بيان ما كان عليه وضع المسجد الحرام فى الجاهلية وصدر الاسلام

﴿الباب

﴿الباب الرابع﴾ في ذكر ما زاد العباسيون في المسجد الحرام

﴿الباب الخامس﴾ في ذكر الزيادتين اللتين زيدتا في المسجد الحرام بعد التربيع الذي أمر به المهدي العباسي

﴿الباب السادس﴾ في ذكر ما عمره ملوك الجراكسة في المسجد الحرام

﴿الباب السابع﴾ في ذكر ملوك آل عثمان خلد الله تعالى سلطنتهم الى انقضاء الدوران وذكر نبذة من أخبار شاه اسماعيل القزلباش

﴿الباب الثامن﴾ في دولة السلطان المحفوف بالرحمة والرضوان السلطان الأعظم سليمان خان

﴿الباب التاسع﴾ في ذكر دولة السلطان الأعظم الخاقاني حضرة سليم خان الثاني صاحب التكايا والمباني

﴿الباب العاشر﴾ في ذكر سلطان الزمان السلطان مراد الذي بأجله تأليف هذا الكتاب

﴿الخاتمة﴾ في ذكر المواضع والأمكنة المشرفة التي يستجاب فيها الدعاء

﴿المقدمة﴾ في ذكر سندنا فيما ننقله في كتابنا هذا من أخبار البلد الحرام الى من ننقل عنه الوثوق والاعتماد ﴿اعلم﴾ ان من بركة العلم نسبته الى قائله ومالم يكن هنالك سند بين الناقل الراوي ومن ينقل عنه فلا اعتماد على هذا النقل ولابد أن يكون رجال السند موثوقا بهم والا فلا اعتبار لتلك الرواية وأقدم مؤرخي مكة هو الامام أبو الوليد محمد بن عبد الكريم الأزرقي ثم الامام أبو عبد الله محمد ابن اسحاق بن العباس الفاكهي المكي ثم قاضي القضاة السيد تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الحسني الفاسي المكي ثم الحافظ نجم الدين عمر بن محمد بن فهد وهذا الأخير ممن أدركناه ولنا عنه رواية فأما الأولون فنذكر سندنا اليهم ليعتمد على نقلنا عنهم وأما أبو الوليد الأزرقي فرويناه مؤلفاته عن جماعة أجلاء أخيار وعلماء كبار منهم والدي المرحوم مولانا علاء الدين أحمد بن محمد بن قاضي خان بن بهاء الدين بن يعقوب الحنفي القادري الخرقاني النهرواني ثم المكي رحمه الله تعالى وليس جدنا قاضي خان صاحب الفتاوى المشهورة من علماء مذهبنا بل هذا غير ذلك من علماء نهروان قال أخبرنا بها العز عبد العزيز بن فهد عن والده الحافظ نجم الدين عمر بن فهد عن شيخه قاضي القضاة السيد تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الفاسي المؤرخ وقال أخبرنا عبد الله بن عمر الصوفي عن أبي زكريا يحيي بن يوسف القرشي اجازة ان أبا الحسن علي بن هبة الله الخطيب عبد الله بن ظافر الازدي انبأه عن أبي طاهر أحمد ابن محمد الحافظ قال أنبأنا بها المبارك بن عبد الجبار المعروف بالطيوري قال أنبأنا بها أبو طالب محمد ابن علي بن الفتح العشاري قال أنبأنا بها أبو بكر بن أحمد بن محمد بن أبي موسى الهاشمي قال أنبأنا بها أبو اسحق ابراهيم بن عبد الصمد الهاشمي قال أنبأنا بها أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد الوليد الأزرقي رحمه الله وأما أبو عبد الله محمد بن اسحاق الفاكهي فاني أروي مؤلفه عن الحافظ المسند المعمر خطيب بلد الله الحرام أحمد محب الدين ابن أبي القاسم محمد العقيلي النويري المالكي تغمده الله برحمته قال أنبأني به المسند المعمر أبو العباس أحمد بن محمد الدمشقي الشهير بالحفار اجازة قال أنبأتني به المسندة المعمرة زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم اجازة قال أنبأني به الحافظ المسند بهاء الدين أبو الحسن علي بن هبة الله سبط الحميري اجازة قال أنبأنا به الحافظ محمد بن أحمد بن محمد السلفي اجازة قال أنبأنا به الحافظ محمد بن أحمد التجيبي كتابة قال أنبأنا به الحافظ أبو علي الحسيني

ابن محمد الغسانی أحمد أركان الحديث بقرطبة قال أنبأنا به الحافظ الحكم بن محمد الجزامی عن أبی القاسم بن أبی غالب الهمدانی عن أبی الحسن الانصاری عن مؤلفه رحمه الله تعالی

﴿الباب الأول فی ذكر وضع مكة المشرفة شرفها الله تعالی﴾
﴿وحكم بيع دورها واجارتها وحكم المجاورة بها﴾

(اعلم) ان بلد الله الحرام مكة المشرفة زادها الله تعالی شرفا وتعظيما بلدة كبيرة مستطيلة ذات شعاب واسعة ولها مبدأ ونهايتان فمبدؤها المعلاة وهی المقبرة الشريفة ومنتهاها من جانب جدة موضع يقال له الشبيكة ومن جانب اليمن قرب مولد سيدنا حمزة رضی الله عنه لصق مجری العين ينزل اليه من درج يقال له بازان وعرضها من وجه جبل يقال له الآن جبل جزل الی أكثر من نصف جبل أبی قبيس ويقال لهذين الجبلين الاخشبان وسماهما الازرقی جبل أبی قبيس والجبل الاحمر فانه قال أخشبا مكة أبو قبيس وهو الجبل المشرف علی الصفا والآخر الذی يقال له الاحمر وكان يسمی فی الجاهلية الاعرف وهو الجبل المشرف علی قيقعان وعلی دور عبد الله بن الزبير انتهی فيكون قيقعان ما يشرف علی الجبل المقابل لابی قبيس وقال ياقوت فی معجم البلدان قيقعان هو نفس الجبل وانما سمی الآن جبل جزل بكسر الجيم وفتح الزای وتشديد اللام لان طائفة من الجيوش يقيمون بهذا الجبل يسمون بهذا الاسم يلعبون فيه بالطبل (واما موضع الكعبة المعظمة) فهو وسط المسجد الحرام بين هذين الجبلين فی وسط مكة ولها شعاب كثيرة ومزورة اذا أشرف الانسان من جبل أبی قبيس لا يری جميع مكة بل يری أكثرها وهی تسع خلقا كثيرا خصوصا فی ايام الحج فانه يرد اليها قوافل عظيمة من مصر والشام وحلب وبغداد وبصرة والحسا ونجد واليمن ومن بحر الهند والحبشة والشحر وحضرموت وعربان جزيرة العرب طوائف لا يحصيهم الا الله تعالی فتسعهم جميعا أفنيتها وجبالها ووهادها وهی تزيد عمارتها وتنقص بحسب الازمان وبحسب الولاية والامن والخوف والغلاء والرخاء وهی الآن بحمد الله تعالی فی دولة السلطان الأعظم الفياض الاكرم معمر هذا العالم بالبذل والفضل والكرم (السلطان مراد خان) خلد الله ملكه وجعل بساط البسيطة ملكه فی أعلا درجات العمارة والامن والرخاء بحسب ما رأينا من أول العمر الی الآن هذه العمارة ولا قريبا منها ولو كنت اشاهد قبل الآن فی زمن الصبا خلو الحرم الشريف وخلو المطاف من الطائفين حتی انی ادركت الطواف وحدی من غير أن يكون معی أحد مرارا كثيرة أترصد خلوها لكثرة ثوابه بان يكون الشخص الواحد يقوم بتلك العبادة وحده فی جميع الدنيا وهذا لا يكون الا بالنسبة الی الانسان فقط ﴿واما الملائكة﴾ فلا يخلو عنهم المطاف الشريف بل يمكن ان لا يخلو عن أولياء الله تعالی من لا تظهر صورته ويطوف خافيا عن اعين الناس ولكن لما كان ذلك خلاف الظاهر صار يتبادر علی أداء هذه العبادة بالانفراد ظاهرا كثيرا من الصلحاء لانه ليس معنا عبادة يمكن ان ينفرد بها رجل واحد فی جميع الدنيا ولا يشاركه غيره فی تلك العبادة بغيرها الا الطواف فانه يمكن ان ينفرد به شخص واحد بحسب الظاهر والله تعالی أعلم بالسرائر * حتی حكی لی والدی رحمه الله ان وليا من أولياء الله تعالی رصد الطواف الشريف اربعين عاما ليلا ونهارا ليفوز بالطواف وحده فرأی بعد هذه المدة خلو الطواف الشريف فتقدم ليشرع واذا بحية تشاركه فی ذلك الطواف فقال لها من أنت من خلق الله تعالی فقالت انا رصدت ما رصدت قبلك بمائة عام فقال لها حيث كنت انت من غير البشر فانی فزت بالانفراد بهذه العبادة وأتم طوافه * وحكی لی شيخ معمر من اهل مكة انه شهد الظباء تنزل من جبل أبی قبيس الی الصفا

وتدخل من باب الصفا الى المسجد ثم تعود لخلو المسجد من الناس وهو صدوق عندى وكانرى سوق المدعى وقت الضحى خاليا عن الباعة وكانرى القوافل تأتى بالحنطة من بجيلة فلا يجد اهلها من يشترى منهم جميع ما جلبوه وكانوا يبيعون ما جاؤا به بالاجل اضطرارا ليعودوا بعد ذلك و يأخذوا أثمان ما باعوه وكانت الاسعار رخيصة جدا لقلة الناس وعزة الدراهم وأما الآن فالناس كثيرون والرزق واسع والخير كثير والخلق مطمئنون آمنون فى ظلال السلطنة الشريفة خائضون فى بحار انعامها واحسانها ورحمتها الوريفة أدام الله تعالى سلطنته الزاهرة وأطال عمره وخلد دولته القاهرة وخلافته الباهرة (ومكة شرفها الله تعالى) يحيط بها جبل لا يسلك اليها الخيل والابل والأحمال الامن ثلاث مواضع أحدها من جهة المعلاة والثانية جهة الشبيكة والثالثة المسفلة وأما الجبال المحيطة فيسلك من بعض شعابها الرجال على اقدامهم لا الخيل والجمال والاحمال * وكانت مكة فى قديم الزمان مسورة بجهة المعلاة كان بها جدار عريض من طرف جبل عبد الله بن عمر الى الجبل المقابل وكان فيه باب من خشب مصفح بالحديد اهداه ملك الهند الى صاحب مكة وقد أدركنا منها قطعة جدار كان فيه نقوب للسيل قصير دون القامة وهو تحت قطعة جدار بنى الى جانبه سبيل على مجرى ذيل عين حنين بناه المرحوم مصطفى ناظر العين باسم المرحوم المقدس السلطان سليمان خان سقاه الله ماء الكوثر والسلسبيل فى يوم العطش الأكبر قدام الميزان وجعل على السبيل منظرة بهاشبابيك من الجهات الاربع يتنزه الناس فيها وذلك باق الى هذا اليوم وهدم ماعداه وكان فى جهة الشبيكة أيضا سور ما بين جبلين متقاربين بينهما الطريق السالك الى خارج مكة وكان هذا السور فيه بابان بعقدين ادركنا أحد العقدين يدخل فيه الجمال والاحمال ثم هدم شيأ فشيأ الى ان لم يبق منه شئ الآن ولم يبق منه الاقطع بين جبلين متقاربين فيه المدخل والمخرج وكان سور فى جهة المسفلة فى درب اليمن لم ندركه ولم ندرك آثاره وذكر التقى الفاسى رحمه الله نقلا عمن تقدم انه كان بمكة سور من اعلاها دون السور الذى ذكره قريبا من المسجد المعروف بمسجد الراية فانه كان من الجبل الذى الى جهة القرارة ويقال له لعلع الى الجبل المقابل الذى الى جهة سوق الليل قال وفى الجبلين آثار تدل على اتصال السور بهما انتهى ولم يبق الآن شئ من آثار السور الثانى مطلقا ولعل دور مكة كانت تنتهى الى هذا الموضع حيث وضع عليه السور ثم اتصل العمران الى ان احتيج الى سور المعلاة قال الفاكهى رحمه الله تعالى ومن آثار النبى صلى الله عليه وسلم مسجد باعلا مكة يقال ان النبى صلى الله عليه وسلم صلى فيه عند بئر جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل وكان الناس لا يتجاوزون فى السكنى فى قديم الدهر هذه البئر وما فوق ذلك خال من الناس وفى ذلك يقول عمر بن ربيعة

نزلت بمكة من قبائل نوفل * ونزلت خلف البئر أبعد منزل
حذرا عليها من مقالة كاشح * ذرب اللسان يقول مالم يفعل

قلت المسجد هذا هو مسجد الراية موجود يزار الى الآن يقال ان النبى صلى الله عليه وسلم وضع رايته يوم فتح مكة فيه والبئر موجودة الآن خلف المسجد وقد تجاوز العمران عن حد هذه البئر كثيرا الى صوب المعلاة * وأما حدوث هذه الاسوار * فقد قال التقى الفاسى رحمه الله ما عرفت متى انشئت هذه الاسوار بمكة ولا من أنشاها ولا من عمرها غير انه بلغنى ان الشريف ابا عزيز قتادة بن ادريس الحسنى جد سادا تنا أشراف مكة ادام الله عزهم وسعادتهم هو الذى عمرها قال واظن ان فى دولته عمر السور الذى بأعلا مكة وفى دولته سهلت العقبة التى بنى عليها سور باب الشبيكة وذلك من جهة المظفر صاحب اربل فى سنة

سبعمائة وسبعة ولعله الذى بنى السور الذى باعلا مكة والله اعلم قال ورأيت فى بعض التواريخ مايقتضى
انه كان بمكة سور فى زمن المقتدر العباسى وماعرفت الذى هل هو هذا السور الذى بأعلا مكة وأسفلها أومن
أحد الجهتين قال وطول مكة من باب المعلاة الى باب الماجن يعنى درب اليمن بالمسفلة موضع السور الذى
كان موجودا فى زمانه طريق المدعى والمسعى ومسيل وادى ابراهيم والسوق الذى يقال له الآن سوق
الصغير مع ما فيه من دورات ولفتات ليست على الاستقامة أربعة آلاف ذراع واثنان وسبعون ذراعا
بتقديم السين بذراع اليد وهو ينقص ثمن ذراع عن ذراع الحديد المستعمل الآن يعنى الذراع الشرعى
وطول مكة من باب المعلاة الى باب الشبيكة من طريق المداعى يعدل عنه الى سويقة ثم الى الشبيكة أربعة
آلاف ذراع ومائة ذراع واثنان وسبعون ذراعا بتقديم السين بذراع اليد أيضا انتهى وقال أيضا ذكر
الزبير بن بكار عن ابن سفيان بن ابى وداعة السهمى ان سعد بن عمرو السهمى أول من بنى بيتا بمكة وأنشد
فى ذلك شعرا

وأول من بوأ بمكة بيته * وسور فيها ساكنا بأثاث

وينبغى لمن بنى بمكة بيتا ان لا يرفع بناءه على بناء الكعبة الشريفة فان بعض الصحابة رضى الله عنهم
كان يأمر بهدمه قال الازرقى وانما سميت الكعبة كعبة لانه لا يبنى بمكة بناء مرتفع عنها ثم قال حدثنى
جدى عن ابن عيينة عن ابن مشنية الحجى عن شيبة بن عثمان انه كان يشرف فلا يرى بيتا مشرفا
على الكعبة الا أمر بهدمه ثم قال قال جدى لما بنى العباس بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس رضى
الله تعالى عنهم داره التى بمكة حيال المسجد الحرام أمر قومه ان لا يرفعوها على الكعبة وان يجعلوا
اعلاها دون الكعبة لتكون دونها اعظاما للكعبة ثم قال الأزرقى قال جدى فلم يبق بمكة دار لكبير
أوغيره تشرف على الكعبة الا هدمت أوخربت الا هذه الدار فانها باقية الى الآن انتهى * وأما حكم
بيع دور مكة وأجارتها * فقد ذكر الامام قاضى خان انه لا يجوز بيع دورها عند ابى حنيفة رضى الله
عنه فى ظاهر الرواية وقيل يجوز مع الكراهة وهو قول محمد وأبى يوسف قال صاحب الواقعات وعليه
الفتوى وروى الحسن عن ابى حنيفة ان بيع دور مكة جائز وفيها الشفعة وهو قول ابى يوسف وعليه
الفتوى ذكره فى عيون المسائل قال قوام الدين فى شرح الهداية بيع بناء مكة جائز اتفاقا لان بناءها
ملك الذى بناه الا ترى ان من بنى فى أرض الوقف جاز ان يبيع بناءه فكذا هذا * وأما بيع أرض
مكة * فلا يجوز عند أبى حنيفة وهو ظاهر الرواية عنه وهو قول محمد وعند أبى يوسف يجوز ورجح
الطحاوى قول ابى يوسف وقال رأينا المسجد الذى كان للناس سواء العاكف فيه والباد لا ملك لاحد
فيه ورأينا مكة على غير ذلك فقد أجيز البناء فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم دخلها من دخل
دار ابن سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن فلما كانت مما يغلق عليه الابواب ويبنى فيها
المنازل كان صفتها صفة المواضع التى يجرى فيها الاملاك ويقع فيها التوارث ولا يجوز احتجاج المخالف
بقوله تعالى ان الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذى جعلناه للناس سواء
العاكف فيه والباد لان المراد المسجد الحرام لا جميع أرض مكة انتهى ملخصا * وأما اجارة دور مكة *
فقد ذكر صاحب التقريب قال روى هشام عن أبى حنيفة انه كره اجارة بيوت مكة وقال لهم ان ينزلوا
عليهم فى دورهم اذا كان فيها فضل وان لم يكن فلا وهو قول محمد رحمه الله تعالى انتهى * وروى محمد
فى الآثار عن أبى حنيفة عن عبد الله بن زياد عن أبى نجيح عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم

انه

انه قال من أكل من أجور بيوت مكة شيأ فانما أكل نارا أخرجه الدارقطني باسناد ضعيف وقال الصحيح انه موقوف وروى انه كره اجارتها لاهل الموسم ولم يكره للمقيم لان اهل الموسم لهم ضرورة الى النزول والمقيم لا ضرورة له * وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انه نهى أن يغلق بمكة باب دون الحاج فانهم ينزلون كل موضع رأوه فارغا وكتب عمر بن عبد العزيز في خلافته الى أمير مكة ان لا يدع أهل مكة يأخذون على بيوت مكة أجرا فانه لا يحل لهم وكانوا يأخذون ذلك خفية ومساترة وهذا مبني على أصل وهو ان فتح مكة هل كان عنوة فتكون مقسومة مغنومة ولم يقسمها النبي صلى الله عليه وسلم وأقرها على ذلك فتبقى على ذلك لا تباع ولا تكرى ومن سبق على موضع فهو أولى به وبهذا قال أبو حنيفة ومالك والاوزاعي رضي الله عنهم أو كان فتحها صلحا فتبقى ديارهم بأيديهم يتصرفون في أموالهم كيف شاؤا سكنا واسكانا وبيعا واجارة وغير ذلك وبه قال الامام الشافعي وأحمد رضي الله عنهما وطائفة من المجتهدين رحمهم الله تعالى وعلى ذلك عمل الناس قديما وحديثا (واما اسماء مكة المشرفة) فانها سميت بالقلة مائها من قولهم امسك الفصيل ما في ضرع أمه اذا لم يبق فيه شيأ ولذلك تسمى المعطشة أو لانها تنقص الذنوب أو تفنيها ومن اسمائها بكة لانها تبك أعناق الجبابرة أي تكسرها ومنها العروض بفتح المهملة ولذلك سمي علم الشعر عروضا لان الخليل بن احمد اخترعه بمكة فسماه عروضا باسمها والبلد الامين والبلد والقرية وأم القرى قال المحب الطبري سمى الله تعالى مكة بخمسة أسماء مكة وبكة والبلد والقرية وأم القرى قال ابن عباس سميت أم القرى لانها اعظم القرى شأنا وقيل لان الارض دحيت من تحتها ومن اسمائها كوثى وأم كوثى لان كوثى اسم لمحل من قيقعان وفاران والمقدسة وقرية النمل لكثرة نملها والحاطمة لحطمها الجبابرة والوادي والحرام والعرش وبره وصلاح مبنيا على الكسر كحذام وقطام ومن اسمائها طيبة أيضا ومنها معاد بفتح الميم لقوله تعالى ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد قال مكة ومن اسمائها الباسة بالباء الموحدة والسين المهملة المشددة قاله مجاهد لانها تبس من ألحد فيها أي تهلكه لقوله تعالى وبست الجبال بسا وتسمى الناسة أيضا بالنون والشين المعجمة أي تنش بتشديد آخرها أي تطرد من ألحد فيها وتنفيه ولها اسامي غير ما ذكرنا وللمجد الفيروزابادي رسالة في اسمائها قال الامام النووي رضي الله عنه ولا يعرف في البلاد بلدة أكثر اسمائها من مكة والمدينة لكونهما أشرف الارض وقال عبد الله المرجاني رحمه الله تعالى في تاريخه للمدينة بعد ذكره لاسماء مكة ومن الخواص اذا كتبت بدم الرعاف مكة وسط الدنيا والله رؤف بالعباد انقطع الرعاف (وأما فضل مكة شرفها الله تعالى) فاعلم ان مكة والمدينة زادهما الله شرفا وتعظيما افضل بقاع الارض بالاجماع وذكر القاضي عياض ان موضع قبر نبينا صلى الله عليه وسلم أي ما ضم اعضاءه الشريفة افضل بقاع الارض بالاجماع لحلول سيد الانبياء والمرسلين عليه وعليهم افضل الصلاة والسلام فيه قال اليشكري رحمه الله تعالى

جزم الجميع بأن خير الارض ما * قد حاط ذات المصطفى وحواها
ونعم لقد صدقوا بساكنها علت * كالنفس حين زكت زكى مأواها

ثم اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في ان مكة شرفها الله تعالى افضل ام المدينة الشريفة عظمها الله تعالى فذهب الامام الاعظم أبو حنيفة وأصحابه والامام أحمد واصحابه والامام الشافعي وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين ان مكة أفضل من المدينة زادها الله تعالى شرفا وتعظيما لحديث عبد الله بن الزبير

رضى الله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلم قال صلاة فى مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه الا المسجد الحرام وصلاة فى المسجد الحرام أفضل من مائة الف صلاة فى مسجدى رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه ولا يرتاب فى الفضائل التى أثبتها الله تعالى لبلده الحرام فجعل فيها بيته المعظم الذى اذا قصده عباده حط عنهم أقذارهم ورفع درجاتهم وجعلها قبلة للمسلمين أحياء وأمواتا وفرض الحج اليه على من استطاع اليه سبيلا مرة فى عمره وفى كل عام على الناس أجمعين فرض كفاية وحرمها يوم خلق السموات والارض ولا تدخل الا باحرام وهى مثوى ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة والسلام ومسقط رأس خير الانام صلى الله عليه وسلم ومحل اقامته قبل النبوة وبعدها ثلاثة عشر عاما ومحل نزول أكثر القرآن ومهبط الوحى ومظهر الايمان والاسلام ومنشأ الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين وبها الحجر الاسود وزمزم والمقام وغير ذلك من المزايا العظام ولقد قال القائل

ارض بها البيت المحرم قبلة * للعالمين له المساجد تعدل
حرم حرام أرضها وصيودها * والصيد فى كل البلاد محلل
وبها المشاعر والمناسك كلها * والى فضيلتها البرية ترحل
وبها المقام وحوض زمزم مشرعا * والحجر والركن الذى لا يرحل
والمسجد العالى المحرم والصفا * والمشعران لمن يطوف ويرمل
وبمكة الحسنات ضوعف أجرها * وبها المسئ عنه الخطايا تغسل

وقال الامام مالك رضى الله عنه المدينة أفضل من مكة لما روى ان النبى صلى الله عليه وسلم قال حين خروجه من مكة الى المدينة اللهم انك تعلم أنهم أخرجونى من أحب البلاد الى فأسكنى أحب البلاد اليك رواه الحاكم فى المستدرك وما هو أحب البقاع الى الله يكون أفضل والظاهر استجابة دعائه صلى الله عليه وسلم وقد أسكنه الله تعالى المدينة الشريفة فتكون أفضل البقاع وأدلة أخرى من الاحاديث الشريفة وبين الطائفتين نزاع ومباحث والله أعلم ﴿وأما حكم المجاورة بمكة شرفها الله تعالى﴾ فذهب امامنا الاعظم أبو حنيفة رضى الله عنه وبعض أصحاب الشافعى وجماعة من المحتاطين فى دين الله تعالى رضوان الله عليهم أجمعين كراهة المقام بمكة وذلك لخوف سقوط حرمة البيت الشريف فى نظره وقلة الاحترام بالانس والتبسط الى آن يذهب من قلبه الهيبة بالكلية فيصير بيت الله تعالى فى نظره القاصر كسائر البيوت والعياذ بالله أو تنقص الهيبة والحرمة الاولى فى نظره كما هو شأن سائر الناس فى الا كثر الا من عصمه الله تعالى وحيث كان هو الا كثر من حكم الناس أنيط به حكم الكراهة فاقامة المسلم فى وطنه وهو مشتاق الى مكة باق حرمتها فى نظره خير له وأسلم من مقامه بمكة من غير احترام لها أو مع نقصان احترامه وهذا ملخص ما قاله امامنا رضى الله عنه ولهذا كان عمر رضى الله عنه يدور على الحجاج بعد قضاء النسك بالدرة و يقول يا أهل اليمن يمنكم ويا أهل الشام شامكم ويا أهل العراق عراقكم فانه أبقى لحرمة بيت ربكم فى قلوبكم وقال أبو عمر الزجاجى من جاور بالحرم وقلبه متعلق بشئ سوى الله تعالى فقد ظهر خسرانه وقال بعض السلف كم من رجل بخراسان وهو أقرب الى هذا البيت ممن يطوف به كما قيل

وكم من بعيد الدار نال مراده * وكم من قريب الدار مات كئيبا

وقال ابن مسعود ما من بلد يؤاخذ فيه بالهم قبل العمل الا مكة وتلا قوله تعالى ومن يرد فيه بالحاد بظلم

نذقه من عذاب أليم ولهذا اختار حبر الامة سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما المقام بالطائف وحواليه على مكة وقال لأن اذنب سبعين ذنبا بركية احب الى من ان اذنب ذنبا واحدا بمكة وذهب بعض العلماء الى القول بتضاعف السيآت بأرض الحرم كما تتضاعف الحسنات وجاور أبو محمد الحريرى سنة بمكة فلم يستند الى حائط ولم ينم فقيل له بم قدرت على هذا فقال علم الله صدق باطنى فأعاننى على ظاهرى وبقى أبو عمر الزجاجى الصوفى أربعين سنة لم يقض حاجته البشرية فى الحرم بل كان يخرج الى الحل عند قضاء الحاجة وهكذا يروى عن الامام أبى حنيفة رضى الله عنه فى مدة اقامته بمكة وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحجون ثم يرجعون ويعتمرون ثم يرجعون ولا يجاورون ذكره عبد الرزاق فى مصنفه * وروى عن وهب بن الورد المكى رحمه الله قال كنت ذات ليلة أصلى فى الحجر فسمعت كلاما بين الكعبة والأستار خفيا فاستمعت فاذا هى تشتكى وتقول الى الله اشكو ثم اليك يا جبريل ما ألقى عن حولى من سمرهم وتفكههم باللغو وذكرا حوال الدنيا والاغتياب والخوض فيما لا ينبغى لهم واللهو والعبث لئن لم ينتهوا عن ذلك لأنتفضن انتفاضة يرجع كل حجر منى الى الجبل الذى قطع منه * وسئل الامام مالك رضى الله عنه الحج والجوار أحب اليك أو الحج والرجوع فقال ما كان الناس الا على الحج والرجوع وفهم ابن رشد من هذا اقتضاء كراهة المجاورة عنده والظاهر انه لا يقتضيه والله تعالى أعلم * وذهب الامام أبو يوسف ومحمد والامام الشافعى والامام احمد بن حنبل رضى الله عنهم الى استحباب المجاورة بمكة فى قولهما وانه الافضل قال وعليه عمل الناس * وحكى الفاسى فى منسكه عن المبسوط ان الفتوى على قولهما * وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال من صبر على مكة ساعة تباعدت النار عنه مسيرة مائة عام * وعن سعيد بن جبير من مرض يوما بمكة كتب الله له من العمل الصالح الذى يعمله فى سبع سنين فان كان غريبا ضوعف ذلك رواهما الامام الفاكهى رحمه الله تعالى ومحصل ماذهب اليه أبو حنيفة رضى الله عنه من كراهة المجاورة مبنى على ضيق الخلق عن مراعاة حرمة الحرم الشريف وقصورهم عن الوفاء بقيام حق البيت الشريف فمن أمكنه الاحتراز عن ذلك وعرف من نفسه القدرة على الوفاء بحرمة بيت الله تعالى وتعظيمه وتوقيره على وجه تبقى معه حرمة البيت الشريف وجلالته وهيبته وعظمته فى عينه وقلبه كما كان عند دخوله فى الحرم الشريف ومشاهدته بيت الله تعالى فالاقامة بها هو الفضل العظيم والفوز الكبير ولا شك فى تضاعف الحسنات بها * وأما تضاعف السيآت فأكثر العلماء على عدم تضاعفها ولا شك فى تردد الأولياء اليها فى الاوقات الفاضلة فمن لمح أحدهم أولمحه هو نال السعادة العظمى وورد أنهم يحضرون الجمعة والاوقات الشريفة ويحجون كل عام * وكان دأب والدى رحمه الله تعالى قبل أن يكف نظره أن يبادر يوم النحر بعد رمى جمرة العقبة الى مكة ويجلس تجاه بيت الله تعالى ويلحظ بنظره ويستمر جالسا هناك الى صلاة المغرب فيطوف بعد صلاة المغرب ويسعى ويعود الى منى وكان يقول ان أولياء الله لا بد ان يحجوا فى كل سنة ويفعلوا الافضل وهو الاتيان بطواف الزيارة فى أول يوم النحر فأبادر الى النزول من منى فى ذلك اليوم وأجلس فى الحطيم يومى أشاهد الطائفين لعل أن يقع نظرى الى أحدهم أو يقع نظره على فيحصل لى بذلك بركتهم واستمر على ذلك الى أن كف نظره رحمه الله تعالى فكنا نذهب به ونجلسه فى الحطيم ويقول ان كنت لا أنظرهم فلعل أن يقع نظرهم على فيحصل لى بركتهم واستمر على ذلك الى أن توفى رحمه الله وان أولياء الله يخفون انفسهم عن أعين الناس

فلايراهم الا من أسعده الله تعالى والله تعالى المسؤل أن يجعلنا من سعداء الدنيا والآخرة بمنه وكرمه ان شاء الله تعالى

﴿الباب الثاني في بناء الكعبة المشرفة زادها الله تعالى شرفا وتعظيما ومهابة وتكريما﴾

قال قاضي القضاة السيد تقي الدين محمد بن أحمد بن علي الحسني الفاسي المكي في كتابه شفاء الغرام لاشك ان الكعبة المعظمة بنيت مرات وقد اختلف في عدد بنائها ويتحصل من مجموع ماقيل في ذلك انها بنيت عشر مرات وهي بناء الملائكة عليهم السلام وبناء آدم عليه السلام وبناء أولاده وبناء الخليل ابراهيم عليه السلام وبناء العمالقة وبناء جرهم وبناء قصي بن كلاب جد النبي صلى الله عليه وسلم وبناء قريش قبل بعث النبي صلى الله عليه وسلم وعمره الشريف يومئذ خمس وعشرون سنة وبناء عبد الله بن الزبير بن العوام الاسدي وآخرها بناء الحجاج بن يوسف الثقفي وفي اطلاق العبارات في بناء الكعبة تجوز فان بعضها لم يستوعبها البناء كالبناء الاخير وهو بناء الحجاج فانه اغا هدم جانب الميزاب فقط وأعاده وأبقى الجوانب الثلاث وهي جهة الباب وجهة المستجار الذي هو مقابل الباب وجهة الصفا المقابل لجهة الميزاب فانها باقية على بناء عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ﴿أما بناء الملائكة الكعبة المشرفة وهو أول بنائها﴾ فذكر الامام ابو الوليد أحمد بن عبد الله بن أحمد بن الوليد الازرقي في تاريخه فقال حدثنا علي بن مسلم العجلي عن أبيه حدثنا القاسم ابن عبد الرحمن الانصاري حدثنا الامام محمد الباقر ابن الامام علي زين العابدين بن الحسين ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قال كنت مع أبي علي بن الحسين عليهما السلام بمكة فبيناهو يطوف وانا وراءه اذ جاء رجل طويل فوضع يده على ظهر أبي فالتفت ابي اليه فقال السلام عليك يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم اني أريد ان اسألك فرد عليه السلام وسكت أبي وأنا والرجل خلفه حتى فرغ من اسبوعه فدخل الحجر فقام تحت الميزاب فصلى ركعتي اسبوعه ثم استوى قاعدا فالتفت الي فجلست الى جانبه فقال يا محمد اين السائل فأومأت الى الرجل فجاء فجلس بين يدي أبي فقال له عم تسأل قال اني أسألك عن بدء هذا الطواف بهذا البيت فقال له ابي من اين انت قال من اهل الشام قال اين مسكنك قال بيت المقدس قال قرأت الكتابين يعني التوراة والانجيل قال نعم فقال له ابي يا اخا الشام احفظ عني ولا تروعني اما بدء هذا الطواف فان الله تعالى قال اني جاعل في الارض خليفة فقالت الملائكة اي رب أتخلق غيرنا ممن يفسد فيها ويسفك الدماء ويتحاسدون ويتباغضون ويتباغون اجعل ذلك الخليفة منا فنحن لا نفسد فيها ولا نسفك الدماء ولا نتباغض ولا نتحاسد ولا نتباغى ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ونطيعك ولا نعصيك فقال الله تعالى اني أعلم ما لا تعلمون قال فظنت الملائكة ان ما قالوه رد على الله وانه قد غضب عليهم من قولهم فلاذوا بالعرش ورفعوا رؤسهم يتضرعون ويبكون اشفاقا من غضبه وطافوا بالعرش ثلاث ساعات فنظر الله اليهم ونزلت الرحمة عليهم ووضع الله سبحانه وتعالى تحت العرش بيتا وهو البيت المعمور على أربع أساطين من زبرجد فغشاهن بياقوتة حمراء وقال للملائكة طوفوا بهذا البيت فطافت الملائكة بهذا البيت وصار أهون عليهم من العرش ثم ان الله تعالى بعث ملائكة وقال لهم ابنوا لي في الأرض بيتا بمثاله وقدره وأمر الله تعالى من في الأرض من خلقه أن يطوفوا بهذا البيت كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور فقال الرجل صدقت يا ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا كان انتهى قلت هذا الحديث الشريف يدل على ان بناء

الملائكة

الملائكة عليهم السلام الكعبة الشريفة كان بعد خلق الارض ولنا أحاديث دالة أن الكعبة خلقت قبل الارض بأربعين سنة فى رواية وبألفى عام فى رواية قال الامام أبو عبد الله محمد بن اسحق بن العباس الفاكهى المكى فى أوائل تاريخ مكة حدثنى عبد الله بن أبى سلمة قال حدثنا الواقدى قال حدثنا اسحق بن يحيى بن طلحة انه سمع مجاهدا يقول ان قواعد البيت خلقت قبل الارض بألفى سنة ثم بسطت الارض من تحته أقول وظهر عمارة وبناء ان موضع البيت الشريف خلق قبل الارض لا نفس بناء البيت فانه أول ما بنته الملائكة بأمر الله تعالى كما سقناه والله تعالى أعلم ﴿ الثانى بناء آدم عليه السلام الكعبة المشرفة ﴾ وقد ذكره الامام أبو الوليد الأزرقى فقال حدثنى جدى عن سعيد بن سالم عن طلحة بن عمرو الحضرمى عن عطاء بن أبى رباح بفتح الراء والباء الموحدة بعدها ألف ثم حاء مهملة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال لما أهبط الله آدم الى الارض من الجنة قال يارب مالى لا أسمع أصوات الملائكة قال بخطيئتك يا آدم ولكن ابن لى بيتا فطف به واذكرنى حوله كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشى قال فأقبل آدم يتخطى الارض فطويت له ولم يقع قدمه على شئ من الارض الا صار عمرانا وبركة حتى انتهى الى مكة فبنى البيت الحرام وان جبريل عليه السلام ضرب بجناحه الارض فكشف عن أس ثابت فى الارض السابعة فقذفت فيه الملائكة من الصخر ما لا يطيق الصخرة ثلاثون رجلا وانه بناه من خمسة أجبل من لبنان وطور سيناء وطور زيتا والجودى وحراء حتى استوى على وجه الأرض وهذا يدل على أن آدم عليه السلام انما بنى أساس الكعبة حتى ساوى وجه الارض ولعل ذلك بعد دثور ما بنته الملائكة بأمر الله تعالى ثم أنزل الله تعالى البيت المعمور لآدم عليه السلام ليستأنس به فوضعه على أساس الكعبة ويدل على ذلك ما رواه أبو الوليد الأزرقى فى تاريخه قال حدثنى أبى عن جدى قال حدثنا سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال بلغنى ان عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لكعب يا كعب أخبرنى عن البيت الحرام قال كعب أنزل الله من السماء ياقوتة مجوفة مع آدم فقال له يا آدم ان هذا بيتى أنزلته معك يطاف حوله كما يطاف حول عرشى ويصلى حوله كما يصلى حول عرشى ونزلت معه الملائكة فرفعوا قواعده من حجارة ثم وضع البيت عليه فكان آدم عليه السلام يطوف حوله كما يطاف حول العرش ويصلى عنده كما يصلى عند العرش فلما أغرق الله قوم نوح رفعه الى السماء وبقيت قواعده * وقال الأزرقى أيضا حدثنى أبى قال محمد بن يحيى عن عبد العزيز بن عمران عن عمر ابن أبى معروف عن عبيد الله بن أبى زياد قال لما أهبط الله آدم عليه السلام من الجنة قال يا آدم ابن لى بيتا بحذاء بيتى الذى فى السماء تتعبد فيه أنت وولدك كما تتعبد ملائكتى حول عرشى فهبطت عليه الملائكة فحفر حتى بلغ الارض السابعة فقذفت فيه الملائكة الصخر حتى أشرف على وجه الارض وهبط آدم بياقوتة حمراء مجوفة لها أربعة أركان بيض فوضعها على الأساس فلم تزل الياقوتة كذلك حتى كان زمن الغرق فرفعها الله تعالى * وقال الأزرقى أيضا حدثنى محمد بن يحيى عن ابراهيم بن محمد ابن أبى يحيى عن ابى المليح أنه قال كان أبو هريرة يقول حج آدم فقضى المناسك فلما حج قال رب لكل عامل أجر قال الله تعالى أما أنت يا آدم فقد غفرت لك وأما ذريتك فمن جاء منهم هذا البيت فباء بذنبه غفرت له فاستقبلته الملائكة بالردم فقالوا بر حجك يا آدم قد حججنا هذا البيت قبلك بألفى عام قال وما كنتم تقولون حوله قالوا كنا نقول سبحان الله والحمد لله ولا اله الا الله والله أكبر وكان آدم عليه السلام اذا طاف يقول هذه الكلمات وكان طواف آدم سبعة أسابيع بالليل وخمسة بالنهار قال نافع وكان

ابن عمر رضى الله عنهما يفعل ذلك * وقال الازرقى أيضا حدثنى محمد بن يحيى عن ابن عمر قال حدثنى هشام بن سليمان المخزومى عن عبد الله بن أبى سليمان مولى بنى مخزوم انه قال طاف آدم عليه السلام سبعا بالبيت ثم صلى تجاه باب الكعبة ركعتين ثم أتى الملتزم فقال اللهم انك تعلم سرى وعلانيتى فاقبل معذرتى وتعلم ما فى نفسى وما عندى فاغفر لى ذنبى وتعلم حاجتى فاعطنى سؤلى اللهم انى أسألك ايمانا يباشر قلبى و يقينا صادقا حتى أعلم انه لا يصيبنى الا ما كتبت لى والرضا بما قضيت على فأوحى الله تعالى اليه يا آدم قد دعوتنى بدعوات فاستجبت لك ولن يدعونى بها أحد من ولدك الا كشفت همومه وغمومه ونزعت الفقر من قلبه وجعلت الغنى بين عينيه واتجرت له من وراء كل تاجر وأتته الدنيا وهى راغمة وان كان لا يريدها قال فمنذ طاف آدم عليه الصلاة والسلام كانت سنة الطواف ﴿الثالث بناء أولاد آدم عليه السلام الكعبة المعظمة﴾ روى الازرقى بسنده الى وهب بن منبه قال لما رفعت الخيمة التى عزى الله بها آدم عليه السلام من حلية الجنة حين وضعت له بمكة فى موضع البيت ومات آدم عليه السلام فبنى بنو آدم من بعده مكانها بيتا بالطين والحجارة فلم يزل معمورا يعمرونه هم ومن بعدهم حتى كان زمن نوح عليه السلام فنسفه الغرق وغير مكانه حتى بوأ لابراهيم انتهى * قال الحافظ أبو القاسم السهيلى فى الفصل الذى عقده لبنيان الكعبة وكان بناؤها الاول حين بنى شيث بن آدم عليه السلام انتهى . ولعل مراد السهيلى بالاولية بالنسبة الى بناء البشر لا الملائكة وان بناء آدم عليه السلام انما هو الأساس الى أن ساوى وجه الارض وأنزل الله عليه من الجنة البيت المعمور فوضعه على ذلك الأساس والمراد بالخيمة المشار اليها فى خبر وهب بن منبه رضى الله عنه هو البيت المعمور ولعلها خيمة غير البيت المرفوع ولعلها رفعت بعد وفاة آدم عليه السلام وأبقى البيت المعمور الى أن رفع زمن الطوفان وفى ذلك ارتكاب المجاز بما يصحح به هذه الروايات المتباينة ظواهرها ﴿الرابع بناء الخليل عليه الصلاة والسلام الكعبة المشرفة﴾ قال السيد الامام التقى الفاسى رحمه الله تعالى أما بناء الخليل عليه السلام فهو ثابت بالكتاب والسنة الشريفة وهو أول من بنى البيت على ما ذكره الفاكهى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه وجزم الشيخ عماد الدين بن كثير فى تفسيره وقال لم يرد عن معصوم ان البيت كان مبنيا قبل الخليل عليه السلام انتهى فهو ينكر ما قدمناه من الآثار فبناء ابراهيم عليه السلام أول بناء بالنسبة الى من بناه بعده لا أول حقيقى والله تعالى أعلم وأحكم * وروى الازرقى رحمه الله فى تاريخه عن ابن اسحق ان الخليل عليه السلام لما بنى البيت جعل طوله فى السماء تسعة أذرع وجعل طوله فى الارض من قبل وجه البيت الشريف من الحجر الأسود الى الركن الشامى اثنين وثلاثين ذراعا وجعل عرضه فى الارض من قبل الميزاب من الركن الشامى الى الركن الغربى الذى يسمى الآن الركن العراقى اثنين وعشرين ذراعا وجعل طوله فى الارض من جانب ظهر البيت الشريف من الركن الغربى المذكور الى الركن اليمانى احدى وثلاثين ذراعا وطول عرضه فى الارض من الركن اليمانى الى الحجر الاسود عشرين ذراعا وجعل الباب لاصقا بالارض غير مرتفع عنها ولا مبوب حتى جعل له تبع الحميرى بابا وغلقا بعد ذلك وحفر ابراهيم عليه السلام فى بطن البيت على يمين من دخله حفرة لتكون خزانة للبيت يوضع فيها ما يهدى الى البيت وكان ابراهيم عليه الصلاة والسلام يبنى واسمعيل عليه السلام ينقل له الاحجار على عاتقه فلما ارتفع البنيان قرب له المقام فكان يقوم عليه ويبنى ويحوله اسمعيل عليه السلام فى نواحى البيت حتى انتهى على موضع الحجر الاسود

فقال

فقال ابراهيم لاسماعيل عليهما الصلاة والسلام يا اسماعيل ائتني بحجر أضعه هنا يكون علما للناس يبتدؤن منه الطواف فذهب اسماعيل في طلبه فجاء جبريل عليه السلام الى سيدنا ابراهيم عليه السلام بالحجر الاسود وكان الله عز وجل استودعه جبل ابي قبيس حين طوفان نوح فوضعه جبريل عليه السلام في مكانه وبنى عليه ابراهيم وهو حينئذ يتلألأ نورا فاضاء بنوره شرقا وغربا وشاما ويمنا الى منتهى انصاب الحرم من كل ناحية وانما سودته انجاس الجاهلية وأرجاسها قال ولم يكن ابراهيم عليه السلام سقف البيت ولا بناه بمدر وانما رضمه رضما قال وذكر بسنده الى عبد الله بن عمر ان جبريل عليه السلام نزل بالحجر على ابراهيم عليه السلام من الجنة وانه وضعه حيث رأيتم وانكم لا تزالون بخير مادام بين ظهرانيكم فتمسكوا به ما استطعتم فانه يوشك أن يجيء جبريل عليه السلام فيرجع به من حيث جاء به انتهى قال السيد الامام تقي الدين الفاسي رحمه الله تعالى روينا عن قتادة قال ذكر لنا ان الخليل عليه السلام بنى البيت من خمسة اجبل من طور سيناء وطور زيتاء ولبنان والجودي وحراء قال وذكر لنا ان قواعده من حراء قال ويروى ان الخليل عليه السلام أسس البيت من ستة اجبل من ابي قبيس ومن الطور ومن القدس ومن ورقان ومن رضوى ومن احد وقال الازرقي رحمه الله قال ابي وحدثني جدي عن سعيد بن سالم عن ابن جريج عن مجاهد انه قال كان موضع الكعبة قد خفي ودرس زمن الطوفان فيما بين نوح وابراهيم عليهما السلام قال وكان موضعه أكمة حمراء لا تعلوها السيول غير ان الناس كانوا يعلمون ان البيت فيما هنالك من غير تعيين محله وكان يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الارض ويدعو عنده المكروب وما دعا عنده احد الا استجيب له وكان الناس يحجون الى موضع البيت حتى بوأ الله مكانه لابراهيم عليه السلام لما اراد عمارة بيته واظهار دينه وشرائعه فلم يزل منذ اهبط الله آدم الى الارض معظما محترما عند الامم والملل * قال الامام ابو اسحق احمد بن محمد بن ابراهيم الثعلبي في كتابه العرائس في قصص الانبياء عليهم السلام لما نجى الله خليله ابراهيم عليه السلام من نار النمرود وآمن به من آمن خرج مهاجرا الى ربه وتزوج ابنة عمه سارة وخرج بها يلتمس الفرار بدينه والامان على نفسه ومن معه فقدم الى مصر وبها فرعون من الفراعنة الاولى وكانت سارة من أحسن النساء وكانت لا تعصي ابراهيم وبذلك اكرمها الله تعالى فأتى ابليس الى فرعون وقال ان ها هنا رجلا معه امرأة من أحسن النساء فأرسل الجبار الى ابراهيم وقال له ماهذه المرأة منك فقال هي اختي وخاف ان قال هي امرأتي ان يقتله فقال له زينها وارسلها الي فرجع ابراهيم الى سارة فقال ان هذا الجبار سألني عنك فاخبرته انك أختي فلا تكذبيني عنده فانك أختي في كتاب الله فانه ليس مسلم في هذه الارض غيري وغيرك ثم أقبلت سارة الى الجبار وقام ابراهيم يصلي وقد رفع الله الحجاب بين ابراهيم وسارة ينظر اليها منذ فارقته الى أن عادت اليه اكراما له وتطييبا لقلب ابراهيم عليه السلام فلما دخلت سارة على الجبار ورآها دهش في حسنها ولم يملك نفسه ان مد يده اليها فيبست يده على صدره فلما رأى ذلك أعظم أمرها وقال لها سلي ربك أن يطلق يدي علي فوالله اني لا أوذيك فقالت سارة اللهم ان كان صادقا فاطلق يده فوهب لها هاجر وهي جارية قبطية جميلة وردها الى ابراهيم فأقبلت اليه فلما احس بها انفتل من صلاته وقال مهيم فقالت كفى الله كيد الفاجر ووهبني هاجر وقد وهبتها لك فلعل الله ان يرزقك منها ولدا وكانت سارة قد منعت الولد حتى ايست فوقع ابراهيم على هاجر فحملت وولدت له اسماعيل وأقام ابراهيم بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وايليا وهو يضيف من يأتيه وقد أوسع الله عليه وبسط له في الرزق والمال والخدم

فلما أراد الله هلاك قوم لوط بعث الله رسله يأمرونه بالخروج من بين ظهرانيهم وأمرهم أن يبشروا
فبشروه باسحق ومن وراء اسحق يعقوب فلما نزلوا عليهم سر بهم وقال لا يخدمهم هؤلاء القوم الا انا
فجاء بعجل سمين مشوي بالحجارة فقربه اليهم فأمسكوا ايديهم فنكرهم وأوجس منهم خيفة حيث لم يأكلوا
من طعامه ثم قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط وامرأته قائمة تخدمهم فبشروه باسحق ومن وراء اسحاق
يعقوب فضحكت * قال ابن عباس ضحكت تعجبا من أن يكون لها ولد على كبر سنها وكانت بلغت
تسعين سنة وبلغ ابراهيم مائة وعشرين وقال مجاهد وعكرمة ضحكت أى حاضت فى الوقت تقول
العرب ضحكت الارنب اذا حاضت * قال السدى فحملت سارة باسحق وكانت قد حملت هاجر باسمعيل
فوضعتا وشب الغلامان فتسابقا فسبق اسمعيل فاخذه ابراهيم وأجلسه فى حجره واخذ اسحق الى جانبه
فغضبت سارة وقالت عمدت الى ابن الامة فأجلسته فى حجرك وعمدت الى ابنى فأجلسته الى جنبك واخذها
ما يأخذ النساء من الغيرة فحلفت لتقطعن منها بضعة ولتغيرن خلقها ثم ثاب اليها عقلها فتحيرت فى يمينها
قال لها ابراهيم اخفضيها واثقبي اذنها ففعلت ذلك فصارت سنة فى النساء والخفاض بالمعجمات للنساء
كالختان للرجال ثم تضارب اسماعيل واسحق كما تتهاوش الاطفال فغضبت سارة على هاجر وحلفت ان
لا تساكنها فى بلد واحد وامرت ابراهيم أن يعزلها عنها فامر الله تعالى ابراهيم ان يأتى بهاجر وابنها الى مكة
فذهب بهما حتى قدم مكة وهى اذ ذاك عضاه وسلم وموضع البيت ربوة حمراء فعمد بهما الى موضع الحجر ليسكون
الجميع فيه وامرها ان تتخذ عريشا ثم انصرف فتبعته هاجر فقالت أالله أمرك بهذا قال نعم قالت اذا
لا يضيعنا فرجعت عنه وكان معها شن ماء فنفد فعطشت وعطش ولدها فنظرت الى الجبل فلم تر داعيا
ولا مجيبا وصعدت على الصفا فلم تر احدا ثم هبطت وفيها من ولدها حتى نزلت فغابت عنه فهرولت حتى
صعدت من الجانب الآخر واسرعت الى ان صعدت المروة فما رأت أحدا فترددت لذلك سبعا وعادت
الى ولدها وقد نزل جبريل عليه السلام فضرب موضع زمزم بجناحه فنبع الماء فبادرت هاجر اليه وحبسته
عن السيلان كى لا يضيع الماء * وفى لفظ النبوة لولا انها عجلت لكانت عينا معينا فشربت وأرضعت
ولدها وقال لها جبريل لا تخافى الضيعة فان ههنا بيت الله عز وجل يبنيه هذا الغلام وابوه وان الله لا يضيع
اهله * قال الامام ابو عبد الله محمد بن احمد بن ابى بكر القرطبى فى تفسيره لا يجوز لاحد ان يتعلق بهذا فى
جواز طرح ولده وعياله بأرض مضيعة اتكالا على العزيز الرحيم واقتداء بفعل ابراهيم الخليل عليه
السلام فانه فعل ذلك بامر الله تعالى * وقد روى ان سارة لما غارت من هاجر لما ولدت اسماعيل خرج بها
ابراهيم عليه السلام الى مكة وأنزل ابنه وامه هنالك وركب منصرفا من يومه وكان ذلك كله بوحى من الله
تعالى * وأما زمزم من الشرف والخواص والمزايا ما لا يوجد لغيره * فى المستدرك من حديث ابن عباس
رضى الله عنهما مرفوعا ماء زمزم لما شرب له ورجاله موثقون الا انه اختلف فى ارساله ووصله وارساله
أصح كذا فى فتح البارى بشرح البخارى * وروى الدارقطنى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم ماء زمزم لما شرب له وان شربته لتشبع أشبعك الله به وان شربته لقطع ظمئك قطعه وهى
ضربة جبريل وسقيا الله اسماعيل * وعن عكرمة قال كان ابن عباس اذا شرب من زمزم قال اللهم انى
اسألك علما نافعا ورزقا واسعا وشفاء من كل داء * وفى صحيح البخارى قال ابو ذر رضى الله عنه ما كان
لى طعام الا ماء زمزم اجتزى به ثلاثين ما بين يوم وليلة فسمنت حتى تكسرت عكن بطنى وما اجد على
كبدى سخفة جوع * وفى صحيح مسلم من حديث ابى ذر انه طعام طعم زاد الطيالسى من الوجه الذى

اخرجه مسلم وشفاء سقم * قال القاضي ابو بكر بن العربي رحمه الله وهذا موجود فيه الى يوم القيامة لمن صحت نيته وسلمت طويته ولم يكن مكذبا ولا اشربه مجربا (قلت) ومن عجيب ما اطلعت عليه من كتاب وفاء الوفا في اخبار دار المصطفى للسيد نور الدين السمهودي الشافعي عالم المدينة في عصره ومؤرخها ومحدثها وقد اخذ ناس من اخذ عنه فروى عنه بواسطة قال ان بالمدينة بئر زمزم ولم تزل اهل المدينة قديما وحديثا يتبركون بها ويشربون من مائها وينقلون منه الى الآفاق كما ينقل ماء زمزم لبركتها انتهى * رجعنا الى القصة قال ومرت رفقة من جرهم يريدون الشام فرأوا طيرا يحوم على جبل ابي قبيس فقالوا ان هذا الطير يحوم على ماء فتبعوه فأشرفوا على بئر زمزم فقالوا لهاجر ان شئت نزلنا معك وآنسناك والماء ماؤك نشرب منه فاذنت لهم فنزلوا معها وهم اول سكان مكة وتوفيت هاجر وقبرها في الحجر بسكون الجيم وشب اسماعيل فتزوج اسماعيل من جرهم وتكلم بلسانهم فتعرب فيقال لبني اسماعيل العرب العاربة والعرب العرباء وكان لسان ابراهيم عبرانيا ولسان اسماعيل * ثم ان ابراهيم عليه السلام استأذن سارة ان يزور هاجر وابنها فاذنت له واشترطت ان لا ينزل عندها فقدم ابراهيم مكة وقد ماتت هاجر فاتى الى بيت اسماعيل فوجد امرأته فسألها اين صاحبك فقالت ذهب يتصيد وكان اسماعيل عليه السلام يخرج من الحرم الى الحل يتصيد ما يتعيش به فقال لها عندك ضيافة من طعام أو شراب قالت ليس عندي شيء فقال لها اذا جاء زوجك فاقرئيه مني السلام وقولي له غير عتبة بابك فذهب ابراهيم عليه السلام فلما جاء اسماعيل قالت جاءني شيخ صفته كذا وكذا أقرأك السلام وقال غير عتبة بابك فقال الحقي باهلك وتزوج غيرها فمكث ابراهيم مدة ثم استأذن سارة ان يزور اسماعيل فاذنت له واشترطت عليه ان لا ينزل فجاء ابراهيم الى مكة وقدم على منزل اسماعيل فوجده غائبا الى الصيد فقال لامرأته اين صاحبك قالت ذهب يتصيد ورحبت به وقالت اجلس يرحمك الله وجاءت بلحم ولبن فاكل وشرب فقالت له يا عم هلم حتى اغسل راسك وازيل شعثك وجاءته بحجر وهو حجر المقام الذي بنى عليه الكعبة فجلس عليه ففاضت رجلاه في الحجر فغسلت شقه الايمن ثم الايسر ثم افاضت الماء على رأسه وبدنه الى ان فرغت من تنظيفه فقام من عندها وتوجه من حيث جاء وقال لها اذا جاء صاحبك فاقرئي عليه السلام وقولي له قد استقام عتبة بابك فالزمها * فلما جاء اسماعيل وجد رائحة ابيه فقال هل جاءك احد قالت جاءني شيخ من احسن الناس وجها واطيبهم ريحا فاضفته وسقيته وغسلته وهذا موضع قدميه وحين توجه أقرأك السلام وقال لك كذا وكذا فقال نعم امرني ان اثبت معك وقبل موضع قدم ابيه من الحجر وحفظه يتبرك به الى ان بنى عليه فيما بعد ابراهيم عليه الصلاة والسلام الكعبة لما بناها هكذا في قصص الانبياء * وروى فيها ايضا عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما انه قال اشهد ثلاث مرات اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس نورهما ولولا أن طمس نورهما الأضاآ ما بين المشرق والمغرب ثم لما امر الله تعالى خليله ابراهيم عليه السلام ببناء بيته الشريف قدم الى مكة وبناها كما قدمناه فلما فرغ من بناء بيت الله الحرام امره ان يؤذن الناس بالحج فقال يا رب وما يبلغ مدا صوتي فقال عليك الآذان وعلينا البلاغ فطلع على جبل ثبير ونادى يا عباد الله ان ربكم قد بنى بيتا وامركم أن تحجوه فحجوه واجيبوا داعي الله فاسمع الله صوته جميع من في الدنيا ومن سيولد ممن هو في أصلاب الرجال الآباء وارحام الامهات

﴿وأما أمر الله تعالى ابراهيم بذبح ولده اسماعيل عليهما السلام﴾ فقد اختلف العلماء في ان المأمور

يذبحه اسماعيل أو اسحاق فقال قوم هو اسحق وذهب اليه عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما وذهب عبد الله بن عمر وابن المسيب والشعبى ومجاهد والحسن البصرى رضى الله عنهم انه اسماعيل قال الامام أبو زكريا النووى رحمه الله تعالى فى كتابه تهذيب الأسماء واللغات اختلف العلماء رحمهم الله تعالى فى الذبيح هل هو اسماعيل أو اسحق عليهما السلام والأكثرون على انه اسماعيل عليه السلام انتهى وممن رجح كون الذبيح اسماعيل عليه الصلاة والسلام الحافظ عماد الدين بن كثير رحمه الله تعالى قال فى ترجمته وهو الصحيح وروى عن كعب الاحبار عن رجال قالوا لما أرى ابراهيم فى المنام انه يذبح ابنه وتحقق انه أمر ربه قال لابنه يا بنى خذ الحبل والمدية وانطلق بنا الى هذا الشعب لنحتطب لاهلنا فاخذ المدية والحبل وتبع والده فقال الشيطان لئن لم أفتن عند هذا آل ابراهيم لا أفتن احدا منهم أبدا فتمثل الشيطان رجلا فاتى أم الغلام فقال لها أتدرى أين ذهب ابراهيم بابنك قالت ذهب به ليحتطب لنا من هذا الشعب فقال الشيطان لا والله ما ذهب به الا ليذبحه قالت كلا هو أشفق به وأشد حبا له فقال لها انه يزعم ان الله أمره بذلك قالت ان كان الله تعالى قد أمره بذلك فليطع أمره فخرج الشيطان من عندها حتى ادرك الابن وهو يمشى على أثر أبيه فقال يا غلام هل تدرى أين يذهب بك أبوك قال نحتطب لاهلنا من هذا الشعب فقال لا والله ما يريد الا ذبحك فقال لأى شئ فقال يزعم ان الله أمره بذلك قال فليفعل ما أمره الله تعالى به وسمعا وطاعة لامر الله تعالى فأقبل الشيطان الى ابراهيم عليه السلام فقال أين تريد أيها الشيخ قال أريد هذا الشعب لحاجة لى فيه فقال انى أرى أن الشيطان خدعك بهذا المنام الذى رأيت انك تريد ذبح ابنك وفلذة كبدك فتندم بعد ذلك حيث لا ينفعك الندم فعرفه ابراهيم عليه السلام فقال عنى يا ملعون فوالله لأمضين لامر ربى فنكص ابليس على عقبيه ورجع بخزيه وغيظه فلما خلا ابراهيم فى الشعب ويقال ذلك فى ثبير قال يا بنى انى أرى فى المنام أنى أذبحك قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين فقال لحدثت ان اسماعيل قال له عند ذلك يا أبتاه اذا أردت ذبحى فاشدد رباطى لا يصيبك من دمى فينقص اجرى وان الموت شديد ولا آمن أن أضطرب عنده اذا وجدت مسه واشحذ شفرتك حتى تجهز على فتذبحنى فاذا أنت أضجعتنى لتذبحنى فاكبنى على وجهى ولا تضجعنى لشقى فانى أخشى ان انت نظرت الى وجهى ان تدركك الرقة فتحول بينك وبين أمر ربك فى وان رأيت ان ترد قميصى الى أمى فانى أرجو ان يكون أسلى لها فافعل فقال ابراهيم نعم العون انت يا بنى على أمر الله ويقال انه ربطه كما أمره بالحبل فأوثقه ثم شحذ شفرته ثم تله للجبين واتقى النظر الى وجهه ثم أدخل الشفرة حلقه فقلبها جبريل عليه السلام لقفاها فى يده ثم اجتذبها اليه ونودى ان يا ابراهيم قد صدقت الرؤيا فهذه ذبيحة فداء لابنك فاذبحها دونه واتاه بكبش من الجنة قال ابن اسحق حدثنى الحكم بن عيينة عن مجاهد عن مقسم عن ابن عباس رضى الله عنهما انه قال أخرج الله هذا الكبش من الجنة قيل رعى قبل ذلك أربعين عاما قال الفاكهى ذكر أهل الكتاب وكثير من العلماء ان الكبش الذى فدى به اسماعيل كبش أملح اقرن أعين ثم روى بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهم انه هو القربان المتقبل من أحد ابنى آدم * فانظر رحمك الله الى طاعة هذا الوالد أمر الله تعالى من ذبح ابنه قرة عينه وقطعة كبده والى طاعة هذا الولد أمر الله تعالى وأمر والده وانقياده الى ذلك راضيا مستسلما باذلا زوجه لله تعالى وانظر الى هذه الوالدة الشفيقة الرحيمة واطاعتها الامر الله تعالى واطاعة زوجها * اللهم صل وسلم عليهما أفضل صلاتك وسلامك وعلى سائر الانبياء والمرسلين ومن

تبعهم

تبعهم باحسان الى يوم الدين وانفعنا ببركاتهم أجمعين وارزقنا التوفيق وحسن اليقين آمين * قال الازرقي ثم ولد لاسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام من زوجته السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمي اثنا عشر رجلا منهم ثابت بن اسماعيل وقيدار بن اسماعيل وقطورا بن اسماعيل وكان عمر اسماعيل مائة وثلاثين عاما ومات ودفن في الحجر مع أمه فولي البيت بعده ثابت بن اسماعيل ونشر الله العرب من ثابت وقيدار فكثروا وربوا ثم توفي ثابت فولي البيت بعده جده لامه مضاض بن عمرو الجرهمي وضم بني ثابت بن اسماعيل وصار ملكا عليهم وعلى جرهم ونزلوا بقيقعان بأعالي مكة وكانوا أصحاب سلاح كثير وتقعقع فيهم وصارت وكانوا انازلين باسفل ونزلوا باجياد وكانوا أصحاب خيل وغيره وكان الامر بمكة لمضاض بن عمرو ودون السميدع الى ان حدث بينهما الشر واقتتلوا فقتل السميدع وتم الامر لمضاض بن عمرو وفي ذلك يقول

ونحن قتلنا سيد الحي عنوة * فاصبح فيها وهو حيران موجع

وما كان يبغي ان يكون خلافنا * بها ملك حتى أتانا السميدع

فذاق وبالا حين حاول ملكنا * وعالج منا غصة تتجرع

فنحن عمرنا البيت كنا ولاته * ندافع عنه من أتانا وندفع

وما كان يبغي ان يلي ذاك غيرنا * ولم يك حي قبلنا ثم يمنع

وكنا ملوكا في الدهور التي مضت * وكنا ملوكا كالاكرام فتوضع

ثم نشر الله بني اسماعيل وخؤولتهم جرهم وكانت جرهم ولاة البيت لا ينازعهم بنو اسماعيل لخؤولتهم وقرابتهم فلما ضاقت عليهم مكة انتشروا في الارض فلا يأتون قوما ولا ينزلون بلدا الا أظهرهم الله عليهم بدينهم وهو يومئذ دين ابراهيم حتى ملكوا البلاد ونفوا عنهم العماليق وكانوا ولاة مكة وكانوا اضيعوا حرمة الحرم واستحلوها واستخفوا بها فأخرجهم الله من أرض الحرم قال ثم ان جرهما استخفت بامر البيت الحرام وارتكبوا الامور العظام واحدثوا فيها ما لم يكن قبل ذلك فقام فيهم مضاض بن عمرو بن الحارث ابن عمرو خطيبا فقال يا قوم احذروا البغي فقد رأيتم من كان قبلكم من العماليق كيف استخفوا بالبيت فلم يعظموه فسلطكم الله عليهم وأخرجتموهم فتفرقوا في البلاد ومزقوا كل ممزق فلا تستخفوا بحق بيت الله تعالى فيخرجكم منه فلم يطيعوه وولاهم الشيطان بالغرور وقالوا من يخرجنا ونحن أعز العرب وأكثرها رجالا وسلاحا فقال لهم اذا جاء أمر الله بطل ما تقولونه فلما رأى مضاض بن عمرو ذلك عمد الى غزالتين من ذهب كانتا في الكعبة وما وجد فيها من الامور التي كانت تهدى الى الكعبة ودفنها في بئر زمزم وقد نضب ماؤها فحفرها بالليل وأعمق الحفر ودفن فيها تلك الغزالتين والاموال وطم البئر واعتزل جرهما وأخذ معه بني اسماعيل وخرج من مكة فجاءت خزاعة فاخرجت جرهما من البلاد ووليت أمر مكة وصاروا أهلها فجاءهم بنو اسماعيل وكانوا قد اعتزلوا حرب جرهم وخزاعة فسألوا خزاعة السكن معهم فاذنوا لهم وسألهم في ذلك مضاض بن عمرو الجرهمي وكان قد اعتزل أيضا حرب جرهم وخزاعة ولم يدخل بينهما واستأذنهم ان يساكنهم فابت خزاعة وقالت من قارب الحرم من جرهم فدمه هدر فنزعت ابل لمضاض بن عمرو فدخلت مكة فاخذتها خزاعة وصارت تنحرها وتأكلها فاتبع مضاض أثرها فوجدها في بطن وادي مكة فابصر الابل تنحر وتؤكل ولا سبيل اليها ورأى أنه ان هبط الوادي قتل فولى منصرفا الى أهله وانشأ يقول

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا * أنيس ولم يسمر بمكة سامر
ولم يتربع واسطا فجنوبه * الى المنحنى من ذى الأراكة حاضر
بلى نحن كنا أهلها فأبادنا * صروف الليالى والجدود العواثر
وأبدلنا منها الاله ذار غربة * بها الذيب يعوى والعدو محاصر
وكنا ولاة البيت من بعد نابت * نطوف بهذا البيت والخير ظاهر
وكنا لاسمعيل صهرا وجيرة * فأبناؤه منا ونحن الأصاهر
فأخرجنا منها المليك بقدرة * كذلك يا للناس تجرى المقادر
وصرنا أحاديثا وكنا بغبطة * كذلك عضتنا السنون الغوابر
وسحت دموع العين تبكى لبلدة * بها حرم أمن وفيها المشاعر
بواد أنيس لا يطار حمامه * ولا ينفرن يوما لديها العصافر
وفيها وحوش لا تراب أنيسه * اذا خرجت منها فما ان تغادر
فياليت شعرى هل يعمر بعدنا * جياد ومفضى سيله والظواهر
وهل فرج يأتى بشئ نريده * وهل جزع ينجيك مما تحاذر

وانطلق مضاض بن عمرو ومن معه الى اليمن وهم يحزنون على مفارقة مكة وحازت خزاعة حجابة بيت الله الحرام وولاية أمر مكة وفيهم بنو اسمعيل لا ينازعونهم فى شئ ولا يطلبونه الى ان كبر شأن قصى بن كلاب بن مرة فاستولى على حجابة البيت وأمر مكة وكان قصى أول رجل من بنى كنانة أصاب بمكة فكانت اليه الحجابة والرفادة والسقاية والقيادة وهو الذى جمع أمر قريش فسمى مجمعا بكسر الميم المشددة وفى ذلك يقول القائل

أبوهم قصى كان يدعى مجمعا * به جمع الله القبائل من فهر
هم ملكوا البطحاء مجدا وسوددا * وهم طردوا عنها غواة بنى عمرو

وقيل سميت قريش قريشا لتجمعهم على قصى والتقرش هو الاجتماع وما كان يسمى قريش قبل ذلك قريشا وقيل ان النضر بن كنانة كان يسمى قريشا واستمر بنو قصى كذلك الى ظهور النبى صلى الله عليه وسلم وقد أطلنا الكلام فى هذا المقال وهو مع ذلك قطرة من بحر فانتخبنا منه هذا المقدار لاشتماله على فنون من الاعتبار ﴿الخامس والسادس بناء العمالقة للكعبة المعظمة﴾ ذكر الازرقى ذلك وذكر بسنده الى سيدنا أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه انه قال فى خبر بناء ابراهيم عليه السلام للكعبة ثم انهدم فبنته العمالقة ثم انهدم فبنته قبيلة من جرهم وذكر الفاكهى بسنده الى سيدنا على ابن أبى طالب أيضا رضى الله عنه انه قال أول من بنى البيت ابراهيم عليه السلام ثم انهدم فبنته جرهم ثم انهدم فبنته العمالقة قال السيد التقى قلت هذا يقتضى ان جرهما بنت البيت الشريف قبل العمالقة والخبر الاول يقتضى ان العمالقة بنته قبل جرهم وبه جزم المحب الطبرى فى القرى وذكر المسعودى فى مروج الذهب ان الذى بنى الكعبة من جرهم هو الحارث بن مضاض الاصغر وانه زاد فى بناء البيت ورفعه كما كان عليه بناء ابراهيم عليه السلام والله أعلم بحقيقة ذلك وذكر الازرقى شيأ من خبر العمالقة يقتضى سبقهم على جرهم فانه روى بسنده الى سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما انه قال كان بمكة حى يقال لهم العماليق كانوا فى عز وثروة وكانت له خيل وابل وماشية ترعى حول مكة وما حولها

وكانت

وكانت الغضاء ملتفة مبقلة وكانوا فى عيش رخى فبغوا فى الارض واسرفوا على أنفسهم واظهروا المظالم والالحاد ولم يشكروا الله فسلبوا نعمتهم وكانوا يكرون بمكة الظل ويبيعون الماء فاخرجهم الله بأن سلط عليهم النمل حتى خرجوا من الحرم حتى ألحقهم بمسقط رؤس آبائهم ببلاد اليمن فتفرقوا وهلكوا وابدل الله بعدهم الحرم بجرهم فكانوا سكانه الى ان بغوا فيه أيضا فاهلكهم جميعا ﴿ السابع بناء قصى للكعبة المعظمة ﴾ ذكر الزبير بن بكار قاضى مكة فى كتاب النسب ان قصى بن كلاب لما ولى أمر البيت جمع نفقته ثم هدم الكعبة فبناها بنيانا لم يبنه أحد ممن بناها قبله مثله وذكر أبو عبد الله محمد بن عائذ الدمشقى فى مغازيه ان قصى بن كلاب بنى البيت الشريف وجزم به الامام الماوردى فى الاحكام السلطانية فانه قال فيها أول من جدد بناء الكعبة من قريش بعد ابراهيم قصى بن كلاب وسقفها بخشب الدوم وجريد النخل انتهى قال السيد التقى الفاسى فى شفاء الغرام وما رواه القاضى الزبير بن بكار ان قصيا بنى الكعبة على خمسة وعشرين ذراعا ففيه نظر لما اشتهر فى الاحكام ان ابراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام بنى طول الكعبة تسعة اذرع وان قصيا أراد أن يجعل عرضها خمسة وعشرين ذراعا فالمعروف انه من الجهة الشرقية والغربية لا ينقص عن ثلاثين ذراعا فى بناء الخليل بل يزيد على ثلاثين ألفا مقدار ازيادة وان أراد عرضها من الجهة الشامية واليمانية فعرضها فى هاتين الجهتين ينقص عن خمسة وعشرين ذراعا ثلاثة أذرع أو أزيد وكل من بنى الكعبة بعد ابراهيم عليه السلام لم يبنها الا على قواعد ابراهيم غير ان قريشا اقتصرت من عرضها فى جهة الحجر الشريف لامر اقتضاه الحال وصنع ذلك الحجاج بعد عبد الله بن الزبير وعناداله والله تعالى أعلم * وكان مبدأ أمر قصى ان أباه كلاب بن مرة تزوج فاطمة بنت سعد بن سيل فولدت له زهرة وقصى فهلك كلاب وقصى صغير وهو بضم القاف وكسر الصاد بمعنى بعيد واسمه زيد وانما لقب قصيا لانه أبعد عن أهله ووطنه مع أمه لما توفى أبوه فانها تزوجت ربيعة بن حزام فرحل بها الى الشام فولدت له زراحا فلما كبر قصى وقع بينه وبين آل ربيعة شر فعيروه بالغربة وقالوا الا تلحق بقومك وكان لا يعرف له أبا غير ربيعة بن حزام زوج أمه فشكى اليها ما عيروه به فقالت له ياولدى أنت أكرم أبا منهم أنت ابن كلاب بن مرة وقومك بمكة عند البيت الحرام فقدم لمكة فعرف له قومه فضله فقدموه وأكرموه وكانت خزاعة مستولية على البيت وعلى مكة وكان كبيرهم خليل بن حبشية الخزاعى بيده مفتاح البيت الشريف وسدانته فخطب الى خليل ابنته فعرف خليل نسبه فزوجه ابنته حبى فتزوجها قصى وكثرت أولاده وامواله وعظم شأنه وهلك خليل وأوصى بمفتاح البيت الشريف لابنته حبى فقالت لا أقدر على السدانة فجعلت ذلك لابى غبشان وكان سكيرا يحب الخمر فأعوزه فى بعض الاوقات ما يشرب به من الخمر فباع مفتاح البيت بزق خمر فاشتراه منه قصى وسار فى الامثال أخسر صفقة من أبى غبشان فلما صار المفتاح الى قصى تناكرته خزاعة وكثر كلامها عليه فأجمع على حربهم فحاربهم وأخرجهم من مكة وولى قصى أمر الكعبة ومكة وجمع قومه فملكوه على أنفسهم وكانوا يحترمون أن يسكنوا مكة ويعظمونها على أن يبنوا بها بيتا مع بيت الله فكانوا يكمنون بمكة نهارا فاذا امسوا خرجوا الى الحل ولا يستحلون الجنابة بمكة فلما جمع قصى قومه اليه أذن لهم أن يبنوا بمكة بيوتا وان يسكنوها وقال لهم انكم ان سكنتم الحرم حول البيت هابتكم العرب ولم تستحل قتالكم ولا يستطيع أحد اخراجكم فقالوا له أنت سيدنا ورأينا تبع لرأيك فجمعهم حول البيت وفى ذلك يقول القائل

أبوكم قصي كان يدعى مجمعا * به جمع الله القبائل من فهر
وأنتم بنو زيد وزيد أبوكم * به زيدت البطحا فخرا على فخر

وابتدأ هو فبنى دار الندوة وهى فى اللغة الاجتماع وكانوا يجتمعون فيها للمشورة وغيرها من المهمات فلا تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش الا فيها * قال الازرقى ولم يدخل من قريش ولا غيرهم الا ابن أربعين سنة وكان ولد قصى كلهم أجمعون يدخلونها وقسم جهات البيت الشريف بين طوائف قريش فبنوا دورهم حول الكعبة الشريفة من جهاتها الاربع وتركوا الطواف لبيت الله تعالى مقدارا يقال انه المفروش الآن حول البيت الشريف بالحجر المنحوت المسمى بالمطاف الشريف وشرعوا أبواب بيوتهم الى نحو البيت وتركوا ما بين كل بيتين طريقا ينفذ منه الى المطاف الى أن زاد عمر رضى الله عنه فى المسجد الحرام وتبعه عثمان رضى الله عنه وتبعهما غيرهما على ما سيأتى تفصيله ان شاء الله تعالى وكان قصى أول ملك من بنى كعب أصاب ملكا أطاعه به قومه وله كلمات حكم تؤثر عنه منها من أكرم لئيما شركه فى لؤمه ومن استحسن قبيحا نزل الى قبحه ومن لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان * وكان اجتمع لقصى مالم يجتمع لغيره من المناصب فكان بيده الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة فالحجابة وهى سدانة البيت الشريف أى توليته مفتاح بيت الله والسقاية اسقاء الحجيج كلهم الماء العذب وكان عزيزا بمكة يجلب اليها من الخارج فيستقى الحجاج منه وينبذ لهم التمر والزبيب فيسقونه الحجاج وكانت وظيفة فيهم والرفادة اطعام الطعام لسائر الحجاج عندهم الاعطة فى أيام الحج وكانت السقاية والرفادة مستمرة أيام الخلفاء ومن بعدهم من الملوك والسلاطين قال السيد التقى رحمه الله ان الرفادة كانت أيام الجاهلية وصدر الاسلام واستمر الى أيامنا وقال وهو الطعام يصنع بأمر السلطان كل عام حتى ينقضى الحج * قلت وأما فى زماننا فلا يفعل شئ من ذلك ولا أدرى متى انقطع وأما الندوة فقد تقدم بيانها وأما اللواء فراية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر اذا توجهوا الى محاربة عدو فيجتمعون تحتها ويقاتلون عندها والقيادة أمارة الجيش اذا خرجوا الى حرب وهذه كلها اجتمعت فى قصى فلما كبر سنه وضعف بدنه قسمها بين أولاده وكان عبد الدار أكبر أولاده وكان عبد مناف أشرف زمان أبيه فقال قصى لعبد الدار لألحقنك يا بنى بالقوم وان شرفوا عليك فأعطاه الحجابة وسلم اليه مفتاح البيت وقال لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له وأعطاه السقاية واللواء وقال لا يشرب أحد الا من سقايتك ولا يعقد لواء لقريش لحربهم الا أنت بيدك وجعل له الرفادة وقال لا يأكل من هذا الموسم طعاما الا من طعامك وكانت الرفادة خرجا تخرجه قريش من أموالها فى كل موسم فتدفعه الى قصى فيصنع به طعاما للحاج فيأكله من لم يكن له سعة ولا زاد وكان قصى فرض ذلك على قريش حين جمعهم وقال لهم يا معشر قريش انكم جيران الله وأهل بيته وأهل حرمه وان الحاج ضيف الله وزوار بيته وهم أحق الاضياف بالكرامة فاجعلوا لهم طعاما وشرابا أيام الحج حتى يصدر عنكم فجعل قصى كلما كان بيده من أمر قومه الى عبد الدار وكان قصى لا يخالف ولا يرد عليه شئ صنعه لعظم شأنه ونفاذ سلطانه قال ابن اسحق ثم ان قصيا هلك فقام على امره بنوه من بعده ثم ان بنى عبد مناف هاشما وعبد شمس والمطلب ونوفلا اجمعوا على ان يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار من الحجابة واللواء والسقاية والرفادة ورأوا انهم أولى بذلك منهم لشرفهم عليهم وفضلهم وتفرقت قريش فكانت طائفة منهم يرون ان بنى عبد مناف أحق من

بني عبد الدار وطانفقيرون ابقاء بني عبد الدار على ما جعله قصي لابيهم فأجمعوا على الحرب ثم اصطلحوا على ان تكون السقاية والرفادة لبني عبد مناف والحجابة واللواء والندوة لبني عبد الدار وتحالفوا على ذلك فولي الرفادة والسقاية هاشم وكان عبد شمس سفارا مقلا ذا ولد وكان هاشم موسرا وهو اول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء والصيف وهو أول من أطعم الثريد بمكة واسمه عمرو واغا سمي هاشما لهشمه الخبز وثرده لقومه كما قال القائل

عمرو الذى هشم الثريد لقومه * ورجال مكة مسنتون عجاف
سنت اليه الرحلتان كلاهما * سفر الشتاء ورحلة الاصياف

ثم هلك هاشم بغزة من أرض الشام تاجرا فولي الرفادة والسقاية أخوه المطلب بن عبد مناف وكان ذا شرف وكرم وكان يسمى الفيض لسماحته وكرمه وفضله وكان أصغر من عبد شمس فتوفي المطلب بردمان من ارض اليمن وتوفي عبد شمس بمكة وتوفي نوفل بالعراق ثم ولي عبد المطلب بن هاشم السقاية والرفادة بعد عمه المطلب فأقام لقومه ما كانت تقيمه آباؤه من قبله وشرف في قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه وأحبه قومه وعظم خطره فيهم * وكان أكبر أولاده الحارث لم يكن له أول امره غيره وبه كان يكنى فقال عدي بن نوفل بن عبد مناف يا عبد المطلب أتستطيل علينا وأنت فذ لا ولد لك فقال عبد المطلب أو بالقلة تعيرني فوالله لئن أتاني الله عشرة من الولد لانحرن احدهم عند الكعبة فلما كمل له عشرة جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم الى الوفاء بذلك فأطاعوه وقالوا له أوف بنذرك وافعل ما شئت قال ليأخذ كل واحد منكم قدحا فيكتب فيه اسمه ثم ائتوني ففعلوا ودخل بهم على هبل وهو صنم كان يعبد في جوف الكعبة فقال عبد المطلب لصاحب القداح اضرب على هؤلاء بقداحهم وأعطاه كل واحد قدحه وكان عبد الله بن عبد المطلب أصغرهم سنا واحبهم الى والده ثم ضرب صاحب القداح فخرج السهم على عبد الله فأخذ عبد المطلب بيده واخذ الشفرة ثم أقبل به على اساف وهو صنم كان على الصفا ليذبحه عنده فجذب العباس عبد الله من تحت رجل ابيه حتى اثر في وجهه شجة لم تزل في وجه عبد الله الى ان مات فقامت قريش من أنديتها وقالوا لئن فعلت هذا لايزال الرجل يأتي بابنه فيذبحه فما بقي الناس على هذا ولكن اعذر فيه فنفديه بأموالنا وكان بالحجاز عرافة كاهنة لها تابع من الجن فانطلقوا حتى قدموا عليها وقص عليها عبد المطلب خبر نذره فقالت لهم ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله فرجعوا من عندها ثم غدوا عليها فقالت كم الدية فيكم فقالوا عشرة من الابل فقالت قربوا عن ولدكم عشرة من الابل ثم اضربوا عليها وعلى ولدكم واستمروا كذلك الى ان يخرج السهم على الابل فانحروها عنه فقد رضي ربكم ونجا ولدكم فخرجوا حتى قدموا مكة فقربوا عشرة من الابل وضربوا بالقداح فخرج القدح على عبد الله فزدوا عشرة فخرج على عبد الله واستمروا يزيدون عشرة فعشرة حتى بلغت الابل مائة فخرج القدح على الابل فأعادوه ثانية ثم ثالثة فخرج القدح على الابل فأتى بها فنحرت ثم تركت لا يمنع عن لحومها آدمي ولا وحش ولا طير قال الزهري وكان عبد المطلب اول من سن دية النفس مائة من الابل فجرت في قريش ثم في العرب واقرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿الثامن بناء قريش الكعبة المشرفة﴾ قال خاتمة الحفاظ والمحدثين مولانا الشيخ محمد الصالحي قدس الله تعالى روحه في كتاب سبيل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد وهو احسن كتاب للمتأخرين وابسطه في السيرة النبوية ولنا منه اجازة عامة رحمه الله تعالى ان امرأة جمرت

الكعبة بالبخور فطارت شرارة من مجمرتها في ثياب الكعبة فاحترقا كثرا خشابها وجاء سيل عظيم فصدع جدرانها بعد توهينها فأرادوا أن يشدوا بنيانها ويرفعوا بابها حتى لا يدخل الا من شاؤا وكان البحر قد رمى بسفينة الى ساحل جدة لتاجر رومي اسمه باقوم وجدة وقاف مفتوحة وكان نجارا بنيا فخرج الوليد بن المغيرة في نفر من قريش الى جدة فابتاعوا خشب السفينة وكلموا باقوم الرومي أن يقدم معهم الى مكة فقدم اليها واخذوا أخشاب السفينة اعدوها لسقف الكعبة * قال الاموي كانت هذه السفينة لقيصر ملك الروم ويحمل فيها الرخام والخشب والحديد الى الكنيسة مع باقوم الى الكنيسة التي أحرقها الفرس بالحبشة فلما بلغت قريب مرسى جدة بعث عليها ريحا فحطمتها انتهى قلت لا يعرف طريق بين بحر الروم والحبشة يرقيها على جدة الا أن يكون ملك الروم طلب ذلك من ملك مصر فجهزها له من بندر السويس أو الطور أو نحو ذلك * قال ابن اسحق وكان بمكة قبطي يعرف بنجر الخشب وتسويته فوافقهم أن يعمل لهم سقف الكعبة ويساعده باقوم * قال وكانت حية عظيمة تخرج من بئر الكعبة التي يطرح فيها ما يهدى الى الكعبة تشرف على جدار الكعبة لا يدنو منها أحد الا نشت وفتحت فاها وكانوا يهابونها ويزعمون انها تحفظ الكعبة وهدايا ها وان رأسها كرأس الجدي وظهرها وبطنها أسود وانها أقامت فيها خمسمائة سنة قال ابن عتيبة فبعث الله تعالى طائرا فاختطفها وذهب بها فقالت قريش نرجو أن يكون الله تعالى رضي لنا ما أردنا فعله فأجمع رأيهم على هدمها وبنائها قال ابن هشام فتقدم عائذ بن عمران بن مخزوم وهو خال النبي صلى الله عليه وسلم فتناول حجرا من الكعبة فوثب من يده حتى رجع الى مكانه فقال يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من مالكم الا حلالا لا يدخل فيه مهر بغي ولا ربا ولا مظلمة * ثم ان قريشا اقتسمت جوانب البيت فكان شق الباب لبني زهرة وبني عبد مناف وما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم ومن انضم اليهم من قريش وكان ظهر الكعبة لبني جمح وبني سهم وكان شق الحجر لبني عبد الدار وبني أسد بن عبد العزى وبني عدي بن كعب وجمعوا الحجارة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم حتى اذا انتهى الهدم الى الأساس فأفضوا الى حجارة خضر كالأسنمة فضربوا عليها بالمعول فخرج برق يكاد أن يخطف البصر فانتهوا عند ذلك الأساس ثم بنوا حتى بلغ البنيان موضع الركن الحجر فاختصم فيه القبائل وكل قبيلة تريد أن ترفعه الى موضعه وكادوا أن يقتتلوا على ذلك فقال لهم أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وكان شريفا مطاعا اجعلوا الحكم بينكم فيما اختلفتم فيه أول من يدخل من باب الصفا فقبلوا منه ذلك فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوه قالوا هذا محمد الأمين وكان يسمى قبل أن يوحى اليه أمينا لأمانته وصدقه فقالوا جميعا رضينا بحكمه ثم قصوا عليه قصتهم فقال صلى الله عليه وسلم هلم الي ثوبا فأتي به فأخذ الركن فوضعه بيده فيه ثم قال ليأخذ كل قبيلة بطرف من هذا الثوب فحملوه جميعا وأتوا به ورفعوه الى ما يحاذي موضعه فتناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم من الثوب ووضعه بيده الشريفة في محله وفي ذلك يقول هبيرة بن أبي وهب المخزومي

تشاجرت الأحياء في فصل خطة * جرت طيرهم بالنحس من بعد أسعد
تلاقوا بها بالبغض بعد مودة * وأوقد نار بينهم شر موقد
فلما رأينا الأمر قد جد جده * ولم يبق شيء غير سل المهند
رضينا وقلنا العدل أول طالع * يجيء من البطحاء من غير موعد

ففاجأنا هـذا الأمين محمد * فقلنا رضينا بالأمين محمد
بخير قريش كلها أمس شيمة * وفى اليوم مع مايحدث الله فى غد
فجاء بأمر لم ير الناس مثله * أعم وأرضى فى العواقب والبد
أخذنا بأطراف الرداء وكلنا * له حصة من رفعها قبضة اليد
فقال ارفعوا حتى اذا ما علت به * أكفهم وافا به خير مسند
وكل رضينا فعله وصنيعه * فأعظم به من رأى هاد ومهتد
وتلك يد منه علينا عظيمة * يروح بها هذا الزمان ويغتدى

(ولما بنت قريش الكعبة) جعلت ارتفاعها من خارجها ثمانية عشر ذراعا منها تسعة أذرع زائدة على ماعمره الخليل عليه السلام ونقصوا من عرضها أذرعا من جهة الحجر لقصر النفقة الحلال التى أعدوها لعمارة الكعبة ورفعوا بابها عن الارض ليدخلوا من شاؤا ويمنعوا من شاؤا وجعلوا فى داخلها ست دعائم فى صفين ثلاث فى كل صف من شق الحجر الى الشق اليمانى وجعلوا فى ركنها الشامى من داخلها درجة يصعد منها الى سطح الكعبة ﴿تنبيه﴾ اختلف فى سن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بنت قريش الكعبة فقيل كان ابن خمس وثلاثين سنة وهو أشهر الأقوال وروى عن مجاهد ان ذلك كان قبل المبعث بخمس سنين والله تعالى أعلم ﴿التاسع بناء عبد الله بن الزبير الكعبة الشريفة فى زمن الاسلام﴾ وسيأتى تفصيل ذكره وما وقع له فى الباب الثالث فى بيان ما كان عليه وضع المسجد الحرام فى أيام الجاهلية وصدر الاسلام ان شاء الله تعالى ﴿العاشر بناء الحجاج بن يوسف الثقفى﴾ بعد بناء سيدنا عبد الله بن الزبير وسيأتى بيانه عقب ذكر بناء عبد الله بن الزبير للكعبة ان شاء الله تعالى وبناء الحجاج هو جهة الميزاب والحجر بسكون الجيم وتعلية جوف الكعبة ورفع الباب الشريف الذى فى لصق الملتزم وسد الباب الغربى الذى بلصق المستجار لاغير وما عدا ذلك فى الجهات الثلاث وهو وجه الكعبة الشريفة وجهة ظهرها وما بين الركن اليمانى والحجر الأسود فهو بناء سيدنا عبد الله ابن الزبير باق الى الآن كما سنذكره فى زيادة عبد الله بن الزبير فى المسجد الحرام وهدمه الكعبة وبنائها على قواعد ابراهيم عليه السلام

﴿فصل فى تحلية الكعبة الشريفة وبابها الشريف بالذهب والفضة وقناديلها الشريفة﴾ قال أبو الوليد الأزرقى رحمه الله أول من حلى الكعبة الشريفة فى الجاهلية عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم بالغزالين الذين وجدهما فى بئر زمزم حين حفرها ثم قال أول من ذهب البيت فى الاسلام عبد الملك بن مروان وقال المسبحى ما يقتضى خلاف ذلك فقال أول من حلى البيت عبد الله بن الزبير وجعل على الكعبة وأساطينها صفائح الذهب وجعل مفاتيحها من الذهب * وذكر الفاكهى ان عبد الملك بعث الى واليه على مكة خالد بن عبد الله القسرى بستة وثلاثين ألف دينار يضرب بها على باب الكعبة صفائح الذهب وعلى ميزاب الكعبة وعلى الاساطين التى فى جوف الكعبة وعلى أركانها من داخل * وذكر الأزرقى ان الأمين بن هارون الرشيد أرسل الى عامله على مكة سالم بن الجراح بثمانية عشر ألف دينار فضرب بها صفائح عمرت على الباب وجعل مساميرها وحلقتى الباب وأعتابه من الذهب وذكر أيضا ان حجبة الكعبة أرسلوا الى المتوكل العباسى يذكرون له ان زاويتين من زوايا الكعبة من داخلها كلها ذهبا فأرسل المتوكل الى اسحق بن سلمة الصائغ بذهب وأمره بعمل ذلك فكسر اسحق

تلك الزوايا وأعادها من الذهب وعمل منطقة من فضة ركبها فوق ازار الكعبة من داخلها عرضها ثلثا
ذراع وجعل لها طوقا من الذهب متصلا بهذه المنطقة قال وكان أسفل الباب عتبة من خشب ساج
قد رثت وتآكلت فأبدلها بخشب آخر وألبسه صفائح من فضة قال اسحق الصائغ فكان مجموع الزوايا
والطوق الذهب ثمانية آلاف مثقال ومنطقة الفضة وما على الباب من الفضة وما حلى به المقام من
الفضة سبعين ألف درهم * وذكر السيد القاضي تقي الدين الفاسي رحمه الله تعالى ما وقع بعد الأزرقي
من تحلية البيت الشريف فقال من ذلك ان الحجبة كتبوا الى المعتضد العباسي ان بعض ولاة مكة قطع
أيام الفتنة عضادتي باب الكعبة وغيرهما وسبكهما دنانير وأصرفها على الفتنة فأمر المعتضد باعادة ذلك
جميعه وأعيدت كما أشار به قال ومن ذلك ان أم المقتدر الخليفة العباسي أمرت غلامها لؤلؤ أن يلبس
جميع اسطوانات البيت الشريف ذهبا ففعل ذلك في سنة عشر وثلثمائة قال ومن ذلك ان الوزير
جمال الدين بن محمد بن علي بن منصور المعروف بالجواد وزير صاحب مصر أنفذ في سنة تسع وأربعين
وخمسمائة حاجبه الى مكة ومعه خمسة آلاف دينار ليعمل بها صفائح الذهب والفضة في أركان الكعبة
من داخلها * قال وممن حلاها الملك المظفر الغساني صاحب اليمن وحلاها حفيده الملك المجاهد صاحب
اليمن أيضا ثم ان الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي صاحب مصر حلى باب الكعبة الذي عمله لها
بخمسة وثلاثين ألف درهم وان حفيده الملك الاشرف شعبان حلى باب الكعبة في سنة ست وسبعين
وسبعمائة انتهى ما ذكره التقي الفاسي رحمه الله * قلت وقد أدركنا الباب الشريف مصفحا بالفضة وكان
يختلس من فضته اوقات الغفلة من قل دينه وخفت يده الى ان انكشف اسفل الباب الشريف عن
خشب الباب ومسك مرارا من يفعل ذلك وحبسوا وبهدلوا فعرض ذلك على الابواب الشريفة
السلطانية في ايام المرحوم المقدس السلطان سليمان خان أسكنه الله تعالى فراديس الجنان في سنة
احدى وستين وتسعمائة فبرز الامر الشريف السلطاني بتصفيح الباب الشريف بالفضة الى ناظر
الحرم الشريف المقيم بمكة في منصب نظارة الحرم الشريف يومئذ وهو من فضلاء كتبة مصر احمد جلبي
المقاطعجي صهر المرحوم محمد بن سليمان دفتردار مصر اذ ذاك رحمه الله تعالى وكان له شعر لطيف بالتركي
وتخلصه تبركا وتيمنا جامي وترجم باللسان التركي كتاب روضة الشهداء لمولانا جامي وضمنه من لطائف
النظم والنثر ما يستحسنه ومن محاسن السجع ما يخف على السمع وهو كتاب مقبول متداول بين الناس
اللطفاء * وكان وصوله الى مكة في افتتاح سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وكان في البيت الشريف خشبة
من أخشاب خشبه المنيف انكسرت وصار الماء ينزل من موضع الكسر الى جوف البيت المعظم وكان
قاضي مصر يومئذ قدوة علماء الموالي العظام مولانا حامد افندي وهو اليوم مفتي ممالك الاسلام بالباب
العالي أطال الله عمره المديد وادام بقاءه السعيد قد حج الى بلد الله الحرام وقاضي مكة يومئذ الافندي
مولانا محمد بن محمود المعروف بخواجه قيني اسكنهما الله فسيح الجنان وحف تربتهما بالروح والريحان
فاطلعا على هذا الاخلال وعرضاه على الابواب الشريفة السليمانية فلما وصل العرض الى المرحوم
المقدس المغفور الاقدس السلطان سليمان خان حازا أعلى غرف الجنان ارسل الى مفتي الاسلام سلطان
العلماء الاعلام مولانا ابي السعود افندي المفتي الاعظم قدس الله روحه يستفتيه عن حكم الله في هذه
المسئلة جوازا وعدم جواز فكتب اليه بجواز ذلك ان دعت الضرورة اليه فارسل بجواب المفتي الاعظم
الى صاحب مصر يومئذ الوزير المعظم المرحوم علي باشا فارسله الوزير المذكور الى ناظر الحرم المشار اليه

وقاضي

وقاضي مكة يومئذ محمد بن محمود رحمهما الله تعالى مع امر شريف سلطاني مضمونه العمل بمقتضى الفتوى
لجمع احمد چلبي مؤن العمارة والاخشاب اللائقة لهذا العمل وكان كاتبه صوباشي مصطفى چلبي ومعماره
مصطفى المعمار وقبل الشروع في العمل اقتضى رأيهم مشاورة العلماء في ذلك فجلس مولانا الافندي
محمد بن محمود بن كمال بعد صلاة الجمعة لاربع عشرة ليلة خلت من ربيع الاول سنة تسع وخمسين وتسعمائة
في الحرم الشريف واستحضر مفتي العلماء الشافعية المرحوم مولانا الشيخ شهاب الدين احمد بن حجر
الهيتمي ومولانا الشيخ نور الدين علي بن ابراهيم العسيلي ومولانا القاضي يحيى بن فايز بن ظهيرة
ومؤلف هذا الكتاب وتقاضوا في هذه المسئلة فذكر مصطفى المعمار انه شاهد عودين من اعواد سقف
الكعبة مكسورين نزلا عن محاذاة بقية اخشاب السقف الشريف من وسطهما قدر اثني عشر قيراطا
وذكر ان عودا ثالثا الى جانبهما نحو الباب الشريف نزل ايضا تسعة اصابع عن محاذاة اعواد السقف
الصحيحة هبوطا الى اسفل وانه يحتمل ان يكون مكسورا ايضا ويحتمل ان يكون صحيحا لكنه اعوج
باعوجاج ما الى جانبه من العود المكسور وشهد معه احمد الجيماتي المصري وغيره وذكر وا بانه ان لم
يتدارك تغيير الخشب المكسور بخشب صحيح فالغالب في امثال ذلك ان يسقط الى اسفل وتتزعزع
الجدران بسقوطه ويغلب في الظن اختلال في جوانب السطح يؤدي الى سقوط السقف جميعه وتسقف
الجدران وسقوطها فاتفقت آراء الحاضرين على الاقدام على تعمير السطح وتبديل تلك الاعواد
وعينوا ان يشرعوا صبح يوم السبت منتصف شهر ربيع الاول سنة تسع وخمسين وتسعمائة فتعصب
طائفة حركهم الهوى والغرض لمخالفة ما رأينا وحركوا طائفة من العلماء الى الخلاف وزعموا ان من تعظيم
البيت الشريف ان لا يتعرض له بترميم ولا اصلاح وان قيام الكعبة الشريفة هذه المدة المديدة والرياح
تنسفها من الجوانب الاربع ولا تؤثر فيها دليل على أن قيامها ليس بقوة البناء بل هي قائمة بقدرة الله
تعالى وانه لا يجوز تغيير اخشابها الا اذا سقطت بنفسها او غير ذلك من التمويهات والتهويلات التي تنبو
عن مسامع العقلاء وهولوا الأمر على عوام الناس وغوغاهم وكادت أن تقوم لذلك فتنة على العوام
وكتب مولانا شهاب الدين احمد بن حجر تأليفا واسعا في الرد على أولئك المعاندين واستند الى نقول كثيرة
وهمم على الجواز وجاءني رحمه الله تعالى يحرضني على الثبات على ما صدر مني من القول بالجواز ونقل لي
عن المحب الطبري في كتابه استقصاء البيان في مسئلة الشاذروان بعد ذكره حديث عائشة رضي الله
عنها في هدم الكعبة ما نصه ومدلول هذا الحديث تصريحا وتلويحا انه يجوز التغيير في الكعبة لمصلحة
ضرورية أو حاجية أو مستحسنة انتهى * ولما بلغ سيدنا ومولانا المقام الشريف العالي السيد الشريف
شهاب الدين أحمد بن نمي صاحب مكة اذ ذاك تغمده الله تعالى برضوانه وأسكنه فسيح جنانه حضر
بنفسه من البر الى مكة المشرفة وطلب سيدنا ومولانا سلطان العلماء الاعلام شيخ الاسلام شمس الملة
والدين الشيخ محمد بن مولانا الشيخ أبي الحسن البكري نفع الله به وبأسلافه الكرام وشيد به أزر
شريعة سيد الانام عليه أفضل الصلاة والسلام ومولانا الافندي الأعظم قاضي مكة المشرفة وسيدنا
ومولانا قاضي القضاة ومرجع أهل بلد الله الحرام القاضي تاج الدين بن عبد الوهاب بن يعقوب المالكي
طيب الله مثواه وجعل الفردوس الأعلى مأواه وناظر الحرم الشريف المكي يومئذ أحمد چلبي المذكور
فحضروا جميعا تجاه البيت الشريف عند مقام سيدنا ابراهيم عليه السلام واشير الى سيدنا ومولانا الشيخ
الاعظم محمد البكري ان يلقي درسا يتكلم فيه على قوله تعالى واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل

ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم فتكلم على جارى عادته بلسان طلق فصيح ولفظ منتظم مليح أبهر به الحاضرين وأدهش الناظرين وأفاد وأجاد وقلد نفائس الدر الاجياد * فلما انقضى الدرس أخرج الناظر فتوى المفتى للناس فرآها مولانا الشيخ الاعظم الشيخ محمد البكرى فقال ومن يخالف هذا من الناس هذا هو عين الحق ومحض الصواب وأمر مولانا السيد أحد العمال بالشروع في العمل فشرعوا وسكنت الفتنة ولله الحمد وكل ذلك بتدبير المرحوم القاضى تاج الدين المالكى رحمه الله وكان عاقلا محتشما ذا رأى صواب محضا وله فضل تام وفكر صائب عام وتوفى الى رحمة الله تعالى في سنة احدى وستين وتسعمائة * ثم لما كشف عن تلك الاعواد في السقف وجدوها كما ظنوا وأبدلوها بأعواد جيدة في غاية الاحكام والاستقامة واعادوا السقف والسطح كما كان بغاية الاتقان وسطر ثواب ذلك في صحائف المرحوم السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان ثم بعد الفراغ طلبوا منا شيأ يكتب فكتبت لهم كلاما يتضمن التاريخ * وهو الحمد لله الذى عمر الكعبة الشريفة بالشرائع المحمدية وسقفها بتشييد واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا تقبل منا وأصلح الوجود بوجود من وجد فيه احداً اراد أن ينقض فأقامه وخصه بكنز اغنى بعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر فكان له أعظم كرامة وأناله الحظ الاوفر من ملك سميه نبى الله سيدنا سليمان ابن السلطان سليم خان الحادى عشر من ملوك بنى عثمان خادم الحرمين الشريفين الخافقة ألوية نصره ورايات ظفره في الخافقين فلقد جدد سقف الكعبة المعظمة حفظ الله دولته حفظ البيت المعمور والسقف المرفوع وأصلح أرضها المقدسة وجدرانها المتخذة قبلة للسجود والركوع وغرد طير تاريخ تجديد عمارته على غصون حساب ابجد (فكان مجدد سطح بيت الله مالك الدولة سليمان) ملكه الله الارض ومن عليها وجعل باب سعادته قبلة تسجد جباه المطالب اليها ثم لما فرغ من تجديد سطح البيت الشريف وما يتعلق به شرع في تسوية فرش المطاف الشريف فان احجاره انفصلت وصار بين كل حجرين حفر وكان تلك الحفر تسد تارة بالنورة وتدلك وتارة بالرصاص و بسمر عامير الحديد فأزال ما بين الاحجار من الحفر ونحت طرف الحجر الى أن الصقه بطرف الحجر الآخر من جوانبه الاربعة واستمر في فرش المطاف الشريف على هذا الاسلوب الى ان فرغ من ذلك واصلح ابواب المسجد الشريف وفرش المسجد جميعه بالحصى ثم ورد الحكم السلطانى بتصفيح الباب الشريف واصلاح الميزاب الشريف وصفح بالفضة المموهة بالذهب الى ان غير بعد ذلك وعمل الميزاب في الباب الخاقانى فوصل ووضع في الخزانة العامرة *وأما عمارة المطاف الشريف* فوقع في سنة احدى وستين وتسعمائة وكنت قد أمرت بتاريخ يكتب على بعض مواضع المطاف فكتبت بسم الله الرحمن الرحيم ان اول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا تقرب الى الله تعالى بتجديد فرش احجار المطاف وتسويتها تحت اقدام الطائفين في الطواف وتحلية الباب الشريف والميزاب المعظم المنيف خليفة الله تعالى الاعظم سلطان الروم والعرب والعجم من اصطفاه الله تعالى واجتباه لترميم بيته الحرام واختاره وارتضاه بخدمة الركن والمقام السلطان ابن السلطان الملك المظفر أبو الفتوحات السلطان سليمان خان تقبل الله منه صالح الاعمال وبلغه ما يؤمله من السعادة والاقبال ولما تم ذلك غرد بالتاريخ طير الهناء عمر الله قبلتنا

(فصل في ذكر تعاليق الكعبة المعظمة وكسوتها) اما التعاليق فقال المسعودى في مروج الذهب

كانت الفرس تهدى الى الكعبة أموالا وجواهر فى الزمان الاول وكان ابن ساسان بن بابك اهدى غزالين من ذهب وجواهر وسيوفا وذهبا كثيرا الى الكعبة * وقال الشريف التقى الفاسى فى شفاء الغرام يقال ان كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة القرشى أول من علق فى الكعبة السيوف المحلاة بالذهب والفضة ذخيرة للكعبة ثم نقل عن الازرقى فى أشياء اهديت للكعبة منها ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما فتح مدائن كسرى كان مما بعث اليه هلالان فبعث بهما فعلقهما فى الكعبة وبعث السفاح بالصفحة الخضراء فعلقت فى الكعبة والمأمون بالياقوتة التى تعلق فى كل موسم بسلسلة من الذهب فعلقت فى وجه الكعبة وبعث المتوكل على الله بشمسية من ذهب مكللة بالدر الفاخر والياقوت الرفيع والزبرجد تعلق بسلسلة من الذهب فى وجه البيت فى كل موسم واهدى المعتصم العباسى قفلا لباب الكعبة فيه ألف مثقال ذهبا فى سنة تسع عشرة ومائتين وكان والى مكة يومئذ من قبل صالح بن العباس فأرسل الى الحجبة ليقبضهم القفل فأبوا ان يأخذوه منه وأراد ان يأخذ القفل الاول ويرسل به الى الخليفة فأبوا ان يعطوه ذلك وتوجهوا الى بغداد وتكلموا مع المعتصم فترك قفل الكعبة عليهما واعطاهم القفل الذى كان بعثه اليها فاقتسموه بينهم وذكر الفاكهى أن مما اهدى الى الكعبة طوق من ذهب مكلل بالزمرد والياقوت مع ياقوتة كبيرة خضراء أرسله ملك الهند لما أسلم فى سنة تسع وخمسين ومائتين فعرض أمره على المعتمد على الله فأمر بتعليقها فى البيت الشريف فعلقت قال التقى الفاسى رحمه الله تعالى ومما علق بعد الازرقى قصبة من فضة فيها كتاب بيعة جعفر ابن أمير المؤمنين المعتمد على الله وبيعة أبى أحمد الموفق بالله ابن اخى المعتمد على الله وقدم بها الفضل بن عباس فى موسم سنة احدى وستين ومائتين وكان وزن الفضة ثلثمائة وستين درهما فضة وعليها خارجا عن ذلك ثلاث أزرار بثلاثة سلاسل من فضة ودخل الكعبة يوم الاثنين لاربع خلون من صفر فعلق هذه القصبة مع تعاليق الكعبة (قلت) وسيأتى ان هارون الرشيد كتب أن يكون ولى عهده بعده محمد الأمين ثم عبد الله المأمون وبايع لهما على ذلك أعيان مملكته وكتب مبايعتهم وأرسل نسخة ذلك العهد الى الكعبة وعلقها فى الكعبة ثم لما وقع بعده الاختلاف بينهما وأرسل الأمين عسكرا لقتال أخيه المأمون أرسل الى مكة وأخرج كتاب العهد من الكعبة ومزقه فمزق الله ملكه وانكسر عسكره وانتصر المأمون وجاء الى بغداد وحاصر الأمين الى آن أمسكه عبد الله بن طاهر وقتله وأتى برأسه الى المأمون وسيأتى تفصيل ذلك جميعه ان شاء الله تعالى * ثم لما وقعت الفتن بمكة أخذت تلك التعاليق من الكعبة وصرفت فى ذلك وقد كانت الملوك ترسل بقناديل الذهب وتعلق فى الكعبة وكانت شيوخ سدنة البيت الشريف اذا احتاجت اختلست منها ما تسد به خللها وتدفع به فقرها واحتياجها وقد أدركنا فى أيام الصبا وقد ذهبت القناديل من شيوخ الكعبة من كان يتهم بذلك بل أخبرنى نجار انه عمل لأحدهم مخطارا كامن الخشب مؤلفا من عدة أعواد طول كل واحد منها نحو ذراع تركب فيطول ثم يفكك ويجعل فى الكم فاذا دخل الشيخ يوم فتح الكعبة ابتداء فدخل وحده كما هو عادة مشايخ الكعبة وركب ذلك المخطار ونزل قنديلا وفك تلك الاعواد وغمس ذلك القنديل ووضع فى كمه الواسع ثم أذن للناس بالدخول الى البيت الشريف وما كان يحمله على ذلك غير فقره واحتياجه تجاوز الله عنه وافتقد مرة أمير من أمراء حدة قنديلا كان علقه قريبا فى البيت الشريف فتكلم على ذلك الشيخ وأراد اهانته فلم يقدر على ذلك وتكلم

الناس عليه وكان يقول المحافظة على بنية الانسان أوجب من المحافظة على قناديل معلقة فى الكعبة لا ينفعها تعليقه ولا يضرها فقده وقد وصلنا الى حد المخمصة فتعذر فى ذلك ان وقع فعله منا * والبيت الشريف الآن ولله الحمد والشكر فى غاية الصون فى أيام هذا الشيخ الموجود الآن لعفته وأمانته وعلقت فى أيامه قناديل كثيرة أهداها الملوك الى الكعبة الشريفة وهى محفوظة معلومة عند الناس باقية يرونها فى سقف البيت الشريف فى أوقات فتح الكعبة لسائر الناس * وقد وصل فى وسط سنة أربع وثمانين وتسعمائة من الباب العالى الشريف السلطانى جاويش اسمه محمد جاويش كان قبل ذلك كاتب الحرم الشريف على عمارة المسجد الحرام وكان توجه ببشارة اتمام المسجد الشريف الى الباب العالى السلطانى وهو رجل فى غاية الامانة والاستقامة وحسن الخدمة وفضيلة الكتابة وحسن الخط والمروءة وعلو الهمة سلمه الله تعالى فأقبلت عليه السلطنة الشريفة نصرها الله تعالى وأنعمت بأنواع الانعام والترقى وغير ذلك من الاكرام وأدخل فى عداد خواص جاوشية الباب العالى وأرسل الى الحرمين الشريفين بالخلع الشريفة السلطانية لمن باشر خدمة الحرم الشريف فى هذه العمارة أجلهم سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى سيد السادات الاشراف صفوة الصفوة من شرفاء بنى عبد مناف السيد الشريف الحسيب النسيب المستغنى بشرف ذاته عن التوصيف والتلقيب بدر الدنيا والدين حسن بن أبى نمى خلد الله دولتهما وسعادتهما وأدام عزهما وسيادتهما وكذلك شيخ مشايخ الاسلام سيد العلماء الاعلام ونسل الفضلاء الكرام ناظر المسجد الحرام ومدرس أعظم سلاطين الانام صفوة آل سيد المرسلين عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام وقاضى المدينة المنورة سابقا بدر الملة والدين مولانا السيد حسين الحسينى المكى المكين لازال حرم الله الامين مشمولا فى أيام نظارته بالعز والتمكين وأهل الحرمين الشريفين غارقين فى بحر احسانه كل وقت وحين وكذلك القاضى مكة المشرفة يومئذ أقضى قضاة المسلمين أولى ولاة الموحدين معدن الفضل واليقين وارث علوم الانبياء والمرسلين مولانا مصلح الدين لطفى بك زاده ذكره الله بالصالحات وأفاض عليه سوابغ الخيرات وكذلك أمير العمارة الشريفة افتخار الامراء العظام معمر المسجد الحرام الامير أحمد وفقه الله وسدد وأكرمه وأسعد وجهزت السلطنة الشريفة نصر الله تعالى بها الاسلام وأيد تأييدها دين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام مع الجاويش المشار اليه ثلاثة قناديل من الذهب مرصعة بالجواهر ليعلق اثنان منها فى سقف بيت الله تعالى زاده الله تعالى تشريفا وتعظيما والثالث فى الحجرة الشريفة تجاه الوجه الشريف النبوى تعظيما لسيد الأنام وقال

على ذلك الوجه المليح تحية * مباركة من ربنا وسلام

فلما وصل محمد جاويش الى مكة المشرفة شرفها الله تعالى بما فى يده من الخلع والتشاريف والقناديل المعظمة قوبل بغاية التعظيم والاجلال وعومل بنهاية الاحترام والاقبال وألبس الخلع الشريفة الفاخرة وأنعم عليها بالضيافات والانعامات الوافرة وحضر الى المسجد الحرام بنفسه النفيسة سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى السيد حسن المشار الى حضرته العالية أدام الله عزه واقباله ومعه أكابر السادة الاشراف وجلس فى الحطيم الكريم تجاه بيت الله المنيف ومعه سيدنا ومولانا ناظر حرم الله تعالى شيخ مشايخ الاسلام السيد القاضى حسين الحسنى المومى اليه خلد الله عظمته واجلاله عليه وباقى من ذكر وسائر الاعيان والاهالى وكافة العلماء والفقهاء والموالى واجتمعت الناس حول الكعبة الشريفة

وامتلأ الحرم الشريف بذلك الموكب المنيف وفتح باب بيت الله تعالى وأحضرت الخلع الشريفة السلطانيه والقناديل السنية الخاقانيه وقرئت المراسيم الشريفة المطاعة فى الاقطار والجهات فوق منبر لطيف بصوت جهورى يسمعه الخاص والعام وألبس سيدنا ومولانا السيد حسن نصره الله تعالى خلعتين فاخرتين ثم مولانا ناظر الحرم الشريف ثم من كان له خلعة من السلطنة ثم طاف مولانا وسيدنا السيد حسن بالبيت بخلعته على المعتاد والرئيس المؤذن يدعو للسلطنة الشريفة وله بعلو زمزم على العادة والناس كلهم رافعون اصواتهم بالدعاء والتأمين الى أن فرغ سيدنا ومولانا من الطواف ودعا بالملتزم الشريف ثم صلى ركعتى الطواف فى مقام ابراهيم عليه السلام ثم طلع هو ومولانا ناظر الحرم الشريف وبقية الاعيان الى باب بيت الله تعالى ودخلوا الكعبة وأحضرت القناديل الشريفة واختاروا لها مكانا عاليا يقع نظر الداخل الى البيت الشريف فى أول دخوله الى الكعبة المعظمة عليها وأحضر سلما يصعد عليه فعلقهما سيدنا ومولانا السيد حسن بيده الشريفة تعظيما لامر السلطنة العلية المنيفة وقرئت الفواتح فى الكعبة الشريفة وحولها ودعت الناس أجمعون ورفعت أصواتهم وهم الى الله تعالى يتضرعون بدوام دولة هذا السلطان الاعظم سلطان سلاطين العالم خلد الله تعالى خلافته الزاهره وأبد أيام سلطنته القاهره وجمع له بين سعادتى الدنيا والآخرة ثم انفض ذلك المجلس العظيم وانقضى ذلك الموكب الشريف الوسيم وكان يوما شريفا مشهودا ووقتا مباركا متيمنا مسعودا رقته الليالى والايام فى صفحات أوراقها وأثبتته فى جرائد دفاترها واطباقها

واغا المرء حديث بعده * فكن حديثا حسنا لمن روى

ثم توجه محمد جاويش بالقنديل الذى بقى معه الى المدينة المنورة ووصل الى تلك الروضة الشريفة المطهرة واجتمعت له أكابر المدينة الشريفة وأعيانها وعلماؤها وصلحاؤها وأركانها وشيخ حرمها ونوابها ومن له شأن وقدر من مجاوريها وسكانها وعمل موكب شريف فى الحرم الشريف النبوى وفتحت الحجرة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وعلق ذلك القنديل تجاه وجه النبى صلى الله عليه وسلم وقرئت الفواتح وحصل الدعاء من جيران سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام بدوام دولة هذا السلطان الاعظم سلطان سلاطين العالم خلد الله تعالى ملكه السعيد وأبد معدلته وفضله واحسانه المزيد فالله يطيل عمره ويسعده ويوفقه للخيرات ويرشده ويسوقه الى الباقيات الصالحات من أعمال الخير ويسدده وهو أول من علق قناديل الذهب فى الحرمين الشريفين من سلاطين آل عثمان خلد الله تعالى سلطنتهم وأبد دولتهم الى انتهاء الزمان وقد سبق بهذه المنقبة الشريفة آباءه السلاطين العظام وفاق بهذه المزية آباءه وأجداده الكرام لازال فائقا سلاطين العالم وخلفائها وراقيا باقدامه اقدام عزمه ملوك الدنيا وعظمائها

هو العادل الظلام للمال والعدا * خزائنه قد أقفرت وديارها
عليهم بنور الله ينظر قلبه * فلم يغن اسرار القلوب استتارها
به دمر الله الصليب وأهله * به ملة الاسلام عال منارها
فلازالت الأفلاك تجرى بنصره * ولازال عنه قطبها ومدارها

(فصل فى ذكر كسوة الكعبة الشريفة قديما وحديثا وحكم بيعها وشرائها والتبرك بها) ذكر الأزرقى وابن جريج رحمهما الله تعالى ان أول من كسى الكعبة تبع الحميرى من ملوك اليمن فى الجاهلية تعظيما

لما وأسلم هذا التبع أسعد وانه رأى فى منامه أن يكسو الكعبة فكساها الانطاع * ثم رأى انه يكسوها فكساها من حبر اليمن وجعل لها بابا يغلق وقال أسعد فى ذلك

وكسونا البيت الذى حرم الله ملاء معصبا وبرودا
وأقمنا منه الى حيث كنا * ورفعنا لواءنا المعقودا

قال الازرقى أيضا حدثنى سعيد بن سالم عن ابن جريج عن ابن مليكة قال كان يهدى للكعبة هدايا شتى فاذا بلى شئ منها جعل فوقه ثوب آخر ولا ينزع مما عليها شئ * وكانت قريش فى الجاهلية ترافد فى كسوة البيت فيضربون على القبائل بقدر احتمالهم من عهد قصى بن كلاب حتى نشأ أبو ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم وكان مثريا يتجر فى المال فقال لقريش أنا أكسو الكعبة وحدى سنة وجميع قريش سنة وكان يفعل ذلك الى أن مات فسمته قريش العدل لانه عدل قريشا وحده فى كسوة البيت الشريف ويقال لبنيه بنو العدل وقال أيضا أخبرنى محمد بن يحيى عن الواقدى عن اسماعيل بن ابراهيم بن أبى حبيبة عن أبيه قال كسى النبى صلى الله عليه وسلم البيت الثياب اليمانية ثم كساه عمر وعثمان رضى الله عنهما القباطى وكان يكسى كل سنة كسوتين فيكسو أولا الديباج قميصا يدلى عليها يوم التروية ولا يخاط ويترك الازار حتى يذهب الحاج لئلا يخرقونه فاذا كان الى عاشوراء علقوا عليها الازار وأوصلوه بالقميص الديباج فلا يزال عليها الى يوم السابع والعشرين من شهر رمضان فيكسوها الكسوة الثانية وهى من القباطى * فلما كان أيام خلافة المأمون أمر أن تكسى الكعبة ثلاث مرات فتكسى الديباج الاحمر يوم التروية وتكسى القباطى أول رجب وتكسى الديباج الابيض فى عيد رمضان واستمر على ذلك ثم أنهى اليه أن الازار الذى تكسى به الكعبة فى العاشوراء ويلصق بالقميص الديباج الاحمر الذى يكسى به يوم التروية لا يصبر الى تمام السنة وانه يحتاج أن يجدد لها ازارا على عيد رمضان مع قميص الديباج الابيض الذى تكسى به على العيد فأمر أن تكسى ازارا آخر فى عيد رمضان ثم بلغ المتوكل على الله ان الازار يبلى قبل شهر رجب من كثرة مس أيادى الناس فزادها ازارا وأمر باسبال قميص الديباج الاحمر الى الارض ثم جعل فوقه فى كل شهرين ازارا وذلك فى سنة أربعين ومائتين * ثم بعد الخلفاء العباسيين وأيام وهنهم وضعفهم كانت كسوة الكعبة الشريفة تارة من قبل سلاطين مصر وتارة من قبل سلاطين اليمن بحسب قوتهم وضعفهم الى ان استقرت الكسوة الشريفة من سلاطين مصر الى ان اشترى السلطان الملك الصالح ابن السلطان الملك الناصر قلاوون قريتين بمصر ووقفهما على عمل كسوة الكعبة الشريفة اسمهما بيسوس وسندبيس * ثم استمرت سلاطين مصر من بعده ترسل كسوة الكعبة فى كل عام وكانوا يرسلون عند تجدد كل سلطان مع الكسوة السوداء التى تكسى من ظاهر البيت الشريف كسوة حمراء لداخل البيت الشريف وكسوة خضراء للحجرة الشريفة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام مكتوب على كل من الكسوة السوداء والحمراء والخضراء لا اله الا الله محمد رسول الله دالات فى قلب دالات وقد تزاد فى حواشى تلك الدالات آيات أخر مناسبة أو اسماء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو تترك ساذجة بحسب ما يؤمر النساج به فلما آلت سلطنة ممالك العرب الى سلاطين آل عثمان خلد الله تعالى أيام سلطنتهم القاهرة ما دام الدوران وأقام الزمان وأخذ المرحوم المقدس السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان عليه الرحمة والرضوان مملكة العرب من الجراكسة بالسيف والسنان جهزت كسوة المدينة الشريفة على ما جرت به العادة

وأمر باستمرار الكسوة السوداء للكعبة الشريفة على الوجه المعتاد * ولما آلت السلطنة الى المرحوم المغفور له السلطان سليمان خان أمر باستمرار الكسوة الشريفة على عوائدها السابقة ثم ان قريتي بيسوس وسندبيس الموقوفتين على كسوة الكعبة الشريفة تخربتا وضعف ريعهما عن الوفاء بمصروف الكسوة فأمر أن تكمل من الخزائن السلطانية بمصر ثم اضاف الى تلك القريتين الموقوفتين قرى أخر وقفها على كسوة الكعبة الشريفة فصار وقفا عامرا وافيا مستمرا وذلك من أعظم مزايا السلاطين العظام التي يفتخرون بها على ملوك الانام ولا يصل الى ذلك الا أعظم السلاطين الفخام وهي الآن من مخصوصات سلاطين آل عثمان الكرام زين الله بمزاياهم اجياد الليالي والايام وخلد ذكر محاسنهم في صفحات دفاتر الدهر الى يوم القيامة ان شاء الله الملك العلام * وأما نزع كسوة الكعبة الشريفة وتقسيمها بين الناس * فقد ذكر الازرقي رحمه الله تعالى قال حدثني جدي عن مسلم بن خالد عن أبي نجيح عن أبيه ان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان ينزع كسوة البيت في كل سنة فيقسمها على الحاج وقال أيضا حدثني جدي حدثنا عبد الجبار بن الورد المكي قال سمعت ابن أبي مليكة يقول كان على الكعبة الشريفة من كسوة الجاهلية ما بعضها فوق بعض فكلما كسيت في الاسلام من بيت المال خففت عنها تلك الكساوي شيأ فشيأ * وكان أول من ظاهر لها بكسوتين عثمان بن عفان رضي الله عنه فلما كان أيام معاوية بن أبي سفيان كساها الديباج مع القباطي ثم انه بعث اليها بكسوة ديباج وقباطي وحبر وأمر شيبة بن عثمان أن يجرد الكعبة عن الكساوي ويخلقها بالطيب ويلبسها ما جهزه اليها فجردها وطيبها وطيب جدرانها بالخلوق وكساها تلك الكسوة التي بعث بها معاوية وقسم الثياب التي كانت عليها بين أهل مكة وكان سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنه حاضرا في المسجد الحرام فما أنكر ذلك ولا كرهه قال وكان شيبة يكسوها حتى رأى على امرأة حائض من كسوتها فأنكر ذلك عليها وقال أيضا حدثني محمد بن يحيى عن الواقدي عن عبد الحكيم بن أبي فروة عن هلال بن اسامة عن عطاء بن يسار قال قدمت مكة معتمرا فجلست الى عبد الله في منعة زمزم وشيبة بن عثمان يجرد الكعبة ورأيته يخلق جدورها ويطيبها ورأيت ثيابها التي جردها عنها قد وضعت بالارض ورأيت شيبة بن عثمان يومئذ يقسمها فلم أر ابن عباس أنكر شيأ من ذلك مما صنع شيبة بن عثمان وقال أيضا حدثني جدي حدثنا ابراهيم بن محمد بن أبي يحيى حدثنا علقمة عن أمه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ان شيبة بن عثمان دخل عليها وقال لها يا أم المؤمنين تكثر ثياب الكعبة عليها فنجردها عن خلقانها ونحفر لها حفرة تدفن فيها ما بلى منها كيلا يلبسها الحائض والجنب فقالت له عائشة رضي الله عنها ما أصبت فيما فعلت فلا تعد الى ذلك فان ثياب الكعبة اذا نزعت عنها لا يضرها من لبسها من حائض ولكن بعها واجعل ثمنها في سبيل الله تعالى وابن السبيل ومذهب علمائنا رضي الله عنهم في ذلك رجوع أمره الى السلطان * قال الامام فخر الدين قاضي خان رحمه الله تعالى في كتاب الوقف من فتاواه ديباج الكعبة اذا صار خلقا يبيعه السلطان ويستعين به في أمر الكعبة لأن الولاية فيه للسلطان لا لغيره * وفي تتمة الفتاوى عن الامام محمد رحمه الله تعالى في ستر الكعبة يعطى منه انسان فان كان شيء له ثمن لا يأخذه وان لم يكن له ثمن فلا بأس قال الامام نجم الدين الطرسوسي في منظومته

وما على الكعبة من لباس * ان رث جاز بيعه للناس
ولا يجوز أخذه بلا شرا * للاغنيا لا ولا للفقرا

وقال الامام الفقيه أبو بكر الحدادي في السراج الوهاج لا يجوز قطع شيء من كسوة الكعبة ولا نقله ولا بيعه ولا شراؤه ولا وضعه بين أوراق المصحف ومن حمل شيأ من ذلك فعليه رده ولا عبرة بما يتوهمه انهم يشترون ذلك من بني شيبة فانهم لا يملكونه * فقد روي عن ابن عباس وعائشة انهما قالا يبيع ذلك ويجعل ثمنه في سبيل الله تعالى انتهى * وقد ورد في الحديث لولا حداثة قومك بكفر لانفقت كنز الكعبة في سبيل الله قال القرطبي من علماء المالكية رحمه الله تعالى كنز الكعبة المال المجتمع مما يحلى به من الذهب والفضة لان حليتها حبس عليها كحصرها وقناديلها لا يجوز صرفها في غيرها انتهى فعلى قول القرطبي يكون كسوتها أيضا حبسا عليها كحصرها وقناديلها فلا يملكها انتهى وقال الزركشي من علماء الشافعية رحمهم الله تعالى في قواعده قال ابن عبدان امنع من بيع كسوة الكعبة وأوجب رد من حمل منها شيأ وقال ابن الصلاح مفوض الى رأى الامام والذى يقتضيه القياس ان العادة استمرت قديما بأنها تبدل كل سنة وتأخذ بنو شيبة تلك العتيقة فيتصرفون فيها بالبيع وغيره والذى يظهر لى أن كسوة الكعبة الشريفة ان كانت من قبل السلطان من بيت مال المسلمين فأمرها راجع له يعطيها لمن شاء من الشيبيين أو غيرهم وان كانت من أوقاف السلاطين وغيرهم فأمرها راجع الى شرط الواقف فيها فهي لمن عينها له وان جهل شرط فيها عمل فيها بما جرت العوائد السابقة فيها كما هو الحكم في سائر الاوقاف وكسوة الكعبة الآن من اوقاف السلاطين ولم يعلم شرط الواقف فيها وقد جرت عادة بني شيبة انهم يأخذون لانفسهم الكسوة العتيقة بعد وصول الكسوة الجديدة فيبقون على عادتهم فيها والله تعالى أعلم * وللعلماء المتأخرين رسائل في حكم كسوة الكعبة لم يتيسر لى الآن الوقوف على شيء منها

(الباب الثالث في بيان ما كان عليه وضع المسجد الحرام في ايام الجاهلية وصدر الاسلام و بيان ما احدث فيه من التوسع والزيادة في زمان خلافة سيدنا امير المؤمنين عمر بن الخطاب ومن خلافة سيدنا عثمان بن عفان وزمن سيدنا عبد الله بن الزبير رضى الله عنهم وهدم عبد الله بن الزبير بناء قريش للكعبة واعادتها على قواعد ابراهيم عليه السلام ثم هدم الحجاج جانب الحجر والميزاب من الكعبة واعادتها على ما بنته قريش في زمن النبي صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه الشريف)

اعلم ان الكعبة الشريفة لما بناها سيدنا ابراهيم عليه السلام لم يكن حولها دار ولا جدار احتراما للكعبة الشريفة فلما آل امر البيت الى قصي بن كلاب واستولى على مفتاح الكعبة كما تقدم بيانه جمع قصي قومه وامرهم ان يبنوا بمكة حول الكعبة الشريفة بيوتا من جهاتها الاربع وكانوا يعظمون الكعبة ان يبنوا حولها بيوتا أو يدخلوا مكة على جنابة وكانوا يقيمون بها نهارا فاذا أمسوا خرجوا الى الحل فقال لهم قصي ان سكنتم حول البيت هابتكم الناس ولم تستحل قتالكم والهجوم عليكم وبدأ هو وبنى دار الندوة في الجانب الشامي كما تقدم بيانه و يقال انها مقام الحنفية الذى يصلى فيه الآن الامام الحنفي الصلوات الخمس وقسم قصي باقي الجهات بين قبائل قريش فبنوا دورهم وشرعوا أبوابها الى نحو الكعبة الشريفة وتركوا للطائفين مقدار المطاف الشريف بحيث يقال ان القدر المفروش الآن بالحجر المنحوت الى حاشية المطاف الشريف وجعلوا بين كل دارين من دورهم مسلكا شارعا فيه باب يسلك منه الى بيت الله تعالى ثم كثرت البيوت واتصلت الى زمن النبي صلى الله عليه وسلم فولد صلى الله عليه وسلم على اشهر الاقوال بشعب بني هاشم بقرب المحل المسمى الآن بشعب على

وكان

وكان صلى الله عليه وسلم يسكن دار سيدة النساء ام المؤمنين خديجة الكبرى رضوان الله عليها
ثم لما ظهر الاسلام وكثر المسلمون استمر الحال على ذلك الوضع فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وزمان
خليفته أبى بكر الصديق رضى الله عنه ثم زاد ظهور الاسلام وتكاثرت المسلمون فى زمن امير المؤمنين
عمر الفاروق رضى الله عنه فرأى ان يزيد فى المسجد الحرام فاول زيادة زيدت فى المسجد الحرام زيادته
رضى الله عنه * فنبدأ بذكرها فنقول * روينا بالسند المتصل المذكور سابقا فى المقدمة عن الامام
ابى الوليد الازرقى قال اخبرنى جدى قال اخبرنا مسلم بن خالد عن ابن جريج قال كان المسجد الحرام
ليس عليه جدران تحيط به وانما كانت دور قريش محدقة به من كل جانب غير ان بين الدور ابوابا
يدخل منها الناس الى المسجد الحرام * ولما كان زمان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وضاق المسجد
بالناس ولزم توسيعه اشترى دورا حول المسجد وهدمها وأدخلها فى المسجد وبقيت دور احتيج
الى ادخالها فى المسجد وأبى أصحابها من بيعها فقال لهم عمر رضى الله عنه أنتم نزلتم فى فناء الكعبة
وبنيتم به دورا ولا تملكون فناء الكعبة ومانزلت الكعبة فى سوحكم وفنائكم فقومت الدور وجعل
ثمنها فى جوف الكعبة ثم هدمت وأدخلت فى المسجد ثم طلب أصحابها الثمن فسلم اليهم ذلك وامر
ببناء جدار قصير أحاط بالمسجد وجعل فيه أبوابا كما كانت بين الدور قبل ان تهدم جعلها فى محاذات
الابواب السابقة * ثم كثر الناس فى زمان أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه فأمر بتوسعة
المسجد واشترى دورا حول المسجد هدمها وادخلها فى المسجد وأبى جماعة عن بيع دورهم ففعل كما
فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهدم دورهم وأدخلها فى المسجد فضج أصحاب الدور وصاحوا
فدعاهم وقال انما جرأكم على حلمى عليكم الم يفعل ذلك بكم عمر رضى الله عنه فما ضج به أحد ولا صاح عليه
وقد احتذيت حذوه فضجرتم منى وصحتم على ثم أمر بهم الى الحبس فشفع فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد
فتركهم ولم يذكر الازرقى رحمه الله متى كانت زيادة امير المؤمنين عمر بن الخطاب ولا زيادة أمير المؤمنين
عثمان بن عفان رضى الله عنهما * وذكر ابن جرير الطبرى وابن الاثير الجوزى فى تاريخهما ان زيادة امير
المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كانت فى سنة سبع عشرة من الهجرة بتقديم السين وان زيادة
امير المؤمنين عثمان بن عفان فى سنة ست وعشرين من الهجرة * اقول زيادة امير المؤمنين عمر بن
الخطاب رضى الله عنه وعمارته للمسجد كانت عقب السيل العظيم سنة سبع عشرة من الهجرة
وتخريبه معالم الحرم الشريف ويقال لذلك السيل سيل ام نهشل * قال شيخ شيوخنا حافظ عصره الشيخ
عمر بن الحافظ التقى محمد بن فهد الهاشمى العلوى رحمهم الله تعالى فى كتاب اتحاف الورى باخبار ام
القرى فى حوادث سنة سبع عشرة فيها جاء سيل عظيم يعرف بسيل ام نهشل من أعلى مكة من طريق
الردم فدخل المسجد الحرام واقتلع مقام ابراهيم من موضعه وذهب به حتى وجد بأسفل مكة وعفى مكانه
الذى كان فيه لما عفاه السيل فأتى به وربط بلصق الكعبة فى وجهها وذهب السيل بام نهشل بنت عبيدة
ابن سعد بن العاص بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى بن كلاب فماتت فيه واستخرجت
بأسفل مكة وكان سيلا هائلا فكتب بذلك الى امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو بالمدينة
الشريفة فأفزعه ذلك وركب فزعا الى مكة فدخلها بعمرة فى شهر رمضان فلما وصل الى مكة وقف على حجر
المقام وهو ملصق بالبيت الشريف ثم قال انشد الله عبدا عنده علم فى هذا المقام فقال المطلب بن ابى
وداعة السهمى رضى الله عنه انا يا امير المؤمنين عندى علم ذلك فقد كنت اخشى عليه مثل هذا الامر

فأخذت قدره من موضعه الى باب الحجر ومن موضعه الى زمزم بمقاط وهى عندى فى البيت فقال له عمر رضى الله عنه اجلس عندى وارسل اليها من يأتى بها فجلس عنده وارسل اليها فأتى بها فقيس ووضع حجر المقام فى هذا المحل الذى هو فيه الآن واحكم ذلك واستمر الى الآن قال وفيها وسع امير المؤمنين رضى الله عنه الردم الذى بأعلى مكة صونا للمسجد وبناه بالضفائر والصخر العظام وكبسه بالتراب فلم يعلم سيل بعد ذلك غير انه جاء سيل عظيم فى سنة اثنتين ومائتين فكشف عن بعض احجاره وشوهدت فيه صخار عظيمة كبيرة لم ير مثلها والاقدمون يسمون هذا الردم ردم بنى جمح بضم الجيم وفتح الميم وبعدها حاء مهملة وهم بطن من قريش نسبوا الى جمح بن عمرو بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك * اقول المراد بهذا الردم الموضع الذى يقال له الآن المدعا وهو ما كان يرى منه البيت الشريف اول ما يرى وكان الناس يرونه خصوصا من يريد الحج من ثنية كداء وهى الحجون اذا وصلوا هذا المحل شاهدوا منه البيت الشريف والدعاء مستجاب عند رؤية بيت الله تعالى وكانوا يقفون هنالك للدعاء واما الآن فقد حالت ابنية عن رؤية البيت الشريف ومع ذلك يقف الناس للدعاء فيه على العادة القديمة وعن يمينه ويساره ميلان للاشارة الى انه المدعا * قال مولانا القاضى جمال الدين محمد ابو البقاء بن الضياء الحنفى فى كتاب البحر العميق فى مناسك الحج الى بيت الله العتيق انه كان يرى فى زمانه رأس الكعبة لا كلها من رأس الردم يعنى المدعا فاذا ظهر له يقف ويدعو ويسأل الله حوائجه فان الدعاء مستجاب عند رؤية البيت * ونقل حافظ الدين النسفى فى المنافع عن صاحب الهداية رحمهما الله تعالى انه استوصى عن شيخ سماه له فقال له اذا وصلت المدعا من كداء ورأيت الكعبة فادع الله تعالى ان يجعلك مستجاب الدعاء لمن قال ان من زارها ودعا كانت دعوته مستجابة انتهى * وكان القاضى ابو البقاء بن الضياء المذكور فى أواسط المائة التاسعة ووفاته فى سنة اربع وخمسين وثمانمائة ولا شك ان من عهد الصحابة رضى الله عنهم الى زمانه كان الناس يقفون ويدعون عنده لمشاهدتهم الكعبة ولا اعلم هل وقف النبى صلى الله عليه وسلم ام لا وكان ذلك المحل غير مرتفع فى عهده صلى الله عليه وسلم وما رفعه الا سيدنا عمر رضى الله عنه بالردم الذى بناه فارتفع عن الارض فصار البيت الشريف يشاهد منه حينئذ فوقف الناس عنده بعد ذلك لمشاهدة البيت الشريف منه ولكنى انظر فى جميع عمرى فى المدعا يوقف فيه تبركا فاللائق استمرار وقوف الناس بهذا المحل الشريف والدعاء فيه تبركا بوقوف من سلف للدعاء فيه والله تعالى اعلم * ولما ردم هذا المكان صار السيل اذا وصل من أعلى مكة لا يعلو هذا المكان بل كان ينحرف عنه الى جهة الشمال للبناء الذى بناه عمر رضى الله عنه فلا يصل هذا السيل الى المسعى ولا الى باب السلام الى الآن وصارت هذه الجهة من يومئذ الى اثناء هذا مرتفعة عن ممر السيل وصار السيل الكبير كله ينحدر الى جهة سوق الليل ويمر بالجانب الجنوبى من المسجد الى ان يخرج من اسفل مكة وهذا السيل وادى ابراهيم ويكاد يمنع جريان هذا السيل الى مكة سيل آخر يعترضه يسمى سيل جياد ويمر عرضا الى ان يصدم الركن اليمانى من المسجد وينحرف الى أسفل مكة وقوة جريان هذا السيل يمنع من جريان سيل وادى ابراهيم فيقف ويتراكم ويدخل المسجد الحرام ويقع مثل هذه السيول بمكة فى كل عشرة اعوام تقريبا مرة فيدخل المسجد الحرام ويحتاج الناس الى التنظيف وتبديل الحصا ونحو ذلك وقد عمل المتقدمون والمتأخرون لذلك طرقا واهتموا لذلك تمام الاهتمام فاندثرت اعمالهم لطول الزمان ولم يتفطن الملوك بعدهم لذلك فاستمرت السيول العظيمة بعد كل مرة تدخل المسجد ولسنا الآن بصدد شرح ذلك * واما زيادة امير المؤمنين عثمان رضى

الله عنه في المسجد الحرام﴾ فقد ذكرها الامام أقضى القضاة الماوردي في كتابه الاحكام السلطانية وغيره من الائمة المعتمدين رحمهم الله تعالى وفي كلام بعضهم زيادة على بعض فقالوا اما المسجد الحرام فكان فناء حول الكعبة وفضاء للطائفين ولم يكن له على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وابي بكر رضي الله عنه جدار يحيط به وكانت الدور محيطة به وبين الدور ابواب تدخل الناس من كل ناحية فلما استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكثر الناس وسع المسجد واشترى دورا وهدمها وزادها فيه واتخذ للمسجد جدارا قصيرا وكانت المصابيح توضع عليه * وكان عمر رضي الله عنه اول من اتخذ الجدار للمسجد الحرام فلما استخلف عثمان رضي الله عنه ابتاع منازل ووسعه بها ايضا وبنى المسجد الحرام والأروقة فكان عثمان أول من اتخذ للمسجد الاروقة انتهى * قال الحافظ النجم عمر بن فهد في تاريخه في حوادث سنة ست وعشرين فيها اعتمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه من المدينة فأتى ليلا فدخل فطاف وسعى وامر بتوسيع المسجد الحرام فذكر ما قدمناه قال وجدد أنصاب الحرم وكلم اهل مكة عثمان رضي الله عنه ان يحول الساحل من الشعيبة وهي ساحل مكة قديما في الجاهلية الى ساحلها اليوم وهي جدة لقربها من مكة فخرج عثمان رضي الله عنه الى جدة ورأى موضعها وأمر بتحويل الساحل اليها ودخل البحر واغتسل فيه وقال انه مبارك وقال لمن معه ادخلوا البحر للاغتسال ولا يدخله احد الا بمئزر ثم خرج من جدة على طريق عسفان الى المدينة وترك الناس ساحل الشعيبة من ذلك الزمان واستمرت جدة بندر الى الآن لمكة شرفها الله تعالى وهي على مرحلتين طويلتين من مكة بسير الاثقال تستوعب احداهما الليل كله في أيام اعتدال الليل والنهار وتزيد المرحلة الثانية على جميع الليل بشيء قليل واما الراكب المجد والساعي على قدميه يقطعهما في ليلة واحدة وما رأيت من علمائنا من صرح بجواز القصر فيها بل رأيت من أدركت من مشايخي الحنفية كانوا يكملون الصلاة فيها وأما أنا فأرى القصر فيها لأن مدة القصر عندنا ثلاث مراحل يقطع كل مرحلة في أكثر من نصف النهار من أقصر الايام بسير الاثقال وهاتان المرحلتان تكونان على هذا الحساب ثلاث مراحل فأزيد * ثم رأيت في موطأ الامام مالك رضي الله عنه حديثا صحيحا يدل على صحة ما جنحت اليه صورته عن مالك أنه بلغه أن ابن عباس كان يقصر الصلاة في مثل ما بين مكة والطائف وفي مثل ما بين مكة وعسفان وفي مثل ما بين مكة وجدة والله اعلم ﴿ثم وقعت زيادة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه﴾ وهو صحابي بن صحابي ابوه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وامه اسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها ذات النطاقين وخالته عائشة الصديقة أم المؤمنين رضي الله عنها * ولد بالمدينة بعد عشرين شهرا من هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وهو أول مولود للمهاجرين بعد الهجرة وفرح المسلمون بولادته فرحا شديدا لان اليهود زعموا انهم سحروا المسلمين فلا يولد لهم ولد وحنكه رسول الله صلى الله عليه وسلم بتمرة لاكها وسماه عبد الله وكناه ابا بكر باسم جده الصديق رضي الله عنه وكان صواما قواما طويل الصلاة وصولا للرحم عظيم الشجاعة قويا قسم الليالي الى ثلاث فليلة يصلي قائما الى الصبح وليلة يصلي ويستمر راكعا الى الصبح وليلة يصلي ويستمر ساجدا الى الصبح وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثين حديثا * وكان ممن ابى البيعة ليزيد وفر الى مكة وأطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان ولم يخرج عن طاعته الا أهل مصر والشام فانهم بايعوا ليزيد فلما هلك أطاع أهلها عبد الله بن الزبير ثم خرج مروان بن الحكم فتغلب على مصر والشام الى أن ولي عبد الملك فجهز جيشا كثيفا على ابن الزبير وامر الحجاج عليهم ابن يوسف الثقفي فحاصره ورمى عليه بالمنجنيق وخذل ابن الزبير اصحابه فخرج

ابن الزبير وجنده وقاتل قتالا عظيما الى أن استشهد رضى الله عنه فى سنة ثلاث وسبعين من الهجرة وانشد فيه النابغة الجعدى

حكيت لنا الصديق لما وليتنا * وعثمان والفاروق فارتاح معدم
وسويت بين الناس فى الحق فاستوى * وعاد صباحا حالك الليل أسحم

وكان لما حاصره الحصين بن نمير فى عسكر جهزه يزيد عليه التجأ الى المسجد الحرام فنصب عليه المجانيق وأصاب بعض حجارة الكعبة فتهدم بعض جدرانها واحترق بعض أخشابها وكسوتها وانهزم الحصين بعسكره لهلاك يزيد وبلوغ خبر نعيه فرأى عبد الله بن الزبير أن يهدم الكعبة ويحكم بناءها ويبنيها على قواعد ابراهيم عليه السلام لما سمعه من حديث عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض وجعلت لها بابا شرقيا وبابا غربيا وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فان قريشا استقصرتها حين بنت الكعبة فان بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلمى لأريك ماتركوا منه فأراها نحوا من سبعة أذرع أخرجه الشيخان فى صحيحيهما * وفى رواية مسلم عن عطاء قال قال ابن الزبير انى سمعت عائشة رضى الله عنها تقول ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لولا أن الناس حديثو عهد بكفر وليس عندى من النفقة ما يقوى على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة اذرع فاستشار عبد الله بن الزبير من بقى من الصحابة رضى الله عنهم فى ذلك فمنهم من أبى ومنهم من وافقه على ذلك فصمم وأقدم على ذلك ﴿ولما أراد هدم البيت الشريف ليجدد بناءه﴾ خرج أهل مكة خوفا فتأخر العمال عن ذلك فارتقى عبد الله بن الزبير عبدا دقيق الساقين وعبيد الله من الحبوش يهدمونه رجاء ان يكون فيهم الحبشى الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة * قال الامام عبد الله بن أسعد اليافعى رحمه الله فى تاريخه مرآة الجنان أراد عبد الله بن الزبير ان يجعل الطين الذى يبنى به الكعبة من الورس فقيل له انه لا يستمسك به البنيان كما يستمسك بالجص فارسل الى صنعاء اليمن طلب منها جصا نظيفة محكما فأتوا به فبنى به الكعبة اه ﴿فلما أكملوا هدمها﴾ كشف منها عن أساس ابراهيم عليه السلام فوجد الحجر داخلا فى البيت فبنى البيت على ذلك الاساس وكان أدار ستراعلى فناء البيت وكان البناة يبنون من وراء ذلك الستر والناس يطوفون من خارج فادخل الحجر فى البيت وألصق باب الكعبة بالارض ليدخل الناس منه وفتح لها بابا غربيا فى مقابلة هذا الباب ليخرج الناس منه كما كان عليه لما جددت قريش الكعبة قبل مبعث النبى صلى الله عليه وسلم وعمره الشريف خمسة وعشرون سنة وكانت النفقة قصرت بقريش لما بنوا الكعبة يومئذ فأخرجوا الحجر من البيت وجعلوا عليه حائطا قصيرا على انه من الكعبة فأزال عبد الله بن الزبير ذلك الوضع وأعادها على ما كانت عليه زمن الجاهلية وهى على قواعد ابراهيم عليه السلام وكان طول الكعبة قبل قريش تسعة أذرع فلما أكمل عبد الله بن الزبير طولها ثمانية عشر ذراعا عرضية لا طول لها فزاد فى طولها تسعة أذرع فصار طولها فى السماء سبعة وعشرين ذراعا ﴿ولما فرغ من بنائها﴾ طيبها بالمسك والعنبر داخلا وخارجا من أعلاها الى أسفلها وكساها بالديباج وبقيت من الحجارة بقية فرشها حول البيت الشريف نحوا من عشرة أذرع * وكان فراغه من عمارة البيت الشريف فى سابع عشر رجب سنة اربع وستين من الهجرة فخرج الى التنعيم هو وأهل مكة معتمرين شكرا لله تعالى ونحر مائة بدنة وذبح كل أحد على قدر وسعه وجعلوا ذلك اليوم عيدا مشهودا وبقيت هذه العمرة سنة عند

أهل مكة الى اليوم يجتمعون الى الاعتمار فيه ولا يكادون يتخلفون عن الاعتمار في هذا اليوم في كل عام ويأتون من البر بقصد هذه العمرة وكان اعتناء الناس بهذه العمرة قبل الآن أكثر وأعظم من الآن بحيث يقال ان صاحب الينبع يومئذ السيد قتادة بن ادريس بن الحسني جد سادا تنا الاشراف ولاة مكة الآن أدام الله تعالى عزهم وسعادتهم لما علم من أمراء مكة يومئذ وهم طائفة أخرى من بني حسن يقال لهم الهواشم للانهماك على اللهو واللذات وكثرة الظلم من عبيدهم على الناس واستيلاء الغرور عليهم ونفرت القلوب عنهم وعدم توجههم الى أحوال البلاد ارتقب الشريف قتادة اليوم السابع والعشرين من رجب واغتنم الفرصة لاشتغال أهل مكة بهذه العمرة وخروجهم بتجملاتهم الى التنعيم فهجم بعبيده وذويه ودخل مكة وهي يومئذ مسورة وولاتها من حسن الهواشم آخرهم الشريف مكثر بن عيسى بن فليتة ففر بمن معه الى جهات اليمن وتمكن السيد قتادة من البلاد وذلك في سنة تسع وتسعين وخمسمائة واستمرت الولاية في ولده الى الآن والى أن يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين وفي سنة أربع وسبعين من الهجرة كتب الحجاج الى عبد الملك بن مروان يذكر له ان عبد الله بن الزبير زاد في الكعبة ما ليس منها وأحدث فيها بابا آخر فكتب اليه عبد الملك ان يعيدها على ما كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهدم الحجاج من جانبها الشامي قدر ستة أذرع وشبرا وبنى ذلك الجدار على أساس قريش وكبس أرضها بالحجارة التي فضلت ورفع الباب الشرقي وسد الباب الغربي وترك سائرها ولم يغير منها شيأ فهي الآن جوانبها الثلاثة من بناء عبد الله بن الزبير والجانب الرابع الشامي بناء الحجاج وهو ظاهر الانفصال من بناء عبد الله بن الزبير * فلما فرغ الحجاج من ذلك وفد عبد الملك ابن مروان وحج في ذلك العام ومعه الحارث بن عبد الله بن ربيعة المخزومي وهو من ثقات الرواة فتهادنا في أمر الكعبة فقال عبد الملك ما أظن ابن الزبير سمع من عائشة ما كان يزعم انه سمع منها في أمر الكعبة فقال الحارث أنا سمعت ذلك من عائشة رضي الله عنها انها تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان قومك استقصروا في بناء البيت ولولا حدثان عهد قومك بالكفر أعدت فيه ما تركوا منه وأعدته على ما كان عليه في زمن ابراهيم فان بدا لقومك ان يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه فأراها قريبا من سبعة أذرع قال صلى الله عليه وسلم وجعلت لها بابين موضوعين على الارض بابا شرقيا يدخل الناس منه وبابا غربيا يخرج الناس منه فقال عبد الملك انت سمعتها تقول ذلك قال نعم سمعت هذا منها قال فجعل ينكت بقضيب في يده منكسا ساعة طويلة ثم قال وددت والله اني تركت ابن الزبير وما تحمل من ذلك ذكره النجم بن فهد رحمه الله تعالى وقد ذكرنا ذلك جميعه بالاستطراد لاشتماله على الفوائد المهمة والحديث مشهور رجعنا الى ما نحن بصدده في ذكر زيادة سيدنا عبد الله بن الزبير في المسجد الحرام * وبسندنا المتقدم ذكره متصلا مرفوعا الى الامام أبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد الازرقي قال حدثني جدي قال كان المسجد الحرام محاطا بجدار قصير غير مسقف وكان الناس يجلسون حول الكعبة بالغداة والعشي يتتبعون الافياء فاذا قلص قامت المجالس * قال وحدثنا جدي حدثنا عبد الرحمن بن الحسن ابن القاسم بن عقبة عن أبيه قال زاد عبد الله بن الزبير في المسجد الحرام واشترى دورا وأدخلها الى المسجد وكان مما اشترى بعض دار جدنا الازرقي وكانت لاصقة بالمسجد الحرام وبابها شارع على باب بني شيبة على يسار الداخل الى المسجد وكانت دارا كبيرة اشترى بعضها ببضعة عشر ألف دينار وأدخلها للمسجد الحرام وكتب لنا الى أخيه مصعب بن الزبير بالعراق يدفع الينا قال فركب رجال منا الى العراق

فوجدوا مصعبا يقاتل عبد الملك بن مروان فلم يلبث الا يسيرا حتى قتل مصعب فرجعوا الى مكة فصار ابن الزبير بعدنا ويداقوننا حتى جاء الحجاج بن يوسف وحاصره وقتل ولم نأخذ منه شيأ * قال وذكر جدى انه سمع مشيخة أهل مكة يذكرون ان عبد الله بن الزبير سقف المسجد غير انهم لا يدرون أكله سقف أم بعضه قال ثم عمره عبد الملك بن مروان ولم يزد فيه لكنه رفع جدرانه وسقفه بالساج وعمره عمارة حسنة * قال وحدثنى جدى حدثنا سفيان بن عيينة عن سعيد بن فروة عن أبيه قال كنت على عمل المسجد فى زمان عبد الملك بن مروان فأمر أن يجعل فى رأس كل اسطوانة خمسين مثقالا من الذهب قال وروى جدى عن سفيان عن عمرو بن دينار عن يحيى بن جعدة عن زادان بن فروح قال مسجد الكوفة تسعة أجربة ومسجد مكة سبعة أجربة وذلك فى زمان عبد الله بن الزبير ﴿ذكر عمارة الوليد ابن عبد الملك للمسجد الحرام﴾ قال شيخ شيوخنا الحافظ السيوطى رحمه الله تعالى كان الوليد جبارا ظالما أخرج أبو نعيم فى الحلية قال عمر بن عبد العزيز الوليد بالشام والحجاج بالعراق وعثمان بن حنارة بالحجاز وقرة بن يزيد بمصر امتلأت الارض والله جورا قال الحافظ السيوطى لكنه أقام الجهاد فى أيامه وفتحت فى دولته الفتوحات العظيمة كأيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه * وقال ابن أبى عبيدة وأين مثل الوليد افتتح الهند والأندلس وبنى مسجد دمشق وكتب بتوسيع المسجد النبوى وبنائه قال أبو الوليد الازرقى قال جدى عمر الوليد المسجد الحرام ونقض عمل عبد الملك وعمل عملا محكما وكان اذا عمل المساجد زخرفها وهو أول من نقل الأساطين الرخام وسقفه بالساج المزخرف وجعل على رؤس الأساطين صفائح الذهب وأزر المسجد بالرخام وجعل للمسجد سرادقات قال النجم عمر بن فهد رحمه الله تعالى بعث الوليد بن عبد الملك الى واليه على مكة خالد بن عبد الله القسرى بستة وثلاثين ألف دينار فضرب منها على بابى الكعبة صفائح الذهب وعلى ميزاب الكعبة وعلى الأساطين التى فى باطنها وعلى الاركان التى فى جوفها ويقال ان الحلية التى حلاها الوليد بن عبد الملك للكعبة هى ما كانت فى مائدة سليمان ابن داود من ذهب وفضة وكانت قد احتملت من طليطلة من جزيرة الأندلس على بغل قوى تفسخ تحتها وكان لها أطواق من ياقوت وزبرجد

﴿الباب الرابع فى ذكر ما زاده العباسيون فى المسجد الحرام﴾

لما انطوى بساط ملك بنى مروان وآل الى آل عباس الامرة والسلطان مزقت بنو أمية كل ممزق وشقق الدهر حلل ايناسهم ومزق وحرق بنار البأس لباسهم وخرق وكان رقص لهم وصفق وكانت ثغور آمالهم بواسم وغرر أيامهم بصنوف اللهو مواسم وورياح عزتهم فى رياض غرتهم نواسم وكانت تضيق بجيوشهم الفضا ويجرى على حسب مطويهم خيول القدر والقضا ثم انحرفت عنهم الأيام فأظلمت اشراقهم وأذرى بلهيب العكس يانع ابراقهم ورمتهم بصواعق ارعادهم وابراقهم فلم يدفع عنهم الرمح ولا الحسام ولم ينفع ما سبق لهم من المن الجسام وأذيق الموت الاحمر مروان الحمار ونزع من تخت الملك الى تحت حافر الحمار فما بكت عليهم الارض وما بقى لهم الا ما قدموه من نفل وفرض ونزعوا من بين الأتراب الى باطن التراب وسبقوا للحساب الى يوم الحساب فسحقا للدنيا الا وفاء فيها لبنيها ولا بقاء للحالة التى تجليها وتجنيها ولا بقاء منها على مجتليها ومجتنيها ذلك عزة عاد وهدمت قصر شداد وأخربت ارم ذات العماد فأف على الدنيا وزخرفها والحذر الحذر من هجوم صرفها وتصرفها كم نادت عليهم حذار حذار من بطشى وفتكى وكم صاحت عليهم لا تغتروا بضحكى ولا

يغركم مني ابتسام فقولي مضحك والفعل مبكي وكانت مدة ملكهم ألف شهر وكان ماتحته مملوءا من الوزر والقهر لتلك المدة كاملة وجعل الله تعالى لبيت النبوة عوض ذلك ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خير من ألف شهر * قال الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر رضي الله عنهما ان النبي صلى الله عليه وسلم قال رأيت ولد الحكم بن العاص على المنابر كأنهم القردة وأنزل الله في ذلك وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس والشجرة الملعونة يعني الحكم وولده * وأخرج ابن مردويه عن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أصبح يوما وهو مهموم فقيل له مالك يارسول الله قال اني رأيت في المنام كأن بني أمية يتعاورون منبري هذا فقيل يارسول الله لاتهتم فانها دنيا تنالهم فأنزل الله تعالى وما جعلنا الرؤيا التي أريناك الا فتنة للناس قال ابن عطية في تفسيره ولا يدخل في هذه الرؤيا عثمان رضي الله عنه ولا معاوية ولا عمر بن عبد العزيز وما كانت في الحقيقة ولاية بني أمية الا فتنة للناس وآل الملك من بعدهم الى آل العباس وأضحكهم الدهر بعد العبوس والباس وألبسهم الدهر حلل الأمر والنهي وأفرحهم بذلك الالباس وآنسهم بعد الوحشة ومادام لهم ذلك الايناس وهكذا الدنيا دول تدول وتدال وما زال لكل زمان دولة ورجال *(فأول من ولي منهم السفاح)* أبو العباس عبد الله ابن محمد بن علي بن العباس رضي الله عنهم وكان أصغر من أخيه أبي جعفر المنصور * قال ابن جرير الطبري كان بدء أمر العباس ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم العباس عمه ان الخلافة تؤول الى ولده فلم يزل ولده يتوقعون ذلك الى أن بويع لولده محمد سرا فلما مات محمد عهد لولده ابراهيم فحبسه مروان وقتله في الحبس فعهد ابراهيم لأخيه عبد الله هذا وبويع له في الكوفة في ثالث ربيع الأول سنة اثنين وثلاثين ومائة وكان مولده سنة ثمان ومائة وتوفي بالجدري في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة وكان نقش خاتمه الله ثقة عبد الله وبه يؤمن وكان بذولا سفاكا قتل في مبايعته من بني أمية واتباعهم مالا يحصى كثرة وتوطأت الممالك من الشرق الى أقصى الغرب وكان عمره ثمانية وعشرين عاما ومدة امارته أربعة أعوام وجرت عادة الله في الملوك والسلاطين قصر أعمار من سفك الدماء منهم * وولي بعده أخوه أبو جعفر المنصور عبد الله * هو اسن من أخيه السفاح وبويع له بعهد من أخيه في اول سنة سبع وثلاثين ومائة وكان ظلوما غشوما وهو اول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين وقتل الأخوين محمدا وابراهيم ابني محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي رضي الله عنهم وكانا خرجا عليه وآذى بسببهما خلقا كثيرا من العلماء قتلا وضربا ممن أفتى بجواز الخروج عليه منهم الامام ابو حنيفة رضي الله عنه أكرهه على القضاء فحبسه فمات في السجن لكونه افتى بالخروج عليه وسمي لبخله ابا الدوانق لمحاسبته الصناع والعمال على الدانق والحبة وقتل ابا مسلم الخراساني وهو الذي قام بدعوة الناس الى بني العباس وشرح ذلك يطول ووطئت له الممالك ودانت له الامصار ولم يخرج عنه غير جزيرة الاندلس ملكها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الاموي فانفرد بالأندلس وطالت مدته وملكها بنوه واستمرت في يدهم مدة * وفي المحرم سنة ثلاثين ومائة امر ابو جعفر المنصور بالزيادة في المسجد الحرام فزيد في شقه الشامي الذي يلي دار الندوة وزاد في أسفله الى ان انتهى الى المنارة التي في ركن باب بني سهم لم يزد في الجانب الجنوبي لاتصاله بسيل الوادي وصعوبة البناء فيه وعدم ثباته اذا قوي السيل عليه ولذلك لم يزد في اعلى المسجد واشترى من الناس دورهم وادخلها في المسجد الحرام

وكان الذي ولي عمارة المسجد لابي جعفر امير مكة يومئذ من جانبه زياد بن عبيد الله الحارثي * وكان من شرطته عبد العزيز بن عبد الله بن مسافع جد مسافع بن عبد الرحمن الشيبي وكان زياد أجحف بدار شيبة ابن عثمان وادخل أكثرها في الجانب الأعلى من المسجد فتكلم مع زياد في أن يميل عنه قليلا ففعل فكان في هذا المحل ازورار في المسجد وأمر أبو جعفر المنصور بعمل منارة هناك فعملت واتصل عمله في اعلى المسجد بعمل الوليد بن عبد الملك وكان عمل أبي جعفر طاقا واحدا باساطين الرخام دائرا على صحن المسجد وكان الذي زاد فيه مقدار الضعف مما كان قبله وزخرف المسجد بالفسيفساء والذهب وزينه بانواع النقوش ورخم الحجر بالحاء المهملة المكسورة ثم الجيم وهو أول من رخمه وكان كل ذلك على يد زياد بن عبد الله الحارثي والي الحرمين والطائف من قبل المنصور وفرغ من عمل ذلك في عامين وقيل في ثلاثة أعوام * وكتب على باب بني جمح احد أبواب المسجد الحرام من جهة الصفا بسم الله الرحمن الرحيم محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين أمر عبد الله أمير المؤمنين المنصور بتوسعة المسجد الحرام وعمارته والزيادة فيه نظرا منه للمسلمين واهتماما بأمورهم والذي زاد فيه الضعف مما كان عليه قبل وفرغ منه ورفعت الأيدي منه في ذي الحجة سنة أربعين ومائة وذلك بتيسير الله على أمير المؤمنين وحسن معونته وكفايته واكرامه له بأعظم كرامته فاعظم الله اجر امير المؤمنين فيما نوى من توسعة المسجد الحرام وأحسن ثوابه وجمع الله لديه خيري الدنيا والآخرة واعز نصره وايده * وحج المنصور في ذلك العام وأحرم من الحيرة وبذل على يده الأموال العظيمة وأعطى أهل المدينة عطايا لم يعطها أحد كان قبله ولما قضى الحج والزيارة توجه الى زيارة بيت المقدس ثم سلك الى الشام ثم أتى الى الرقة فنزلها كذا ذكره الحافظ عمر بن فهد رحمه الله تعالى * وذكر حكاية مفيدة أذكرها استطرادا وان كانت خارجة عن مقصودنا لعظم فائدتها وهي لما حج كان يخرج من دار الندوة الى الطواف آخر الليل فيطوف ويصلي ولم يعلم به أحد فاذا طلع الفجر رجع الى دار الندوة فيجيء المؤذنون ويسلمون عليه ويؤذنون للفجر ويقيمون الصلاة فيخرج يصلي بالناس فخرج ذات ليلة في السحر وشرع يطوف اذ سمع رجلا عند الملتزم يقول اللهم اني اشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق وأهله من الظلم والطمع فأسرع المنصور في مشيته حتى ملأ مسامعه من كلامه ثم خرج من الطواف الى ناحية من المسجد ثم أرسل الى ذلك الرجل يطلبه فصلى ركعتين وقبل الحجر وأقبل مع الرسول وسلم على المنصور فقال له المنصور ما هذا الذي سمعتك تقول من ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق واهله من الظلم والطمع فوالله لقد حشوت مسامعي ما أقلقني وامرضني واشغل خاطري فقال يا أمير المؤمنين ان أمنتني على نفسي وصغيت الى باذن واعية انبأتك بالامور من اصلها والا احتجبت عنك بقدرة الله واقتصرت على نفسي ففيها لي شغل شاغل عن غيري فقال انت آمن على نفسك فقل فاني ألقي اليك السمع وانا شهيد بالقلب فقال ان الذي داخله الطمع حتى حال بينه وبين الحق ومنع عن اصلاح ما ظهر من البغي والفساد في الارض هو أنت فقال ايها الرجل كيف يداخلني الطمع والصفراء والبيضاء بيدي والحلو والحامض في قبضتي ومن يحول بيني وبين ما أريد من ذلك فقال هل اذا دخل الطمع أحدا من الناس ما داخلك يا امير المؤمنين ان الله عز وجل استرعاك امور المؤمنين وأنفسهم وأموالهم

فأغفلت أمورهم واهتممت بجمع أموالهم وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر وأبوابا من الخشب والحديد وحجابا معهم السلاح واتخذت وزراء فجرة وأعوانا ظلمة ان نسيت لا يذكرونك وان أحسنت لا يعينونك وقويتهم على ظلم الناس بالاموال والسلاح والرجال وامرت أن لا يدخل عليك غيرهم من الناس ولم تأمر بايصال المظلوم اليك ومنعت عن ادخال الملهوف عليك وحجبت الجائع والعارى والمحتاج وما أحد منهم الا وله حق فى هذا المال فما زال هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرتهم أن لا يحجبوا عنك يقولون فى أنفسهم هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه فاتفقوا على أن لا يصل اليك من أخبار الناس الا ما أرادوه ولا يخالف أمرهم عامل الا أقصوه عنك وأبعدوه فلما انتشر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس وهابوهم وأكرموهم وهادوهم وكان أول من صانعهم وداراهم عمالك بالأموال والهدايا والرشاء فتقووا بها على ظلم رعيتك ليظلموا من دونهم فامتلأت بلاد الله تعالى بالظلم والغشم وزاد بغيهم وطمعهم وكثر فسادهم وافسادهم وصار هؤلاء شركاءك فى سلطانك وأنت غافل فان جاءك متظلم حيل بينه وبين الوصول اليك وان أراد رفع قصته اليك وصرخ بين يديك ضرب ضربا مبرحا ليكون نكالا لغيره وأنت تنظر بعينك ولا ترحم بقلبك فان سألت عنه قالوا أساء الأدب فأدبناه وجهل مقامك فضربناه فما بقاء الاسلام على هذه المظالم والآثام وانى سافرت الى أرض الصين فقدمتها وقد أصاب ملكها آفة أذهبت سمعه فجعل يبكى فقال له وزراؤه لم تبكى لا بكت عيناك فقال انى لا أبكى على فقد سمعى ولكنى أبكى على المظلوم يصرخ ببابى يطلب رفع ظلامته فلا أسمع صوته وحيث ذهب سمعى فان بصرى لم يذهب فنادوا فى الناس ان لا يلبس الأحمر الا مظلوم لأميزه بالنظر فأعينه وكان يركب الفيل كل يوم ليرى المظلوم ويستدنيهم ويرفع عنهم ظلامتهم انظر يا مسكين هذا مشرك بالله غلبت رأفته بالمشركين على رأفتك بالمسلمين وأنت مؤمن بالله وابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وان الاموال لا تجمع الا لواحد من ثلاثة أمور ان قلت أجمعها للولدى فقد أراك الله عبرا فى الطفل يخرج من بطن أمه عريانا ما له على وجه الأرض مال وما من مال الا ودونه يد شحيحة تحويه وتصونه عن كل احد فما زال الله تعالى يلطف بذلك الطفل حتى يسوق اليه ما قدره له من المال فيملكه ويحويه كما حواه غيره ولست بالذى يعطى من يشاء ويمنع من يشاء لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع وان قلت اجمع المال ليشتد به سلطانى فقد أراك الله عبرا فيمن كان قبلك ما أغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وما أعدوا من السلاح والكراع وما ضرك ما كنت أنت وولدا بيك عليه من الضعف والقلة حين أراد الله بكم ما أراد وان قلت أجمع المال لطلب غاية هى أعلى مما أنت فيه فوالله ما فوق ما أنت فيه منزلة تدرك الا بالصالح واعلم بانك لا تعاقب أحدا من رعيتك اذا عصاك بأعظم من القتل وان الله تعالى يعاقب من عصاه بالعذاب الاليم وانه يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور فكيف يكون وقوفك غدا بين يديه وقد نزل ملك الدنيا من يدك ودعاك الى الحساب هل يغنى عنك ما كنت فيه شيأ * قال فبكى المنصور بكاء شديدا حتى ارتفع صوته ثم قال كيف احتيالى فيما خولت ولم أر من الناس الا خائنا قال يا أمير المؤمنين عليك بالائمة الاعلام الراشدين قال ومن هم قال العلماء العاملون قال فانهم قد فروا منى قال نعم فروا منك مخافة أن تحملهم على ما ظهر لهم من طريقتك فاذا فتحت الابواب وسهلت الحجاب ونصرت المظلوم ومنعت الظالم وظهرت بالعدل ونشرت الفضل فانى ضامن لمن هرب منك أن يعود اليك * وجاء حينئذ المؤذنون وسلموا عليه وأذنوا للفجر وأقاموا فقام المنصور للصلاة وصلى بالناس واذا بالرجل قد غاب من

بين أيديهم فلما فرغ المنصور من الصلاة سأل عنه فقالوا ذهب فقال ان لم تأتونى به عاقبتكم عقابا شديدا فذهبوا يلتمسونه فوجدوه فى الطواف فتقدم اليه الحرس وقال انطلق معى والا هلكت وهلكت من معى فقال كلا لا يقدر عليك وأخرج من جيبه ورقة وقال ضعها فى جيبك فلا ينالك منه سوء فانه دعاء الفرج قال وما دعاء الفرج قال دعاء لا يرزقه الا السعداء من دعا به صباحا ومساء هدمت ذنوبه واستجيب دعاؤه وبسط الله تعالى رزقه عليه وأعطاه أمله وأعانه على عدوه وكتب عند الله تعالى صديقا فقال لى اقرأ على لآخذه عنك وأتلقه منك * فقال قل اللهم كما لطفت فى عظمتك دون اللطفاء وعلوت بعظمتك على العظماء وعلمت ما تحت أرضك كعلمك بما فوق عرشك وكانت وساوس الصدور كالعلانية عندك وعلانية القول كالسر فى علمك وانقاد كل شئ لعظمتك وخضع كل ذى سلطان لسلطانك وصار أمر الدنيا والآخرة كله بيدك اجعل لى من كل هم أمسيت فيه فرجا ومخرجا اللهم ان عفوك عن ذنوبى وتجاوزك عن خطيئتى وسترك على قبيح عملى أطمعنى أن أسألك مالا أستوجبه منك فصرت أدعوك آمنا وأسألك مستأنسا وانك المحسن الى وأنا المسئ الى نفسى فيما بينى وبينك تتودد الى بالنعم وأتبغض اليك بالمعاصى ولكن الثقة بك حملتنى على الجراءة عليك فعد بفضلك واحسانك الى انك أنت التواب الرحيم قال فقرأته وأخذت الورقة فى جيبى واذا بالرسل تسعى الى تستعجلنى فأتيته واذا هو جزع يتلظى فلما وقع نظره على سكن غضبه وغيظه وتبسم وقال لى ويلك أتحسن السحر فقلت لا والله يا أمير المؤمنين ثم قصصت عليه أمرى ثم قال هات الورقة فأخذها وصار يبكى الى ان بل لحيته وأمر لى بعشرة دنانير ثم قال أتعرف الرجل فقلت لا قال ذلك الخضر عليه السلام * قلت وأنا أروى هذه الحكاية عن والدى الشيخ علاء الدين أحمد القادرى الخرقانى النهروانى الحنفى نزيل مكة المشرفة رحمه الله تعالى قال أنبأنى بهذه الحكاية العز بن عبد العزيز بن النجم عمر بن فهد عن القاضى زين الدين أبو بكر بن الحسين العثمانى المراغى عن الحافظ يوسف بن عبد الرحمن المزى * قال أنبأنا الامام أبو الحسن على بن أحمد بن البخارى عن الحافظ أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى قال له أنبأنا محمد بن ناصر أنبأنا المبارك بن عبد الجبار أنبأنا محمد بن على بن الفتح حدثنا أبو نصر محمد بن محمد النيسابورى عن ابراهيم بن أحمد الخشاب حدثنا أبو على الحسن بن عبد الله الرازى حدثنا المثنى حدثنا سلمة القرشى قاضى اليمن قال سمعت أبا المهاجر المكى يقول قدم المنصور مكة وكان يخرج من دار الندوة الى الطواف آخر الليل وساق الحكاية بطولها قال النجم عمر بن فهد رحمه الله * وفى سنة ثمان وخمسين ومائة عزم على الحج أبو جعفر المنصور وكان يريد قتل سفيان الثورى فلما وصل الى بئر ميمون بعث الى الخشابين فقال لهم ان رأيتم سفيان الثورى فاصلبوه فجاؤا ونصبوا له الخشب وكان جالسا بفناء الكعبة ورأسه فى حجر فضيل بن عياض ورجلاه فى حجر سفيان بن عيينة فقيل له يا أبا عبد الله قم واختف ولا تشمت بنا الاعداء فتقدم الى أستار الكعبة وأخذها ثم قال برئت منه ان دخلها أبو جعفر وعاد الى مكانه فركب أبو جعفر وعاد الى مكانه فركب أبو جعفر المنصور من بئر ميمون فلما كان بين الحجون سقط عن فرسه فاندقت عنقه فمات لوقته فى سابع الحجة وقت السحر فحفروا له مائة قبر ودفنوه فى أحدها ليعموا قبره على الناس وبر الله قسم عبده سفيان فانظر الى عباد الله المخلصين وادلالهم على جناب قدس رب العالمين وكيف حال أهل الدنيا المغرورين وكيف تضمحل عظمتهم فى عظمة سلطان السلاطين وما أحقر سلطان البشر المخلوق من ماء مهين وما أسرع زوال ملكه وصيرورته عبرة للمعتبرين ان فى ذلك لعبرة لاولى الابصار ويعلم ان الملك لله الواحد

القهار لا شريك له في الملك ولا ولي له من الذل على الدوام والاستمرار (والمنصور هو الذي بنى مدينة بغداد ومولده سنة خمس وتسعين ومدة ملكه اثنان وعشرون سنة وثلاثة أشهر وعاش أربعا وستين سنة وكان رأى مناما يدل على قرب أجله فعهد الى ولده محمد وسار الى الحج وتوفي كما ذكرنا * (وولي بعده الملك والخلافة ولده أبو عبد الله محمد ولقبه المهدي) * ثالث من ولي من العباسيين وقام بالبيعة له بمكة لما مات أبوه أبو الربيع بن يونس الحاجب وأسرع بارسال الخبر اليه فوصل اليه الخبر في بغداد فكتم الامر ثم جمع الناس فخطبهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ان المنصور امير المؤمنين عبد دعي فأجاب وأمر فأطاع ثم ذرفت عيناه ثم قال بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم بفراق الاحبة وقد فارقت عظيما وقلدت جسيما فعند الله احتسب أمير المؤمنين وبه أستعين على تقلد أمور المسلمين ونزل فبايعه الناس وأول من جمع بين تعزيته وتهنئته أبو دلامة الشاعر حيث قال

عيناي واحدة ترى مسرورة * بأميرها جذلى وأخرى تذرف
تبكي وتضحك تارة ويسوءها * ما أنكرت ويسرها ما تعرف
فيسوءها موت الخليفة محرما * ويسرها ان قام هذا يخلف
ما ان رأيت كما رأيت ولا أرى * شعرا أسرحه وآخر انتف
هذا حباه الله فضل خلافة * ولذاك جنات النعيم تزخرف

وكان المهدي لما شب ولاه أبوه طبرستان والري وما يليها فتأدب وتميز وجالس العلماء وكان كريما مليح الشكل شجاعا محبا للعلماء وكان يقول ادخلوا على العلماء والقضاة واحضروهم عندي فلو لم يكن من حضورهم الا رد المظالم حياء منهم لكان خيرا وقدم عليه مروان بن أبي حفصة الشاعر فأنشده قصيدة فلما وصل الى قوله

اليك قصرنا النصف من صلواتنا * مسيرة شهر بعد شهر نواصله
وما نحن نخشى أن يخيب مسيرنا * اليك ولكن أهنأ البر عاجله

فضحك المهدي وقال كم بيتا قصيدتك قال سبعون بيتا فامر له بسبعين ألف درهم قبل أن يتم انشادها وله شعر رقيق لطيف احسن من شعر ابيه واولاده بكثير ومنه ما ذكره الصولي وهو

ما يكف الناس عنا * ما يريد الناس منا
انما همتهم * أن ينبشوا ما قد دفنا
لو سكنا باطن الارض لكانوا حيث كنا
ان أرادوا كشف أمر * قد سترناه كشفنا

ومن نظمه هذا البيت من عدة أبيات نظمها في جارية كان يحبها حبا شديدا

أما يكفيك انك تملكيني * وان الناس كلهم عبيدي

وكان المهدي يحب الحمام فدخل عليه غياث وكان يروي الحديث فقال يروى عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا لا سبق الا في حافر أو نصل وزاد فيه أو جناح ففهم المهدي انه وضع له هذه الزيادة في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يجبه بالرد تأدبا وامر له بعشرة آلاف درهم فلما قام قال المهدي اشهد ان قفاك قفا كذاب ثم امر بذبح ما عنده من الحمام فذبحت وكان نقش خاتمه الله ثقة محمد وبه يؤمن وحكى الربيع قال عرض على المنصور يوما خزائن مروان بن محمد وكان من جملتها اثنا عشر الف عدل ثياب

خز فأخرج منها ثوبا واحدا ودعا الخياط وقال فصل من هذا جبة لي وجبة لولدي محمد المهدي فقال لا يجيء منه جبتان فقال فصل جبة وقلنسوة وبخل ان يخرج ثوبا آخر منها فلما أفضت الخلافة الى ولده محمد المهدي أمر بتلك الثياب كلها بعينها ففرقها كلها في عبيده وخدمه في ساعة واحدة وكان جوادا شجاعا كثير اللهو والصيد الا انه يكره الزنادقة وقتل منهم خلقا كثيرا وأوصى ابنه الهادي بقتلهم حيث وجدهم * قال النجم عمر بن فهد في حوادث سنة ستين ومائة وفيها حج أمير المؤمنين المهدي العباسي وحمل له الأمير محمد بن سليمان الثلج حتى وافى به مكة وهذا شيء لم يتم لأحد قبله ونزل المهدي دار الندوة وجاءه عبيد الله بن عثمان بن ابراهيم الحجبي في ساعة خالية منتصف النهار فأدخل عليه فقال له ان معي شيأ لم يحمل لأحد قبلك فكشف له من الحجر الذي فيه صورة قدمي ابراهيم خليل الله عليه السلام وهو الذي يزار الآن بمقام ابراهيم عليه السلام فسر المهدي بذلك وقبله وتمسح به وصب فيه ماء وشرب به وأرسله الى أهله وأولاده فتمسحوا به وشربوا منه ثم احتمله وأعاده الى مقام ابراهيم وأعطاه المهدي جوائز كثيرة وأقطعه خيفا بوادي نخلة يقال له ذات الفريع فباعه بعد ذلك بسبعة آلاف دينار * وذكر حجبة الكعبة للمهدي انه تراكمت على الكعبة كسوة كثيرة أثقلتها ويخاف على جدرانها من ثقلها فأمر بنزعها فنزعت حتى بقيت مجردة ووجدوا كسوة هشام من الديباج الثخين وكسوة من قبله عامتها من ثياب اليمن فجردت الكعبة منها وطلي جدرانها من داخلها وخارجها بالغالية والمسك والعنبر وصعد الخدام على سطح الكعبة وصاروا يسكبون قوارير الغالية المسكة المطيبة على جدارات الكعبة الى ان استوعبوها ثم كسيت ثلاث كساوى من القباطي والخز والديباج وقسم المهدي في الحرمين الشريفين أموالا عظيمة وهي ثلاثون ألف ألف درهم ووصل بها معه من العراق وثلثمائة ألف دينار وصلت اليه من مصر ومائتا ألف دينار وصلت اليه من اليمن ومائة ألف ثوب وخمسون ألف ثوب ففرق جميع ذلك على أهل الحرمين واستدعى قاضي مكة يومئذ وهو محمد الاوقص بن محمد بن عبد الرحمن المخزومي وأمره ان يشتري دورا في أعلا المسجد ويهدمها ويدخلها في المسجد الحرام واعد لذلك أموالا عظيمة فاشترى القاضي جميع ما كان بين المسجد الحرام والمسعى من الدور فما كانت من الصدقات والاوقاف اشترى للمستحقين بدلها دورا في فجاج مكة واشترى كل ذراع يكسر في مثله مما دخل في المسجد بخمسة عشر دينارا فكان مما دخل في ذلك الهدم دار الازرقي وهي يومئذ لاصقة بالمسجد الحرام من أعلاه على يمين الخارج من باب بني شيبة وكان ثمن ناحية منها ثمانية عشر ألف دينار وكان أكثرها داخل في المسجد الحرام في زيادة عبد الله بن الزبير ودخلت أيضا دار خيرة بنت سباع الخزاعية وكان ثمنها ثمانية وأربعين ألف دينار دفعت اليها وكانت شارعة على المسعى يومئذ قبل ان يؤخر المسعى ودخلت أيضا دار لآل جبير بن مطعم ودار شيبة بن عثمان اشترى جميع ذلك وهدم وادخل في المسجد وجعل دار القوارير رحبة بين المسجد الحرام والمسعى حتى استقطعها جعفر البرمكي من الرشيد لما آلت الخلافة اليه فبناها دارا ثم صارت الى حماد البربري فعمرها وزين باطنها بالقوارير وظاهرها بالرخام والفسيفساء * قلت وتداولت الايدي عليها بعد ذلك الى ان صارت رباطين متلاصقين أحدهما كان يعرف برباط المراغي والثاني كان يعرف برباط السدرة فاستبدلهما السلطان قايتباي وبناهما مدرسة ورباطا في سنة ثمان وثمانين وثمانمائة ووقف عليها مسقفات بمكة وأقطاعا بمصر وهو باق الى الآن صدقة جارية على سكانه غير انه شرع في أوقافه الخراب لاستيلاء الايدي الجائرة عليها عمر الله من عمرها وأحسن الى من أحسن نظرها وهذه الزيادة الأولى

للمهدي في اعلى المسجد وكذلك في أسفل الى ان انتهى به الى باب بني سهم ويقال له الآن باب العمرة
والى باب الخياطين ويقال له الآن باب الخياطين وكذلك زاد من الباب الشامي الى منتهاه الآن وكذلك
زاد في الجانب اليماني أيضا الى قبة الشراب وتسمى الآن قبة العباس والى حاصل الزيت وكان بين جدار
الكعبة اليماني وجدار المسجد الحرام الذي يلي الصفا تسعة وأربعون ذراعا ونصف ذراع وكان ماوراءه
مسيل الوادي فهذه كلها الزيادة الأولى للمهدي وأمر بالاساطين فنقلت من مصر ومن الشام وحملت بحرا
الى قرب جدة في موضع كان في أيام الجاهلية ساحلا لمكة يقال لها الشعيبة فجمعت هناك لان مرساه
قريب بخلاف بندر جدة لان مرساه التي تقف فيه السفينة بعيدة من البر وصارت أساطين الرخام تحمل
منها على العجل وتجر ونحكى العربان بان بها الآن بقايا أساطين رخام دفنها الريح بالرمل والله أعلم بحقيقة
ذلك * وعمل الأساس لتلك الاساطين بحيث حفر لها في الأرض جدارات على شكل الصليب أقاموا
كل اسطوانة على موضع القاطع كشف منه السيل العظيم الواقع في سنة ثلاثين وتسعمائة فشاهدنا
أساس الأساطين على هذا الوجه واستمر عليهم الى سنة أربع وستين ومائة فحج المهدي في ذلك العام
وشاهد الكعبة المعظمة ليست في وسط المسجد بل في جانب من وراء المسجد قد اتسع من اعلاه واسفله
ومن جانبه الشامي وضاق من الجانب اليماني الذي يلي مسيل الوادي وكان في محل السيل الآن بيوت
الناس وكانوا يسلكون من المسجد في بطن الوادي ثم يسلكون زقاقا ضيقا ثم يصعدون الى الصفا وكان
المسعى في موضع المسجد الحرام اليوم وكان بابه دار محمد بن عباد بن جعفر العبادي عند حد ركن المسجد
اليوم عند موضع المنارة الشارعة في نحر الوادي يردونها في بعض المسجد الحرام اليوم فهدموا أكثر
دار محمد بن عباد بن جعفر العبادي وجعلوا المسعى والوادي فيها وكان عرض الوادي من الميل الأخضر
اللاصق للمأذنة التي في الركن الشرقي وكان هذا الوادي مستطيلا الى أسفل المسجد الآن يجري فيه
السيل ملاصقا لجدار المسجد اذ ذاك وهو الآن بطن المسجد من الجانب اليماني * فلما رأى المهدي تربيع
المسجد الحرام ليس على الاستواء ورأى الكعبة الشريفة في الجانب اليماني من المسجد أراد لتكون
الكعبة في وسط المسجد فقال له لا يمكن ذلك الا بأن تهدم البيوت التي على حافة المسيل في مقابلة
الجدار اليماني من المسجد وينقل المسيل الى تلك البيوت ويدخل المسيل في المسجد كما قدمنا ومع ذلك
فان وادي ابراهيم له سيول عارمة وهو واد حدور يخاف ان حولناه عن مكانه ان لا يثبت أساس البناء
فيه على ما نريد من الاستحكام فتذهب به السيول وتعلو السيول فيه فتنصب في المسجد ويلزم هدم دور
كثيرة وتكثر المؤنة وتكبر ولعل ذلك لا يتم فقال المهدي لابد ان أزيد هذه الزيادة ولو أنفقت جميع بيوت
الأموال وصمم على ذلك وعظمت نيته واشتدت رغبته وصار يلهج به فهندس المهندسون ذلك بحضوره
وربطوا الرماح ونصبوها على أسطحة الدور من أول الوادي الى آخره وربعوا الوادي من فوق الأسطحة
وطلع المهدي الى جبل أبي قبيس وشاهد تربيع المسجد ورأى الكعبة في وسط المسجد ورأى
ما يهدم من البيوت ويجعل مسيلا ومحلا للسعي وشخصوا له ذلك بالرماح المربوطة من الاسطحة ووزنوا له ذلك
مرة بعد أخرى حتى رضي به * ثم توجه الى العراق وخلف الأموال الكثيرة لشراء هذه البيوت
والصرف على هذه العمارة العظمى وهذه هي الزيادة الثانية للمهدي في المسجد الحرام هذا ملخص
ما ذكره الأزرقي والفاكهي والحافظ نجم الدين عمر بن فهد في تواريخهم رحمهم الله تعالى * وههنا
اشكال * ما رأيت من تعرض له وهو ان السعي بين الصفا والمروة من الأمور التعبدية التي أوجبها الله

تعالى علينا فى ذلك المحل المخصوص ولا يجوز لنا العدول عنه ولا تعتبر هذه العبادة الا فى ذلك المكان المخصوص الذى سعى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه وعلى ما ذكره هؤلاء الثقات ادخل ذلك المسعى فى الحرم الشريف وحول المسعى الى دار ابن عباد كما تقدم * وأما المكان الذى يسعى فيه الآن فلا يتحقق انه بعض من المسعى الذى سعى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أو غيره فكيف يصح السعى فيه وقد حول عن محله كما ذكره هؤلاء الثقات ولعل الجواب عن ذلك ان المسعى فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عريضا وبنيت تلك الدور بعد ذلك فى عرض المسعى القديم فهدمها المهدى وأدخل بعضها فى المسجد الحرام وترك بعضها للسعى فيه ولم يحول تحويلا كليا والا لانكره علماء الدين من الأئمة المجتهدين رضوان الله عليهم أجمعين مع توفرهم اذ ذاك فكان الامامان أبو يوسف ومحمد بن الحسن رضى الله عنهما والامام مالك بن أنس رضى الله عنه موجودين يومئذ وقد أقروا ذلك وسكتوا وكذلك من صار بعد ذلك الوقت فى مرتبة الاجتهاد كالامام الشافعى وأحمد بن حنبل وبقية المجتهدين رضوان الله عليهم أجمعين فكان اجماعا منهم رضى الله عنهم على صحة السعى من غير نكير نقل عنهم * وبقى الاشكال فى جواز ادخال شئ من المسعى فى المسجد وكيف يصير ذلك مسجدا وكيف حال الاعتكاف فيه وحله بأن يجعل حكم المسعى حكم الطريق فيصير مسجدا ويصح الاعتكاف فيه حيث لم يضر من يسعى فاعلم ذلك وهذا مما انفردت ببيانه ولله الحمد على التوفيق لتبيانه

﴿فصل﴾ ومما يلائم ما نحن فيه ما نقل فى التعدى على المسعى الشريف واغتصاب ما وقع قبل عصرنا بنحو مائة عام فى أيام دولة الجراكسة فى سلطنة الملك الاشرف قايتباى المحمودى سامحه الله تعالى ومحصله انه كان تاجر يخدمه قبل سلطنته ويتعاطى له متاجره مع دينه وخيريته ومآثره الجميلة واعتقاده فى العلماء والصلحاء واتصافه بطلب العلم أيضا وكان السلطان قايتباى أرسله الى مكة ليتعاطى له متاجره وليعمر له مدرسة ويعمر جانبا من الحرم الشريف ومن المسجد الشريف النبوى بعد الحريق المشهور الواقع فى سنة ست وثمانين وثمانمائة وبنى له المدرسة التى فى المدينة الشريفة وأجرى عين الزرقاء بالمدينة وعين خليص من طريق المدينة وعين عرفات وغير ذلك من الخيرات الجارية الى الآن فيران حب الجاه ونفاذ الامر أوقعه فيما نذكره * وهو انه كان بين الميلين ميضأة أمر بعملها الملك الاشرف شعبان بن الناصر حسن بن قلاوون وكانت فى مقابلة باب على حدها من الشرق بيوت للناس ومن الغرب المسعى الشريف ومن الجنوب سيل وادى ابراهيم الذى يقال له الآن سوق الليل ومن الشمال دار سيدنا العباس رضى الله عنه الذى هو الآن رباط يسكنه الفقراء فاستأجر الخواجا شمس الدين بن الزمن هذه الميضأة وهدمها وتقدم من جانب المسعى نحو ثلاثة أذرع وحفر أساسه ليبنى بها رباطا لسكن الفقراء فمنعه من ذلك قاضى القضاة بمكة عالم المسلمين وقاضى الشرع المبين القاضى برهان الدين ابراهيم بن على بن ظهيرة الشافعى فلم يمتنع من ذلك فجمع القاضى ابراهيم محضرا فلاحضره علماء المذاهب الاربعة ومن أجلهم مولانا الشيخ زين الدين قاسم بن قطلوبغا الحنفى رئيس العلماء الحنفية يومئذ والشيخ شرف الدين موسى بن عيد المالكى والقاضى علاء الدين الردادى الحنبلى وبقية العلماء المكيين والقضاة والفقهاء وطلب الخواجا شمس الدين بن الزمن وأنكر عليه جميع الحاضرين وقالوا له فى وجهه ان عرض المسعى كان خمسة وثلاثين ذراعا وأحضر النقل من تاريخ الفاكهى وذرعوا من ركن المسجد الى المحل الذى وضع فيه ابن الزمن أساسه فكان سبعة وعشرين ذراعا فقال ابن الزمن

المنع خاص بي أو بجميع الناس فقال له القاضي أمنعك الآن لانك مباشر في هذا الحال لهذا الفعل الحرام وأمر المغيرة أيضا بازالة تعديه وتوجه القاضي بنفسه الى محل الأساس ومنع البنائين والعمال من العمل وأرسل عرضا ومحضرا فيه خطوط العلماء الى السلطان قايتباي وكتب ابن الزمن أيضا اليه وكانت الجراكسة لهم تعصب وقيام ومساعدة من يلوذ بهم ولو على الباطل * فلما وقف على تلك الاحوال السلطان قايتباي نصر ابن الزمن وعزل القاضي ابراهيم وولى خصمه المنصب وأمر أمير الحاج أن يضع الاساس على مراد ابن الزمن ويقف عليه بنفسه وكان أمير الحاج شيبك الجمالي فوصل في موسم سنة خمس وسبعين وثمانمائة ووقف بنفسه بالليل وأوقد المشاعل وأمر البنائين والعمال بالبناء خوفا من انكار العلماء عليهم فبنوه الى أن صعد وابه وجه الارض وجعل ابن الزمن ذلك رباطا وسبيلا وبنى في جانبه دارا وصغر الميضأة جدا وجعل لها بابا من جهة سوق الليل وجعل في جانب الميضأة مطبخا يطبخ فيه الدشيشة ويقسم على الفقراء ووقف على ذلك دورا بمكة ومزارع بمصر واستمرت الى أن انقطع ذلك الطبيخ وبيعت القدور بل والدور ويالله العجب من ابن الزمن وما ذكرناه في فضله وخيريته كيف ارتكب هذا المحرم باجماع المسلمين طالبا به الثواب وكيف تعصب له سلطان عصره السلطان قايتباي مع انه أحسن ملوك الجراكسة عقلا ودينا وخيرية وهو يأمر بفعل هذا الأمر المجمع على حرمته في شعر من مشاعر الله تعالى وكيف يعزل قاضي الشرع الشريف لكونه نهى عن منكر ظاهر الانكار فرحم الله الجميع وسامحهم وغفر لهم * وأين هذا مما يحكى عن أنوشروان العادل وهو من أهل الكفر لما أراد المهندسون تسوية ايوانه بادخال قطعة أرض لعجوز بعد أن بذلوا لها أضعاف ثمن أرضها فأبت فأمر بعدم التعرض لأرضها فبقي في ايوانه ازورار بسبب ذلك فقيل هذا الازورار خير من الاستقامة وصار ذلك مثلا يذكر بعد ألوف من السنين وقال

وانما المرء حديث بعده * فكن حديثا حسنا لمن روى

(فصل) * قال الحافظ نجم الدين عمر بن فهد في حوادث سنة سبع وستين ومائة ما ملخصه فيها هدمت الدور التي اشتريت لتوسعة المسجد والزيادة فيه الزيادة الثانية للمهدي فهدموا أكثر دار محمد ابن عباد وجعلوا المسعى والوادي فيها وهدموا ما بين الصفا والوادي من الدور وخرقوا الوادي في موضع الدور حتى أوصلوه الى مجرى الوادي القديم في الاجياد الكبير وهو الآن الطريق الذي يمر منه الى دور السادة الأشراف أمراء مكة المشرفة عمر الله بهم البلاد وأزال بوجودهم مواد الفتنة والفساد وابتدؤا من باب بني هاشم من أعلى المسجد ويقال له الآن باب علي رضي الله عنه ووسع المسجد منه الى أسفل المسجد وجعل في مقابلة هذا الباب بابا في المسجد يعرف الآن بباب حزورة ويحرفونه العوام فيسمونه باب عزورة لان السيل اذا زاد على مجرى الوادي ودخل المسجد خرج من هذا الباب الى أسفل مكة فاذا طفح عن ذلك خرج من باب الحناطين أيضا ويسمى الآن باب ابراهيم فيمر السيل ولا يصل الى جدار الكعبة الشريفة من الجانب اليماني وكان من جدار الكعبة الى الجدار اليماني من المسجد المتصل بالوادي تسعة وأربعون ذراعا ونصف ذراع فلما زيدت هذه الزيادة الثانية فيه صار من المسجد أولا الى الجدار الذي عمل آخرا وهو باق الى اليوم تسعون ذراعا فاتسع المسجد غاية الاتساع وأدخل في قرب الركن اليماني من المسجد في أسفله دار أم هانئ لان دارها رضي الله عنها كانت بقرب هذا الباب داخل المسجد الحرام الآن ومن هذا الباب يدخل الى المسجد أمراء مكة سادتنا الأشراف آل الحسن بن علي

ابن أبي طالب رضي الله عنه وكانت عند دار أم هانئ رضي الله عنها بئر جاهلية حفرها قصي بن كلاب أحد أجداد النبي صلى الله عليه وسلم فأدخلت أيضا تلك البئر في المسجد الحرام وحفر المهدي عوضها بئرا خارج الحزورة يغسلون عندها الموتى من الفقراء ومن أبواب المسجد من أسفله باب بني سهم يعرف الآن بباب العمرة لان المعتمرين من التنعيم يدخلون منه الى المسجد من أعلى مكة كما هو السنة الشريفة وسيأتي ذكر بقية أبواب المسجد الحرام عند ذكر العمارة الشريفة السلطانية العثمانية خلد الله ملك سلطنتها الى قيام الساعة ان شاء الله تعالى واستمر البناة والمهندسون في بناء الزيادة ووضع الأعمدة الرخام وتسقيف المسجد بالخشب الساج المنقش بالألوان نقرا في نفس الخشب كما أدركناه وكان في غاية الزخرفة والاحكام باقيا فيه لون اللازورد في غاية الصفاء والرونق بالنسبة الى لازورد هذا الزمان واستمر عملهم الى ان توفي المهدي رحمه الله لثمان بقين من المحرم سنة تسع وستين ومائة قبل أن تتم عمارة المسجد على الوجه الذي أراده وكان مولده في جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين ومائة ومدة ملكه احدى عشرة سنة وشهرا وعاش ثلاثا وأربعين سنة وعقد الامر لولده موسى الهادي

﴿فصل في ولاية أبي محمد موسى الهادي بن المهدي بن المنصور العباسي﴾ ولد بالري في سنة سبع وأربعين ومائة وأمه أم ولد تسمى الخيزران والده هرون الرشيد وكان حين موت والده بجرجان وقد عهد له أبوه بالخلافة فأخذ له البيعة أخوه هرون الرشيد لما مات أبوه لثمان بقين من شهر المحرم سنة تسع وستين ومائة ولم يل الخلافة قبله أحد في مقدار سنه * وركب خيل البريد من جرجان الى بغداد لما بويع له بالخلافة ومارد كبها خليفة غيره وكان طويلا جسيما أبيض بشفته العليا تقلص فيكثر لذلك فتح فمه ويغفل عن ذلك فيستمر فمه مفتوحا فوكل به أبوه في صباه خادما كلما رآه مفتوحا فمه قال له موسى أطبق فيستفيق على نفسه ويضم شفته فلقبه الناس موسى أطبق فعرف بهذا اللقب وكان وصاه أبوه بقتل الزنادقة فقتل منهم خلقا كثيرا وكان شجاعا كريما يعجبه المدح دخل عليه مروان بن أبي حفصة فأنشده قصيدة في مدحه فلما بلغ الى قوله

تشابه يوما بؤسه ونواله * فما أحد يدري لأيهما الفضل

فقال له الهادي قبل أن يتمها أيما أحب اليك ثلاثون ألفا معجلة أو سبعون ألفا مؤجلة فقال بل ثلاثون ألفا معجلة فقال له جعلناك المعجل والمؤجل ثم قال بل عجلنا لك بهما وأمر له بمائة ألف ومدحه ابراهيم الموصلي بقصيدة أولها

سليمى أزمعت بينا * فاين لقاها أينا

فأعطاه سبعمائة ألف درهم وكان اكمال المسجد الحرام اول شيء امر به الهادي وبادر الموكلون بذلك الى اتمامه الى ان اتصل بعمارة المهدي وبنوا بعض أساطين الحرم الشريف من جانب باب ام هانئ بالحجارة ثم طليت بالجص وكان العمل في خلافة الهادي دون العمل في خلافة المهدي في الاستحكام والزينة والاهتمام لكن كملت عمارة المسجد الحرام على هذا الوجه الذي كان باقيا الى هذه الايام وما زيد بعد ذلك الا زيادتان كما نشرحهما ان شاء الله تعالى * وهذه الأساطين الرخام جلبها المهدي من بلاد مصر والشام وأكثرها مجلوب من بلاد اخميم من أعمال مصر وهي بلدة خراب الآن من بلاد مصر القديمة كثيرة الرخام يجلب منه الى مصر والى غيرها من البلدان الرخام العظيم والاعمدة اللطيفة المنحوتة المخروطة من الرخام الابيض يقال ان اكثر رخام المسجد الحرام مجلوب منها والله اعلم * ولم تطل مدة

موسى الهادى وكان مدة ملكه سنة وشهرا وتوفى شابا وعمره اربع وعشرون سنة فى منتصف ربيع الآخر سنة سبعين ومائة * واختلف فى سبب موته فقيل انه دفع نديما فتعلق به فوق ما فى مقصبته فدخل القصب فى مخارجهما فماتا جميعا وقيل بل قتلته امه الخيزران لما اراد قتل اخيه هرون الرشيد ليولى العهد ولداصغير امن اولاده عمره عشر سنين وكانت امه الخيزران قد استبدت بالامور العظام وكانت المواكب تقف على بابها فزجرها الهادى عن ذلك وقال لها ان وقف امير على بابك لاضربت عنقه أمالك مغزل يشغلك أومصحف أوسبحة تذكرك فقامت من عنده غضبى فبعثت اليه طعاما مسموما فأطعمه فعملت على قتله فلما وعك امرت جواريها ان يغموا وجهه ببساط جلس على جوانبه فأفسد نفسه الى ان مات * وولى الخلافة بعده بعهد من ابيه اخوه هرون الرشيد العباسى الخامس من العباسيين * ليلة السبت لاربع عشرة بقيت من ربيع الاول سنة سبعين ومائة ومولده فى الرى لما كان ابوه المهدى اميرا عليها وعلى خراسان فى سنة ثمان واربعين ومائة وامه الخيزران ام الهادى وفيها قال مروان بن حفصة الشاعر

يا خيزران هناك ثم هناك * امسى يسوس العالمين ابناك

وكان فصيحا بليغا كثير العبادة كثير الحج والغزو وفى ذلك يقول بعض شعرائه

فمن يطلب لقاءك أو يرده * فبالحرمين أو أقصى الثغور

وكان يحج عاما ويغزو عاما وقد يجمع بينهما فى عام واحد وكان يصلى فى خلافته كل يوم الفرركعة لا يتركها الا لعلة ويتصدق كل يوم بألف درهم ويحب العلم واهله ويعظم حرمات الاسلام * وبلغه عن بشر المريسى انه كان يقول بخلق القرآن فقال لئن ظفرت به لأضربن عنقه وكان يأتى بنفسه الى بيت الفضيل بن عياض رضى الله عنه ويعظمه وكان يبكى على نفسه وعلى اسرافه وذنوبه وكان قاضيه الامام ابو يوسف رضى الله عنه وكان يعظمه كثيرا ويمتثل أوامره * ويروى عن ابى معاوية الضرير قال اكلت مع الرشيد يوما ثم صب على يدى من لا أعرفه ثم قال لى الرشيد تدرى من يصب عليك قلت لا قال انا اجلالا للعلم * واراد الرشيد أن يوصل بحر الروم ببحر القلزم ليتهيأ له ان يغزو الروم ببلادهم فقال له يحيى بن خالد البرمكى لوفعلت ذلك دخلت سفائن الروم واختطفوا المسلمين من المسجد الحرام فترك وكانت ايام الرشيد ايام خير كأنها اعراس وله أخبار فى اللهو واللذات سامحه الله تعالى وله مناقب لا تحصى ومحاسن لا تستقصى * وأسند الصولى عن يعقوب بن جعفر قال خرج الرشيد فى السنة التى ولى فيها الخلافة الى طرق الروم فغزا أهلها وظفر وعاد فحج بالناس آخر السنة وفرق بالحرمين مالا * وكان رأى النبى صلى الله عليه وسلم فى النوم فقال ان هذا الامر قد صار اليك فى هذا الشهر فاغز وحج ووسع على أهل الحرمين ففعل هذا كله فى عام واحد أول خلافته ذكر ذلك الحافظ السيوطى وغيره * قال الحافظ النجم عمر بن فهد رحمه الله فى حوادث سنة سبعين ومائة فيها حج هرون الرشيد بالناس وفرق مالا كثيرا وكان حج ماشيا على اللبود تفرش له من منزل الى منزل وقيل ان الحجة التى حج فيها ماشيا هى حجته فى سنة سبع وسبعين ومائة * قال وفى بعض حجات هرون اخلى له المسعى ليسعى فيه فتعلق ببغلته وهو يسعى أبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم فوقف له هرون الرشيد وأقبل عليه فصاح به ياهرون فقال لبيك ياعم قال ارق الى الصفا فلما رقاه قال ارم بطرفك الى البيت قال قد فعلت فقال كم هى يعنى الحجيج فقال ومن يحصيهم الا الله تعالى قال فاعلم أيها الرجل ان كل واحد من هذه الخلائق يحاسب عن خاصة نفسه ويسئل عنها وحدها يوم القيامة وأما أنت

وحدك فتسئل عنهم أجمعين فانظر كيف جوابك حين تسئل يوم القيامة فبكى هرون بكاء شديدا وخدمته يعطونه منديلا بعد منديل وهو يبلها بدموعه فقال له وأخرى أقولها لك قال قل يا عم فقال ان الرجل اذا أساء التصرف فى ماله حجر عليه فكيف أنت تسرف فى مال المسلمين وتسىء التصرف فيه وأنت محاسب عليه بين يدى الله عز وجل فازداد بكاؤه وكثر نحيبه واراد جنده ان يطردوا الرجل عنه فكفهم عنه الى ان فرغ من نصائحه كلها وقام عنه بنفسه هرون يبكى ويتضرع ويستغفر

❊فصل❊ وفى اثناء دولة الرشيد قدمت الخيزران ام الرشيد والهادى الى مكة قبل الحج فى سنة احدى وسبعين ومائة فأقامت الى ان حجت وعملت الخيرات واشترت دورا بالصفا الى جنب دار الارقم المخزومى التى تشتمل على مسجد مأثور يقال له المختبى لان النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو فيه الى الاسلام خيفة من صولة على المسلمين فى أول البعث وأسلم فيه جماعة رضى الله عنهم ولما أسلم فيه عمر رضى الله عنه أظهر الاسلام وفيه قبة ومزار تسمى قبة الوحى وهذه الدور التى اشتراها صاحبنا المغفور له المرحوم المبرور المشكور الامير المأمور باخراج عين عرفة الى بيت الله المعمور الباذل نفسه وماله وأولاده فى سبيل الله طلبا النيل المثوبات والاجور دفتردار مصر سابقا صاحب اللواء السلطانى المنشور المذكور باحسان الى يوم النشور ابراهيم بك بن تغرى بردى المهمندار أسكنه الله تعالى فى دار القرار جنات تجرى من تحتها الانهار ثم ملكها من المرحوم بطريق الهدية على يد المرحوم رجب چلبى افندى ناظر الصدقات السليمية حضرة السلطان الاعظم سلطان ملوك العالم ذوى الخلق الحليم والطبع الكريم المرحوم المغفور له السلطان سليم نقله الله الى جنات النعيم وملكه ملكا أعظم من ملكه العظيم فملكها وهو شاهزاده يومئذ قبل ان يلى تخت السلطنة العظمى ففرح بها كثيرا واستبشر بحصولها ونوى أن ينشئ فيها عمائر وخيرات وجهات تصرف الى فقراء هذه الجهات فلم يقدر له ذلك وزاحمته أمور الملك والسلطنة ومجاهدة الكفار وافتتاح بلاد فرس وغيرها ولم يمهله الزمان الجائر ولا ساعده الدهر الغابر ولكن حصل له ثواب مانواه من الخيرات فالاعمال بالنيات وان الارض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين وصارت هذه الدار الآن من أملاك ملك العصر والزمان سلطان سلاطين الدهر فى هذا الاوان صاحب تخت السعادة والاسعاد ووارث سرير الملك عن الآباء والأجداد السلطان الاعظم الاكرم السلطان مراد خلد الله تعالى أيام سلطنته القاهرة الى يوم التناد وألهمه العدل فى الرعية لاحياء رسوم المعدلة بين العباد ❊ قلت ولم أطلع للرشيد مع كثرة خيره على أنه عمر فى أيامه شيأ من المسجد الحرام غير أن عامله بمصر موسى بن عيسى اهدى الى مكة المشرفة منبرا منقوشا مكلفا له تسع درجات فجعل فى المسجد الحرام وأخذ المنبر القديم الذى كان يخطب عليه بمكة ووضع فى عرفة وذلك فى أول حجات الرشيد فى سنة سبعين ومائة وقيل غير ذلك ❊ وفى سنة أربع وأربعين من الهجرة الشريفة نصب وخطب عليه معاوية بن أبى سفيان وهو أول من خطب بمكة على منبر وكانت الخلفاء والولاة قبل ذلك يخطبون بها قياما على أقدامهم فى وجه الكعبة وفى الحجر ❊ قال أبو الوليد الأزرقى حدثنى جدى عن عبد الرحمن بن حسن عن أبيه قال أول من خطب بمكة على منبر معاوية بن أبى سفيان وساق ما قدمناه فى ذلك ثم قال وذلك المنبر الذى جاء به معاوية من عاخرب فكان يعمر ولا يزاد فيه حتى حج الرشيد فأتى بمنبر له تسع درجات وخطب عليه فكان منبر مكة لمن بعده الى أيام الواثق بالله العباسى فاراد ان يحج فامر ان يعمل ثلاث منابر منبر لمكة ومنبر لمنى ومنبر لعرفات وحج وخطب عليها وفرق بالحرمين على اهلها مالا كثيرا ❊ وفى ايامنا التى أدركناها من

الشباب الى المشيب شاهد نا منابر عملوا السلاطين عمر نا وسنذكرها فى محلها ان شاء الله تعالى

﴿فصل﴾ اعلم ان ما يحفه العاقل ويدخرعنه الا الابله ان الدنيا دار الاكدار ومحل الهموم والغموم والحسرات وان اخف الخلق بلاء واقلهم الفقراء واعظم الناس تعبا وهما وغما الملوك والامراء والكبراء ويقال لكل بشر غنى قامة من الهم وقيل

لقد قنعت همتى بالخمول * وصدت عن الرتب العاليه
وما جهلت والله طيب العلى * ولكنها تؤثر العافيه

وقيل ايضا

بقدر الصعود يكون الهبوط * فاياك والرتب العاليه
وكن فى مقام اذا ما وقفت * تقوم ورجلاك فى عافيه

وطالما رضيت الملوك والسلاطين بحال الضعفاء والفقراء والمساكين

فى كل بيت كربة ومصيبة * ولعل بيتك ان رأيت أقلها

فارض بحال فقرك واشكر الله على خفة ظهرك ولا تتعد طورك تجد ذلك نعمة خفية ساقها اليك ورحمة أفاضها الله تعالى من خزائن لطفه عليك واعتبر بهذه الكلمات وخذ لنفسك حظا وافرا من هذه العظات ✱ومن ذلك ان هرون الرشيد من اعقل الخلفاء العباسيين واكملهم رأيا وتدبيرا وفطنة وقوة واتساع مملكة وكثرة خزائن بحيث كان يقول للسحابة امطرى حيث شئت فان خراج الارض التى تمطرى فيها يجىء الى ومع ذلك كان أتعبهم خاطرا واسهرهم فكرا واشغلهم قلبا وكان من اولاده محمد الامين من زبيدة بنت جعفر المنصور ﴿تقسيم الرشيد الملك بين ولديه الأمين والمأمون﴾ وكانت زبيدة قد استولت على عقل الرشيد تتصرف فيه كيف أرادت وكان ولدها منه محمد الأمين شديد الترفه والدلال كثير اللهو واللعب مغلوبا على عقله لا يصلح للملك ولا يستحق الخلافة وولده الثانى من جارية سوداء اسمها مراجل من جوارى المطبخ ماتت فى نفاسها عن عبد الله المأمون وكان أتم عقلا ورأيا وأصح تدبيرا واكثر فضلا ومعرفة وصلاحية لتدبير الملك واهلا لأن يكون خلفا عن ابيه فى خلافته وما قدر ابوه ان يجعله ولى عهده بعده مخافة على خاطر زبيدة على ذلك فجعل ولى عهده محمد الأمين فى سنة خمس وسبعين ومائة ولقبه بالأمين وعمره يومئذ خمس سنين لحرص امه زبيدة على ذلك وجعل عبد الله المأمون ولى العهد بعد محمد الأمين فى سنة ست وثمانين وولاه الجزيرة والثغور وهو صبى ولقبه المؤتمن وقسم ملكه بين هذه الثلاثة فقالت العقلاء لقد ألقى بينهم وأضر الرعية بهم قال عبد الملك بن صالح

الله قلد هرون خلافته * لما اصطفاه فأحيا الدين والسننا
وقدم الامر هرون لرأفته * بنا امينا ومأمونا ومؤتمنا

وطوى الرشيد الملك عن ولده الرابع وهو محمد المعتصم لكونه اميا فاراد الله تعالى خلاف ما اراده الرشيد وقتل محمد الأمين على يد عبد الله المأمون وصارت الخلافة بعد المأمون الى محمد المعتصم ساقها الله تعالى اليه وجعل الخلفاء كلهم من نسله ولم يجعلها من غير نسله من اولاد الرشيد وان الملك بيد الله يؤتيه من يشاء وكان الرشيد لما كمل عهده لاولاده الثلاثة جمع الجموع وامرهم بمبايعة اولاده المذكورين فبايعوهم وعاهدوهم وكتب بذلك عهدا محكما وكتابا مبرما ووضع ووضع الاعيان والاركان والامراء والكبراء خطوطهم عليه وجهزه الى بيت الله تعالى وامر بتعليقه فى وسط الكعبة الشريفة ليشتد الوثوق به ولا

يقع خلافه في ذلك قال ابراهيم الموصلي

خير الامور تعبه * واحق امر بالتمام

امر قضى احكامه * مولاى في البيت الحرام

ولم يغن ذلك التدبير عما رقه قلم التقدير في لوح المقادير والله على كل شئ قدير وقال

ولو كانت الدنيا تنال بفطنة * وتدبير رأى نيل أعلى المراتب

ولكنما الاقدار تجرى بقدرة * من الله لا تعدى تدابير طالب

قال شيخ شيوخنا الحافظ السيوطي رحمه الله تعالى وذكر محمد بن الصباح الطبرى ان اباه مشى مع الرشيد من خراسان الى النهر وان جعل الرشيد يحادثه في الطريق ويشكو همومه ويتنفس عنده نفاثات الصدور الى ان قال يا صباح اظنك لا تراني بعد هذا فقلت بل يطيل الله عمر امير المؤمنين ويفديه بارواحنا ويعيش سالما من الآفات فقال انك لا تدرى ما اجد فقلت لا والله فقال تعال حتى أريك ما اخفيه عن غيرك وتنحى عن الطريق واوما الى من معه بالتنحى عنه فأبعدنهم وهم يرمقونه بطرف خفي ثم قال أمانة الله يا صباح اكتم امرى فقلت نعم فكشف عن بطنه فاذا عصابة حرير معصوبة على بطنه فقال الى هذه علة اكتمها عن كل احد وحولى رقباء لكل واحد من اولادى يعدون أنفاسى على فسرور رقيب المأمون وجبريل بن بختيشوع رقيب الأمين وفلان وعد ثالثا أنسيته رقيب المؤتمن وكل منهم يحصى ايامى وساعاتى ويستطيل عمرى وحياتى ويظهر ذلك الآن منهم ان أطلب منهم برذونا اركوبى فيأتونى به أعجف ضعيفا يزيد في علتى ويضاعف على مرضى ثم طلب منهم برذونا اركوبه فأتوه ببرذون عاجز منقطع يتعب راكبه كاد كروهو يداريهم ويصبر على ما يكابده منهم فنظر الى نظرة حزين مكروب وركب ذلك البرذون فقبلت رجله وودعته وهم ينظرون الى نظرة خفت عاقبتها وكفانى الله تعالى شرهم واستمر الرشيد عليلا الى ان بلغنى وفاته بطوس رحمه الله تعالى فانظر الى هذا الملك الجليل والخليفة النبيه النبيل والسلطان الذى قل ان يوجد له مثيل وهو عاجز في يد غلمانه مغلوب عليه في ملكه وسلطانه متحسر على عظيم شأنه متأسف على علو مكانه بيده خزائن الارض ولا يملك منها نقيرا ولا قطميرا ولا يقدر على كل شئ وكان ربك قديرا * ولما جردت المنية مومى الحمام على هرون ومزقت ثياب رشد الرشيد مخالب المنون وخلعت عنه خلع الخلافة والسلطان وغسلته بماء الدموع الممزوج بدماء الاجفان وحنطته بحنوط اعماله وأدرجته في اكفان خصاله وخلاله ونقلته من سرير السعود الى اخدود اللحود فمضى كأنه لم يكن شيأ مذكورا وكان امر الله قدرا مقدورا * وقد حكى الرشيد أنه كان رأى مناما انه يموت بطوس فلما وصل الى طوس وقد غلب عليه الوعك عرف انه ميت فبكى واختار لنفسه مدفنا وقال احفروا لى قبرا في هذا المحل فحفروا له فقال قربونى الى شفيره فحملوه في قبة الى ان نظر الى القبر فسالت عبرته وزادت غبرته وقال يا ابن آدم الى هذا تصير ولا بد من هذا المصير وامر ان ينزل الى لحده من يقرأ ختمة فيه ففعلوا ذلك فمات وصلى عليه ابنه صالح والحد في القبر بطوس لثلاث مضين من جمادى الآخرة سنة احدى وتسعين ومائة وتقدم أن مولده بالرى سنة ثمان واربعين ومائة وكانت مدة ملكه ثلاثا وعشرين سنة وشهرين ونصف رحمه الله تعالى

* فصل * ولما توفى الرشيد ولى الخلافة ولده محمد الأمين وكان مليح الصورة أبيض جميلا فصيحا بليغا سيئ التدبير كثير التبذير ضعيف الرأى أرعن لا يصغى الى قول المشير * ولما ولى الخلافة اتخذ اللهو شعارا وشرب

الخمر خمارا وخلع العذار فى العذارى واشترى عريب المغنية بمائة ألف دينار وجارية بن عمه ابراهيم بن المهدى بعشرين ألف ألف دينار وعزل اخاه المؤتمن وخلع اخاه المأمون وارسل الى الكعبة المعظمة من جاء بصحيفة عهد والده له ولأخويه فمزقها وعهد الى ولده رضيع سماه الناطق بالحق ودعى له على المنابر وعن نصح الأمين ومنعه عن هذا الغدر والنكث حازم بن خزيمة فقال له يا أمير المؤمنين لن ينصحك من كذبك ولن يغشك من صدقك وانى أنصحك وأصدقك ولا أكذب فى نصحك لا تجرى القواد على الخلع فيخلعوك ولا تحملهم على نكث العهد فينكثون عهدك وان الغدر شؤم والناكث منكوب مغلوب وصاحب الحق مظلوم وجرت العادة بنصر المظلوم وتوجه القلوب اليه ورقت النفوس عليه ولذلك تأثير فى الظاهر والباطن فأبى الامين منه ونبذ كلامه وعمل برأيه السقيم وصمم أشد تصميم وأرسل جيشا مع على بن عيسى على أخيه المأمون عدتهم أربعون ألفا وأرسل المأمون لقتاله طاهر بن الحسين ومعه أربعة آلاف مقاتل فانهزم على بن عيسى وقتل وذبح وتشتت عسكره وجاء طاهر بن الحسين برأسه الى المأمون وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله فقوى قلب المأمون بذلك وكثر أتباعه ومال الناس اليه فجمع الجموع وسار الى بغداد لقتال أخيه الأمين ولا زال أمر المأمون يحسن بحسن تدبيره وامتثال الناس اليه ويضعف الأمين فى لهوه وغفلته ولعبه مع نسائه بحضرته واحتجابه عن اهل دولته الى ان هجم طاهر بن الحسين ودخل الى بغداد فجاء مسرور الخادم الى الأمين وهو فى جنب حوض مع جواريه يصيدون معهن السمك من ذلك الحوض وكان وضع فى أنف كل سمكة درة نفيسة شبكها بقضيب الذهب فكل من صادت من جواريه سمكة كانت الدرة التى فى انفها الصائدتها فرفع الأمين رأسه الى مسرور فقال له ان طاهر بن الحسين دخل بعسكره الى بغداد فقال له دعنى فان الجارية فلانة صادت سمكتين وانا ما صدت شيأ فرجع مسرور باهتا واذا بالجند قد أحاطوا بدار الخلافة ونهبوها وامسك طاهر بن الحسين الأمين بيده وحبسه فلما شاهد الأمين هذا الحال قال لطاهر بن الحسين يا طاهر اعلم انه ما قام لنا قائم قط فكان جزاؤه عندنا الا السيف فانظر لنفسك أودع يلوح بأبى موسى الخراسانى الذين بذلوا أموالهم فى قيام الدولة العباسية فكان مآلهم الى القتل وهذه عادة الله تعالى فيمن ذكر من مقيمى الدول كعمرو بن سعيد أقام دولة عبد الملك بن مروان فقتله وأبى مسلم الخراسانى أقام دولة السفاح فقتله المنصور وكعبد الله القائم بدولة العبيديين قتله عبيد الله المهدى وأمثال ذلك كثير فأثرت هذه الكلمات فى قلب طاهر وصار يحذر منها الى أن كان آخر قتله بيد المأمون * ولما رأى طاهر بن الحسين بعد الاستيلاء على الأمين وحبسه عدم سكون الفتنة أدخل أعاجم لا يعرفون اللسان على الامين وأمرهم بقتله فقتلوه وأخذ رأسه وطيف به فى مدينة بغداد ونودى عليه هذا رأس المخلوع الى أن سكنت الفتنة وكان ذلك فى المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة * قال محمد بن راشد أخبرنى ابراهيم بن المهدى انه كان مع الامين لما حوصر قال فطلبنى فى ليلة مقمرة فجئته فقال ما ترى فى حسن هذه الليلة وضوء هذا القمر فاشرب معى نبيذا فسقانى ثم طلب جارية تغنيه فجاءت جارية اسمها ضعف فتطيرت منها وغنت بشعر النابغة الجعدى

كليب لعمرى كان أكثر ناصرا * وأيسر ذنبا منك ضرج بالدم

فتطير من ذلك وقال غنى غير هذا فغنت تقول

أبكى فراقهم عينى فأرقها * ان التفرق للاحباب بكاء

قوله أودع يلوح الخ هكذا بالأصل وحرر اه

مازال يعدو عليهم ريب دهرهم * حتى تفانوا وريب الدهر عداء
فقال لها العن لك الله أما تعرفين غير هذا فقالت

اما ورب السكون والحرك * ان المنايا كثيرة الشرك
ما اختلف الليل والنهار ولا * دارت نجوم السماء فى الفلك
الا لنقل السلطان عن ملك * قد زال سلطانه الى ملك
وملك ذى العرش دائم أبدا * ليس بفان ولا بمشترك

فقال لها قومى لعنك الله فقامت فعثرت فى كأس بلور فكسرته فازداد تطيره فقال يا ابراهيم ما أظن أمرى الا قد قرب واذا بصوت سمعناه من الشارع قضى الأمر الذى فيه تستفتيان فقام مغتما وقتل عنه وأخذ بعد ليلتين وقتل تجاوز الله تعالى عنه وعظم قتل الأمين على المأمون وكان يريد أن يرسل به طاهر ابن الحسين الى أخيه حيا ليرى رأيه فيه فحقد ذلك على طاهر حتى جاش طريدا بعيدا وآل أمره الى ما آل اليه

﴿فصل﴾ لما تم على الأمين ما تم وكان ذلك على أم زبيدة أعظم ما تم آل الملك الى عبد الله المأمون بعد قتل أخيه فى سنة ثمان وتسعين ومائة * وكان من أتم رجال بنى العباس حزما وعزما وعلما وحلما وفراسة وفهما سمع الحديث على جماعة وتأدب وتفقه وبرع فى فنون التاريخ والأدب ولما كبر اعتنى بالفلسفة وعلوم الأدب فضل وأضل وحمل الناس بالقول بخلق القرآن ولولا ذلك لكان يعد من أكمل الخلفاء وكان يضرب المثل بحلمه * ومن انصافه انه رأى آل النبى صلى الله عليه وسلم أحق بالخلافة ممن غيرهم وهم بخلع نفسه وتفويض الامر الى على بن موسى الكاظم وهو الذى لقبه بالرضى وضرب الدنانير والدراهم باسمه وزوجه ابنته وأمر بترك السواد ولبس الخضرة وجعله ولى عهده فى الخلافة فاشتد ذلك على بنى العباس وخرجوا عليه وبايعوا ابراهيم بن المهدى ولقبوه المبارك فثار المأمون عليه فهرب منه واختفى ثمان سنين ثم جاء الى المأمون فى صفر سنة أربع ومائتين * وتوفى الامام على بن موسى الرضى فى سنة ثلاث ومائتين وأسف عليه المأمون وأراد اقامة غيره فذكر الصولى ان بعض نصحائه قال له انك فى برك بأولاد على بن أبى طالب كرم الله وجهه والامر فيك أقدر على برهم والامر فيهم وكلم العباسيون فى اعادة لبس السواد فأبى فكرروا ذلك عليه الى أن أجابهم الى ذلك وأعاد شعار السواد وكان كثير الجهاد وهو الذى افتتح قرة حصار وكان كثير العبادة قيل انه ختم فى شهر رمضان ثلاثة وثلاثين ختمة وكان العلماء يجيئون فى أيامه بجبرهم على القول بخلق القرآن فدعوا عليه فأهلكه الله تعالى * ويقال ان سبب موته انه أشتهى أكل سمكة تسمى الرعادة ان لمسه أحد أخذته الرعدة من ساعته ليردها فاكل منها فمات لوقته وما أمن المأمون من اظفار ريب المنون ونقل من الملك الى الهلك جسمه المصون وواراه التراب عن الاحباب وسالت العيون ورجع الى ربه الكريم وانا الى الله راجعون وكان وفاته لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة ثمان عشرة ومائتين بأرض الروم ودفن فى طرسوس وفيه قال أبو سعيد المخزومى

هل رأيت النجوم أغنت عن المأ * مون أو عن ملكه المأسوس
خلفوه بعرصتى طرسوس * مثل ما خلفوا أباه بطوس

﴿فصل لما مات المأمون ولى بعده الخلافة أبو اسحق محمد المعتصم بن هرون الرشيد﴾ مولده سنة ثمانين ومائة * وكان يقال له المثمن لانه ثامن الخلفاء وثامن أولاد الرشيد والثامن من ولد العباس

واستخلف

واستخلف سنة ثمان عشرة ومائتين وملك ثمانية أعوام وثمانية أشهر وثمانية أيام وعاش ثمانية وأربعين سنة * وذكر الصولى قال كان مع المعتصم غلام فى الكتاب يتعلم معه القرآن فمات الغلام فقال له الرشيد يا محمد مات غلامك قال نعم يا سيدى واستراح من الكتاب فقال يا ولدى وان الكتاب يبلغ منك هذا المبلغ وقال لمعلمه اتركه لا تعلمه شيأ فانتشأ عاميا يكتب كتابة مغشوشة ويقرأ قراءة ضعيفة وقال نفطويه كان المعتصم من أشد الناس قوة وبطشا كان يجعل زند الرجل بين أصبعيه فيكسره نقل ذلك الحافظ السيوطى وتلك قوة عظيمة ما وصل اليها أحد * قال وهو أول من أدخل الاتراك الدواوين وكان يتشبه بملوك الأعاجم وبلغ غلمانه الاتراك ثمانية عشر ألفا * وبعث الى سمرقند وفرغانه أموالا لشراء الاتراك وألبسهم أطواق الذهب والديباج وكانوا يطردون الخيل فى بغداد ويؤذون الناس فضاقت بهم البلد فشكاهم أهل بغداد الى المعتصم واجتمعوا على بابه وقالوا ان لم تخرج جندك الاتراك عنا حاربناك قال كيف تحاربونى وأنتم عاجزون من حربى قالوا نحاربك بسهام الاسحار ونسل عليك سيوف الدعاء فقال والله لا أطيق ذلك ولكن أنظرونى لأنظر لى بلدا أستقل بهم فيها ولا تتضررون بى وكفوا عنى سهام دعائكم فبنى مدينة سمر من رأى بقرب بغداد وانتقل اليها فى سنة عشرين ومائتين وللمعتصم عدة غزوات مع الكفار أشهرها غزوة عمورية ظهرت له فيها اليد البيضاء ونصر فيها الملة المحمدية الغراء وخذل فيها الكفرة أعداء الدين وأعز فيها الاسلام والمسلمين * وملخصها ان ملك الروم كان اذ ذاك من أكبر ملوك النصارى أرسل كتابا للمعتصم يهدده فاستشاط غضبا فكتب له الجواب فلم يرضه شىء منها ومزق الكتاب الذى ورد عليه وأمر أن يكتب فى ظهر رقعة منها * بسم الله الرحمن الرحيم الجواب ما تراه لا ما تقرأه وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار وتجهز من ساعته فمنعه المنجمون وقالوا ان الطالع نحس فقال هو نحس عليهم لا علينا وسافر من يومه وتلاحقت العساكر ووقع حرب عظيم قتل فيه ستون ألفا من النصارى وأسر منهم ستون ألفا وهرب ملكهم وتحصن بحصن عمورية فحاصره المعتصم ونزل به الى أن فتحه وأسر ذلك الملك الكافر وقتله وكان ذلك فتحا عظيما من أعظم فتوح الاسلام ومدحه الشعراء بقصائد طنانة وأحسن ما قيل فيها قصيدة أبى تمام التى سارت بها الركبان وطنت حصاتها فى الاسماع والآذان وهى

السيف أصدق أنباء من الكتب * فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى * متونهن جلاء الشك والريب
والعلم فى شهب الأرماح لامعة * بين الخميسين لا فى السبعة الشهب
أين الرواية بل أين النجوم وما * صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
ولو تبين أمر قبل موقعه * ما يخفى ما حل بالاوثان والصلب
فتح تفتح أبواب السماء له * وتبرز الارض فى أثوابها القشب
فتح الفتوح المعلى أن يحيط به * نظم من الشعر أو نثر من الخطب
تدبير معتصم بالله منتقم * لله مرتقب فى الله مرتقب
لم يرم قوما ولم ينهض الى بلد * الا تقدمه جيش من الرعب
لولم يقد جحفلا يوم الوغا لغدا * من نفسه وحدها فى عسكر لجب
عداك حر الثغور المستضاة عن * برد الثغور وعن سلسالها الحصب

حتى تركت عمود الشرك منعفرا * ولم تفرج على الاوتاد والطنب
ان الاسود أسود الغاب همتها * يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب
خليفة الله جازى الله سعيك عن * جرثومة الدين والاسلام والحسب
ان كان بين صروف الدهر من رحم * موصولة أو ذمام غير منقضب
فبين أيامك اللاتى نصرت بها * وبين أيام بدر أقرب النسب

انظر الى هذا الدر المنضود والجوهر الذى يزرى بجوهر العقود وتنزه فى رياض ألفاظه ومعانيه واجتنى ثمار البلاغة من معاطف أزهاره ومجانيه وخذ بالحظ الوافر من ذوق تراكيبه ومبانيه * وكان المعتصم من أغلظ الخلفاء الذين ألزموا الناس بخلق القرآن وجبر علماء الاسلام على ذلك وأذاقهم الهوان وهذه من أعظم خلاله الرديه مع انه كان عاميا لا حظ له من الكمالات العليه بل حمله على ذلك مجرد الجهل والعصبيه وما كان أغناه هو وأخوه عن الزام العلماء بهذه الجهليات عدوانا وبغيا وما لهم والدخول فى هذه المسالك الضيقة ضلالا وغيا وما حملهم على ذلك غير الجهل والغرور بهذه الدنيا فقضا أمر ع ما ذهبوا وذهب غرورهم وعزهم بددا ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا * ولما جرد عليه الاجل سيف المنون ما عصم المعتصم ظهور الحصن ولا بطون الحصون ولا منعه عن حسام الحمام مال ولا بنون

كل حى لاقى الحمام فمردى * ما لحى مؤمل من خلود
لا تهاب المنون شيأ ولا تر * عى على والد ولا مولود
يقدح الدهر فى شماريخ رضوى * ويحط الصخور من هبود
ولقد تنزل الحوادث والايا * م وهنا فى الصخرة الجلمود
وأرانا كالزرع يحصدنا الد * هر فمن بين قائم وحصيد
يحكم الله ما يشاء ويمضى * ليس حكم الله بالمردود
ليس ينجى من المنون حصون * عاليات ولا حصار حديد

ومن أرجى دعائه لما احتضر اللهم انك تعلم انى أخافك من قبلى لا من قبلك وأرجوك من قبلك لا من قبلى فيا من لا يزول ملكه ارحم ملكا قد زال ملكه * وتوفى الى رحمة الله يوم الخميس لاحدى عشرة ليلة بقيت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين

﴿فصل وولى الخلافة بعد المعتصم أبو جعفر ولقب الواثق بالله﴾ فى تاسع ربيع الأول سنة ثمان وعشرين ومائتين * ومولده لعشر بقين سنة ست وتسعين ومائة وامه أم ولد رومية اسمها قراطيس واستخلف تركيا اسمه اشناس ولقبه بالسلطان وهو أول خليفة استخلف سلطانا وألبسه وشاحين وتاجا مجوهرا وتبع اباه فى القول بخلق القرآن ثم رجع عن ذلك آخر عمره * قال الخطيب كان أحمد بن داود حاضرا فقال الرجل وهو مكبل بالحديد اخبرونى عن هذا الرأى الذى دعوتم الناس اليه هل هو علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يدع الناس اليه أو لم يعلمه فقال ابن داود بل علمه فقال فكان يسعه ان لا يدع الناس اليه وأنتم لا يسعكم فبهتوا وضحك الواثق وقام قابضا على فمه ودخل بيته ومد رجليه وهو يقول وسع النبى صلى الله عليه وسلم ان يسكت عنه ونحن لا يسعنا وأمر ان يعطى الرجل ثلثمائة دينار وان يرد الى بلده ولم يمتحن أحدا بعدها ومقت ابن داود من يومئذ ولم يرتفع له شأن والرجل هو أبو عبد الله بن محمد

الازدى شيخ الكسائى * وكان الواثق عالما شاعرا حاذقا كثيرا الاكل أكثر بنى العباس رواية للشعر ومن شعره فى واقعة حال له

حياك بالنرجس والورد * معتدل القامة والقد
فألهبت عيناه نار الجوى * وزاد فى اللوعة والوجد
أملت بالملك وصالا به * فصار ملكى سبب البعد
مولى تشكى الظلم من عبده * فانصفوا المولى من العبد

قال الصولى اجمعوا على انه ليس لاحد من الخلفاء مثل هذه الابيات فى الرقة واللطف * مات بسر من رأى يوم الاربعاء لست بقين من ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين * وحكى انه لما مات ترك وحده واشتغل الناس بالبيعة للمتوكل فجاء جرذون واستل عينيه وأكلها فسبحان العزيز المتعال وتبارك القوى القادر ذو الجلال بيده الملك لا يزول ولا يزال ﴿ثم ولى بعده أخوه أبو الفضل جعفر المتوكل على الله بن المعتصم بن الرشيد العباسى﴾ مولده سنة خمس ومائتين وبويع له بالخلافة فى اليوم الذى مات أخوه فيه وأمه أم ولد تركية اسمها شجاع وكان كريما ما أعطى خليفة شاعرا ما أعطاه المتوكل وكان سنيا سنيا أظهر السنة وأكرم علماء الحديث وأمات البدع ومنع القول بخلق القرآن وألبس النصارى بلبس الغل وشنع على الجهمية والمعتزلة وأمر نائبه بمصر ان يحلق لحية قاضى مصر ابن أبى الليث ويطوف به الاسواق على حمار لانه كان جهميا معتزليا يقول بالجهة وخلق القرآن * ومن أفعاله الشنيعة انه هدم قبر الحسين بن على رضى الله عنهما فى سنة ست وثلاثين ومائتين وهدم ما حوله من الدور وجعل مزرعة ومنع من زيارته فتألم الناس لذلك وكتبوا اشتمه على الحيطان وقيل فيه

تالله ان كانت أمية قد أتت * قتل ابن بنت نبيها مظلوما
فلقد أتاه بنو أبيه بمثله * هذا لعمرى قبره مهدوما
اسفوا على أن لا يكونوا شاركوا * فى قتله فتتبعوه رميما

وهذا الفعل السيئ محا جميع محاسنه وصار ماء عذب من زلال احسانه مغلوبا باجاجه وآسنه وعدت عليه هذه الزلة افضح فضيحة وهذه الخلة الشنيعة أقبح من كل قبيحة * ووقعت فى أيامه عجائب منها ان النجوم ماجت فى السماء وتناثرت كالجراد ولم يعهد قط مثل ذلك ورجمت قرية السويداء بناحية مصر بأحجار من السماء فوزن حجر منها فكان عشرة أرطال وسار جبل باليمن عليه مزارع الى جبل آخر ووقع فى قرية طائر دون الرخمة فصاح يا معشر الناس اتقوا الله اربعين مرة وجاء من الغد ففعل ذلك فكتبوا خبر ذلك على البريد الى بغداد وكتبوا فيها شهادة خمسمائة انسان سمعوا ذلك بآذانهم وذلك فى رمضان سنة احدى وأربعين ومائتين وحصلت الزلازل وغارت عيون مكة فأرسل المتوكل الى مكة مائة ألف دينار ذهبا لاجراء ماء عين عرفات اليها فصرف فيها الى ان جرت ذكر ذلك السيوطى رحمه الله * وذكر الحافظ نجم الدين عمر بن فهد فى كتابه اتحاف الورى بأخبار ام القرى فى حوادث سنة خمس وأربعين ومائتين فيها غارت عين مشاش وهى عين مكة فبلغ ثمن القربة درهما فبعث المتوكل على الله جعفر بن المعتصم مالا فانفق عليها حتى جرت كذا ذكره ابن الاثير فى تاريخه وهذه العين من عمل زبيدة وهى عين بازان ظنا انتهى * قلت عين مشاش موجودة الى الآن وهى من جملة العيون التى تنصب فى دبل عين حنين وهى تجرى وتضعف احيانا بقلة المطر ومحلها معروف * ولما

كثرت المماليك فى بغداد ودخلوا فى أمر الملك استولوا على المملكة وصار بيدهم الحل والعقد والولاية والعزل الى أن حملهم الطغيان على العدوان وسطوا على الخليفة المتوكل لما أراد ان يصادر مملوك أبيه وصيف التركى لكثرة أمواله وخزائنه فنصب له باغر التركى وانحرف الاتراك عنه فدخل باغر عليه ومعه عشرة من الاتراك وهو فى مجلس أنسه وعنده وزيره الفتح بن خاقان بعد ان مضى من الليل ثلاث ساعات فقال الفتح ويلكم هذا سيدكم وابن سيدكم وهرب من كان حوله من الغلمان والندماء على وجوههم وبقى الفتح وحده والمتوكل غائب عن نفسه من السكر فضربه باغر بالسيف على عاتقه فقده الى خصره فطرح الفتح نفسه عليه فضربهما باغر ثانية فماتا جميعا فلفهما معا فى بساط ومضى هو ومن معه ولم ينتطح فى ذلك شاتان * وكان قتله فى ليلة الاربعاء لليلتين مضتا من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين فى القصر الجعفرى وكان بناه المتوكل ولما قتل دفن فيه رحمه الله تعالى هو ووزيره الفتح بن خاقان رحمهما الله تعالى * وكانت خلافته اربعة عشر عاما وعمره احدى وأربعون سنة ﴿وولى بعده ولده محمد أبو جعفر المنتصر بالله بن المتوكل على الله بن المعتصم بالله بن هرون الرشيد العباسى﴾ بويع له بالخلافة بعد قتل أبيه ولم يتهن بالملك لاستيلاء المماليك الاتراك على المملكة ويقال انه واطأ الاتراك على قتل أبيه لينال الخلافة بعده والله أعلم بذلك * وكان على حذر من الاتراك ويسبهم ويقول هؤلاء قتلة الخلفاء فلم يأمنوه وارادوا قتله فما أمكنهم الاقدام على ذلك لشدة محاذرته منهم فدسوا الى طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينار عند توعكه ليسمه ففصده بمبضع مسموم فأحس بذلك وأراد قتل الطبيب فقال له انك تصبح طيبا وتندم على قتلى فأمهلنى الى الصبح فأمهله فأصبح ميتا * ويحكى انه بات ليلة فى وعكه فانتبه فزعا وهو يبكى فسألته أمه ما يبكيك فقال أفسدت دينى ودنياى رأيت والدى الساعة وهو يقول قتلتنى يا محمد لاجل الخلافة والله لا تتمتع بها الا أياما قلائل ثم مصيرك الى النار فاستمر مهموما من هذا المنام فما عاش بعد ذلك الا أياما قليلة وذكر ابن يحيى المنجم ان المنتصر جلس يوما للهو وأمر بفرش بساط من ذخائر الخزينة تداولته الملوك ففرش فرأى فيه صورة رأس عليه تاج وعليه كتابة بالفارسية فطلب من يستخرج تلك الكتابة فأحضر لذلك رجل من الاعاجم فقرأه بلسانه وعبس عند قراءتها فسأله المنتصر عنها فقال لا معنى لها فألح عليه فقال هى أنا الملك شيرويه بن كسرى بن هرمز قتلت أبى فلم أتمتع بالملك الا ستة أشهر وهى مشهورة فتغير وجه المنتصر لذلك وأقام من ذلك المجلس وترك اللهو الذى أراده وصار مغتما مما به * وكان على خلاف رأى أبيه فى آل أبى طالب وأعاد قبر الامام الحسين بعد ما كان هدمه أبوه وأمر بزيارته ورد على آل الحسين حائط فدك * وقصته مشهورة وهى عمدة الشيعة على سيدنا أبى بكر رضى الله عنه وانما فعل ذلك للحديث معه من النبى صلى الله عليه وسلم حيث قال نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركناه صدقة ووافقه على ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى سيدنا على بن أبى طالب كرم الله وجهه ولم ينقض ذلك الحكم لما آلت الخلافة اليه لعلمه أن ذلك هو الحق وماذا بعد الحق الا الضلال وكانت خلافة المنتصر ستة أشهر كما توهمه * قال أبو منصور الثعالبى رحمه الله فى العجائب ان اعرق الا كاسرة فى الملك شيرويه قتل أباه فلم يعش بعده الا ستة أشهر * قلت وكل منهما مات مسموما وكانت وفاة المنتصر بالفصد بمبضع مسموم كما قدمناه لخمس مضين من ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين وكان عمره ستا وعشرين سنة ﴿ثم ولى بعده أبو العباس أحمد المستعين بالله بن المعتصم بالله عم المقتدر بالله اخو المتوكل على الله﴾ وانما قدمه الترك واختاروه وعدلوا عن اولاد

المتوكل لانهم كانوا قتلوه وخافوا أن يلي الخلافة أحد من أولاده فيأخذ بثار أبيه فاختاروا من أولاد المعتصم المستعين بالله * ومولده سنة احدى وعشرين ومائتين وامه أم ولد تسمى مخارق وما كان له من الخلافة الا الاسم وكانت المماليك الاتراك مستولين على الملك وكان الأمر جميعه لوصيف التركي وباغر التركي حتى قيل في ذلك

خليفـــة في قفص * بين وصيف وبغا
يقـــول ماقالا له * كما يقول البغا

فاستمر كذلك وهو يترصد لهما الى ان ظفر بوصيف التركي فقتله ونفى باغر التركي الذي كان سطا في المتوكل وقتل به فتنكرت له الاتراك فخرج عنهم من سامرا الى بغداد فأرسلوا اليه يعتذرون منه ويسألونه في العود الى سامرا وهو محل الاتراك فامتنع منهم وكان المستعين فاضلا دينا أخبار يا مطلعا على التواريخ متجملا في ملبسه وهو أول من أحدث الاكمام العراض فجعل عرض الكم ثلاثة أشبار وهو الآن من شعار سادتنا اشراف مكة بني حسن اعزهم الله تعالى ولما أبى المستعين عن العود الى الاتراك في سامرا قصد الاتراك خلعه فأتوا الى الحبس واستخرجوا منه محمدا أبا عبد الله بن المتوكل على الله ولقبوه المعتز بالله وبايعوه وعمره تسعة عشر عاما ولم يل الخلافة اصغر سنا منه وخلعوا المستعين بالله في أول سنة اثنتين وخمسين ومائتين وجيشوا الى بغداد جيشا كثيفا على المستعين بالله وقاتلوه وقاتلهم ودام القتال اشهرا وكثر القتال وغلت الأسعار وعظم البلاء وتلاشا أمر المستعين بالله الى ان خلع نفسه واشهد القضاة والعدول على نفسه بذلك فأخذوه وانحدروا الى واسط وحبسوه بها تسعة أشهر ثم ندب له سعيد الحاجب فذبحه في الحبس في ثالث شوال سنة اثنين وخمسين ومائتين وله احدى وثلاثون سنة رحمه الله واستمر المعتز بالله خليفة وكان بديع الحسن مليح الصورة وليس في الخلفاء أجمل حسنا منه وكان مستضعفا مع الاتراك وكان صالح بن وصيف مستوليا على المعتز خائفا منه فاجتمع الجند عليه وطلبوا منه أرزاقهم فركبوا معه على صالح بن وصيف وقتلوه فيصفو له الملك ولم يكن في خزائنه مال ليصرفه عليهم وطلب من أمه وكانت تركية اسمها قبيحة لفرط جمالها فأبت عليه وشحت بالمال وسمحت بولدها وهو خليفة وكان معها مال عظيم فاتفق الاتراك على خلعه وركب عليه صالح بن وصيف ومحمد بن باغر وأتوا الى دار الخلافة وهجموا على المعتز وجروا برجله فأوقفوه في الشمس وعذبوه حتى خلع نفسه وأدخلوه الحمام ومنعوه من شرب الماء الى ان مات عطشا * وأحضروا أبا عبد الله محمد ابن الواثق بالله ولقبوه المهتدي بالله بن الواثق بن المعتصم بن الرشيد وبايعوه بالخلافة ليلة بقيت من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين وله بضع وثلاثون سنة وصادر صالح بن وصيف ام المعتز وعذبها حتى أخذ منها ألف ألف دينار ذهبا ونصف أردب لؤلؤ ومثله زمرد وثلث أردب ياقوت أحمر ثم أخرجت الى مكة وأقامت بها الى ان ماتت وأقل الناس الترحم عليها حيث ظهر عندها هذا المال وشحت به على ولدها * وكان المهتدي كثير العبادة ليس له من الامر شيء وكان قد أطرح الملاهي ومنع الظلمة عن الظلم فاتفق الاتراك على خلعه وركبوا عليه فخرج اليهم وقاتلهم بنفسه الى ان مسكوه باليد وعصروا على بطنه الى ان مات رحمه الله تعالى في رجب سنة ست وخمسين ومائتين وكانت خلافته سنة الا خمسة عشر يوما ﴿وولي الخلافة بعده ابن عمه أبو جعفر احمد﴾ وتلقب المعتمد على الله وستأتي ترجمته قريبا ان شاء الله تعالى

﴿الباب الخامس فى ذكر الزيادتين﴾

اللتين زيدتا فى المسجد الحرام بعد تربيعه الذى أمر به المهدى بن المنصور العباسى وشرع فيه فأدركته الوفاة قبل اتمامه وأتم فى ولاية الهادى بن المهدى المذكور كما سبق شرح ذلك فيما تقدم ووقع ترميم فى الجانب الغربى من المسجد الحرام قبل الزيادتين فى أيام المعتمد على الله العباسى ثم بنيت الزيادة الكبرى فى الجانب الشمالى من المسجد الحرام فى أيام المعتضد بالله ثم زيدت الزيادة الصغرى فى الجانب الغربى من المسجد الحرام فى أيام المقتدر بالله فلنذكر تراجم هذه الخلفاء ولنذكر ما أحدثوه فى المسجد الحرام من تجديد وزيادة وترميم على الترتيب ان شاء الله تعالى مع ما نذكر فى ضمن ذلك من الفوائد الاستطرادية ترويحا للنفس وتسببا لحصول الفوائد والانس توقيفا على أحوال الدهر وتعريفا بما يحدث من الحوادث فى كل عصر لئلا يعتمد العاقل على هذه الدنيا ويعتبر بمن قبله فى غدر هذه العجوز العمياء وهذه الفوائد فى الحقيقة هى نتائج علم الاخبار ليعتبر المعتبر حال نفسه بحال غيره فى هذه الدار فان من قواعد الحكمة ان أفعال الفاعل متشابهة الآثار والله تعالى هو الفاعل المختار وأن دار الآخرة هى دار القرار

وقد وجدت محل القول ذا سعة * فان وجدت لسانا قائلا فقل

لما قتل متغلبة العبيد الاتراك الخليفة المهدى بالله صبرا عمدوا الى الحبس وأخرجوا منه ابن عمه جعفر ﴿أحمد بن المتوكل على الله بن المعتصم بالله بن الرشيد العباسى﴾ ولقبوه المعتمد على الله بايعوه على الخلافة فى رجب سنة ست وخمسين ومائتين مولده سنة تسع وعشرين ومائتين وأمه ام ولد رومية اسمها فتيان وكان له انهماك على اللهو واللذات فقدم أخاه طلحة بن المتوكل على الله ولقبه الموفق بالله وجعله ولى عهده وولاه المشرق والحجاز واليمن وفارس وطبرستان وسجستان والسند وكان له ولد صغير اسمه جعفر لقبه المفوض الى الله وولاه المغرب والشام والجزيرة وعقد لهما لواءين أبيض وأسود وعقد لهما البيعة وشرط على أخيه الموفق انه ان حدث به الموت وولده صغير كان الموفق ولى عهده وان كان حينئذ ولده كبيرا كان ولده ولى عهده وكتب بذلك معاقدة كتب كل منهما خطه عليها وكتب عليها القضاة والعدول خطوطهم وأرسلها الى مكة فعلقت فيها وما أفاد من هذه التدابير حذر من قدر وما وقع الا ما قدره الله تعالى وكان الموفق عاقلا مدبرا شجاعا مشتغلا بأمور المملكة مدبرا ملتفتا لأحوال الرعية وكان أخوه المعتمد مكبا على لهوه ولذاته مهملا لأحوال الرعية غير ملتفت لأمور المملكة فكرهه الناس وأحبوا أخاه طلحة الموفق بالله وظهرت منه نجابات كثيرة * وكان ميمون النقيب مظفرا فى الحروب * وكان ظهر فى أيام المعتمد على الله طائفة الزنج وتغلبوا على المسلمين وكان لهم رئيس اسمه بهبول يدعى انه أرسله الله الى الخلق وادعى علم المغيبات وفتك فى المسلمين حيث ذكر الصولى انه قتل ألف ألف وخمسمائة ألف مسلم وكان يستأسر نساء المسلمين ويبيعهن بأبخس الاثمان وكان ينادى على العلوية والشريفة بدرهمين وكان عند الزنج نساء شريفات يطؤهن ويمتهنهن فى الخدمة الشاقة وكان ذلك من أعظم المصائب فى الاسلام وتملك هذا الكافر مدنا كثيرة أخذها من المسلمين واستأصل أهلها وجعلها دار مملكته كواسط ورامهرمز وما والاهما فانتدب لقتاله الموفق بالله وجمع الجموع والعساكر من حنكته وقائع الحروب ووهمته قوارع الخطوب فاتخذهم جنانا ويدا ورضى بهم ساعدا وعضدا وتعصب لعمود الاسلام وأعد السيوف والرماح والسهام وركض بجحفله الى الاعداء الكفرة اللئام الى

أن التقت الفئتان على حومة الحرب وتساقيا كؤس الطعن والضرب فجفلت السودان من لمعان الصارم الابيض وولوا الادبار للفرار كانفرار الليل الاسود من النهار المبيض وانهزموا ما بين مقتول ومأسور ومجروح ومكسور غير مجبور الى أن قتل كبيرهم بهبول ووجوه عسكره المخذول ونصر الله تعالى ملة الاسلام ومحى بنوره ذلك الظلام واسترددت المدن التى أخذها بالكفر والعناد كواسط ورامهرمز وغيرهما من البلاد واطمأنت المسلمون وكافة العباد (ولقبوه الناصر لدين الله) وصار له حينئذ لقبان ودخل الى بغداد فى عظمة وعلو شان ورأس ذلك الكافر على رمح ورؤس كبار عسكره على الارماح ودعا له المسلمون وقصده الشعراء بالقصائد والامداح فأحبه الناس وبعد صيته وكثر فى بابه المداح واستفحل أمره ولاحت له السعادة والفلاح واستمر أخوه المعتمد على حاله منهمكا فى لهوه ولذاته وله اسم الخلافة وجميع الامور يتلقاها الموفق بصدر منشرح وبسداد غاية السداد * وفى أيامه سنة احدى وسبعين ومائتين وقع وهن فى بعض جدران المسجد الحرام من الجانب الغربى قبل زيادة باب ابراهيم وكان فى نفس الجدار الغربى من المسجد الشريف باب كان يقال له باب الخياطين وكان بقربه دار تسمى دار زبيدة بنت أبى جعفر المنصور فسقطت تلك الدار على سطح المسجد الحرام فانكسرت أخشابه وانهدمت أسطوانتان من أساطين المسجد الشريف ومات تحت ذلك عشرة أنفس من خيار الناس وكان عامله بمكة يومئذ هرون بن محمد بن اسحق وقاضيها يوسف بن يعقوب القاضى * فلما رفع أمر هذا الهدم الى بغداد أمر أبو أحمد الموفق بالله عامله على مكة هرون المذكور بعمارة ما تهدم من المسجد الشريف وجهز اليه مالا بسبب ذلك فشرع فى عمارته وجدد له سقفا من خشب الساج ونقشه بالألوان المزخرفة وأقام الاسطوانتين الساقطتين وبنى عقودهما وركب السقف ونصب فى أيام عمارته صرادقا بين العمال والبنائين وبين الناس يسترهم عن أعين من بالمسجد الى أن أكمل ذلك فى سنة اثنين وسبعين ومائتين وركب من الحجر لوحين فى جدار المسجد الشريف فى ذلك الجانب نقش على أحدهما بالنقش فى لوح الحجر ما صورته * بسم الله الرحمن الرحيم أمر أبو أحمد الموفق بالله الناصر لدين الله ولى عهد المسلمين أطال الله بقاءه بعمارة المسجد الحرام رجاء ثواب الله تعالى والزلفى اليه وتم ذلك على يد عامله على مكة ومخاليفها هرون بن محمد بن اسحق بن موسى فى سنة اثنتين وسبعين ومائتين وعلى اللوح الثانى نقش كتابة صورتها * بسم الله الرحمن الرحيم أمر الناصر لدين الله ولى عهد المسلمين أبو أحمد الموفق بالله أخو أمير المؤمنين أطال الله بقاءهما القاضى يوسف بن يعقوب بعمارة المسجد الحرام لما فى ذلك من رجاء ثواب الله تعالى أجزل الله ثوابه وأجره وتم ذلك على يد محمد بن العلاء بن عبد الجبار فى سنة اثنين وسبعين ومائتين والحجران المذكوران لا وجود لهما الآن بل محاهما الدهر والأزمان وعفا أثرهما القديم الجديدان كما عفا أثر غيرهما من العمائر والبنيان ودار عليهما الدوران ولا يبقى الاثر أيضا بعد زمان

الدهر تفجع بعد العين بالاثر * فما البكاء على الاشباح والصور

وقد نقلت صورة تلك الكتابات من تاريخ مكة للامام أبى عبد الله محمد بن اسحق الفاكهى رحمه الله تعالى * وكان للموفق بالله ولد نجيب هو أحمد أبو العباس جعله الموفق ولى عهده واستعان به فى حروبه وأحواله وظهرت به نجابة وقوة فخشى الموفق منه على نفسه وعلى أخيه المعتمد لما رأى من شجاعته وبسالته فأودعه بطن الحبس ووكل به من يثق به فى أمره واستمر محبوسا الى الزمان الذى قدره الله تعالى

له * ثم وقعت الوحشة بين المعتمد على الله وأخيه الموفق بالله المذكور وتباغضت قلوبهما وتشاحنت الصدور فان الرياسة الدنيوية لا تقبل الاشتراك والغيرة على الملك والسلطنة أمر غريزي في صدور الاملاك والانفراد والاستقلال مما يتفانى عليه أبناء الدنيا من أصحاب الاملاك .

وما هي الا جيفة مستحيلة * عليها كلاب همهن اجتذابها
فان تجتنبها كنت سلما لاهلها * وان تجتذبها نازعتك كلابها

ولما كان المعتمد على الله مع كونه عاجزا عن أخيه الموفق كان يحسده ويريد هلاكه لاستيلائه على المملكة ورضى الناس عنه واشتغاله بالفحص عن أحوال الرعية عن الملاهي والملاذ فاستعان المعتمد على الله في هضم جانب أخيه بصاحب مصر يومئذ أحمد بن طولون وكان ملكا شهما افاقا كاصاحب جيوش وجنود كثيرة الاموال والخزائن مستقلا بمملكة مصر يأخذ خراجها وكانت يومئذ عامرة آهلة كثيرة المحصول لرفقه برعيته وتقويته لهم وعدم ظلمه وجوره عليهم فكان يحصل منها أموالا كثيرة جدا بسبب عمارتها وكانت كالروض البهيج في زهرتها ونضارتها وما كانت خرابا يبابا أكثرها مأوى البوم والصدا ولا تفرق رعيتها من جور ولا ثم ابدا عمرها الله تعالى بعدلة سلطاننا الاعظم وخليفة عصرنا الاكرم الافخم الذي عمر بعدالته البلاد سلطان السلاطين (السلطان مراد) ألهمه الله تعالى العدل والرفق بالعباد ومحق بسيفه الصارم أهل الظلم والفساد وأطال عمره ودولته حتى تلحق الاحفاد بالاجداد فكاتب المعتمد على الله أحمد بن طولون وأمره أن يقاتل أخاه الموفق ليخف أمره عليه بذلك ويهون وجرت بينهما من ذلك شؤون واشتغل الموفق بذلك عن أخيه وصار يواليه تارة ويداريه ويباعده تارة ويدانيه ومضى على ذلك أيام وانتفى عليه أعوام الى أن مالت قناة حياة الموفق كل الميل ولزم بطون الفراش بعد متون سوابق الخيل ووهى جسده ووهنت قواه ولا صانه حصانه ولا وقاه

وخانه يده على حمله قلما * من بعد حطم القنا في لبة الاسد

فلما اشتد حاله وتحقق عند غلمانه ماله بادروا الى الحبس وكسروه واخرجوا منه ولده المعتضد وآووه ونصروه وجاؤا به الى والده الموفق فلما رآه أيقن بالموت وتحقق وقال له يا ولدي لهذا اليوم خبأتك وفوض اليه واوصاه بعمه المعتمد خيرا وكان ذلك قبل موت الموفق بثلاثة ايام فعطف الموت على الموفق فركب طبقا عن طبق الى اطباق الثرى بالعنق ومضى عن الدار الفانية الى الدار الباقية والتحق وكانت وفاته رحمه الله في سنة ثمان وسبعين ومائتين وشمت في موته اخوه المعتمد وظن انه استراح من الموفق وما علم انه عن قليل باخيه ملتحق وحسب انه صفا له دهره وما علم ان الصفا يعقبه الكدر وان الدهر ما صفا لاحد من البشر وان صروف الدهر تاتي بالمحن والعبر وانها لا تبقي ولا تذر فما طال عليه الحول حتى استلب ذلك الطول والحول ولم يكن له بعد خذلان لناصر من قوة ولا ناصر ولا طال عمره القصير ولا استطال حوله القاصر ولم يبق للمعتمد عمال ولا اعتماد على الدهر الخؤن الغادر وانتقل من سرير الملك الى ظهر الهلك ومضى كأن لم يكن شيأ مذكورا وكان امر الله قدرا مقدورا * وكانت وفاته ليلة الاثنين لاحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين رحمه الله تعالى ﴿وولي الخلافة بعده في تاريخه ابن اخيه ابو العباس احمد المعتضد بالله بن طلحة الموفق بن المتوكل بن المعتصم بن هرون الرشيد العباسي﴾ مولده سنة ثلاث واربعين ومائتين وبويع له

بالخلافة

بالخلافة بعد عمه المعتمد فى تاريخ وفاته المذكور آنفا وامه ام ولد اسمها صواب وكان ملكا مهيبا ظاهر الجبر وتوافر العقل شجاعا يقدم على الاسد وحده شديد السياسة اذا غضب على أحد ألقاه فى حفيرة وطم عليه التراب وكان اسقط المكوس فى ايامه ورفع الظلم عن الرعية وجدد ملك بنى العباس بعد ما وهى ووهن وأظهر عزة الملك بعد ما تذلل وامتهن وكان يسمى السفاح الثانى حيث جدد كل منهما ملك بنى العباس وفى ذلك يقول ابن الرومى

هنيأ بنى العباس ان امامكم ● امام الهدى والجود والباس احمد
كما بأبى العباس انشأ ملككم ● كذا بأبى العباس ايضا يجدد
امام يظل الامس يشكو فراقه ● تأسف ملهوف ويشتاقه غد

وفى ذلك يقول عبد الله بن المعتز ايضا

أما ترى ملك بنى هاشم ● عاد عزيزا بعد ما ذللا
يا طالبا للملك كن مثله ● تستوجب الملك والافلا

وكان مع سطوته وبأسه يتوخى المعدلة ويبرز أمورا فى صورة الجبروت والعسف وهو فى الباطن محق فيها فيما يفعله وهذا هو الرأى السديد للحاكم الرشيد لجمعه بين سياسة الدنيا والحق عند الله تعالى * وقد نقل الحافظ السيوطى رحمه الله تعالى فى تاريخ الخلفاء عن عبد الله بن حمدون قال خرج المعتضد للصيد وأنا معه فرعقثاة فعاث بعض جنوده فيها فصاح صاحبها واستغاث بالمعتضد فاحضره وسأله عن سبب صياحه فقال ثلاثة من غلمانك نزلوا المقثأة فأخربوها فأمر عبيده باحضارهم فضرب أعناقهم ومضى وهو يحادثنى فقال أصدقنى يا عبد الله ما الذى تنكره الناس على من أحوالى فقلت له تسفك الدماء كثيرا فقال ما سفكت دما حراما فقلت له بأى ذنب قتلت أحمد بن الطيب فقال انه دعانى الى الالحاد وظهر لى الحاده فقتلته لنصرة الدين قلت فالثلاثة الذين نزلوا المقثأة الآن بم استحللت دماءهم ولأى شئ قتلتهم فقال والله ما قتلتهم وانما أحضرت ثلاثة من قطاع الطريق وأوهمت الناس انهم هم الذين نزلوا المقثأة فأمرت بضرب اعناقهم ثم امر صاحب الشرطة باحضار الثلاثة الذين نزلوا المقثأة وأحضرهم بانفسهم وشاهدتهم ثم امر باعادتهم الى الحبس وهكذا ينبغى لتدبير السياسة واظهار النصفة وتخويف الجند وارعابهم * ومن معدلته انه كتب الى الآفاق بابطال ديوان المواريث والامر بتوريث ذوى الارحام وكانوا يحرمونهم الميراث وكانوا يستولون على مخلفات الناس بالظلم ولا يتصل الوارث بجميع حقه من الارث بل يؤخذ كثير من عين حقه بانواع التعللات وكان يحصل على الرعية ظلم كثير بسبب ذلك وبعض الظلم باق الى الآن يسر الله ازالته على يد سلطاننا وفقه الله تعالى لاحياء المكارم واسداء المحارم وأعانه على ابطال المظالم * ولما أمر المعتضد بابطال ديوان المواريث فى سائر مملكته فرح الناس بذلك وأحبوه ودعوا له بدوام دولته وصار له بذلك صيت عظيم واجر جميل عند الله الكريم ولعله هو الذى نفعه فى يوم آخرته وأدخله الله جنات النعيم * وكان من قضاته القاضى ابو خازم بالخاء المعجمة والزاء وهو من اكابر العلماء اهل الدين والتقوى فكان من بعض تصلباته فى الدين أن شخصا انكسر عليه مال كثير للناس وثبت ذلك عليه عند القاضى المذكور فأمر بتوزيع ماله على غرمائه بالمحاصة وقد انكسر على ذلك المديون مال للخليفة المعتضد أيضا فارسل المعتضد الى القاضى أبو خازم يقول اشركنى مع غرماء هذا المديون بالمحاصة فان لى أيضا مالا فى ذمته فاجعلنى كأحد غرمائه فقال أبو خازم انى لا أحكم للمدع

بدون بينة عادلة أو أرسل وكيلا وبينة أرضاها التكون بأسوة غرماء هذا المديون فاحكم لكن بعد سماع الدعوى والبينة والتزكية سرا وجهرا فأمر المعتضد شهوده ليشهدوا عند القاضي وكانوا من أكابر أمرائه فما حضر أحد منهم الى القاضي خوفا من رد شهادتهم ولم يحكم القاضي للمعتضد أن يكون من غرماء ذلك المديون فأعجب المعتضد ديانة القاضي وثباته على الحق وتصميمه على ذلك وعدم ميله اليه وما أحوج زماننا هذا الى قاض مثل هذا اخه وصافى أطراف البلاد يقول الحق ويثبت ولا يميل الى خواطر العباد وكان المعتضد ينظم شعرا حسنا ومن نظمه ما رثى به جاريته دائره

يا حبيبا لم يكن * بعدله عندى حبيب
انت عن عيني بعيد * ومن القلب قريب
ليس لى بعدك فى * شئ من اللهو نصيب
لك من قلبي على * قلبي وان غبت رقيب
لو ترانى كيف حالى * فرط عولى ونحيب
وفؤادى حشوه من * حرق القلب لهيب
لتيقنت بأنى * فيك محزون كئيب

وقال لما احتضر عفا الله عنه

تمتع من الدنيا فانك لا تبقى * وخذ صفوها ما صفت ودع الرنقا
ولا تأمنن الدهر انى امنته * فلم يبق لى حالا ولم يرع لى حقا
قتلت صناديد الرجال ولم ادع * عدوا ولم امهل على جسد خلقا
واخليت دور الملك من كل نازل * وفرقتهم غربا ومزقتهم شرقا
فلما بلغت النجم عزا ورفعة * ودانت رقاب الخلق أجمع لى رقا
رمانى الردى سهما فأخمد جمرتى * فها أنا ذا فى حفرتى عاجلا ملقى
وافسدت دنياى ودينى سفاهة * فمن ذا الذى منى بمصرعه اشقى
فياليت شعرى بعد موتى ما أرى * الى رحمة الله ام ناره ألقى

ومما وقع فى أيام المعتضد من عمارة المسجد الحرام من الجانب الشامى زيادة دار الندوة وأدخلها فى المسجد الشريف من الجانب الشامى بلصقه الى رواق الجانب المذكور وهذا المحل يسمى دار الندوة وهى كانت فى زمن الجاهلية دارا يجتمع صناديد قريش فيها عند نزول حادث بهم للاستشارة فى دفع ذلك الحادث عنهم بالاتفاق على رأى يجمعون على كونه صوابا فيأتون به بعد ذلك وكانت الندوة مما تتفاخر به قريش فى الجاهلية وكان قد اجتمع فى قصى بن كلاب الرفادة والسقاية والسدانة والندوة واللواء ففرقها فى أولاده * ولما ظهر شأن النبى صلى الله عليه وسلم وآمن به كثير من قريش من الانصار خاف منه كفار قريش واجتمعوا فى دار الندوة وتشاوروا فى قتله صلى الله عليه وسلم فظهر لهم ابليس لعنه الله فى صورة الشيخ النجدى واختار لهم من الرأى ما اختاره فنجاه الله تعالى من كيد المشركين وأذن له فى الهجرة كما هو مذكور فى كتب السيرة * وذكره الله تعالى فى كتابه العزيز حيث قال واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين وليست الزيادة هى عين دار الندوة بل محلها فى تلك الاماكن لا على التعيين من خلف مقام الحنفى الآن الى آخر

هذه الزيادة* وكانت دار الندوة بعد ظهور الاسلام وكثرة بناء الدور بمكة دارا واسعة ينزل بها الخلفاء اذا
وردوا مكة ويخرجون منها الى المسجد الحرام للطواف والصلاة وكان له فناء واسع صار سباخة ترمى فيه
القمائم فاذا حصلت الامطار الغزيرة سال من الجبال التى فى يسار الكعبة مثل جبل قيقعان وما حوله
من الجبال سيول عظيمة الى ذلك الفناء وحملت أوساخه وقمائمه الى دار الندوة والى المسجد الحرام
واحتيج الى تنظيف تلك الاوساخ والقمائم من المسجد الشريف كلما سالت سيول هذا الجانب
الشمالى وصار ضررا على المسجد الحرام* فكتب قاضى مكة من قبل المعتضد العباسى القاضى محمد بن
عبد الله المقدمى وأمير مكة يومئذ من قبله أيضا عج بن حاج مولى المعتضد المذكور مكاتبات الى وزير
المعتضد يومئذ وهو عبيد الله بن سليمان بن وهب يتضمن ان دار الندوة قد عظم خرابها وتهدمت وكثيرا
ما يلقى فيها القمائم حتى صارت ضررا على المسجد الحرام وجيرانه واذا جاء المطر سالت السيول من بابها
الى بطن المسجد وحملت تلك القمائم الى المسجد الحرام وانها لو أخرج ما فيها من القمائم وهدمت وبنيت
مسجدا يوصل بالمسجد الحرام يصلى الناس فيها ويتسع الحجاج بها لكانت مكرمة لم يتهيأ لاحد غير الخلفاء
بعد المهدى والهادى ومنقبة باقية وشرفا وأجرا باقيا على طول الزمان وان بالمسجد خرابا كثيرا وان سقفه
يسيل منه الماء اذا جاء المطر وان وادى مكة قد انكبس بالاتربة فعلت الارض عما كانت وصارت
السيول تدخل من الجانب اليمانى أيضا الى المسجد الحرام ولابد من قطع تلك الاراضى وتعهدها
وتنزيلها الى حد تمر فيه السيول منحدرة عن الدخول الى المسجد الحرام ووصل أيضا الى بغداد سدنة
الكعبة ورفعوا أمرهم الى ديوان الخلافة ان وجه جدران الكعبة من باطنها قد تشعث وان الرخام
المفروش فى أرضها قد تكسر وان عضادتى باب الكعبة كانتا من ذهب فوقعت فتنة بمكة فى سنة
احدى وخمسين ومائتين بخروج بعض العلويين فقلع عامل مكة يومئذ ما على عضادتى باب الكعبة من
الذهب وضرب به دنانير واستعان به على حرب العلوى الذى خرج عليه يومئذ وصاروا يسترون العضادتين
بالديباج ووقعت بعدها أيضا فتنة بمكة فى سنة ثمان وستين ومائتين فقلع عامل مكة يومئذ مقدار الربع من
الذهب الذى كان مصفحا على باب الكعبة ومن أسفله وما على أنف الباب الشريف من الذهب وضربه
دنانير واستعان به على دفع تلك الفتنة وجعل بدل الذهب فضة مموهة على الباب الشريف وعلى أنف
الباب المنيف فاذا تمسح الحجاج به أيام الحج تبركا بذلك المكان الشريف ذهب صبغ الذهب وانكشفت
الفضة فيجدد تمويهها كل سنة والمناسب اعادة ذلك ذهبا صرفا كما كان وان رخام الحجر الشريف قد تكسر
ويحتاج الى التجديد وان بلاط المطاف حول الكعبة الشريفة لم يكن تاما ويحتاج أن يتمم من جوانبها
كلها وان ذلك من أعظم القربات وأكرم المثوبات وقد رفع الى الديوان العزيز المبادرة الى انتهاز ذلك
والامر راجع الى دار الخلافة الشريفة والسلام فلما أشرف على هذه المكاتبات كاتب الخليفة المعتضد
يومئذ الوزير عبيد الله بن سليمان بن وهب الكاتب وكان من أهل الخير له قدم راسخ فى قصد الجميل وفعل
الحسنات ونية جميلة فى احراز الاجر والمثوبات بادر الى عرض ذلك على اسماع الخليفة المعتضد وحسن
له اغتنام هذه الفرصة والمبادرة اليها وبذل المقدور فيها فبرز أمر المقتدر اليه والى غلامه المؤمر بالحضرة
بعمل ما رفع اليه من ترميم الكعبة الشريفة والحجر والمطاف والمسجد الحرام وأن تهدم دار الندوة
وتجعل مسجدا يلحق بالمسجد الحرام ويوصل به وان يحفر الوادى والمسيل والمسعى وما حول المسجد الحرام
ويعمق حفرها الى أن يعود الى حاله الاول ويجرى ماء السيل فيه ولا يدخل شئ منه الى المسجد الحرام

فيصان المسجد بذلك من دخول السيول اليه وأن يحكم ذلك غاية الاحكام ويعمر ما تجب عمارته على وجه الاتقان والاستحكام وأمر ان يحمل من خزائنه ما لا يعطيه لهذا العمل وأمر قاضي بغداد يومئذ وهو القاضي يوسف بن يعقوب أن يرتب ذلك ويجهز لعمله من يعتمد عليه وأمر بحمل المال اليه فجهز بعضه نقدا في أيام الحج مع ولده أبي بكر عبد الله بن يوسف وكان مقدما على حوائج دار الخلافة ومصالح طريق الحج وعمارتها وأرسل بباقي المال سفاتج اصلها الى ولده المذكور ليسلمها من كتب اسمه في تلك السفاتج وعين معه لهذه الخدمة رجلا يقال له أبو الهياج عميرة بن حسان الاسدي له أمانة وحسن رأي ونية جميلة وسيرة حسنة فوصلا الى مكة في موسم حج سنة احدى وثمانين ومائتين فحلي بالذهب الخالص باب الكعبة الشريفة وحج وتخلف بعد الحج بمكة أبو الهياج المذكور ومن معه من العمال والاعوان وعاد عبد الله بن القاضي يوسف مع الحجاج الى بغداد ليرسل اليه ما يحتاج اليه من بغداد لتكميل ما أمر من العمارة المذكورة فشرع أبو الهياج في حفر الوادي وما حول المسجد الحرام فحفره حفرا جيدا حتى ظهر من درج المسجد الحرام الشارعة على الوادي اثنا عشر درجة وانما كان الظاهر منها خمس درجات فحفرت الارض ورمي بترابها خارج مكة ونظفت دار الندوة من القمائم والاتربة وهدمت وحفر اساسها وجعلت مسجدا وأدخل فيها من أبواب المسجد الكبير ستة أبواب كبار سعة كل باب خمسة أذرع وارتفاع كل باب من الارض الى جهة الشمال أحد عشر ذراعا وجعل بين الابواب الكبار ستة أبواب صغار ارتفاع كل باب ثمانية أذرع وسعة كل باب ذراعان ونصف وجعل في هذه الزيادة بابان بطاق شارعين الى الخارج في جانبها الشمالي وباب بطاق واحد في جانبها الغربي واقيمت أروقتها وسقوفها من جوانبها الاربعة وركبت سقوفها على أساطينها وسويت بخشب الساج وجعل لها منارة وفرغ من عمارتها في ثلاث سنين ولعل اكمالها في سنة اربع وثمانين ومائتين الا انها ما استمرت على هذه الهيئة بل غيرت بعد قليل الى وضع احسن منه بعد المعتضد المذكور * قال محمد بن اسحاق الفاكهي في تاريخ مكة ان ابا الحسن محمد بن نافع الخزاعي ذكر لي تعليقه ان قاضي مكة محمد بن موسى القاضي لما كان اليه امر البلد جدد بناء زيادة دار الندوة وغير الطاقات التي كانت فتحت في جدار المسجد الكبير وجعلها متساوية واسعة بحيث صار كل من في زيادة دار الندوة من مصل ومعتكف وجالس يمكنه مشاهدة البيت الشريف وجعل اساطينها حجارة مدورة منحوتة وركب عليها سقوفا من الخشب الساج منقوشا مزخرفا وعقودا مبنية بالآجر والجص ووصل هذه الزيادة بالمسجد الكبير وصولا احسن من اول وجدد شرافاتها او بيضها وانه عمل ذلك في سنة وثلثمائة بياض في الاصل

انتهى * ولقد كان ابتداء عمارة هذه الزيادة عظيمة ومنقبة كريمة اتى بها المعتضد بالله وأثرا باقيا على صفحات هذا الدهر ما فاز بها سواه وفعل لا يزال يذكر وصاحبه يمدح بألسنة الخلق ويشكر وقد بلي عظامه تحت التراب الأعفر فما مات من يذكر بالجميل بعد أن يقبر وما عاش من عاش بالسوء حين يذكر

ما عاش من عاش مذموما خصائله * ولم يمت من يكن بالخير مذكورا

واستمرت تلك الاساطين المنحوتة من الاحجار السود عليها اسقف الساج المزخرف المنضود مشيدة باقية الى ان أدركناها في عصرنا * ثم بدلت بأساطين منحوتة من الشميسي الاصفر بعقود محكمة أزين من عقود الجوهر وجعل عرض السقف الذي يبلى خشبه كل حين قببا مرفوعة نزهة للناظرين في غاية

الاتقان والتزيين فى زمان سلطان سلاطين الزمان السلطان مراد خان بن سليم خان بن سليمان خان بن عثمان خلد الله تعالى سلطانه وأفاض على العالمين بره واحسانه. ﴿رجعنا الى ما كنا فيه﴾ من أخبار المعتضد العباسى وما وقع له من الناس الذى ليس فى آمن * ولما أن عضد المعتضد عضد الموت العاضد وقطع عرق حياته مباضع الزمان الحاسد وما حمته عن الحمام قوته ولا منعة فى منعته ولا هيبته فأنزلته يد المنايا من سرير الخلافة والملك وأركبته سرير الجنازة الى شفير القبر والهلك ودفنه فى تربة عمله الصالح وسقف ثراه بما طاب من ثنائه الفائح ﴿ومن أغرب ما حكاه﴾ المسعودى عن المعتضد فى وفاته أنه اعتل من افراطه فى كثرة الجماع وطالت علته وغشى عليه فشك من حوله فى موته وكان لا يجسر عليه أحد لشدة هيبته فتقدم اليه الطبيب يختبره بجس نبضه ففتح عينه وفطن لذلك فرفس الطبيب برجله رفسة فدحاه أذرعا فمات الطبيب ثم مات المعتضد من ساعته * وكان وفاته يوم الاثنين لثمان بقين من ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين وخلف من الاولاد ذكورا واحدى عشر بنتا وكانت مدة ملكه تسع سنين وتسعة أشهر ونصف رحمه الله

﴿فصل﴾ لما اشتد مرض المعتضد جعل ولى عهده من بعده ولده أبا محمد ولقبه المكتفى بالله وأخذ له البيعة قبل موته بثلاثة أيام فلما توفى المعتضد الى رحمة الله كان المكتفى غائبا بالرقة فنهض بالبيعة له الوزير أبو الحسين القاسم بن عبد الله وكتب اليه فوصل الى بغداد من الرقة فى سابع جمادى الأولى وكان يوم وصوله يوما مشهودا ازينت له بغداد ونزل دار الخلافة وخلع على الوزير المذكور تسع خلع عظيمة ومدحه الشعراء وأنعم عليهم بالجوائز السنية * وكان مولده فى غرة ربيع الأول سنة أربع وستين ومائتين وأمه أم ولد تركية اسمها جيجل وكان مليح الصورة يضرب بحسنه المثل وفيه قال القائل يصف الدنيا

ميزت بين جمالها وفعالها * فاذا الملاحة بالقباحة لا تفى
والله لا أختارها ولوانها * كالبدر أو كالشمس أو كالمكتفى

وكانت سيرته حسنة وأفعاله حميدة فأحبه الناس وفرحوا بخلافته ودخوله وذكر عبد الغافر فى تاريخ نيسابور عن ابن أبى الدنيا وكان معلما للمكتفى قبل أن يلى الخلافة قال فلما أفضت الخلافة الى المكتفى كتبت اليه هذين البيتين يقول

ان حق التأديب حق الأبوه * عند أهل الحجى والمروه
واحق الرجال أن يحفظوا ذا * ك ويرعوه أهل بيت النبوة

انتهى * ومن أعظم الحوادث فى أيامه ظهور القرامطة الملحدين بل الكفرة المفسدين أعداء الدين فاول من خرج منهم يحيى بن مهرويه القرمطى ومحل خروجهم ودار ملكهم هجر وهم اباحية يستحلون دماء الحجاج والمسلمين يدعون ان الامام الحق بعد النبى صلى الله عليه وسلم محمد بن الحنفية بن على بن أبى طالب رضى الله عنه وينتسبون اليه بالباطل ويسندون اليه أقاويل باطلة لا أصل لها ويكفرون من عداهم وهم الكفرة قاتلهم الله تعالى ﴿ولما ظهر بالهجر يحيى المذكور﴾ جهز اليه المكتفى بالله جيوشا واستمر القتال بينه وبين عسكر الخليفة الى أن قتل وسيق الى جهنم وبئس المصير * فقام بعده أخوه الحسين وأظهر شامة بوجهه الاسود زعم أنها آيته وظهر ابن عمه عيسى بن مهرويه وتلقب بالمدثر وزعم انه المراد بالسورة الشريفة القرآنية ولقب غلاما له مطلعا بالطور بالنون وتسمى أمير المؤمنين

قوله مطلعا بالطور الخ هكذا بالاصل ولعل وحرر اهـ

وزعم انه المهدى ودعا لنفسه على المنابر وافسد بالشام وعاث فيها الخور بوا وقتل الثلاثة وحزت رؤسهم وطيف بها فى البلاد فى سنة احدى وتسعين * وخلف من بعدهم خلف ظهر منهم مفاسد سيأتى ذكرها استطروا دا وتعب المسلمون كثيرا فى امرهم الى ان خذلهم الله تعالى ولم يطل زمان المكتفى * وكانت مدة ملكه ستة اعوام ونصف ولما مرض مرض الموت وتيقن بالفنا والفوت سأل عن اخيه ابى الفضل جعفر بن المعتضد فقيل انه احتلم وصح عنده ذلك * فجعله ولى عهده ولقبه المقتدر بالله * وبويع له على ان يكون الخليفة بعده قال الصولى سمعت المكتفى يقول فى علته التى مات فيها والله ما أسفى الا على سبعمائة ألف دينار صرفتها من بيت مال المسلمين فى ابنية وعمارات لا احتاج اليه وذكر أبو منصور الثعالبى قال حكى ابراهيم بن نوح ان الذى خلفه المكتفى مما جمعه هو ولبوه لاغير مائة الف الف دينار ما بين عين وامتعة وأوانى وعقارات وكان من جملة الامتعة ثلاث وسبعون ألف ثوب ديباج فسبحان من بيده خزائن السموات والارض له الملك واليه ترجعون ولما جاءه الاجل المحتوم المقتدر وتلى لسان حاله ان اجل الله اذا جاء لا يؤخر انقصف غصن شبابه القشيب ويبس عود جماله النضير الرطيب وصار بدر كماله مخسوفا وعاد محياه المشرق بالجمال مكسوفا فانتقل من دار الفنا الى دار البقا فى ليلة الاحد لثنتى عشرة ليلة خلت من شهر القعدة الحرام سنة خمس وتسعين ومائتين رحمه الله تعالى وخلف ثمانية اولاد ذكور وثمانى بنات * وولى بعده اخوه ابو محمد على المقتدر بالله بن المعتضد بالله بن الموفق بالله بن المتوكل على الله بن المعتصم بن هرون الرشيد العباسى * بايعه الناس وعمره ثلاث عشرة سنة ولم يل الخلافة قبله أصغر منه ذكره الجلال السيوطى وامه ام ولد تسمى شعيب وولى الخلافة ثلاث مرات هذه الاولى منها ولم يتم له فيها امر لصغر سنه فتغلب الجند عليه واتفقوا على خلعه فخلعوه * وعقدوا البيعة لابى العباس عبد الله ابن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد * ولقبوه الغالب بالله وبايعوه لعشر بقين من ربيع الاول سنة ست وتسعين ومائتين واستمر خليفة ساعة من ذلك النهار * وعبد الله بن المعتز لقصر خلافته لا ينبغى عده من الخلفاء ولكن نذكره لفضله وأدبه وهو اشعر بنى العباس بل اشعر بنى هاشم على الاطلاق واكثرهم فضلا وادبا ودخولا ومعرفة بعلم الموسيقا وأشعر الشعراء مطلقا فى التشبيهات المبتكرة الغريبة المخترعة المرقصة التى لا يشق غباره فيها احد * مولده فى شعبان سنة تسع واربعين ومائتين * قال المعافى بن زكريا لما بويع ابن المعتز دخلت على شيخنا محمد بن جرير الطبرى العالم الكبير المفسر المحدث المؤرخ رحمه الله تعالى فقال لى ما الخبر قلت بويع بالخلافة لعبد الله بن المعتز قال فمن رشح لوزارته فقلت محمد بن داود قال فمن قاضيه قلت ابو المثنى فأطرق قليلا ثم قال هذا امر لا يتم فقلت ولم لا يتم فقال كل من ذكرت ذو شأن عظيم متقدم فى فضله وعلمه وعقله وان الدنيا متوليه والزمان مدبر ولا مناسبة لأحد عن ذكرت اسمه برياسة فى مثل هذا الزمان وما أرى هذا العقد الا آيلا الى الانحلال والاضمحلال فقدر الله تعالى انهم خلعوه فى ذلك اليوم وتلاشى امره فان عبد الله بن المعتز لما عقدت له البيعة والخلافة ارسل الى المقتدر يأمره باخلاء دار الخلافة وان يذهب الى دار محمد بن طاهر لينظر فى امره * فلما جاء الرسول الى المقتدر وبلغه الرسالة قال ليس له جواب عندى غير السيف ولبس السلاح وركب معه جماعة قليلة من خدمه وهم مستسلمون للقتل فى غاية الخوف والرعب وهجموا على عبد الله ابن المعتز وعلى بعض الامراء والفقهاء وسلمهم الى يونس الخازن وقتل منهم من اراد وحبس عبد الله بن المعتز واخرج من الحبس ميتا واستقام الامر للمقتدر وهذه ولايته الثانية فسار أحسن سيرة واستقام

امره بعد الاضمحلال وطلعت شمس سعادته بعيد الزوال ولاح بدر فلاحه من أوج الكمال والعزة لله الكبير المتعال وحيث انجر الكلام الى ذكر عبد الله بن المعتز فلا بأس بتحقيق هذه العجالة وترويق هذه الرسالة ببعض أشعاره المستظرفة ليعلم البلغاء رتبته فى البلاغة واقتداره على الكلام فنورد قصيدته فى الحماسة التى فاخر بها آل النبى صلى الله عليه وسلم ولا يخفى على ان الاقدام على مثل ذلك يدل على قوة الطبع فان الادعاء لهذا المطلب العالى من امثاله مجوج فى الاسماع منفور عن الطباع فاذا أبرز مع ذلك فى قالب مطبوع دل ذلك على قوة طبع الشاعر كما قال شاعر عصره الاديب المفوه ابن الرومى

فى زخرف القول تزيين لباطله * والحق قد يعتريه سوء تغيير

تقول هذا مجاج النحل تمدحه * وان تعب قلت ذا قىء الزنابير

وهذه منتخب تلك القصيدة التى فاخر فيها بين قومه بنى العباس وآل أبى طالب رضى الله عنهم فى الخلافة وما انصف فيما ادعاه ولكنه اتى بشعر بليغ معناه فقال

ألا من لعينى وتسكابها * تشكى القذا وبكاها بها

ترامت بنا حادثات الزمان * ترامى القسى نشابها

ويارب ألسنة كالسيوف * تقطع أرقاب أصحابها

وكم دهى المرء من نفسه * فرقه حد أنيابها

وان فرصة أمكنت فى العدو * فلا تبد فعلك الا بها

فان لم تلج بابها مسرعا * اتاك عدوك من بابها

وما نافع ندم بعدها * وتأميل أخرى وأنى بها

وما ينتقص من سباب الرجال * يزد فى رنها هناو ألبابها

نهيت بنى رحمى ناصحا * نصيحة بر بأنسابها

وقد ركبوا بغيهم وارتقوا * معارج تهوى بركابها

وراموا فرائس أسد الشرى * وقد نشبت ما بين أنيابها

دعوا الاسد تفرس ثم أشبعوا * بما تفضل الاسد فى غابها

قتلنا أمية فى دارها * وكنا أحق باسلابها

ولما أبى الله أن تملكوا * نهضنا اليها وقمنا بها

ونحن ورثنا ثياب النبى * فلم تجذبون باهدابها

لكم رحم يابنى بنته * ولكن بنو العم أولى بها

فهلا بنو عمنا انها * عطية رب حبانا بها

وكانت تزلزل فى العالمين * فشدت لدينا بأطنابها

وأقسم بأنكم تعلمون * بأنا لها خير أربابها

فرد عليه شاعر زمانه وبليغ أوانه الصفى الحلى بقوله

الا قل لشر عبيد الاله * وطاغى قريش وكذابها

أأنت تفاخر آل النبى * وتجحدها حق أسبابها

بكم باهل المصطفى ام بهم * ترد العداة بأوصابها

أعنكم نفى الرجس أم عنهم * لطهر النفوس وألبابها
اما الشرب واللهو من دأبكم * وفرط العبادة من دابها
هم الصائمون هم القائمون * هم العالمون بآدابها
هم الزاهدون هم العابدون * هم الساجدون بمحرابها
هم قطب ملة دين الاله * وأهل الرحى بأقطابها
تقول ورثنا ثياب النبى * فلم تجذبون بأهدابها
وعندك لاتورث الانبيا * فكيف حظيتم بأثوابها
أبوهم وصى نبى الاله وأهل الوصية أولى بها
أجدك يرضى بما قلته * وما كان يوما بمرتابها
وكان بصفين من حزبهم * لحرب البغاة وأحزابها
وصلى مع الناس طول الحيا * ة وحيدر فى صدر محرابها
فهلا تقمصها جدكم * وهل كان من بعض خطابها
واذ جعل الأمر شورى لهم * فهل كان من بعض أربابها
وقولك أنتم بنو بنته * ولكن بنو العم أولى بها
بنو البنت أيضا بنو عمه * وذلك أدنى لأنسابها
وقلت بأنكم القاتلون * اسود أمية فى غابها
كذبت ولولا أبومسلم * لعثرت على جهد طلابها
وقد كان عبد الحميد لا لكم * رأى عندكم قرب أنسابها
وكنتم أسارى بطون الحبوس * وقد شغلكم لثم أعتابها
فأخرجكم منها وحباكم بها * وقمصكم فضل جلبابها
بجاز يتوه بشرب الجزا * ء لطغوى النفوس واعجابها
فدع فى الخلافة فضل الخلا * ف فليست ذلولا لركابها
وما أنت والفحص عن شأنها * وما قمصوك بأثوابها
وما ساومتك سوى ساعة * فما كنت أهلا لأسبابها
ودع ذكر قوم رضوا بالكفا * ف وجاؤا القناعة من بابها
عليك بلهوك بالغانيا * ت وخل المعالى لأربابها
ووصف العذار وذات الخما * ر ونعت العقار بألقابها
فذلك شأنك لاشأنهم * وجرى الجياد بأحسابها

ومن السحر الحلال الذى عقده فى سلك اللآل ورقمه بقلم البلاغة على صفحات الأيام والليال هذا الموشح الذى يصلح وشاحا للجوزاء واكليلا على التاج المحلى بنجوم الثريا سارت به الركبان وتناقلته الرواة بألسنة الزمان قوله

أيها الساقى اليك المشتكى * قد دعوناك وان لم تسمع

ونديم همت في عزته

ويشرب الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق اليه واتكى * وسقاني أربعا في أربع

ما لعيني عشيت بالنظر

انكرت بعدك ضوء القمر

واذا ما شئت فاسمع خبري

عشيت عيناي من فرط البكا * وبكى بعضي على بعضي معي

غصن بان مال من حيث التوى

مات من يهواه من فرط الجوى

خفق الاحشاء موهون القوى

كلما فكر في البين بكى * ويحه يبكي لما لم يقع

ليس لي صبر ولا لي جلد

يا لقومي عذلوا واجتهدوا

أنكروا شكواي مما أجد

مثل حالي حقها ان تشتكى * طمع اليأس وذل الطمع

كبدي حراودمعي يكف

يذرف الدمع ولا يعترف

أيها المعرض عما أصف

قد نمى حبي بقلبي وزكا * لا تقل في الحب اني مدعي

ومن تشبيهاته الرائقه وأشعاره الفائقه قوله

ومقرطق يسعى الى الندماء * بعقيقة في درة بيضاء

والبدر في أفق السماء كدرهم * ملقي على ياقوتة زرقاء

(وله مثلث وهو معنى بديع)

خليلي طاب الراح من بعد طبخها * وقد عدت بعد الكبر والعود أحمد

فهاتا عقارا من قميص زجاجة * كياقوتة في درة تتوقد

يصوغ علينا الماء شباك فضة * لها حلق بيض تحل وتعقد

وقتني من نار الجحيم بنفسها * وذلك من احسانها ليس يجحد

وله من التصانيف كتاب الزهر والرياض وكتاب مفاكهات الاخوان وكتاب الصيد والجوارح وكتاب السرقات الشعريه وكتاب أشعار الملوك وكتاب طبقات الشعراء وديوان شعر وغير ذلك * ومن كلامه في البلاغة البلوغ الى المعنى ولم نطل سفر الكلام وأشعاره البليغة وتشبيهاته الغريبة كثيرة لا تطول بها هذه العجالة * ولما تقرر امر المقتدر في التمكن والاقتدار واستقرت خلافته أتم استقرار استوزر أبا الحسن علي بن محمد بن الفرات فسار احسن سيرة واستقر في الخلافة الى سنة سبع عشرة وثلثمائة فخرج

يونس الخادم على المقتدر فركب وركب معه الجيش والامراء وجاؤا الى دار الخلافة فهرب خواص المقتدر من داره ونهبوا دار الخلافة فكان ما نهب ستمائة ألف دينار لام المقتدر فاشهد على نفسه بالخلع لاربع عشرة ليلة خلت من المحرم سنة سبع عشرة وثلثمائة ﴿واحضر ابو منصور محمد بن المعتضد بن الموفق بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد﴾ وبايعه يونس والامراء ولقبوه القاهر بالله وفوضت الوزارة الى الوزير ابى على بن مقلة الكاتب المشهور وجلس القاهر يوم السبت وكتب الوزير بن مقلة الى سائر البلاد وعمل يوم الاثنين الديوان فى العسكر يطلبون منه انعام الجلوس فارتفعت الاصوات فنعهم الحاجب ومالوا الى دار يونس واخرجوا المقتدر من الحبس وحملوه على اعناقهم الى دار الخلافة فجلس على السرير واتوا باخيه محمد القاهر اليه وهو مقهور يبكى ويقول الله الله يا اخى فى روحى فاستدناه المقتدر وقبل بين عينى اخيه وقال له يا اخى لا ذنب لك وانت مغلوب على امرك والله لا ينالك منى مكروه فطب نفسا وقر عينا ولما زال روعه آوى اليه اخاه قال انى انا اخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون وبذل المقتدر الاموال للجند واسترضاهم وثبتت له الخلافة وهذه ثالث مرة والثالثة ثابتة

(فصل) من جملة محاسن المقتدر بالله انه زاد فى المسجد الحرام زيادة باب ابراهيم وليس المراد به الخليل عليه وعلى نبينا وسائر الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه بل كان ابراهيم هذا خياطا يجلس عند هذا الباب عمر دهرا فعرف به وكان قبل هذه الزيادة باب متصل بأروقة المسجد الحرام بقرب باب الحزورة ويقال له باب الخياطين وبقربه باب ثان يقال له باب بنى جمح وخارج هذين البابين ساحة بين دارين لزبيدة ام الامين بنيتا فى سنة ثمان ومائتين ومابقى لتلك الدارين اثر الآن والذى يظهر ان دار زبيدة كانت احدهما فى الجانب الشامى فى مكان رباط الخوذى الآن وكانت الأخرى تقابلها من الجانب اليمانى من تلك الزيادة وهى رباط رامشت الذى يعرف الآن برباط ناظر الخاص فادخلت هذه الساحة التى بين الدارين فى المسجد الحرام وأبطل البابان يعنى باب الخياطين وباب بنى جمح بحيث دخلا فى المسجد الحرام وجعل عرض البابين باب ابراهيم باب كبير هو المسمى بباب ابراهيم فى غربى هذه الزيادة *قال الحافظ نجم الدين عمر بن فهد رحمه الله تعالى* فى حوادث سنة ست وثلثمائة من كتاب اتحاف الورى باخبار ام القرى وفيها زاد قاضى مكة يومئذ محمد بن موسى فى الجانب الغربى قطعة عند باب الخياطين وباب بنى جمح وهى السوح الذى كان بين دارى زبيدة أم الامين وعمل ذلك مسجدا أوصله بالمسجد الكبير وطول هذه الزيادة من الاساطين التى فى وزان جدر المسجد الكبير الى القبة التى عليها باب ابراهيم سبعة وخمسون ذراعا الا سدس ذراع وعرض هذه الزيادة من جانبها الشامى الى جانبها اليمانى وذلك من جدار رباط الخوزى الى جدار رباط رامشت اثنان وخمسون ذراعا وربع ذراع وفى هذه الزيادة فى جانبها الشرقى المتصل بالمسجد الكبير صفان من الرواق على أساطين منحوتة من الحجارة وكذلك فى جانبها الشمالى ولم يكن فى جانبها الغربى رواق فى جانبها الشمالى سبيل وسط رواقيه وكانت بهذه الزيادة منارة ذكرها التقى الفاسى فى شفاء الغرام * قلت أما المنارة فلا أدرى من بناها ولا متى هدمت وأما السبيل فكان موجودا الى سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة فهدم عند وصول العمارة السلطانية اليه واعيد بناؤه سبيلا كما كان وهذه الزيادة الثانية وقعت فى أيام المقتدر العباسى رحمه الله تعالى *ومن جملة محاسن المقتدر أيضا* انه أبطل من ديوانه استخدام أهل الذمة من اليهود والنصارى وأبطل تصرفهم فى الاموال السلطانية وأعاد

الأمر بتوريث ذوي الأرحام في سائر ممالك الإسلام وأتلف كثيرا من الأموال وأفرغ خزائن بيت المال وباع كثيرا من الضياع حتى أرض الجند بأمهات عطيتهم وكان يفرق كل عام من الإبل والبقر أربعين ألف رأس ومن الغنم خمسين ألف رأس كذا ذكره الجمال يوسف بن تغري بردي في تاريخه مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة * وقال أبو المحاسن يوسف سبط ابن الجوزي رحمهما الله تعالى كان المقتدر يصرف في طريق مكة والحرمين ثلثمائة ألف دينار وخمسة عشر ألف دينار * وقال الحافظ السيوطي كان النساء غلبن على المقتدر فأخرج عليهن جميع جواهر الخلافة ونفائسها وأعطى بعض حظاياه الدرة اليتيمة وكان وزنها ثلاث مثاقيل وأعطى زيدان القهرمانة سبحة جوهر لم ير مثلها وكان في داره أحد عشر ألف غلام خصي غير الصقالبة والروم والسود * وكان مبلغ النفقة على بيمارستان أم المقتدر في كل عام سبعة آلاف دينار وإنه ختن خمسة من أولاده فصرف في ختانهم ستمائة ألف دينار * وقدمت رسل ملك الروم * بهدايا الطلب الهدنة فعمل المقتدر موكبا عظيما لإرهاب العدو فأقام مائة وستين ألف مقاتل بالسلاح الكامل سماطين من باب الشماسية إلى دار الخلافة ببغداد تمر الرسل بينهما في هذه المسافة وأقام بعدهم الخدام وهم سبعة آلاف خادم ثم الحجاب وهم سبعمائة حاجب وكانت الستور التي بقيت على دار الخلافة ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج وكانت البسط الفاخرة التي فرشت في الأرض اثنين وعشرين ألف بساط وفي الحضرة مائة سبع في سلاسل الذهب والفضة وغير ذلك * وزاد الجمال يوسف تغري بردي من جملة الزينة شجرة صيغت من الذهب والفضة والجواهر تشتمل على ثمانية عشر غصنا أوراقها من الذهب والفضة وأغصانها تتمايل بحركات مصنوعة وعلى الأغصان طيور من ذهب وفضة ينفخ الريح فيها فيسمع لكل طير صدح مفرد وصفير خاص وهذا بعد وهن الدولة العباسية وضعفها فكيف كان زينتها في أيام قوة دولتهم في كمال وصفها فسبحان من لا يزول ولا يزال ولا يفنى ملكه ولا يعتريه الزوال ولا تغيره الشؤون ولا تحوله الأحوال وهو الله الملك الكبير المتعال له الملك وحده لا شريك له ولا ضد ولا ند ولا مثال كون الأكوان وقدرها تقديرا ولم يتخذ صاحبة ولا وزيرا تعالى شأنه وعلا سلطانه علوا كبيرا وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا

* فصل وأول ما ظهر من الوهن للخلافة * في أيام المقتدر ظهور الطائفة الملحدة التي تسمى القرامطة لهم اعتقاد فاسد يؤدي إلى الكفر يستبيحون دماء المسلمين وينسبون إلى موالاة محمد بن الحنفية من أولاد سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويرون ضلال كافة المسلمين فأول نجس خبيث ظهر منهم أبو طاهر القرمطي وبنى دارا في هجر سماها دار الهجرة أراد نقل الحج إليها لعنه الله وأخزاه وكثر فتكه في المسلمين وسفك دماء المؤمنين إلى أن اشتد بهم الخطب وانقطع الحج في أيامه خوفا منه ومن طائفته الفاجرة واشتدت شوكتهم ففي أواخر عام سبع وعشرة وثلثمائة لم يشعر الحجاج يوم التروية بمكة إلا وقد وافاهم أبو طاهر القرمطي في عسكر جرار فدخلوا بخيلهم وسلاحهم إلى المسجد الحرام ووضعوا السيف في الطائفين والمصلين والمحرمين مجردين في إحرامهم إلى أن قتلوا في المسجد الحرام وفي مكة وشعابها زهاء ثلاثين ألف إنسان وتلك مصيبة ما أصيب الإسلام بمثلها وركض أبو طاهر بسيفه مشهورا في يده وهو سكران فصفر بفرسه عند البيت الشريف فبال وارث والحجاج يطوفون حول البيت الحرام

والسيوف تنوشهم الى ان قتل فى المطاف الشريف ألف وسبعمائة طائف محرم ولم يقطع طوافه على بن بابويه وجعل يقول

ترى المحبين صرعى فى ديارهم * كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

والسيوف تقفوه الى ان سقط ميتا رحمه الله تعالى وطمت بالشهداء بئر زمزم وما بمكة من آبار وحفر قد ملئت بهم وطلع أبو طاهر الى باب الكعبة وقلع بابها وصار يقول

انا بالله وبالله انا * يخلق الخلق ويفنيهم انا

وصاح فى الحجاج ياحمير أنتم تقولون ومن دخله كان آمنا فأين الأمن وقد فعلنا ما فعلنا فأخذ شخص بلجام فرسه فقال وقد استسلم للقتل ليس معنى الآية الشريفة ما ذكرت وانما معناه ومن دخله فأمنوه فلوى أبو طاهر عنان فرسه عنه ولم يلتفت اليه وصانه الله تعالى ببركة بذل نفسه فى سبيل الله والرد على ذلك الكافر أخزاه الله * وأراد قلع الميزاب وكان من ذهب فاطلع قرمطيا لقلعه فأصيب بسهم من جبل أبى قبيس فما أخطأ نحره وخر ميتا وأمر آخر مكانه فسقط من فوق الى أسفل على رأسه فهاب الثالث من الاقدام على القلع فعفى أبو طاهر وتركه على رغم أنفه وقال اتركوه حتى يأتى صاحبه يعنى المهدى الذى زعم انه يخرج منهم * وكان ممن قتل بمكة أميرها ابن محارب والحافظ أبو الفضل محمد بن الحسين ابن أحمد الجارودى الهروى أخذته السيوف وهو متعلق بيديه بحلقة باب الكعبة حتى سقط رأسه على عتبة باب بيت الله تعالى وأخوه امام الفقهاء الحنفية أبو سعيد أحمد بن الحسين البردعى والشيخ أبو بكر بن عبد الرحمن بن عبد الله الرهاوى وشيخ الصوفية على بن بوبة الصوفى والشيخ محمد بن خالد زيد البردعى نزيل مكة وجماعة كثيرون من العلماء والصلحاء والصوفية والحجاج من اهل خراسان والمغاربة ونهبت أموالهم وسبيت ذراريهم ونهبت دور الناس وقتل من وجد من أهلها الا من اختفى فى الجبال وممن هرب من مكة يومئذ قاضيها يحيى بن عبد الرحمن بن هرون القرشى مع عياله الى وادى رهجان ونهبت القرامطة من داره وأثاثه وأمواله ما قيمته مائة ألف دينار وخمسين ألف دينار فافتقر بعد تلك الثروة وكذلك نهبت دور مكة الى ان صار الباقى ممن نجا من تلك الوقعة فقراء يستعطون ولم يحج فى هذا العام أحد ولا وقف بعرفة الا عدد يسير فازوا بأنفسهم وسمحوا بأرواحهم فوقفوا بدون امام وأتموا حجهم مستسلمين للموت وأخذ أبو طاهر خزانة الكعبة وما فيها من الذهب والفضة وكسوة الكعبة وحليها وما نهبه من أموال الحجاج فقسمها بين أصحابه وأراد أخذ حجر المقام الذى فيه صورة قدم سيدنا ابراهيم صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه وعلى سائر أنبياء الله ورسله الكرام فلم يظفر به لان سدنة الكعبة أخفوه وغيبوه فى شعاب مكة وتألم لذلك فاستدعى بجعفر بن أبى علاج البناء وأمره بقلع الحجر الاسود من محله فقلعه بعد العصر يوم الاثنين لاربع عشرة ليلة خلت من ذى الحجة ذلك العام وصار بزندقته يقول قاتله الله ولعنه وأخزاه

فلو كان من هذا البيت لله ربنا * لصب علينا النار من فوقنا صبا

لانا حججنا حجة جاهلية * محللة لم تبق شرقا ولا غربا

وانا تركنا بين زمزم والصفا * جنائز لا تبغى سوى ربنا ربا

وقلع ذلك الكافر قبة زمزم وباب الكعبة وأقام بمكة أحد عشر يوما وقيل ستة أيام ثم انصرف الى بلده هجر وحمل معه الحجر الاسود يريد أن يحول الحج الى المسجد الضرار الذى سماه دار الهجرة وعلقه فى

الاسطوانة السابعة مما يلى صحن الجامع من الجانب الغربى من المسجد وبقى موضع الحجر الاسود خاليا يضع الناس أيديهم فيه ويتبركون بمحله وأمر هذا الفاجر أن يخطب لعبيد الله المهدى اول الخلفاء العبيديين الفاطميين وكان أول ظهوره فبلغ عبيد الله المذكور ذلك فكتب اليه ان اعجب العجب ارسالك بكتبك تمتننا بما ارتكبت فى بلد الله الامين من انتهاك حرمة بيت الله الحرام الذى لم يزل محترما فى الجاهلية والاسلام وسفكت فيه دماء المسلمين وفتكت بالحجاج والمعتمرين ثم تعديت وتجرأت على بيت الله تعالى وقلعت الحجر الاسود الذى هو يمين الله فى الارض يصافح بها عباده وحملته الى أرضك ورجوت أن اشكرك على ذلك فلعنك الله ثم لعنك الله والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده وقدم فى يومه ما ينجو به فى غده فلما وصل كتاب عبيد الله المهدى الى ابى طاهر القرمطى وعلم ما فيه انحرف عن طاعته واستمر الحجر عندهم اكثر من عشرين سنة يستجلبون به الناس اليهم طمعا أن يتحول الحج الى بلدهم ويأبى الله ذلك والاسلام وشريعة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وهذه أعظم مصائب الاسلام وأشدوهن فى الدين من أولئك الفجرة اللئام ذابت لها أكباد العباد وعمت فتنتها الحاضر والباد * الى أن دمر الله تعالى تلك الطائفة الفاجره وتمزقت كل ممزق بيد الله القاهره وابتلى أبو طاهر النحس بالاكلة فصار يتناثر لحمه بالدود ومات أشقى ميتة الى دار الخلود وتعذب بأنواع البلاء فى الدنيا ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ولما أيست القرامطة عن تحويل الحجاج بحجهم الى هجر ردوا الحجر الاسود الى محله وورد سنبر بن الحسن القرمطى الى مكة فى يوم النحر يوم الثلاثاء عاشر ذى الحجة الحرام سنة تسع وثلاثين وثلثمائة ومعه الحجر الاسود فلما صار بفناء الكعبة حضر معه أمير مكة يومئذ وهو ٢ طغا أبو جعفر محمد بن الحسن بن عبد العزيز العباسى فأظهر سفطا أخرج منه الحجر الاسود عليه ضباب من فضة فى طوله وعرضه تضبط شقوقا قد حدثت فيه بعد قلعه وأحضر معه جصا يشده به فوضع حسن بن مرزوق البناء الحجر فى مكانه الذى قلع منه وقيل بل وضعه سنبر بيده وقال أخذناه بقدرة الله واعدناه بمشيئته وقد أخذناه بأمر ورددناه بأمر ونظر الناس الى الحجر فقبلوه واستلموه وحمدوا الله تعالى وحضر ذلك محمد بن نافع الخزاعى ونظر الى الحجر الاسود وتأمله فاذا السواد فى رأسه دون سائره وسائره أبيض وحضر معهم من حج فى تلك السنة محمد بن عبد الملك بن صفوان الاندلسى وشهد رد الحجر الى مكانه ولما أعيد الحجر الى مكة حمل على قعود هذيل فسمن وكان لما مضوا به مات تحته أربعون جملا وكانت مدة استمراره عند القرامطة اثنان وعشرون سنة الا أربعة أيام وكان المنصور بن القاسم بن المهدى العبيدى راسل أحمد بن سعيد القرمطى أخا طاهر بخمسين ألف ذهب فى الحجر الاسود ليرده فلم يفعل وبذل حكم التركى مدبر الخلافة خمسين ألف دينار للقرامطة على رد الحجر الاسود فأبوا وقالوا قد أخذناه بأمر ولا نرده الا بأمر الى ان أراد الله تعالى رده على الوجه الذى ذكرناه وفى التواريخ صور أخرى لهذه القصة رأيناها متناقضة وهذا أصح ما روى فيها فاعتمدنا عليه فعض عليها بالنواجذ * ثم ان الحجبة خافوا على الحجر الاسود من استطالة يد خائن اليه لعدم استحكام بنائه فقلعوه وجعلوه فى البيت الشريف حفظاله وصونا عن من أراده بسوء ثم امروا صانعين فصنعا له طوقا من فضة وزنه ثلاثة آلاف وسبعة وثلاثون درهما فطوقوا به الحجر وشدوا عليه به وأحكموا بناءه فى محله كما كان ذلك قد عاد كما هو الآن أيضا كذلك * وكان قلع الحجر الاسود فى أيام المقتدر ثم وقع بينه وبين يونس حرب فتوغل فى المعركة فضربه واحد من البربر من خلفه فسقط الى

الأرض فقال لضاربه ويحك انا الخليفة فقال له أنت المطلوب وذبحه بالسيف ورفع رأسه على الرمح وسلب ما عليه وبقي مكشوف العورة الى ان ستر بالحشيش ثم حفر له مكانا ودفن فيه وعفى أثره فسبحان المعز المذل السميع البصير له الملك وحده لا شريك له وهو على كل شيء قدير وكانت مدة خلافة المقتدر أولا وثانيا وثالثا خمسا وعشرين سنة الا أياما وقتل لثمان بقين من شوال سنة عشرين وثلثمائة وولى اخوه مكانه أبو منصور محمد بن المعتضد * ولقب القاهر بالله وقهر القاهر المذكور وسمل عينيه * وجاؤا بأبي العباس محمد بن المقتدر بالله بن المعتضد ولقبوه الراضي بالله وبايعوه في سنة اثنين وعشرين وثلثمائة وصار خليفة الى أن مات سنة تسع وعشرين وثلثمائة وبويع لأخيه أبي اسحق ابراهيم بن المقتدر بعده ولقب المتقي بالله وقبض عليه توزون التركي وسمل عينيه في صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة وبويع بعده لابن عمه أبي القاسم عبد الله بن المكتفي بالله بن المعتضد * ولقب المستكفي بالله واستمر في خلافته سنة واحدة وأمسكه من امر انه معز الدولة ابن بويه وسمل عينيه وضمه الى المكتفي بالله والقاهر بالله وصار والثلاثة في العمى * وولى الخلافة الفضل بن المقتدر ولقب المطيع لله وبويع له بالخلافة في سنة أربع وثلاثين وثلثمائة * وكان رد الحجر الاسود الى مكانه من البيت الشريف في أيام المطيع لله هذا وتم امره على ضعف الخلافة ووهنها واستيلاء بني بويه على الملك وطالت أيامه الى أن خلع نفسه وبويع لولده أبي بكر بن عبد الكريم في سنة ثلاث وستين وثلثمائة ولقب الطائع لله وكان مغلوبا عليه من قبل امرائه وما كان له الا العظمة ظاهرا لا غير بحيث لما ورد في سنة تسع وستين وثلثمائة رسول العزيز بالله بن المعز العبيدي صاحب مصر الى بغداد يسأله عضد الدولة ابن بويه وهو يومئذ ملقب بالسلطنة من الطائع وبيده أمر المملكة ان يزيد في ألقابه ويقال له تاج الملة ويجدد عليه الخلع ويلبسه التاج فأجابه الى ذلك فجلس الطائع على سرير عال وأوقف حوله مائة سيف مسلول وبين يديه مصحف عثمان رضى الله عنه وعلى كتفه بردة النبي صلى الله عليه وسلم وبيده قضيب النبي صلى الله عليه وسلم وهو مقلد سيف النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك جميعه كما يتوارثه الخلفاء ويجعلونه لمواكبهم العامة واحتجب بستارة عالية حتى لا يقع عليه نظر الجند قبل رفع الستارة وحضر الجند من الاتراك والديلم ووقف أرباب المراتب صفين ثم أذن بعضد الدولة فدخل ثم رفعت الستارة وقبل الارض وادخل رسول العزيز صاحب مصر فارتاع وأهاله ما رأى فقال لعضد الدولة أهذا هو الله فقال له هذا خليفة الله في ارضه ثم استمر يمشي ويقبل الارض سبع مرات التفت الطائع الى خادمه المقرب عنده واسمه خالص وقال له استدنه فقربه الى رجل السرير وقبل رجله فثنى الطائع يمينه على رأس عضد الدولة وامره ان يجلس على كرسي وضع له قريبا من السرير فاستعفى عضد الدولة من ذلك فأقسم عليه ليجلس فقبل الكرسي ثم جلس عليه فلما استقر جالسا قال له الطائع قد فوضت اليك ما كان الله تعالى فوضه الي من امور الرعية في شرق الارض وغربها فقال يعينني الله تعالى على طاعة أمير المؤمنين وقبل الارض فأمر ان يفاض عليه سبع خلع فافيضت عليه وهو يقبل الارض في كل واحدة وانصرف الناس خلفه وقد أهالهم ما رأوه واستعظموا ما شاهدوه وما كانت هذه العظمة الا صورة صناعية وكافة اصطناعية حقيقتها واهية وقوتها واهنة وان السلطنة لما آلت الى أبي النصر بن بويه ركب الطائع اليه وخلع عليه سبع خلع وطوقه بطوق مجوهر وسوره بسوارين ولقبه بهاء الدولة وضياء الملة في سنة تسع وسبعين وثلثمائة * ثم في سنة احدى وثمانين وثلثمائة جاء بهاء

الدولة الى الطائع وقبل الارض بين يديه وجلس على الكرسي وامر خدامه من الديلم فجذبوا الطائع من سريره ولفوه فى كساء وأمره بهاء الدولة ان يخلع نفسه ففعل ﴿وأتى بأبي العباس احمد بن اسحق بن المقتدر ولقبه القادر بالله﴾ وبويع له بالخلافة لعشر مضين من شهر رمضان من ذلك العام وكان على غاية من الديانة والعبادة والفضل وصنف كتابا فى الرد على القائلين بخلق القرآن وامر ان يقرأ فى كل جمعة فى حلق اصحاب الحديث بحضرة الناس وعده ابن الصلاح فى علماء الشافعية وذكره فى طبقاته وطالت مدة خلافته حتى أنافت على احدى واربعين سنة وثلاثة اشهر وتوفى الى رحمة الله تعالى فى سنة اثنتين وعشرين واربعمائة ﴿وولى بعده بعهد منه ولده أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله ولقبه القائم بأمر الله﴾ وكان خيرا دينا باهر الفضل الا انه مغلوب بيد امرائه وطالت مدته مع ذلك وكانت خلافته خمسة وأربعين سنة ووفاته فى شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة ﴿وولى بعده بعهد منه حفيده أبو القاسم عبد الله محمد بن القائم بأمر الله ولقب المقتدى بأمر الله﴾ وبويع له بالخلافة يوم وفاة جده بحضرة الامام الكبير الولى الشهير مولانا أبى اسحق الشيرازى احد اركان أئمة الشافعية رضى الله عنهم وكان خيرا دينا من نجباء خلفاء بنى العباس وصالحيهم ومن جملة صلاحه وبركته ان السلطان ملك شاه من آل سلجوق قصد ان يتحكم عليه ويظهر الحيف والخيف على الخليفة المذكور فأرسل اليه وهو يقول لابد أن تترك لى بغداد وتذهب الى أى بلد شئت فأرسل الخليفة اليه يتلطف به فى ذلك فأبى الاشدة وغلظة فقال لرسوله اسأله المهلة لى ولو شهرا فأبى وقال ولا ساعة فأرسل الى وزيره واستمهله عشرة أيام فصار الخليفة يصوم بالنهار ويقوم بالليل ويتضرع الى الله تعالى ويضع خده على التراب ويناجى رب الأرباب ويدعو على ملك شاه فنفذ دعاؤه وهو مظلوم نفوذ السهم المسموم فى كبد الظلوم واستجاب الله دعاءه وتقبل ضراعته فهلك السلطان ملك شاه قبل مضى عشرة أيام وكفاه الله تعالى شره وما ربك بظلام وعدت هذه كرامة للخليفة المقتدى وهذه عقبى كل ظالم معتدى ورحم الله من قال

وكم لله من لطف خفى * يدق خفاه عن فهم الذكى
وكم فرج أتى من بعد عسر * وفرج كربة القلب الشجى
وكم هم تساء به صباحا * وتأتيك المسرة بالعشى
اذا ضاقت بك الاحوال يوما * فثق بالواحد الفرد العلى
تمسك بالنبى فكل هم * يزول اذا تمسك بالنبى

وكذلك من قال

لاتشتغل بهموم القلب مكتئبا * ولا تبيتن الاخالى البال
مابين غمضة عين وانتباهتها * يغير الدهر من حال الى حال

وكانت وفاة الخليفة المقتدى بأمر الله فى محرم سنة سبع وثمانين واربعمائة *(وولى بعده ابنه ابو العباس أحمد ولقب المستظهر بالله)* بويع له بالخلافة يوم مات ابوه وكانت امه ام ولد تركية اسمها الطون وكان كريم الاخلاق حسن الخط لا يقاومه احد فى كتابته حافظا للقرآن عالما فاضلا وكان قد غلب عليه ملوك آل سلجوق وكانت مدة خلافته اربعا وعشرين سنة وثلاثة اشهر وتوفى يوم الاربعاء لست بقين من شهر ربيع الآخر سنة اثنتى عشرة وخمسمائة *(وولى بعده ولده أبو منصور الفضل بن

المستظهر بالله ولقب المسترشد بالله) *وبويع له بالخلافة يوم مات والده وامه ام ولد تسمى لبابة *وكان شجاعا ديناً مشغولا بالعبادة حفظ القرآن وقرأ الحديث ونظم الشعر ومن شعره

انا الاشقر الموعود لى فى الملاحم * ومن يملك الدنيا بغير مزاحم

وكان هذا التخيل من خيالاته الفاسدة فانه ما ملك من الدنيا ولا فناء داره وخرج الى قتال مسعود ابن محمد بن ملكشاه السلجوقى فلم يقاتل معه احد فقاتل وحده الى ان قتل فى ذى القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة *(وولى بعده ابنه جعفر منصور بن المسترشد ولقب الراشد بالله) *وبويع له بالخلافة يوم قتل ابيه رحمه الله تعالى ولم تطل مدته بل قبض عليه السلطان مسعود السلجوقى وخلعه من الخلافة فى يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ذى القعدة الحرام سنة ثلاثين وخمسمائة وحبسه وقتله فى حبسه *(وولى عمه أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله ولقبه المقتفى بالله) *وبويع له يوم خلع ابن أخيه وكان عالما فاضلا حسن السيرة دمث الاخلاق شجاعا توفى يوم الاحد لليلتين خلتا من ربيع الاول سنة خمس وخمسين وخمسمائة *(وولى بعده ولده المظفر يوسف بن المقتفى ولقب المستنجد بالله) *ويويع له يوم وفاة أبيه وأمه أم ولد حبشية اسمها طاووس ويحكى أنه قبل أن يصير خليفة رأى فى منامه ان ملكا نزل من السماء فكتب فى كفه خمس خاآت فلما أصبح سأل بعض المعبرين عن منامه فقال انك تلى الخلافة فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة فكان كذلك توفى الى رحمة الله تعالى فى يوم السبت لليلتين خلتا من ربيع الثانى سنة ست وستين وخمسمائة *(وولى بعده ابنه أبو محمد المستنجد بالله ولقب المستضىء بالله) *وبويع له يوم وفاة والده وكان حسن السيرة كريم النفس أسقط المكوس فى ممالكه وكثر ثناء الخلق عليه وتوفى فى مستهل ذى القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة *(وولى بعده ابنه أبو العباس أحمد فلقب الناصر لدين الله) *وبويع له بالخلافة لثمان مضين من ذى القعدة وهى اليوم الثانى من وفاة والده وفى أيام ظهور السلطان صلاح الدين بن أيوب واستخلاصه بيت المقدس من أيدى النصارى الفرنج واستيلائه على مصر وازالة دولة الفاطميين عنها وخطب لهذا الناصر العباسى على منابر مصر ووقع بينه وبين السلطان صلاح الدين منافرة بسبب لقبه بالناصر لدين الله فان صلاح الدين تلقب به والفاطميون ويقال لهم العبيديون أربعة عشر خليفة أولهم عبيد الله المهدى *واختلف المؤرخون فى نسبهم وهم ينسبون الى فاطمة الزهراء رضى الله عنها وأنكر ذلك كثير من المؤرخين وطعنوا فيهم بأنهم من أولاد الحسين بن محمد بن القداح وقالوا كان القداح المذكور مجوسيا وثانيهم المنصور وثالثهم القائم ورابعهم المعز وهو الذى انتقل من بلاد المغرب الى مصر وملكها من الاخشيديين وبنى القاهرة المعزية واستمر هو ومن بعده من العبيديين بمصر الى ان كان آخرهم العاضد وهو الرابع عشر منهم *توفى يوم عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة وذلك بعد استيلاء صلاح الدين بن أيوب عليه وعلى مملكته وخطب على منابر مصر للناصر لدين الله وانقرضت دولة العبيديين وكانوا أرفاضا سبابين ومنهم ملاحدة كالحاكم بأمر الله ويحكى عنه كفريات عجيبة وأكثر المؤرخين على نفى شرفهم والله اعلم بحقيقة ذلك وطالت مدة الناصر فأحيا رسوم الخلافة وامتلأت القلوب من هيبته وكان ذا فكرة صائبة وكانت أيامه من غرر الزمان وكان له احسان الى أهل الحرمين الشريفين وكانت الكعبة الشريفة تكسى الديباج الابيض فى زمن المأمون الى آخر أيام الناصر فكساها الديباج الاسود كساه الحمام ثياب أكفانه وعزله عن سرير ملكه وتخت سلطانه وكانت وفاته فى سلخ شهر رمضان سنة اثنين وعشرين وستمائة *(وولى مكانه بعد موته

أبو نصر محمد بن الناصر ولقب القاهر بالله) * وبويع له بالخلافة يوم مات والده بعهد منه فأظهر العدل والاحسان وأبطل المكوس وورث ذوي الارحام وكان العمال يكيلون للديون بكيل زائد على ما يكيلون به للناس فأبطل الظاهر ذلك وكتب الى وزيره ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم او وزنوهم يخسرون الا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين فقال الوزير ان تفاوت الكيل ينوف على ثلاثين ألف دينار فقال ابطله ولو انه ثلثمائة ألف دينار فلامه الوزير على ذلك فقال اتركني افعل الخير فاني لا ادري كم اعيش فلم يلبث ان وفاه الله الكيل الاوفى واثابه على عمله الصالح ووفى فعاش حميدا ومضى سعيدا وتوفي في رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة * (وولي بعده ولده أبو جعفر منصور بن الظاهر ولقب المستنصر بالله * وبويع له بالخلافة يوم وفاة والده فنشر العدل وبذل الانصاف وقرب أهل العلم والدين وبنى المساجد والربط والمدارس وهو الذي بنى المدرسة المستنصرية ببغداد التي لم ير مثلها في مدارس الاسلام ولم يوجد في المدارس أكبر منها كتبا ولا أكثر أوقافا عليها وكان لهذه المدرسة أربعة مدرسين يدرسون فيها على المذاهب الاربعة ورتب فيها الخبز والحلوى والفاكهة وكسوة الشتاء والصيف وجعل فيها ثلاثين يتيما ووقف على ذلك ضياعا وقرى كثيرة عددها الذهبي وغيره فرحم الله أهل الخير وأهل الاحسان ورفع الله درجاتهم في أعلى الجنان ووفقهم لنشر العدل بالقسط والميزان وكانت مدارس بغداد يضرب بها المثل في ارتفاع العماد واتقان المهاد وطيب الماء ولطف الهواء ورفاهية الطلاب وسعة الطعام والشراب وغير ذلك من الاسباب وقد حكي ان أول مدرسة بنيت في الدنيا مدرسة نظام الملك في بغداد فبلغ علماء ما وراء النهر هذا الخبر فاتخذوا للعلم مأتما وحزنوا على سقوط حرمة العلم فسئلوا عن ذلك فقالوا ان العلم ملكة شريفة فاضلة لا يتطلبها الا النفوس الشريفة الفاضلة لجاذب الشرف الذاتي والمناسبة الطبيعية ولما جعل عليه أجرة تتطلبه النفوس الرذلة وتجعله مكسبا لحطام الدنيا ويتزاحم عليه لا لتحصيل شرف العلم بل لتحصيل المناصب الدنيوية السفلة الفانية فيرذل العلم برذالتهم ولا يشرفون بشرفه ألا ترى الى علم الطب فانه مع كونه علما شريفا تعاطته أراذل اليهود بشرف علم الطب وهذا حال أكثر طلبة العلم في هذا الزمان الفاسد وهذا شأن طلاب هذه العلوم المتداولة الآن في هذا السوق الكاسد فانك ترى أكثرهم مع دأبه في الطلب واكبابه على فنون العلم والادب يزداد كل وقت عجبا وكبرا ويتعاظم على كل أحد تيها وفخرا ولم ينتق من أوصاف الاخلاق الرذيله ولو اكتسب مهما اكتسب من الفضيله وقلما يتحلى أحد منهم بحلى الاخلاق الحسنة الجميله والمزايا الفاضلة الكاملة الجليله وما ثمرة كسب العلوم غير التخلق بحسن الاخلاق والعمل بمقتضى طب الاصول والاعراق فالله تعالى يبصرنا بعيوبنا ويستر علينا معايب ذنوبنا وينير بصر بصائرنا ويزيل عوار قلوبنا ويرينا الحق حقا ويرزقنا اتباعه ويرينا الباطل باطلا ويرزقنا اجتنابه * قلت وحيث انجر الكلام الى ذكر نظام الملك فأذكر لك حكاية لطيفة نقلها صاحب كتاب وصل الحبيب ونديم اللبيب * قال ذكر * ان نظام الملك لما استوزر بالعراق للسلطان أبي الفتح السلجوقي قام بالدولة أحسن قيام فشيد أركانها واسس بنيانها ووالى الاولياء واستمال الاعداء وعم احسانه العدو والصديق والقريب والبعيد وكان أقبل اقباله الاعظم على العلماء والصلحاء والفقهاء وبنى المدارس العظيمة والخانقاهات العالية وأجرى الخيرات الكثيرة والكساوى الجليلة الفاخرة لطبقات طلبة العلم والمشايخ والصوفية وغيرهم

ممن يتوسم فيه الدين والصلاح وعم بذلك سائر الاقطار من بلاد العراقين الى الحرمين الشريفين
بحيث كان يخرج من خاصته الخالصة السلطانية والخزائن الديوانية من هذه الوجوه ماينوف عن
ستمائة ألف مثقال من الذهب غير الذي ينفقه من خاصة أمواله ومحصلات غلاله وما يدخل
عليه من المواثيات وغيرها ولعله كان يقرب من القدر الذي يخرجه من أموال السلطنة فسار صيته
في الآفاق وكثر حساده ولا يخلوا السعداء من الحساد في كل زمان كما هو مشهود بالعيان في كل أوان
وما وجدوا للطعن على نظام الملك طريقا غير اجحافه في الاخراج من الاموال السلطانية في هذه
الوجوه فوشوا به الى السلطان أبي الفتح من طرق شتى وكرروا في سمعه ان نظام الملك أخرب بيت المال
وان هذه المصاريف الزائدة التي يخرجها في هذه الوجوه يمكن ان تصرف في جمع جيش كثيف
يركز رايته في سور قسطنطينية وكانت يومئذ مملكة النصارى وهي الآن بحمد الله دار ملك
الاسلام عمرها الله تعالى بعدلة سلطان سلاطين الانام وحرسها بالنصر والتأييد الى يوم القيام
وانه يؤخذ بذلك الجيش كثيرا من الممالك والاقاليم وتتسع به المملكة ويكثر الخراج والاموال فلما
تكرر ذلك على سمع السلطان أثر كلامهم في قلبه واعتقد نصحهم وكل كلام تكرر على السمع قبله
القلب وانطبع في الطبع ولو كان واهنا واهيا في نفس الامر فطلب نظام الملك وقال له يا أبي وكان
يخاطبه بالاب تعظيما له لكبر سنه وعقله بلغني انك تخرج من بيت المال في كل سنة ستمائة ألف دينار
الى من لا ينفعنا ولا يغني شيئا فبكى نظام الملك وقال يابني أنا شيخ أعجمي لو نودي علي في السوق ماسويت
خمسة دنانير وأنت شاب تركي لو نودي عليك عسالك أن تساوي ثلاثين دينارا وقد اختارنا الله وفوض
أمور عباده وبلاده الينا فلم نقابله بالشكر ولا عرفنا قدر نعمة الله تعالى فاستمريت أنا في كتابتي
وضبطي وأنت منهمك في لذاتك ولهوك وأكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصينا دون طاعتنا وشكرنا
وجيوشك الذين أعددتهم للنوائب اذا احتشدوا عنك كافحوا عنك بسيف طوله ذراعان وسهم لا يعدو
مرماه وهم مع ذلك منهمكون في المعاصي والخمور والملاهي هم أحرى بنزول القهر عن نزول الفتح والنصر
فاتخذت لك جيشا كثيفا وعسكرا منيفا يسمى جيش الليل وعسكر السحر اذا نامت جيوشك ليلا
قامت هذه الجيوش على أقدامهم صفوفا بين يدي ربهم وأرسلوا دموعهم وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم
ومدوا أكفهم فرموا سهاما تخرق السموات والارضين وسلوا سيوفا تعمل في كل حين طولا تبلغ الى
الصين فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون وببركاتهم تمطرون وبدعائهم تنصرون فبكى
السلطان أبو الفتح بكاء شديدا وقال شاباش بابا استكثر من هذا الجنس فانه الذي لابد لنا منه
ولما كان كل منهما له قابلية الخير مجبولا به ما أثر عنده ملكه كلام الحساد مع تكرره الا تأثيرا ضعيفا
وزال في الحال وعاد الى حب الخير الذي جبل عليه واستغفر الله تعالى عما فرط من تقصيره فرحم الله
تلك الارواح الطاهره ومتعها بالنظر الى وجهه الكريم في الدار الآخره فقد زالوا ومازالت أخبارهم
تروى وأحاديثهم الحسنة تنشر على ألسنة الرواة ولا تطوى (عدنا الى ما كنا فيه) ومن جملة خدام
المستنصر بالله الامير شرف الدين اقبال الشرابي المستنصري العباسي بنى بمكة مدرسة على يمين
الداخل الى المسجد الحرام من باب السلام ووقف فيها كتبا كثيرة في سنة احدى وأربعين وستمائة
ذهبت شذر مذر والمدرسة باقية الى الآن وقد صارت رباطا وفيه محل التدريس وبه كتب وقفها أهل
الخير ممن أدركناه رحمه الله تعالى وبلصق الكعبة الشريفة في وسط مقام سيدنا جبريل عليه

السلام من الرخام الازرق الصافي منقور فيه بالمذهب ما صورته * بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذا المطاف الشريف سيدنا ومولانا الامام الاعظم المفترض الطاعة على سائر الأمم أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين بلغه الله آماله وزين بالصالحات أعماله وذلك في شهور سنة احدى وثلاثين وستمائة وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم اه وهذا اللوح باق الى زماننا وكانت وفاة المستنصر بالله لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة وكتم موته وخطب بعد موته الى أن جاء الأمير اقبال الشرابي الى ولده أبي أحمد بن المستنصر وسلم عليه بالخلافة لعشر مضين من رجب سنة اربعين وستمائة * فبويع له ذلك اليوم ولقب المستعصم بالله * وهو آخر الخلفاء العباسيين في بغداد وبه زالت دولتهم من الدنيا كما سنشرحه ان شاء الله تعالى * وحجت والدة المستعصم بالله في سنة احدى وأربعين وستمائة وهي أم ولد حبشية واسمها هاجر وكان في خدمتها اقبال الشرابي الدوادار ومعه ستة آلاف خلعة وتصدق بنحو ستين ألف دينار وعدة جمال ركب بغداد في تلك السنة فكانت مائة ألف وعشرين ألف جمل ثم عادت الى بغداد رحمها الله تعالى ولما جرت عادة الله تعالى بانقراض الدول واختصاص العزة والبقاء لله عز وجل آلت دولة آل عباس الى الانقراض والزوال وغيرتهم الغير ونابتهم النوائب وحالت بهم الأحوال ودالت دولة غيرهم ولكل زمان دولة ورجال

ما بين غمضة عين وانتباهتها * يغير الدهر من حال الى حال

وكل شيء له سبب من الاسباب وعلة يدور عليه التقلب والانقلاب وكان سبب ضعف خلفاء بني العباس استيلاء مماليكهم وأمرائهم عليهم وتفويض أمور جميع المملكة اليهم وتلقيبهم بألقاب السلطان وفرط ادلالهم على مواليهم وامتهانهم اياهم غاية الامتهان الى أن صاروا اسما بلا مسميات وصورا بلا نية يتصرف فيها بالمحو والاثبات وصار أمراؤهم يفشون سرهم ويغشونهم ويصل أرباب الغرض الى اغراضهم الفاسدة لما يرضونهم * فأول أسباب زوال الملك ان المستنصر بالله كان له ولدان أحدهما يعرف بالخفاجي كان شديد الباس صعب المراس والثاني المستعصم بالله هينا لينا ضعيف الرأي فاختاره الأمير اقبال الشرابي على أخيه ليستبد بالأمور ويستقل بأحوال المملكة ولا يناله مكروه من المستعصم ولا يخشاه كما يخشى من أخيه الخفاجي فلما توفي المستنصر أخفى الأمير اقبال موته عشرين يوما حتى دبر لولاية المستعصم وبويع له بالخلافة وفر أخوه الى العربان وتلاشى أمره * ثم أعظم سبب الزوال ان مؤيد الدين محمد بن محمد بن عبد الملك العلقمي صار وزيرا للمستعصم وكان رافضيا اسماعيليا مستوليا على المستعصم عدوا له ولأهل السنة يداريهم في الظاهر وينافقهم في الباطن وكان تدبيره على ازالة الخلافة من بني العباس واعادتها الى العلويين وطمس آثار أهل السنة واطفاء نورهم وتقوية أهل البدعة وابقاء دارهم فصار يكاتب هولاكو خان ويطمعه في ملك بغداد ويخبره عن صورة أخذها وضعف الخليفة وانحلال العسكر وصار يحسن للمستعصم توفير الخزينة وعدم الصرف على العسكر والاذن لهم في التفرق والذهاب أين شاؤا ويقطع ارزاقهم ويشتت شملهم بحيث أذن مرة لعشرين ألف مقاتل أن يذهبوا أين أرادوا ووفر علوفاتهم في الخزينة وأظهر للمستعصم انه وفر من علوفاتهم خزائن أموال عظيمة توفرت في بيت المال فأعجب المستعصم رأيه وتوفيره وكان يحب المال ويجمعه وما علم انه يجمعه لعدوه * وقد سئل بنو أمية بعد ذهاب ملكهم فقالوا أقواها

انا اعتمدنا على المال واستهونا بالرجال فوفرنا المال وقللنا الرجال فاخذ العدو مالنا وتقوى به علينا وانا أبعدنا الصديق اعتمادا على صداقته وقربنا العدو استجلابا للمحبة فصار الصديق عدوا ولم يصر العدو صديقا بالاستجلاب

احذر عدوك مرة * واحذر صديقك ألف مره
فلربما انقلب الصديق * فصار أدرى بالمضره

وكان من قضاء الله وقدره ان هولاكوخان سلطان المغول وجغتاى من دشت قبجاق رجعوا على بلاد الاسلام وجاء بعسكر جرار لا يعلمه الا الله تعالى وكان أقوى سلاطين الاسلام اذ ذاك علاء الدين خوارزم شاه وكان عملكه من العراق الى أقصى بلاد الشرق وكان له قوة وشوكة وعسكر وافر وجند متكاثر فظهر هلاكو وقاتله خوارزم شاه مرارا وهو ينكسر الى أن قتل هو وأولاده وجنوده واستباح كثيرا من بلاد الاسلام وقتل من فيها بالقتل العام وصار يجول هولاكو فى الديار وناره فى غاية الاشتعال والاستعار والمستعصم ومن معه فى غفلة عنه لاخفاء ابن العلقمى عنه سائر الاخبار الى أن وصل هولاكوخان الى بلاد العراق واستأصل من بها قتلا وأسرا وتوجه الى بغداد وأرسل الى الخليفة يطلبه اليه فاستيقظ من نوم الغرور وندم على غفلته حيث لا ينفعه الندم وجمع من قدر عليه وبرز الى قتاله وجمع من أهل بغداد وخاصة عبيده وخدمه ما يقارب أربعين ألف مقاتل لكنهم مرفهون بلين المهاد ساكنون على شاطئ بغداد فى ظل ثخين وماء معين وفاكهة وشراب واجتماع أحباب وأصحاب ما كابدوا حربا ولا دافعوا طعنا ولا ضربا وعساكر المغل ينوفون عن مائتى ألف مقاتل ما بين فارس وراجل وسالب وباسل وقاتل وقاتل يثبون وثب القردة ويتشكلون باشكال المردة يقطعون المسافات الطويلة فى ساعات قليلة ويخوضون الاوحال ويتعلقون بالجبال ويصبرون على العطش والجوع ويجترون الغمض والهجوع ولا يبالون بالبرد والحر والسهل والوعر والبحر والبر طعامهم كف شعير وشرابهم من طرف البير يكاد أحدهم يتقوت بأذن فرسه يقطعها ويأكلها نيئه ويصبر على ذلك أياما عديده أو يكتفى هو وفرسه بحشيش الارض مدة مديده فوقع المصاف والتحم القتال ووقع الطراد والنزال وزحف الخميس الى الخميس فى يوم الخميس عاشر المحرم الحرام سنة ست وخمسين وستمائة وثبت أهل بغداد مع براقتهم على حد السيوف وصبروا مضطرين على طعم الحتوف وأعطوا الدارحقها فاستمطروا غمائم السهام وابلها وودقها واستقبلوا بحر وجوههم صواعق الحرب وبرقها ورزقوا فى تلك المكابدة الفوز بالشهاده وارتقوا فى الدار الآخرة رتب السعاده وجادوا بأنفسهم فى سبيل الله وأجادوا أحسن اجاده واستمروا كذلك من اقبال الفجر الى ادبار النهار فعجزوا عن الاصطبار وانكسروا أشد انكسار وولوا الأدبار بالادبار وما أغنى عنهم الفرار

ولذهم الطراد الى قتال * أحد سلاحهم فيه فرار
مضوا متسابقى الاعضاء فيه * لاحلهم بار وهم عثار
يرون الموت قداما وخلفا * فيختارون والموت اضطرار

وغرق كثير منهم فى دجله وقتل أكثرهم أشد قتله وأعقبهم التتار ووضعوا السيف فيهم والنار وقتلوا من المسلمين فى ثلاثة أيام ما ينوف على ثلثمائة ألف وسبعين ألف وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الخزائن والأموال فاخذ هولاكو جميع النقود وأمر باحراق الباقى ورموا كتب بغداد فى بحر

الفرات وكانت الجسر يعبرون عليها ركبانا ومشاة وتغير لون الماء ببغداد بالكتابة الى السواد وكانت هذه الفتنة من أعظم مصائب الاسلام (واستؤصر المستعصم) هو وأولاده وجماعته وأتوا به الى هولاكو أسيرا ذليلا فقيرا حقيرا فسبحان المعز المذل القادر القاهر تعالى شأنه الباهر وعلا سلطانه على كل ذى سلطان قاهر فاستبقى هولاكو الخليفة أياما الى أن استصفى أمواله وخزائنه وذخائره ودفائنه ثم رمى رقاب أولاده وذويه وأتباعه ومتعلقيه وأمر أن يوضع الخليفة فى غرارة فيرفس بالأرجل الى أن يموت ففعل به ذلك فاستشهد رحمه الله تعالى فى يوم الاربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة ست وخمسين وانقطعت الخلافة من بنى العباس وهم سبع وثلاثون أولهم السفاح وآخرهم المستعصم وبعده صار المسلمون بلا خليفة ولم ينل ابن العلقمى ما أراده ولم يستفد غير سلامة أهل الحلة من النهب والقتل بمساعدته لهم فان مجد الدين محمد بن الحسن بن طاوس الحلى وسديد الدين يوسف بن المطهر الحلى ارسلا كتابا الى هولاكو على يد ابن العلقمى وفيه كلام يروونه عن على بن أبى طالب رضى الله عنه * صورته اذا جاءت العصابة التى لاخلاق لها التخر بن يأم الظلمة ومسكن الجبابرة وأم البلايا ويل لك يا بغداد وللدار العامرة التى لها أجنحة كالطواويس عاتين كماءات الملح فى الماء ويأتى بنو قنطورا ومقدمهم جهورى الصوت لهم وجوه كالمجان المطرقة وخراطيم كخراطيم الفيلة لم يصل الى بلد الا فتحها ولا راية الا نكسها فلما وصل الكتاب الى هولاكو أمر أن يترجم له فلما قرأه أمر لهم بسهم الأمان وسلموا بسبب ذلك من القتل والنهب وباء ابن العلقمى باثمه واثم من ظلم بسببه وكان من أهل النار وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون * قلت وأما هذه الكلمات فما عليها طلاوة كلام سيدنا على رضى الله عنه ولا حلاوته وآثار الوضع ظاهرة عليها وكأنهم اخترعوه بعد وقوع الطامة وعند حصول هذه الفتنة العامة والا لاشتهر ذلك قبل الوقوع وتناقلته الرواة فى كل مجموع والله أعلم بالسرائر وما تجنه الأحشاء والضمائر

﴿فصل﴾ كان ممن نجا من سيوف هولاكو من بنى العباس أحمد وتلقب المستنصر بن الظاهر بن الناصر بن المستضىء بن المستنجد بن المقتفى بالله العباسى فوصل الى مصر وافدا على سلطانها اذ ذاك وهو الملك الظاهر سيف الدين بيبرس البندقدارى فى سنة ست وخمسين وتسعمائة فخرج السلطان بيبرس الى تلقيه وأكرمه وأثبت نسبه فى موكب عظيم فيه قضاة الشرع الشريف وأعانه الظاهر بجيش وتوجه الى بغداد ووصل الى الفرات فى ثالث ذى القعدة سنة تسع وخمسين وستمائة فقاتله فرتب بغا نائب هولاكو على بغداد فقتل المستنصر ومن معه ولم ينج منهم الا القليل فلم يتم له أمر ثم وصل بعد ذلك الى مصر من بنى العباس أبو العباس أحمد وتلقب الحاكم بأمر الله بن الراشد بن المسترشد بن المستظهر بن المقتدر العباسى فأكرمه الملك الظاهر واثبت نسبه قضاة الشرع بحضرته وبايعه بالخلافة وأجرى عليه نفقته وسكن بمصر وليس لهم من الأمر شىء وانما هو الخليفة وأولاده من بعده على هذا المنوال ليس لهم الا اسم الخلافة ويأتون به الى السلطان الذى يريدون توليته فيبايعه ويقول له وليتك السلطنة هكذا كانوا بألقاب الخلفاء واحدا بعد واحد وكانوا سلاطين الاقاليم يتبركون بهم ويرسلون اليهم أحيانا يطلبون منهم تفويض السلطنة باللسان فيكتبون له تقليدا ويعهدون اليه بالسلطنة عهدا ويولونه سلطنة الجهة التى هو فيها فيتبرك بهذا التقليد ويتيمن به ولا يخفى ان هؤلاء ليس لهم من الخلافة والصورة كما كان للخلفاء العباسيين ببغداد المحجور عليهم من جهة أمرائهم الا صورة الخلافة فقط وهؤلاء ليس لهم ولا

تلك الصورة أيضا واغما لهم الاسم المجرد عن المعنى من كل وجه ولكن شيخ شيوخنا الحافظ السيوطى رحمه الله تعالى عدهم من جملة العباسيين وكتب تاريخ الخلفاء اذ كرهؤلاء من جملتهم وقام بشأنهم واعتبارهم وآخرمن ذكرمنهم فى تاريخ الخلفاء ﴿المتوكل على الله أبو العز عبد العزيز بن يعقوب﴾ وانه بويع له فى يوم الاثنين السادس والعشرين من المحرم سنة أربع وثمانين وثمانمائة بحضرة السلطان الاشرف قايتباى والقضاة والاعيان بالقلعة فى مصر ثم ركب من القلعة الى منزله وكان يوما مشهودا وبه ختم كتابه تاريخ الخلفاء * ورأيت فى تاريخ لطيف للحافظ السيوطى أيضا سماه الوفيات فى الرقيات ان فى سنة ثلاث وتسعمائة مات فى المحرم منها الخليفة المتوكل على الله أبو العز العباسى المصرى رحمه الله تعالى ﴿وعهد لابنه يعقوب ولم يلقبه فلقبه الناس المستمسك بالله﴾ قلت واستمر يعقوب المستمسك بالله خليفة الى ان كبر سنه وكف نظره ودخلت أيام الدولة الشريفة العثمانية وافتتح السلطان الاعظم والخاقان الاقهر الافخم السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان مصر القاهرة وقهرها وأزال عنها مظالم الجراكسة وعاد مع الفتح والبشرى الى دار السلطنة الكبرى قسطنطينية العظمى فتوفى الخليفة المذكور بمصر لعشر بقين من ربيع الثانى سنة سبع وعشرين وتسعمائة أخذه معه الى اصطنبول وضاع والده يعقوب المستمسك بالله لكبر سنه وذهاب نظره فلما توفى السلطان سليم رحمه الله عاد المتوكل على الله هذا الى مصر وصار خليفة بها واستمر الى ان توفى الى رحمة الله تعالى لاثنتى عشرة ليلة مضت من شعبان سنة خمسين وتسعمائة فى أيام المرحوم داود باشا الخادم صاحب مصر رحمه الله تعالى وبموته انقطعت الخلافة العباسية الصورية بمصر أيضا وكان المتوكل هذا فاضلا أديبا له شعر فمنه قوله

لم يبق من محسن يرجى ولا حسن * ولا كريم اليه مشتكى الحزن
وانما ساد قوم غير ذى حسب * ما كنت أوثران يمتد بى زمنى

ضمن قول الطغرائى من لامية العجم

ما كنت أوثران يمتد بى زمنى * حتى أرى دولة الاوغاد والسفل

وقد اجتمعت به وأخذت عنه فى رحلتى الى مصر لطلب العلم الشريف فى سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة وكانت مصر اذ ذاك مشحونة بالعلماء العظام مملوءة بالفضلاء الفخام ميمونة بين بركات المشايخ الكرام كأنها عروس تتهادى بين أقمار وشموس

ثم انقضت تلك السنون وأهلها * فكأنها وكأنهم أحلام

﴿الباب السادس فى ذكر ملوك الجراكسة لان بعضهم أو أكثرهم عمر فى المسجد الحرام﴾
﴿وسبق لهم فيه من الترميم والنظام ما صار وا من سلاطين الاسلام﴾

اعلم ان الجراكسة جنس من الترك فى جنوب الارض لهم مدائن عامرة ولهم جبال ومزارع يرعون الغنم ويزرعون وهم تابعون السلطان خوارزم وملوك هذه الطوائف المذكورة كانوا رعية يقاتلونهم ويسبون منهم النساء والاولاد ويجلبونهم الى أطراف البلدان والاقاليم هكذا ذكرها المقريزى فى عقوده قال واستكثر المنصور قلاوون صاحب مصر من ملوك الاتراك بعد الايوبية ملوك الاكراد أصحاب مصر من شراء المماليك الجراكسة وكذلك ولده وبنوه وأدخلوهم فى الخدم الخاصة فصار واسلحداريه وجامداريه وجاشنكيريه وأمراء وكبراء وأعيانهم وسلكوا طريق أسيادهم من ملوك الترك ودخلوا السلطنة وغلبوا عليها واستقلوا بها واستكثروا من جنسهم وعملوا العادة والقوانين وقواعد انتظم بها دولتهم

وولى منهم ومن أولادهم السلطنة بمصر اثنان وعشرون ملكا وكانت مدة ملكهم مائة وثمان وعشرون سنة * وأولهم السلطان الظاهر سيف الدين أبو سعيد برقوق بن أنص العثمانى الجركسى * كذا ذكره المقريزى فى عقوده وخططه قال الجمال يوسف بن تغرى بردى هو جركسى الاصل قام بدولة الجراكسة جلبه عثمان بن مسافر ولذلك يقال له برقوق العثمانى فاشتراه الاتابك يلبغا العمرى وهو من جملة الاتراك الذين مسهم الرق من مماليك بنى أيوب المتغلبين عليهم بمصر ومات يلبغا وهو من صغار مماليكه وانما سمى برقوقا لشخوص فى عينيه وتنقلت به الاحوال الى ان صار أمير مائة ألف مقدم وكان أتابكا للملك الصالح حاجى بن الاشرف شعبان بن الامجد حسين بن الناصر محمد بن قلاوون وهو الرابع والعشرون من ملوك الاتراك من مماليك الايوبية الاكراد المتغلبين عليهم غير الجراكسة وكان سن الملك الصالح لما ولى السلطنة عشرة أعوام ليس له من السلطنة غير الاسم فالزم الامير الاتابك برقوق أن يخلع الملك الصالح ويتولى السلطنة بدله فخلعه بعد سنة ونصف سنة وذلك فى يوم الاربعاء تاسع عشر شهر رمضان سنة أربع وثمانين وسبعمائة ومن آثاره مدرسة أنشأها بمصر بين القصرين كان مشد عمارتها جركسى الخليلى فقيل له فى ذلك شعر

قد أنشأ الملك السلطان مدرسة * فاقت على ارم مع سرعة العمل
يكفى الخليلى ان جاءت لخدمته * صم الجبال لها تمشى على عجل

وجهز للحرم المكى مالا لعمارة ما تهدم من المسجد الحرام وسار الركب الرجبى من مصر الى مكة بعد طول انقطاعه واستكثر من المماليك الجراكسة فاستمروا متغلبين على ملك مصر الى ان كثر ظلمهم وزاد عسفهم وغشمهم فأزالهم الله تعالى بعد ذلك بالسيوف الصارمة العثمانية وتشرفت بدولتهم القاهرة مصر والتخوت اليوسفية الكنعانية ملكهم الله تعالى كافة البسيطة وجعل معدلتهم ورأفتهم عامة بسائر أهل الارض محيطة * ودخل الظاهر برقوق مع كاجمع أموالا وخزائن وأكثر من المماليك الجراكسة فتمكنوا من الملك وتلاعبت بعده المماليك الجراكسة بملك مصر وصاروا ملوكها وسلاطينها بالقوة والغلبة والاستيلاء وكانت تقع فتن وقتال وجلاد وجدال وقتل نفوس وحرب البسوس وحزف وبوس الى أن يستقر الامر على واحد منهم فيركب فى شعار السلطنة واصطلحوا على هيئة خاصة آخذوها عن الملوك الايوبية الاكراد وزادوا فيها ونقصوا وكان ذلك الوضع مقبولا عندهم فان العرف يحسن ويقبح وان كان صورة مضحكة عند من لا يألفها ولكل اقليم وضع خاص لسلاطين ذلك الاقليم يكون مهيبا مهولا فى أعين أهل ذلك الاقليم لالفهم بتلك الهيئة لسلاطينهم فكان من شعار سلاطين الجراكسة عمامة ملفوفة بصنائع مكلفة يعملون فى مقدمها وعينها ويسارها شكل ستة قرون بارزة من نفس العمامة ملفوفة من نفس الشاش يلبسها السلطان فى مواكبه وديوانه ويلبس قفطانا من فاخر الثياب يكون على كتفه اليمين طراز مزركش بالذهب وكذلك على كتفه اليسار الا ان ذلك ليس مخصوصا بالسلطان بل يلبس ذلك من أراد من الامراء ومن دونهم ويخلع بهذا الثوب المطرز من أراد ويحمل على رأس السلطان قبة لطيفة وفى وسط ذلك صورة طير صغير يظلل السلطان بتلك القبة والذى يحملها على رأس السلطان أمير كبير وظيفته أن يصير سلطانا بعد ذلك وأكابر أمرائه أربعة وعشرون كبيرا يلطخانه على بابهم صبحا وعصرا كل واحد منهم أمير مائة مقدم على ألف بمنزلة البكلربكية عندهم يلبس كل واحد منهم عمامة بأربعة قرون ودونهم أمير عشرة مقدم

مائة بمنزلة السنجق يلبس كل واحد منهم عمامة بقرنين ودونهم الخاصكية يكون له فرس وخدام وعلى رأسه زنط عليه عملمة بعذبة يديرها من تحت حنكه ودونهم الجلبان وهم مشاة على رؤسهم طواقى من جوخ أحمر ضيق من موضع يدخل فيه رأسه وسيع من أعلاه لايلط برأسه وملبوس أكثرهم الملوطة البيضاء المصقولة يكون على كتفه طراز من مخمل أو أطلس أو مزركش وفى أوساطهم شدود بيض مصقولة يشدون بها أوساطهم ويسدلون طرفها الى أنصاف سوقهم وكانت التجار تجلب المماليك البيض من بلاد جركس ويتغالون فى أثمانهم الى ان كثروا بمصر وبلغوا من عشرين ألف فارس * وكانت لهم اصطلاحات فى تربيتهم وكانت لهم اطباق يوظفون فيها المعلمين من حفظ القرآن وكان الجلب يدخله سيده أولا الى الطبقة فيتعلم الخط والاستخراج والصلاة والقراءة بحسب قابليته فقد يفوق فى الخط ومعرفة القرآن والفقه وأمور دينه ثم يترقى الى معرفة الثقاف والصراع ورمى السهام ثم يترقى الى الفروسية الى أن يتفرس فى كل ذلك ثم يترقى الى الخاصكية ثم الى الدوادارية والمقدمية ثم الى السلطنة فكان خيال السلطنة فى دماغ كل واحد منهم من حين يجلب الى السوق ليباع الى أن يموت حتى ان واحدا من الجلبان جلب وهو حقير فاحش القرعة فاحش العرج فقال للدلال يبيعه هل ولى الاقرع الاعرج سلطانا فى مصر وبالجملة فقد كانوا طوائف سوارج لهم سماحة وحماسة وصداقة لمن صادقوه وكانت أرزاق مصر بيديهم وكانت أهل مصر تتلاعب بهم فيما بيدهم من الأرزاق وكانوا بيد فقهائهم ومباشريهم وكانوا ينخدعون فيرتب لهم مباشروهم المصريون مصارف فيكون للجندى فقيه يعلمه القرآن وامام يصلى به ومكبر ومباشر يكتب دخله وخرجه وخزندار وركاب دار وجامدار ومهتار ومراج ومكاليس وحلاق وغير ذلك وحلوى وتنكها وكانوا فى رفاهية وكان اهل مصر يعيشون فى ظلهم رغدا بحيث ان اطعمتهم كانت تكفى سائر جيرانهم وكانت خدامهم تبيع ما يفضل من طعامهم للناس من الدجاج والاوز وسائر النفائس وكان لهم سوق يباع فيه ما يفضل من أطعمتهم وكانوا يتفاخرون ببناء البيوت الفاخرة والمدارس والجوامع والترب وكانت لهم خيرات جارية ومبرات عالية الى ان فشا فيهم الظلم والعدوان وكثرت منهم المصادرات وغلبت سيآتهم على حسناتهم وزادت مظالمهم على خيراتهم ومالوا الى العوانية المفسدين واخلوا بشعائر الشرع والدين فاستجاب الله فيهم دعاء المظلومين ومزقهم كل ممزق ودار الظالم خراب ولو بعد حين والملك يدوم بالكفر ولا يدوم مع الظلم والله لا يحب الظالمين وان الملك بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين * (وكانت) * مدة سلطنتهم بمصر من سنة أربع وثمانين وسبعمائة الى سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة * وهذا كلام وقع فى البين فانرجع الى أحوال الملك الظاهر برقوق فنقول بعد سلطنته استمر على حاله سلطانا الى ان خلع فاحبس فى الكرك ثم تسحب من الحبس وجمع الجيوش وقاتل وغلب على المملكة واعيد الى السلطنة وصار يتبع اعداءه ومن خرج عليه وخالفه الى ان استصفاهم وما صفا له الزمان وظن أنه آمن وأين الامان من يد الدهر الخوان ومالت شموس سلطنته الى الزوال وانمحق بدر حياته ولابد من المحاق بعد الكمال وبرق برق الزوال على برقوق وشاهد الانفصال * (فعهد بالسلطنة الى ولده السلطان فرج بن برقوق) * وطلب الخليفة والقضاة والامراء واشهد على نفسه انه نزل عن السلطنة لولده فرج وسنه عشرة اعوام وعين الاتابك ايتمش البجاسى لتدبير المملكة وتوفى الى رحمة الله فى ليلة الجمعة وقت التسبيح منتصف شوال سنة احدى وثمانمائة وفى ذلك يقول احمد المعرى الشاعر

مضى الظاهر السلطان اكرم مالك * الى ربه يرقى الى الخلد فى الدرج
وقالوا ستأتى شدة بعد موته * فأكرمهم ربى وما جاء سوى فرج

وخلف الظاهر برقوق من الذهب العين ألف ألف دينار ومن القماش والاثاث ما قيمته الف ألف وأربعمائة ألف ومن الخيل المسومة والبغال الفارهة ستة آلاف ومن الجمال البختية خمسة آلاف جمل وكان عليق دوابه فى كل شهر أحد عشر ألف اردب شعير وفول * وفى أيام الناصر فرج بن برقوق وقع الحريق فى المسجد الحرام فى ليلة السبت لليلتين بقيتا من شوّال سنة اثنتين وثمانمائة * وسبب ذلك ظهور نار من رباط رامشت الملاصق لباب الحزورة من أبواب المسجد فى الجانب الغربى منه ورامشت هو الشيخ أبو القاسم ابراهيم بن الحسين الفارسى وقف هذا الرباط على الرجال الصوفية أصحاب المرقعات فى سنة تسع وعشرين وخمسمائة فترك بعض سكان الخلاوى سراجا موقودا فى خلوته وبرز عنها فسحبت الفأرة القوية فتيلة السراج منه الى خارجه فأحرقت فى الخلوة واشتعل اللهب فى سقف الخلوة وخرج من شباكه المشرف على الحرم الشريف واتصل بسقف المسجد الحرام والتهابه وعجز الناس عن طفيه لعلوه وعدم وصول اليد اليه فعم الحريق الجانب الغربى من المسجد الحرام واستمرت النار تأكل من السقف وتسير ولا يمكن الناس اطفاؤها لعدم الوصول اليها بوجه من الوجوه الى ان وصل الحريق الى الجانب الشامى واستمر يأكل من سقف الجانب الشمالى الى ان انتهى الى باب العجلة وكان هناك اسطوانتان هدمهما السيل العظيم المهول الذى دخل المسجد الحرام فى اليوم الثامن من جمادى الاولى من هذا العام يعنى عام حريق المسجد الحرام وأخرب عمودين من اساطين الحرم الشريف عند باب العجلة بما عليهما من العقود والسقوف فكان ذلك سببا لوقوف الحريق وعدم تجاوزه عن ذلك المكان والا لعم المسجد الحرام جميعه من الجوانب الاربعة فاقتصر الحريق الى باب العجلة وسلم الله تعالى باقى المسجد الحرام

وكم لله من لطف خفى * يدق خفاه عن فهم الذكى

فصار ما احترق من المسجد الحرام اكواما عظاما تمنع من رؤية الكعبة الشريفة ومن الصلاة فى ذلك الجانب من المسجد * قال النجم بن فهد وتحدث أهل المعرفة بأن هذا منذر بحادث جليل يقع فى الناس وكان ذلك مقدم وقعة المحن العظيمة بقدوم تمرلنك الى بلاد الشام وبلاد الروم وسفك دماء المسلمين وسبى ذراريهم ونهب أموالهم واحراق مساكنهم ودورهم كما هو مذكور فى التواريخ المفصلة * قال الحافظ السخاوى * فى ذيله على دول الاسلام للذهبى رحمه الله تعالى وفى آخر شوّال سنة اثنتين وثمانمائة وقع بالحرم المكى حريق عظيم اتى على نحو ثلث المسجد الحرام ولولا العمودان اللذان وقعا من السيل قبل ذلك لاحترق المسجد الحرام جميعه واحترق من العمد الرخام مائة وثلاثون عمودا صارت كلها كلسا ولم يتفق فيما مضى مثله وكان وقوع السيل فى جمادى الأولى من هذه السنة بعد مطر عظيم الانسكاب كأفواه القرب ثم هجم السيل فامتلأ المسجد حتى بلغ القناديل ودخل الكعبة من شق الباب فهدم من الرواق الذى يلى باب العجلة عدة اساطين وخرب منازل كثيرة ومات فى السيل جماعة رحمهم الله قال القاضى رحمه الله تعالى ثم قدر الله تعالى عمارة ذلك فى مدة يسيرة على يد الامير بيسق الظاهرى وكان قدومه الى مكة لذلك فى موسم سنة ثلاث وثمانمائة وكان هو أمير الحاج المصرى وتخلف بمكة بعد الحج لتعمير المسجد فلما رحل الحاج من مكة شرع فى تنظيف الحرم الشريف من تلك الاكوام

التراب وحفر الارض وكشف عن أساس المسجد الشريف وعن أساس الاسطوانات في الجانب الغربي من الحرم الشريف المحترم وبعض الجانب الشامي منه الى باب العجلة فظهر اساس الاسطوانات مثل تقاطيع الصليب تحت كل اسطوانة فبناها واحكم تلك الاساسات على هيئة بيوت الشطرنج تحت الارض وبناها حتى رفعها الى وجه الارض على اشكال زوايا قديمة وقطع من جبل بالشبيكة على يمين الداخل الى مكة احجارا صوانا صلبة منحوتة على شكل نصف دائرة يصير على آخر منحوت مثله دائرة تامة في عمل ثلثي ذراع وصففت على قاعدة مربعة منحوتة على محل التقاطع الصليبي على وجه الأساس المرتفع على الارض ووضع عليها دائرة أخرى مثل الأولى ووضع بينهما بالطول عمود حديد منحوت له بين الحجرين المدورين وسبك على جميع ذلك بالرصاص الى ان انتهى طوله الى طول اساطين المسجد فيوضع عليه حجر منحوت من المرمر هو قاعدة ذلك العمودين من فوق طاق يعقد الى العامود الآخر وبني ما بين ذلك بالآجر والجص الى أن يصل الى السقف الى ان تم الجانب الغربي من المسجد الحرام على هذا الحكم وبقيت القطعة التي من الجانب الشامي الى باب العجلة فأكملوها بالقطع من عمد الرخام الابيض موصلة بالصفائح من الحديد الى ان لاقوا به العمد التي بنوها من الحجر الصوان المنحوت لعدم القدرة على العمد الرخام فصارت الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام ثلاثة أروقة والجانب الغربي وحده بالحجر الصوان المنحوت المدور على شكل عمد الرخام وكملت عمارة هذه العمد في أواخر شعبان سنة أربع وثمانين ولم يبق غير عمل السقف وآخر عمله بعدم وجود خشب يصلح لذلك بمكة اذ لا يوجد غير خشب الدوم وخشب العرعر وليس لذلك طول ولا قوة ويحتاج الى خشب الساج ولا يجلب الا من الهند أو خشب الصنوبر ولا يجلب الا من الروم فلزم تأخيرا كماله الى احضار القدر الذي يحتاج اليه من ذلك الخشب وشكر الناس الامير يسق على سرعة تمام هذا المقدار من العمل في هذه المدة اليسيرة ومبادرته الى تنظيف المسجد الى ان صلح للصلاة فيه وكان ذا همة عالية وحسن توجه وكان كثير الصدقة والاحسان وحج الامير يسق في ذلك العام وعاد الى مصر لتجهيز ما يحتاج اليه من خشب سقف الجانب الغربي من المسجد الحرام ووصل الى مصر في أوائل سنة خمس وثمانمائة وكان صاحب مكة يومئذ جد ساداتنا أشراف مكة الآن السيد الشريف حسن بن عجلان سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان وكان ممن يحب الخير ويرغب فيه ويسابق الى فعل الجميل ويبادر اليه وهو الذي يقول فيه شمس الدين بن المقري الشافعي صاحب الارشاد والروض وعنوان الشرف وغيرها من قصيدة له يمدحه ويعرض بصاحب اليمن يومئذ

أحسنت في تدبير ملكك يا حسن * واجدت في تسكين اخلاص الفتن

الى أن قال

موسى هزبر لا يطاق نزاله * في الحرب لكن اين موسى من حسن

هذاك في يمن وما سلمت له * عدن وذا في الشام لم يدع اليمن

ومن جملة خيراته وآثاره انه لما رأى رباط رامشت وما آل اليه امره بعد الحريق الى ان صار سباطة بذلك المحل امر باعادته رباطا للفقراء كما كان وصرف من ماله عليه الى ان عاد أحسن من الاول وزالت السباطات من ذلك المكان وانصان الحرم الشريف وتضاعفت أدعية الناس له بسبب ذلك والله يجزي المتصدقين ويسمى الآن رباط الخاص لانه رممه وعمره بعد شهرته في أوائل القرن العاشر وهو من

طائفة المباشرين فى ديوان السلطنة بمصر فى خدمة السلطان جقمق العلائى ومن بعده وكان من أهل الخير رحمه الله ❊ وفى سنة سبع وثمانمائة قدم الى مكة الامير بيسق لعمارة سقف الجانب الغربى من المسجد الحرام وغيره مما تشعب من سقف المسجد الشريف من كل جانب فنهض الى هذه الخدمة وأحضر الاخشاب المناسبة لذلك وجلبها من بلاد الروم وهيأ لها العمد السقف ونقشها بألوان وزوقها واستعان بكثير من خشب العرعر الذى يؤتى به من جبال الحجاز من جهة الطائف لعدم وجود خشب الساج يومئذ فى مكة وبذل همته واجتهاده الى أن أسقف جميع الجانب الغربى من المسجد الحرام وأكمله بخشب العرعر المذكور وعمر معه بعض الجانب الشامى أيضا الى باب العجلة فتم عمارة المسجد الشريف على تلك الاسطوانات المنحوتة من الحجر الصوان وعلق فى تلك الاسقف سلاسل من نحاس وحديد لتعليق القناديل فى الرواق الوسطانى من الاروقة الثلاثة على حكم سائر المسجد الحرام غير الجانب الشرقى واليمانى وأكثر الشامى الى باب العجلة كان فى كل عقد من العقود التى تلو صحن المسجد الشريف ثلاث سلاسل احدها فى وسط كل عقد والثانى عن يمينه والثالث عن شماله لتعليق القناديل وأما هذا الجانب الغربى كانت فيه السلاسل على هذا الحكم فلما احترق هذا الجانب واعيدت عقوده لم تركب فيها هذه السلاسل ولا أدرى كانت هذه السلاسل التى هى خارج عن الاروقة تحت العقود البرانية منها يعلق فيها القناديل احيانا أم كانت لمجرد الزينة ولم اطلع على ذكر قناديلها ولا كيف كانت ومتى بطلت وأكمل عمارة سقف الجانب الغربى وما احترق من الجانب الشامى الى باب العجلة فى سنة سبع وثمانمائة وعمر مع ذلك فى الجوانب الثلاثة من المسجد الحرام مواضع كثيرة من سقفها كان قد انكسر اعوادها ومال بعضها وكان يسيل منها الماء الى المسجد الشريف فأصلح الامير بيسق جميع ذلك بالطبطاب والنورة فى سطح الاسقف ودلكها وسواها وأتقن عملها وعمر ما فى صحن المسجد من المقامات الاربعة على الهيئة القديمة وبذل فى صرف ذلك الاموال العظيمة وشكره الناس على ذلك وكان ذلك فى ايام الناصر زين الدين أبى السعادات فرج بن برقوق بن انص الجركسى ثانى ملوك الجراكسة وكانت سلطنته بعهد من أبيه عند وفاته كما تقدم صبيحة يوم الجمعة منتصف شوال سنة احدى وثمانمائة وكان الامير الاتابك ايتمش مدبر المملكة وكان الامير شيبك خزنداره فوقع بينهما منافرة ادت الى مشاجرة ثم الى مقاتلة فانكسر ايتمش فهرب الى نائب الشام الامير تنم الظاهرى فجيشا جيوشا الى مصر لقتال الناصر وشيبك فخرج الناصر لقتالهم فانهزموا منه واضطربت احوال مصر لاختلاف الكلمة ثم وصل تمرلنك الى بلاد الشام وأخذها من سدون الظاهرى وأسره وقتله ونهب بلاد الشام وأخرب ديار الدنيا داروخرج الناصر فرج بجيوشه من مصر لقتال تمرلنك فوجده قد نزل البلاد وتوجه الى بلاد الروم فأعطى الشام لتغرى بردى وعاد الى مصر وذلك فى سنة ثلاث وثمانمائة ثم كثرت الفتن بمصر من الامراء الظاهرية مماليك الظاهر برقوق واختلفت الاحوال بسبب هذه الفتن والاختلافات الى ان ضجر فرج من ذلك وهرب من القلعة بعد العشاء ليلة الاثنين سادس ربيع الاول سنة ثمان وثمانمائة واختفى عند سعد الدين ابراهيم بن غراب أحد رؤساء المباشرين فلما أصبح الامراء وفقدوا السلطان اقاموا فى السلطنة أخاه ❊ الملك المنصور عبد العزيز بن برقوق بن أنص الجركسى ❊ ثالث ملوك الجراكسة فتلاشت أمور المملكة فى أيامه لصغر سنه واختلاف امراء دولته وكيف يستقيم الملك مع الخلاف والحال انه لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وكان مدة ملك المنصور شهرين وعشرة أيام

ثم ظهر الناصر فرج بعد هروبه واختفائه وركب معه امراء من مماليك أبيه وأخذ القلعة بالحراب من أخيه الملك المنصور عبد العزيز وتسلطن ثانيا يوم الجمعة لاربع مضين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانمائة ونفى أخاه الملك المنصور عبد العزيز وأخاله اسمه ابراهيم الى الاسكندرية فتوفيا بها في ليلة الاثنين سابع ربيع الآخر سنة تسع وثمانمائة وأتهم الناصر بقتلهما والله أعلم * ثم صار الملك الناصر فرج يتبع أعداءه من الامراء فصار يقتلهم واحدا بعد واحد فتجمعوا عليه وخرجوا عن طاعته وقاتلوه فهزمهم فخرجوا عنه الى الشام فتبعهم فصاروا يكرون به ويهربون عنه ويتبعونه في طلبهم مع غاية الاحتراز منه والحرب خداع ومخالفة الجم الغفير والجمع الكثير لا تستطاع الى ان مل منه الخدم والاتباع وتفرقوا عنه وسئموا عن الاتباع وهو يتبعهم بالجد في الطلب الى أن صادفوه في طلبهم بعد التعب والدأب وهو ومن معه اتعبوا خيولهم في طلب العدو من العشاء الى الصباح وأشرفوا في الصبح على الامراء العصاة عليه وهم بطول الليل في الراحة والارتياح فحمل السلطان الناصر فرج ومن معه وهم نفر قليلون حقيرون على امرائه العاصين له وهم متوفرون كثيرون فمنعه أصحابه من هذه الحملة وعلموا انه هو ومن معه في غاية التعب والقلة فلم يطعهم وأطاع غروره وجهله واغتر بشجاعته وخوله وظن انه لا يقابله احد لعزته وطوله ولا يقاتله أحد لهيبته وزوله فدلاه خياله الفاسد بغرور وخاب ظنه كما يخيب ظن كل مغرور وخانه الزمان الجائر ودارت عليه الدوائر وخذله الدهر فما كان للناصر من قوة ولا ناصر وانقلب اليه بصره وهو حسير وظفر به عدوه الحقير وقيده وهو أسير كسير وقتل وما للناصر نصير وما جاء لفرج فرج الا بشرى الشهادة والى الله المصير وطعنته المشاعلية بالسكاكين الى ان انقطع منه الوتين وسكن منه الأنين فصار عبرة للناظرين وهو مقيد محبوس بأيدي القاتلين في ليلة السبت منتصف شهر صفر سنة خمس عشرة وثمانمائة والقي بعد هذه القتلة على سباطة مزبلة وهو عريان من اللباس يمر به الناس وينظرون الى ذلك البدن الممتهن والجسد العاري الممتحن وذلك من أعظم العبر وأكبر المحن الى ان من الله عليه ببعض الانام بعد عدة أيام فحمله وغسله وأدرجه في كفن وواراه في التراب في مقبرة باب الفراديس ولعل الله سامحه وأسكنه الفراديس والرجاء من الله الكريم ان يكون الله غفر له فان السيف محاء الذنوب وان الله علام الغيوب * ومن العمائر الحرمية في أيامه تجديد عقد المروة بعد سقوطه في سنة احد عشر وثمانمائة * ومنها ان تاجر السبي الخواجا حسين بن احمد الشرواني أوصى في مرض موته أن يصرف على عمارة عين مكة من ماله عشرة آلاف درهم وأن يعمر الميضأة الصرغتمشية بخمسة آلاف درهم فنفذت وصيته بعد ذلك في العام المذكور * ووقع في أيام الناصر فرج أيضا ان سلطان بنكاله من سلاطين أقصى الهند السلطان غياث الدين أعظم شاه بن اسكندر شاه أرسل الى الحرمين الشريفين صدقة كبيرة مع خادمه ياقوت الغياثي ليتصدق بها على أهل الحرمين ويعمر له بمكة مدرسة ورباطا ويوقف على ذلك جهات يصرف ريعها على أفعال الخير كالتدريس ونحوه وكان ذلك باشارة وزيره خان جهان فوصل ياقوت المذكور بأوراق سلطانية الى مولانا السيد حسن بن عجلان شريف مكة يومئذ جد سادتنا الاشراف الآن جمل الله بوجودهم الزمان وكان وصول ياقوت الغياثي الى مولانا السيد الشريف حسن بن عجلان رحمه الله مع هدايا جليلة اليه فقبلها وأمره أن يفعل ما أمره به السلطان غياث الدين لكنه اخذ ثلث الصدقة على معتاده ومعتاد آبائه ووزع الباقي على الفقهاء والفقراء بالحرمين الشريفين

ويعمهم

فعمتهم وتضاعف الدعاء له على الخير والدال عليه كفاعله واشترى ياقوت الغياثى لعمارة المدرسة والرباط دارين متلاصقتين على باب أم هانى هدمهما وبناهما فى عامه رباطا ومدرسة واشترى أصيلتين وأربع وجبات مافى الركابى وجعل لها أربعة مدرسين من أهل المذاهب الاربعة وستين طالبا ووقف عليهم ماذكرناه واشترى دارا مقابلة للمدرسة المذكورة بخمسمائة مثقال ذهبا وقفها على مصالح الرباط واخذ منه مولانا السيد حسن بن عجلان فى الدارين اللتين بناهما رباطا ومدرسة والاصيلتين والاربع الوجبات من قرار عين الركانى اثنا عشر الف مثقال ذهبا واخذ منه مبلغا لا يعلم قدره كان جهزه معه سلطانه لتعمير عين عرفة فذكر مولانا السيد حسن انه يصرفه على عمارته ويقال ان قدره ثلاثون الف مثقال ذهبا وكان السيد حسن عين احد قواده وهو الشهاب بركات المكين ان تفقد عين بازان واصلاحها واصلاح البركتين بالمعلاة وكانتا معطلتين فأصلحهما الى ان جرت عين بازان فيهما * وكان خان جهان وزير السلطان غياث الدين ارسل مع ياقوت الغياثى خادما يسمى حاجى اقبال ارسله بصدقة أخرى من عنده لاهل المدينة المنورة وجهز معه مالا ليبنى له به مدرسة ورباطا وهدية الى امير المدينة ومشد جمان الحسينى فانكسرت السفينة التى فيها هذه الاموال وغيرها بقرب جدة فأخذ مولانا السيد بن عجلان ربع ماخرج من البحر على عادتهم اذا انكسرت سفينة عندهم وأخذ ما يتعلق بالسيد جمان الحسينى لانه عصى وظهرت منه شناعة بالمدينة الشريفة من أخذ مفتاح خزانة النبى صلى الله عليه وسلم من قاضى المدينة جبرا بعد ان أهانه وهو القاضى زين الدين ابو بكر بن الحسين المراغى وضرب شيخ الخدام وأخذ من خزانة النبى صلى الله عليه وسلم احد عشر خوشخانة وصندوقين كبيرين وصندوقا صغيرا كلها مملوءة فيها ذهب مودع لملوك العراق وخمسة آلاف كفن وصادر الخدام واراد أخذ قناديل الذهب من الحجرة فمنعه الله تعالى ونهب العربان ما جمعه ومات لا رحمه الله تعالى فارسل مولانا السيد حسن بن عجلان الى المدينة الشريفة عسكرا وصلوا اليها بعد خراب البصرة وولى عليها عجلان بن نعير الحسينى وكل ذلك سنة احد عشر وثمانمائة * وفى سنة أربع عشرة وثمانمائة وقع فى اواسط رمضان اصلاح مواضع فى سطح الكعبة الشريفة كان يكثر وكف المطر منها الى أسفلها ومنها مواضع عند الطابق التى على الدرجة التى يصعد منها الى سطحها ومنها مواضع عند الميزاب وكان الفتح الذى فى هذا الموضع متسعا مضرا يصل الماء منه فى وسط الجدار وذلك بعد قطع اللوح الذى بين مجرى الماء وأعيد اللوح كما كان وموضع بقرب الروازن التى للقبور وكان اصلاح المواضع المذكورة بالجبس وكانت الاخشاب المطيفة بأعلى الروازن التى عليها البناء المرتفع فى وسط البيت وقد تخربت فعوضت بخشب سوى ذلك وأعيد البناء الذى كان عليها كما كان الا الروزن الذى يلى الكعبة فان خشبه لم يغير وكان الروزن الذى يلى الركن الغربى قد تخرب بعض الخشب الذى فى جوفه مما يلى السقف والكسوة التى فى جوف الكعبة وكانت الكسوة التى عليه قد زال تسلها فشمرت وكان الروزن الذى يلى الركن اليمانى منكسرا فقلع وعوض بروزن جديد وجد فى أسفل الكعبة * قلت وهذه الروازن لا وجود لها الآن فانها سدت جميعها وأصلح فى الدرجة أخشاب منكسرة وكان اصلاح ذلك عقيب مطر عظيم حصل بمكة فى أوائل شهر رمضان * ولما قتل الناصر فرج بن برقوق على الوجه الذى تقدم شرحه ما قدم احد من امراء الجراكسة على التلبس بالسلطنة خوفا من مخاصمة العسكر وحميتهم ان يقدموا على قتله فاتوا الخليفة العباسى وأبرموا عليه وسلطنوه بالجبر وهو (المستعين بالله ابو العباس بن محمد بن ابى بكر العباسى المصرى) بعد التمنع الشديد منه فولى السلطنة فى المحرم سنة خمس عشرة وثمانمائة

وكان القائم بتدبير المملكة الامير شيخ المحمودى ثم خلع المستعين بالله وتسلطن مكانه * وتلقب بالملك
المؤيد شيخ فى مستهل شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة وهو الرابع من ملوك الجراكسة وكان أصله
من مماليك الظاهر برقوق اشتراه من تاجر يسمى محمود اليزدى وأعتقه وجعله أمير عشرة ثم صار صاحب
طبلخانه ثم مقدم ألف ثم ولى نيابة طرابلس ثم أسره تيمورلنك لما أسر نواب البلاد الشامية ثم هرب منه
ووقعت له أمور مع الناصر فرج من الخروج عليه وعصيانه الى أن آل أمره الى أن صار سلطانا
وعصى عليه نواب البلاد الشامية وتوجه الى قتالهم مرارا كثيرة وافتتح الشام وغيرها وعاد الى مصر
وكان يعتريه ألم المفاصل فصار يحمل على الأكتاف ويركب المحفة وكان شجاعا مقداما مهيبا * وكانت
أسواق ذوى الفنون نافقة عنده لجودة فهمه وذوقه وكان يحب العلماء والفضلاء ويجل قدرهم * وفى أيامه
وقع الغلاء العظيم بمكة بحيث بيعت الغرارة الحنطة وهى حمل جمل معتدل بعشرين دينارا ذهبا وكان
عاما فى جميع المأكولات بحيث بيعت البطيخة بدينار ذهب الى أن رفع الله عن المسلمين تلك الشدة وكان
فى سنة خمس عشرة وثمانمائة * ومن أعجب ما وقع فى ذلك ان جملا كان لجمال يقال له الفاروقى يحمله
فوق طاقته فى جمادى الآخرة من تلك السنة ففر من صاحبه ودخل المسجد الحرام ولم يزل يطوف بالبيت
والناس حوله يريدون امساكه فيعضهم ولا يمكن أحدا من نفسه الى أن أتم ثلاثة أسابيع ثم جاء
الى الحجر الاسود فقبله ثم توجه الى مقام الحنفية ووقف هنالك تجاه الميزاب فبرك عنده وبكى وألقى نفسه
على الأرض ومات فحمله الناس الى ما بين الصفا والمروة ودفنوه هنالك * وفى هذه السنة عمرت أماكن
من سقف المسجد الحرام وعقدان من جانب الركن اليمانى المتصل بصحن المسجد * وفى سنة ست عشرة
وثمانمائة عمر شريف مكة يومئذ وهو الشريف حسن بن عجلان بن رميثة جد سيدنا ومولانا شريف مكة
الآن حسن بن أبى نمى بن بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان أدام الله تعالى دولته وسعادته
بالجانب الشمالى من المسجد الحرام البيمارستان الذى كان وقفا للمستنصر العباسى لخرب ودثر
فاستأجره من قاضى مكة يومئذ القاضى جمال الدين الشافعى اجارة طويلة مائة عام بأربعين الف درهم
بوزن مصر واذن القاضى جمال الدين للسيد حسن بن عجلان ان يصرف الاجرة المذكورة فى عمارة
ما تخرب منه البيمارستان المذكور ويهدم ما يحتاج الى الهدم ويرمم ما يحتاج الى ترميمه وان ينتفع به مدة
اجارته فشرع السيد حسن فى عمارة البيمارستان المذكور عمارة حسنة وجدد فيه ما يحصل به النفع
للفقراء وجدد به ايوانا وصهريجا ووقف جميع ذلك مما عمره ومما يستحق الانتفاع به على الفقراء والمساكين
والمرضى المنقطعين يأوون فيه علوا وسفلا وينتفعون بالاقامة به والسكنى فيه لا يزعجهم احد ولا يخرجهم
بل يستمرون الى ان يحصل لهم الشفاء والعافية فيخرجون باختيارهم فاذا خلا البيمارستان عن المرضى
عاد الانتفاع لهم وكتب بذلك كتاب وقف على الصورة المشروحة وجعل النظر على ذلك لولديه بركات
واحمد ثم من بعدهما للارشد فالارشد من ذريته المذكورين دون الاناث من ولد الظهر لا البطن وثبت ذلك
وحكم بصحته القاضى السيد رضاء الدين ابو حامد محمد بن عبد الرحمن الفاسى الحسنى المالكى فى يوم الجمعة
لعشر مضين من صفر سنة ست عشرة وثمانمائة وانما استحكم فيه المالكى لان متأخريهم اجازوا وقف
المنافع وهو خلاف رأى ابى حنيفة والشافعى رضى الله عنهما واستمر الى ان خرب ودثر فاستبدل مرارا
آخر ذلك فى أواخر دولة المرحوم المقدس السلطان سليمان خان بن سليم خان سقى الله عهده صوب الرحمة
والرضوان واستبدل الى جانبه رباط سلطان الهند احمد شاه الكجراتى ورباط الخواجا الظاهر واشتريت

دوراً أخرى وعمر في مكانها المدارس الأربعة وبيده مؤلفه مدرسة الحنفية منها جزى الله خيراً من كان سبباً في انشائها وسيأتي بيان عمارتها ان شاء الله تعالى * وفي مستهل ذي الحجة سنة ست عشرة وثمانمائة قدم الى الحج أحد خواص مماليك السلطان الملك المؤيد شيخ المحمودي في يوم الاثنين لتسع خلون من المحرم سنة أربع وعشرين وثمانمائة وقد أناف على خمسين وكانت مدة ملكه ثمان سنين وخمسة اشهر وتسلطن بعده ولده الملك المظفر ابو السعادات احمد بن المؤيد شيخ بعهد منه في يوم الاثنين لتسع المحرم يوم وفاة والده وعمره اذ ذاك سنة وثمانية اشهر وسبعة ايام وهو الخامس من ملوك الجراكسة وصار يدبر مملكته الامير ططر ومعه الملك المظفر أحمد طفلا وقاتلهم وقتل كثيرا منهم الى أن صفا له الوقت فخلع الملك المظفر وتسلطن عوضه في يوم الجمعة لليلة بقيت من شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة ورجع بالمظفر أحمد الى مصر واستقر بالقلعة الى أن نقل الى الاسكندرية مطعونا في سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ونقلت جنازته من اسكندرية الى مصر ودفن بالجامع المؤيد داخل زويلة * وتسلطن الملك الظاهر أبو الفتح سيف الدين ططر الظاهري في يوم الجمعة لليلة بقيت من شعبان سنة أربع وعشرين وثمانمائة وهو السادس من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر وكان من مماليك الظاهر برقوق أعتقه وقدمه ولازال يتقدم الى أن صار عند المؤيد رأس نوبة النوب ثم أمير مجلس ثم تسلطن كما ذكر وتلقب بالظاهر لقب أستاذه ومهد مملكة الشام وقتل نائبها وقبض على الأمراء المخالفين له وقدم المخالفين وله آثار جميلة ومقاصد حسنة جليلة * من أعظمها أنه قرر لصاحب مكة الشريف حسن بن عجلان ألف دينار ذهب تحمل له من خزينة مصر في كل عام وجعل ذلك له في مقابلة ترك المكس على الخضرة والفواكه والحبوب وغيرها بمكة وأمر أن يكتب عهده واعترافه بذلك على سواري المسجد الحرام من ناحية باب السلام ومن ناحية باب الصفا باسقاط المكس الذي كان يؤخذ على الخضرة والفواكه من المأكولات وان لا يكلف شريف مكة على أخذ القرض منهم والسواري المكتوبة بهذا العهد موجودة في المسجد الحرام الى الآن * ثم لما ظفر الله للملك الظاهر ططر بمملكة الشام وحلب عاد الى مصر فمرض في اثناء الطريق وصار يتعلل في مصر ولزم الفراش ولم يتهن بالسلطنة ولا كمل فرحه بالملك وما أمهله الدهر بل سلبه الملك واسلمه الى الهلاك وتوفي يوم الاحد لاربع مضين من ذي الحجة سنة اربع وعشرين وثمانمائة وكانت مدة ملكه اربعة وتسعين يوما * وولى بعده في يوم موته ولده الملك الصالح محمد بن الظاهر ططر * وعمره نحو العشر سنوات وهو السابع من ملوك الجراكسة وصار اتابكه ومدبر مملكته الاتابك جاني بك الصوفي الى ان تغلب على الاتابك برسباي الدقاقي فقبض عليه وارسله الى سجن اسكندرية وصار اتابكا في مكانه واستبد بأمور المملكة من غير مشارك فخلع الملك الصالح وتسلطن عوضه في يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين وثمانمائة وكانت مدة سلطنة الملك الصالح ثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما واستمر بعد الخلع عند والدته في القلعة الى أن توفي بالطاعون في سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة وعمره نحو العشرين عاما * وولى برسباي السلطنة وتلقب الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباي الدقاقي * وهو الثامن من ملوك الجراكسة بمصر أخذ من بلاد جركس وبيع في بلاد قرم فاشتراه تاجر وجلبه الى الشام وباعه فاشتراه الامير دقماق الظاهري نائب ملطية وقدمه الى الظاهر برقوق فقربه وأعتقه فصار يترقى الى أن ولاه الملك المؤيد مقدم ألف وجرت عليه نكبات وحبوس الى أن ولى الظاهر ططر فقربه وأنعم عليه بتقدمة ألف

ثم جعله داودارا واستمر على ذلك الى أن تسلطن على الوجه الذى قدمناه واستمر فى السلطنة مدة طالت وحسنت أيامه * ومن جملة مناقبه انه أخذ بلاد قبرص وأسر ملكها فى سنة تسع وعشرين وثمانمائة وهو فى تخت ملكه بمصر لم يتحرك وكان عاقلا مدبرا سيوسا ذا وقار وسكينة متجملا فى ملبسه ومركبه محبا لجمع المال واشترى من ماله ثلاثة آلاف مملوك جركسي وعمر بالقاهرة المدرسة الأشرفية وهى من محاسن مدارس مصر ووقف عليها أوقافا كثيرة وعمر أيضا جامعا عظيما فى سرياقوس ووقف عليه أيضا أوقافا كثيرة وفى أوّل سنى سلطنته أرسل الأمير مقبل القديدى وأمره بعمارة أماكن متعددة من المسجد الحرام كان قد استولى عليها الخراب فأحسن بناءها وجدد كثيرا من أسقف المسجد الحرام كان قد تآكلت أخشابها وكذلك جدد سطح الكعبة الشريفة وكانت الأخشاب التى تربط فيها كسوة الكعبة قد تآكلت وذابت فقلعها ووضع عوضها أخشابا جديدة محكمة بمسامير كبار من الحديد وأحكم كل ذلك غاية الاحكام وأتقنه غاية الاتقان * وفى سنة ست وعشرين وثمانمائة أمر الاشرف برسباى أميره بمكة يقال له مقبل القديدى الأشرفى بقلع الرخام المفروش فى باب الكعبة وجدرانها من داخل لتخربه وتقلعه وأن يجدده برخام جديد وأن يعيد ما كان صحيحا ويرمم ما تكسر وكذلك يصلح الاساطين التى فى جوف الكعبة الشريفة ويحكمها * وذكر شيخ الكعبة أنه سمع صريرا فى سقف الكعبة الشريفة فتتبعوا ذلك فوجدوا احدى الاسطوانات التى تقابل باب البيت قد مال رأسها عن محله فأعادها الى محلها وأحكمها وعمر ذلك عمارة حسنة وكتب اسم سلطانه الاشرف برسباى فى لوح رخام حفره ونقشه بالذهب وركبه فى جدار البيت الشريف وهو باق الى الآن وكان مستند العمارة هو الامير مقبل القديدى الأشرفى والناظر عليها الخواجا على الكيلانى تاجر السلطان وحضر فى العمارة شيخ الكعبة والقضاة الأربعة وناظر الحرم الشريف والمعمار جمال الدين يوسف المهندس وكان الفراغ من هذه العمارة فى شهر صفر * وفى أوّل هذا العام عمر الرخام الذى فى أرض الحجر فى باطنه وظاهره وأعلاه وأسفله على يد الأمير مقبل المذكور * وفيها عمر باب الجنائز أحد أبواب المسجد الحرام الواقع امام رباط سيدنا العباس رضى الله عنه امام هذا الباب وانما سمى باب الجنائز لانه كان مخصوصا بدخول الجنائز منه الى المسجد للصلاة عليها فيه وجرت عادة أهل الحرمين الشريفين بادخال جنائزهم المسجد الحرام والصلاة عليها عند باب الكعبة الشريفة وكذلك أهل المدينة يدخلون جنائزهم المسجد النبوى ويقفون بها أمام وجه النبي صلى الله عليه وسلم ويصلون عليها فى الروضة الشريفة وهذا مذهب الامام الشافعى والامام مالك والامام أحمد بن حنبل رضى الله عنهم وأما الحنفية فى الحرمين الشريفين فيقلدون أولئك الأئمة ليحوزوا هذا الفضل العظيم لان مذهب الامام الأعظم أبى حنيفة رضى الله عنه عدم جواز ادخال الميت المسجد وطالما بحثت كتب الفتاوى وتفحصت عن رواية أعتمدها بالجواز الى أن ظفرت بعون الله تعالى فى جواز ذلك وهى رواية عن أبى حنيفة رضى الله عنه ففرحت بها كثيرا كأنى ظفرت بكنز عظيم فلا تغفل عنها فانها من مهمات المسائل لاسيما لأهل الحرمين الشريفين فعض عليها بالنواجذ واعتمد على ما أفتيت فى هذه المسئلة فقد ذكر علماؤنا رضى الله عنهم ان كل قول قال به الامام أبو يوسف والامام محمد والامام زفر فهو رواية عن الامام أبى حنيفة رضى الله عنه وحيث ثبتت هذه الرواية عن الامام أبى حنيفة رضى الله عنه فهى قول له وان كانت غير ظاهر الرواية فأخذنا بها تصحيحا للعمل جيران الله وجيران نبيه صلى الله عليه وسلم فى الحرمين الشريفين من

صدر الاسلام الى هذا العصر ولا نقول بتأثيم من سلف مع وجود المساغ الصحيح وهو رواية عن المجتهد الذى نقلده رضى الله عنه ﴿وقد رفع الىّ سؤال فى ذلك صورته﴾ ما قولكم فى مسئلة الصلاة على الميت فى المسجد الحرام المكى ومسجد النبى صلى الله عليه وسلم فى الروضة الشريفة هل يجوز للحنفى ادخال الميت اليهما والصلاة عليه فيهما كما هو عمل الحرمين قديما وحديثا وهو شأن السلف الصالح الى الآن أم لا يجوز ذلك لان الصحيح من مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه كراهة الصلاة على الميت فى المسجد وعلى هذا فهل يأثم فاعل ذلك وهل تؤثمون السلف الصالح على ادخال موتاهم الى مقابلة وجه النبى صلى الله عليه وسلم طلبا لبركته ومرحمته ثم ادخاله الى الروضة الشريفة التى هى بنص الحديث الشريف روضة من رياض الجنة فيحرم الميت من دخولها ولا يدخل الى المسجد الحرام ولا يوضع على باب الكعبة منظرها فى باب مولاه الكريم تعالى ويحرم من هذه البركات كلها ويأثم من أدخله مواطن هذه الرحمة والخير ﴿فكتبت ما صورته اللهم وفقنا للصواب﴾ اعلم رحمنا الله وإياك ان شرف المسجد الحرام وروضة النبى عليه أفضل الصلاة والسلام ونزول الرحمة فيهما على من دخل فيهما أمر واضح لا شك فيه ولا مرية تعتريه وما رآه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وقد تواطأ أهل الحرمين الشريفين وتطابقت آراؤهم الى الآن على ادخال موتاهم الى المسجد طلبا لمزيد التبرك والاسترحام ولم يعهد من علمائنا بالحرمين الشريفين التأنى من ذلك أو الانكار على فاعله مع انه سائغ فى مذهب غير الامام أبى حنيفة رضى الله عنه من الائمة المجتهدين رضى الله عنهم فلا نقدم على تأثيم السلف الصالح فيما فعلوه طلبا لمزيد الرحمة والبركة واختلاف الأئمة رضوان الله تعالى عليهم رحمة ويجوز للمقلد الاخذ بكلام مجتهد من المجتهدين فى بعض المسائل وان خالف امامه رضى الله عنهم أجمعين ومع ذلك فقد وجدت نقلا صريحا للمحيط البرهانى عن الامام الثانى ان فى رواية عنه قوله مثل قول الامام الشافعى رضى الله عنهما وصورة ما نقل وانما تكره الصلاة على الجنازة فى المسجد الجامع ومسجد الحى عندنا وقال الشافعى لا يكره وعن أبى يوسف روايتان فى رواية كما قال الشافعى وفى رواية اذا كانت الجنازة خارج المسجد والامام والقوم فى المسجد لا يكره انتهى فترجح عندى ان أفتى بالجواز من غير كراهة واعتمدت على هذه الرواية وحسنت الظن بالسلف الصالح وكفى بالامام أبى يوسف رضى الله عنه قدوة فى هذه المسئلة فاعلم ذلك واحفظه فانه نفيس ولا تجمد مع الجامدين على أن الكراهة كراهة تنزيه نص عليه شرف الائمة العقيلى كما نقله عنه الامام الزاهدى رحمهما الله تعالى قاله الفقير قطب الدين الحنفى غفر الله تعالى ذنوبه قال النجم عمر بن فهد رحمه الله تعالى فى كتابه اتحاف الورى بأخبار أم القرى فى حوادث سنة ست وعشرين وثمانمائة وفيها عمر الأمير مقبل القديدى باب الجنائز على صفته الآن لانه كان قد سقط ما فوق أحد البابين الى منتهى المسجد الحرام المقابل لرباط المراغى وتخرب ما بين هذا الباب والباب الآخر وازيل الحاجز الذى كان بينهما وازيلت الاسطوانتان الرخام اللتين تليان هذا الحاجز وعمر بحجارة منحوتة حتى ارتفع وعمر أماكن بهذا الموضع بين باب على وباب العباس وموضع آخر يتصل بباب الافضلية انتهى * قلت رباط المراغى هو الآن محل رباط السلطان قايتباى الذى هو منزل أمير الحاج المصرى فى هذا الزمان والمدرسة الافضلية هى أوقاف الخواجا محمد بن عباد الله وبينهما بابان للمسجد أصلهما باب واحد يقال له باب النبى صلى الله عليه وسلم وكان يدخل الى المسجد من هذا الباب لان دار السيدة خديجة رضى الله عنها فى هذا الباب يقال له باب الحريريين لان الحرير يباع فى هذا الباب

قلت وعادة الناس فى زماننا ادخال الجنائز من أبواب العباس وتخرج من باب السلام وأنا أرى ان تدخل الجنائز وتخرج من باب الحرير بين مابين مدرسة قايتباى ودار الخواجا ابن عباد الله لان النبى صلى الله عليه وسلم كان يدخل من هذا الباب الى المسجد ويخرج منه ولا شك انه أكثر بركة وخيرا من سائر أبواب المسجد الحرام وانما يقال له باب القفص لان الصباغ يصوغون الحلى فى أقفاص للبيع بقرب هذا الباب * قال النجم عمر بن فهد رحمه الله تعالى وفيها عمر الأمير مقبل المذكور عدة عقود بالمسجد الحرام فى الجانب الشامى من الدكة المنسوبة الى القاضى أبى السعود بن ظهيرة الى باب العجلة خلف مقام الحنفية وزاد فى عرض العقود التى تلى الصحن من هذا الجانب ثلاثة عقود فى الصف الثالث وأحكم الاساطين التى عليها هذه العقود وهى سبعة أساطين فى الرواق الأول وثمانية فى الذى يليه وثلاثة فى الذى يليه وسبعة متصلة بجوار المسجد وجدد من أبواب المسجد الحرام باب العباس وهو ثلاثة أبواب وباب على وهو ثلاثة أبواب أيضا والباب الاوسط من أبواب الصفا وهى خمسة وباب العجلة وهو باب واحد وأحد بابى الزيادة وهو الواقع فى الركن الغربى من الزيادة ورمم باقى أبواب المسجد وبيض غالبه وأصلح سقفه وكل ذلك على يد الأمير مقبل المذكور ومعماره المعلم جمال الدين يوسف المهندس رحمهم الله تعالى * وفى هذه السنة جدد الاشرف برسباى الكسوة الحمراء داخل الكعبة الشريفة وكساها من داخل وأزال الكسوة القديمة وكانت للناصر حسن بن قلاوون وجاءت الكسوة الجديدة على يد الزينى عبد الباسط ناظر الجيش صاحب الباسطية التى على باب العجلة عن يسار الداخل الى المسجد الحرام وهى مدرسة وخلاوى للفقراء فى غاية الاحكام والاتقان وللمدرسة شبابيك مشرفة على المسجد الحرام وسبيل الى جانب المدرسة باقية الآن بيد النجار بين أئمة مقام الحنفى يسكنها الاعيان الواردون الى الحج وكانت عليها أوقاف بمصر دثرت الآن وأبقى أيضا عبد الباسط سبيلا وحفر بئرا فى طريق العمرة على يسار الذاهب الى العمرة موجودة الى الآن بقرب الموضع الذى يقال له فخ بالفاء والخاء المعجمة فيه مدفن أبى عبد الله الحسين بن على بن الحسن المثلث بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين وكان أحد الاجواد فى الاسلام وكان يقول ما أظن لى أجرا فيما اعطيه فقيل له وكيف ذلك قال لان الله تعالى يقول لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون والله ما هذا عندى وهذا الحصا الا بمنزلة واحدة وكان خرج على الهادى العباسى بمكة وقاتل خالد اليزيدى ومن معه من جنوده العباسيين وهزمهم ثم وصل محمد بن سليمان بجنود أخرى من قبل الهادى ونزل الحسين بن على بفخ وقاتل قتالا شديدا الى ان قتل هو وجماعة من شيعة اشراف بنى حسن رحمهم الله تعالى وحملت رؤسهم وهى مائة رأس بعدها رأس الحسين بن على الى الهادى ويقال له الحسين بن على الفخ الينبعى * وروى أبو الفرج الاصفهانى فى مقاتل الطالبين اسناده الى النبى صلى الله عليه وسلم قال انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى فخ فصلى باصحابه صلاة الجنائز ثم قال يقتل هذا رجل من أهل بيتى فى عصابة من المسلمين ينزل لهم باكفان وحنوط من الجنة تسبق أرواحهم الى الجنة أجسادهم وعبد الباسط هذا هو ابن خليل بن ابراهيم الدمشقى ثم القاهرى ناظر الجيش فى أيام الظاهر ططر فمن بعده كان عزيزا رئيسا كريما نافذ الكلمة على الجاه واسع العطاء كبير الهمة له فى كل واحد من هذه المساجد الثلاثة مدرسة وكذلك بالقاهرة مدرسة عظيمة وبالشام وبغزة وله على جميع هذه المدارس أوقاف كثيرة بمصر كانت تغل مغلا كبيرا استولى عليها الخراب الآن وكانت له سحابة للفقراء تنصب لهم فى الطريق ليستظلوا

تحتها وكانوا يحملون على جمال فى شقادف أعدها لهم وكانوا يسقون الماء العذب كلما احتاجوا اليه ويطعمون الخبز الطرى والبكسماط وكان يطبخ لهم فى المناهل ويذبح لهم الغنم فى الذهاب من مصر الى مكة وفى مدة الاقامة بها والعود منها الى مصر مع الاحسان اليهم والى فقيرهم وأصلح كثيرا من درب الحجاز وكان متكلما على أوقاف كسوة الكعبة بمصر فعمرها وغناها الى ان فاضت وكثرت فى زمانه * وقد ذكر شيخ الاسلام قاضى القضاة بمصر الشهاب أحمد بن حجر العسقلانى رحمه الله فى كتابه فتح البارى ان الصالح بن الناصر بن قلاوون اشترى ثلثى قرية يقال لها بيسوس من وكيل بيت المال ثم وقفها فى كسوة الكعبة الشريفة ولم تزل تكسى من ريع تلك القرية الى ان فوض أمرها المؤيد شيخ الى الزينى عبد الباسط بن خليل ناظر الجيوش فنمت وكثر ريعها وبالغ فى تحسينها بحيث يعجز الواصف عن وصف حسنها جزاه الله على ذلك خير الجزاء اه وكفاه فخرا ذكره هذا الامام الجليل فى مثل هذا التأليف العظيم * ورأيت ايضا فى شرح ايضاح المناسك للسيد نور الدين على السمهودى الحسنى عالم المدينة رحمه الله تعالى ما لفظه وكسوة الكعبة الشريفة وكسوة الحجرة الشريفة النبوية فى هذه الاعصر من وقف قرية يقال لها سندبيس فى طرف القليوبية مما يلى القاهرة شراها السلطان الصالح اسمعيل بن السلطان محمد بن قلاوون من وكيل بيت المال ووقفها الان تكسى منها الكعبة الشريفة كل سنة وتكسى الحجرة الشريفة النبوية فى كل خمس سنين مرة على ما قاله الزينى المراغى وذلك فى عشر الستين وسبعمائة * أقول هذه القرى موجودة الآن بمصر لكن ذكر لى من كتبة ديوان مصر الفاضل الكامل مولانا مصطفى چلبى بن مسيح زاده لما كان مقيما بمكة المشرفة ناظرا على الحرم الشريف المكى ذكره الله تعالى بالصالحات ان هذه الاوقاف ضعفت جدا وقل محصولها وصارت لا تفى لكسوة الكعبة الشريفة فعرض ذلك على أبواب المرحوم المغفور له السلطان سليمان خان أسكنه الله فسيح الجنان فأمر بالحاق قرى أخرى اشتريت من بيت المال وأوقفها وألحقها بأوقاف كسوة الكعبة الشريفة وهى باقية الى الآن ومنها كسوة الكعبة الشريفة فى كل عام * ولنعد الى تكميل ترجمة القاضى عبد الباسط * كانت وفاته رحمه الله يوم الثلاثاء لاربع ليال مضين من شوال سنة أربع وخمسين وثمانمائة وتوفى السلطان الملك الاشرف برسباى يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة احدى وأربعين وثمانمائة * وفى يوم وفاته تولى بعده العزيز الملك جمال الدين يوسف وعمره يومئذ أربعة عشر عاما وهو التاسع من ملوك الجراكسة بمصر وصار مدبر مملكته الاتابك جقمق العلائى ولا زال يقوى أمره والاقدار تساعده الى ان خلع الملك العزيز يوسف بن برسباى بعد ان تسلطن نحوا من خمسة أشهر لم يكن له فيها الا مجرد الاسم * وتسلطن مكانه فى يوم الاربعاء لعشر بقين من شهر ربيع الاول سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة ولقبوه الملك الظاهر سيف الدين أبا سعيد جقمق العلائى الظاهرى وجلس على سرير الملك وتم أمره وهو العاشر من ملوك الجراكسة وكان جلب من بلاد جركس الى مصر فاشتراه علاء الدين على بن الاتابك اينال اليوسفى فنسب اليه فقيل له جقمق العلائى * ثم انتقل الى الظاهر برقوق فقيل له الظاهرى وكان عنده خاصكيا * ثم صار فى دولة الناصر ساقيا عنده * ثم صار أمير عشيرة * ثم صار فى دولة المؤيد خزندارا * ثم صار من مقدمين الالوف * ثم فى دولة الاشرف فيه صار حاجب الحجاب * ثم أمير آخور كبير * ثم أمير سلاح * ثم صار أتابك الى ان تسلطن فخرج عن طاعته الامير قرقماس فقابله ثم ظفر به وحبسه بالاسكندرية ثم قتله * ثم خرج عن طاعته نائب حلب

تغري برمش * ثم اينال الحكمي نائب الشام فجهز عليهما العساكر فقاتلوهما واحدا بعد واحد وظفر
بهما وقتلهما وبعد حول صفا له الوقت فأخذ وأعطى وأقدم وسطا وكان متواضعا محبا للفقهاء والعلماء
والصالحين يميل الى تربية الايتام ويحسن اليهم ضعيفا عن المنكرات طاهر الفم والذيل لا يعلم من ملوك
الجراسة قبله ولا بعده أعف منه وكان على قاعدة الاتراك الدعوى عنده لمن سبق يذاكر مسائل فقهية
ويتعصب لمذهب أبي حنيفة رضي الله عنه وملك مصر نحوا من خمس عشر عاما الى أن أورى الدهر له من
زنده نارا واتخذ بدل عيشه الاخضر بالموت الاحمر ولم يجد له أنصارا واتخذ تحت الارض بعد تخت الملك
قرارا واصفرت الارض منه في سابع صفر سنة سبع وخمسين وثمانمائة * وكان الظاهر جقمق أول
ما ولى التفت الى مكة المشرفة وأرسل خلعا ومراسيم للسيد بركات بن حسن عجلان بولاية مكة وأرسل اليه
سودون المحمدي ليكون أميرا على خمسين فارسا من الترك مقيما بمكة وشيد العمائر بها * وكان من عمارة
الامير سودون بالمسجد الحرام في سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة انه قلع الرخام الذي على سطح الكعبة
الشريفة وكان الخشب الموضوع في السطح الشريف لان يربط فيه حبال الكسوة الشريفة قد
تأكل وتأكل خشب الروازن الاربعة التي كانت في سقف الكعبة التي كانت للضوء فغير ذلك جميعه
وجرد الكعبة الشريفة واستمرت مجردة يومين وليلتين يشاهد الناس أحجارها الى ان أكمل ترميمها
واصلاحها وأعيدت الكسوة عليها في ضحى يوم الاثنين لثمان بقين من شهر صفر سنة ثلاث وأربعين
وثمانمائة وأصلح أيضا رخام داخل الكعبة من الجدار المقابل للباب الشريف وأصلح أيضا رخام الحجر
وبيض مأذنة باب السلام وأصلح مأذنة باب العمرة وبيض مأذنة باب الحزورة ورمم أسافل مأذنة باب على
وأصلح سقف المسجد الحرام من تلك الجهة لخرابه وأصلح الرفرف الدائر بالمسجد الحرام وبيض علو مقام
ابراهيم وعلو مقام الحنفية وقبة باب ابراهيم والاميال التي تلصق بدار العباس في المسعى والميل الذي في
ركن المسجد بقرب باب بازان والذي يقابله التي هي علامة للسعي بينهما وعين في كل ميل قنديلا بالليل
من قناديل الحرم الشريف في شهر رجب وشعبان وشهر رمضان تضيء للمعتمرين وفي بعض ذي الحجة
للاضاءة على الحجاج اذا أرادوا السعي وجعل على الصفا قنديلا وعلى المروة * ثم عمر الامير سودون
المذكور ما بقي من المواضع المأثورة في منى وفي المشعر الحرام بمزدلفة ومسجد نمرة بعرفة وقطع جميع
أشجار السلم والشوك الذي كان بين المازمين في طريق عرفة وكانت تمزق كسوة الشقادف والمحاير عند
مزاحمة جمال الحاج في ذلك المحل وكانت الحرامية تكمن تحت الاشجار وتنهب جميع ما تظفر به من
الحجاج وتخطف منهم جميع ما تقدر عليه فقطع الامير سودون جميع تلك الاشجار وأزال الصخار
الكبار ونظف الطريق ووسعها وشكره الحجاج على ذلك ودعوا له حيث كانت تضر في طريق المسلمين
والاشجار الحرم لا يعضد ولا يقطع فرحمه الله تعالى وأثابه الحسنى وكذلك الامير خوش كلدي نائب
جدة في عصرنا في حدود سنة خمسين وتسعمائة قطع أشجار السلم ما بين المازمين وكسر الاحجار
في سفح الجبلين ومهد ووسع الطريق للحجاج ودفع بذلك عنهم شر السراق الذين كانوا يكمنون خلف
تلك الاشجار والاحجار وشكره الناس أثابه الله تعالى وسيأتي شيء من عماراته فيما بعد ان شاء الله
تعالى * وفي موسم سنة ثمان وأربعين وثمانمائة وصل مع الركب المصري رسول سلطان العجم
شاه رخ ميرزا بكسوة للكعبة الشريفة وصدقة لاهل مكة فكسيت الكعبة من داخلها بتلك الكسوة
من يوم عيد الاضحى وفرقت الصدقة على اهل الحرم * وفي سنة خمسين وثمانمائة وصل بيرام خواجا

ناظرا على المسجد الحرام وبنى بالمعلاة سبيلا وحوضا ينتفع بهما الناس والبهائم على عين الصاعد الى
المعلاة صار الآن فى تصرف بستانا عمره خوجاقينى مولانا محمد بن محمود أفندى قاضى مكة المشرفة فى سنة
سبع وستين وتسعمائة وقدمه لخانم سلطان بنت الوزير الاعظم رستم باشا وأمها والدة السلاطين
خاصكى سلطان رحمهما الله وهو الآن فى تصرف ناظر عمارتها بمكة المشرفة * وفى موسم سنة خمسين
وثمانمائة أيضا حج وزير من وزراء السلطان مراد الثانى طيب الله ثراه جاء بصدقات جليلة وخيرات
وافرة جميلة لاهل الحرمين الشريفين ورمى فى بركة قبة العباس بالحرم الشريف ثلثمائة وستين رأس
سكر وعدة قناطير من العسل وسقى الناس وملأ القرب وخرج بها السقايون الى المسعى يسقون الناس
وصرف على الحجاج وأهل الحرمين أموالا جزيلة تقبل الله منه صالح أعماله * وفى سنة اثنتين وخمسين
وثمانمائة عمر ناظر الحرم بيرم خواجا فى الجانب الشرقى قطعة من جدار المسجد الحرام يلى رباط السدرة
الذى هو الآن رباط الاشرف قايتباى وعمر شباك خلوة منسوبة للشيخ عفيف الدين بن عبد الله بن
أسعد اليافعى وشباك خلوة منسوبة للشيخ جمال الدين محمد بن ابراهيم المرشدى وجدد فى الرواق القبلى
من الجانب الشامى سبعة عقود وعمر أيضا صين حسين وأصلح مجاريها ورعها ترميما محكما ووصل فى ذلك
العام كسوة لحجر اسمعيل مع كسوة البيت الشريف لانه لم تجر بذلك عادة قبل هذا ووضعت فى البيت
الشريف ثم كسى بها الحجر الشريف من داخله فى العشر الأخير من ذى الحجة سنة ثلاث وخمسين
وثمانمائة بعد ان حفظت فى جوف البيت الشريف سنة كاملة * وعمر ناظر الحرم الشريف بيرم
خوجا عدة برك فى عرفة كانت داثرة مملوءة بالتراب فأخرج ترابها وأصلحها وساق اليها الماء من الآبار
التى بقربها ليشرب الحجاج منها وعمر مسجد نمرة بعرفة وعمر مسجد الخيف بمنى وصرف مالا عظيما
فى جهات الخيرات رحمه الله تعالى * ثم عزل ناظر الحرم المذكور بالتاجى الامير بردبك ووصل
الى مكة المشرفة ليلة الاحد السادس والعشرين من شعبان سنة أربع وخمسين وثمانمائة وطاف وسعى
وعاد الى الزاهر ودخل صبح تلك الليلة من أعلا مكة ولاقاه أكابر مكة وأعيانها ولبس الخلعة السلطانية
وقرأ مرسومه بالحطيم وهو مؤرخ بثانى عشر جمادى الآخرة يتضمن انه ولى نظر الحرم الشريف والربط
والاوقاف والصدقات وان يحاسب من كان قبله وان يكون محتسبا بمكة فاستقر بهذه الوظائف
وهو قائم الجاه نافذ الكلمة وباشرها مع التمكين وعمر فى أواخر السنة بعض سقوف المسجد الحرام
* وفى هذه السنة آجر قاضى القضاة أبو السعادات بن ظهيرة الشافعى رباط رامشت لوكيل القاضى
ناظر الخاص ثم وصلت فتاوى بعدم صحة اجارة الوقف اجارة طويلة فاستبدل له وحكم بصحة الاستبدال
حاكم حنفى ثم أمر بعمارته رباطا فعمره له ناظر الحرم الشريف التاجى بردبك وفتح فيه عدة
شبابيك على الحرم الشريف على الوضع الذى هو باق عليه الى الآن * وفى سنة ست وخمسين وثمانمائة
وصلت أحكام من الظاهر جقمق تتضمن الامر باخراج ما على الكعبة الشريفة من داخلها من الكسوة
المنسوبة الى الاشرف برسباى وان تبقى كسوة الملك الاشرف الظاهر جقمق وحدها ففعلوا ذلك
وفيها سافر أمير الترك الراكز بمكة الامير جانبك النوروزى وولى عوضه فى منصبه ناظر الحرم
التاجى بردبك * وفى سنة سبع وخمسين وثمانمائة وردت القصاد من مصر تخبر بان الملك الظاهر جقمق
زاد به مرضه فخلع نفسه من السلطنة فى يوم الخميس لتسع بقين من محرم من السنة المذكورة لولده أبى
السعادات فخر الدين عثمان * ولقبه الملك المنصور وعقد له البيعة ورضى الناس به واطمأنوا وهو

الحادى عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم وسنه دون العشرين وركب بشعار السلطنة وحمل الاتابك أنيال العلائى أمير كبير القبة والطير على رأسه وجلس على تخت الملك فى قلعة الجبل وباشر الامور الى ان توفى والده بعد سلطنة ولده باثنى عشر يوما فوقعت فتنة بين الامراء فخلع الملك العزيز عثمان * وتسلطن الملك الاشرف سيف الدين أبو النصر أنيال العلائى فى صبيحة يوم الاثنين لثمان مضين من شهر ربيع الاول سنة سبع وخمسين وثمانمائة وهو الثانى عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم وهو جركسى جلبه الخواجا علاء الدين الى مصر فاشتراه الظاهر برقوق وأعتقه الناصر فرج بن برقوق وتنقل فى الدولة الى ان صار فى أيام الاشرف برسباى أمير مائة مقدم ألف وولاه الظاهر جقمق الدوادارية الكبرى الى ان جعله أتابكا واستمر الى أن تسلطن وتم أمره فى الملك وطالت مدته وأيامه نحو ثمان سنين وشهرين وأياما وكان طويلا خفيف اللحية بحيث اشتهر بانيال الاجرد وكان قليل الظلم قليل سفك الدماء متجاوزا عن الخطاء والتقصير الا ان مماليكه ساءت سيرتهم فى الناس وفى ابتداء سلطنته سافر اليه أمير الترك الراكز بمكة وناظر الحرم ومحتسب مكة الامير بردبك التاجى وولى عوضه أمير الترك الراكز بمكة شيبك الصوفى وطوغان شيخ الحرم ومحتسب وولى مشدا على جدة جانى بك وهو الذى بنى البستان الذى على يسار الذاهب من منى المعروف به الآن وحفر فيه عدة أبيار وغرس فيه ماقدر عليه من الاشجار حتى شجر التمر هندى وأدركناه فيه ووقف عليه مسقفات بمكة ولم يقع فى أيام الأشرف عمارة للحرم الشريف واستمر سلطانا الى ان خلع نفسه مدة السلطنة وعقدها لولده *(الملك المؤيد شهاب الدين أبى الفتح أحمد بن أنيال)* فى يوم الاربعاء لاربع عشرة ليلة خلت من جمادى الاولى سنة خمس وستين وثمانمائة وتوفى والده بعد ذلك بيوم واحد ثم خلعه أتابك حين قدم بعد خمسة أشهر وخمسة أيام وولى السلطنة عوضه *(الملك الناصر سيف الدين بن سعيد خوشقدم الناصرى)* يوم الاحد لاحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة خمس وستين وثمانمائة وهو رومى جلبه الخواجا ناصر الدين وبه عرف واشتراه المؤيد شيخ واعتقه وصار خاصكيا عنده ثم تغلب فى الدولة الى ان جعله الاشرف أنيال أتابكا لولده فخلعه وتسلطن مكانه وكان محبا للخير وكسى الكعبة الشريفة فى أول ولايته على العادة ولكن كانت كسوة الشرقى والجانب الشامى بيضاء بجامات سود وفى الجامات التى بالجانب الشرقى بعض ذهب فارسل فى سنة ست وثمانين وثمانمائة منبرا وكان من خشب فركب فى يوم الاربعاء والخميس وخطب عليه الخطيب فى يوم الجمعة ثانى الحجة الحرام وكانت مدة سلطنته ست سنين ونصف تقريبا ومرض وطال مرضه وتوفى فى يوم السبت لعشر خلون من شهر ربيع الاول سنة اثنين وسبعين وثمانمائة * وتسلطن فى ذلك اليوم خشتاشه الاتابك بلباى *(وهو الملك الظاهر الناصر بلباى المؤيدى)* فاخلع على الامير تمربغا الظاهرى بالاتابكية عوضا عن نفسه وهو الرابع عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم وكان ضعيفا عن تدبير الملك فخلعه الامراء من السلطنة فى يوم السبت لسبع مضين من جمادى الاولى سنة اثنين وسبعين وثمانمائة فكانت مدة سلطنته شهرين الا أربعة أيام وتسلطن بعد خلعه عوضا عنه (الملك الظاهر أبو سعيد تمربغا الظاهرى) وهو الخامس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر ولكن كان يقال انه رومى الاصل من مماليك الظاهر جقمق أعتقه ورباه صغيرا الى ان جعله خاصكيا ثم سلحدارا ثم خزندارا كبيرا ثم دوادارا ثانى ثم صار فى دولة الملك المنصور دوادارا كبيرا ثم أخرج الى مكة ثم عاد الى القاهرة فى دولة

الظاهر خوشقدم فصار مقدم ألف ثم صار فى دولة الظاهر بلباى أتابك العساكر ثم تسلطن وكان له فضل وصلاح وتودد للناس وحذق ببعض الصنائع بحيث يعمل القسى الفائقة بيده ويعمل السهام علا فائقة فيها ويرمى أحسن رمى يفوق غيره فيها مع الفروسية التامة ومع ذلك ما صفا له الدهر يوما ورماه من كبد قوسه بأبعد رمى وما زال به الامر الى ان خلعوه ونفوه الى الاسكندرية وولى السلطنة أتابك العساكر يومئذ *(السلطان الملك الاشرف قايتباى المحمودى الظاهرى)* فى ظهر يوم الاثنين وهو السادس من شهر رجب سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة وهو السادس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر ومولده ببلاد جركس تقريبا فى بضع وعشرين وثمانمائة جلبه الخواجا محمود الى مصر فنسب اليه واشتراه الاشرف برسباى وأعتقه الظاهر جقمق واليه انتسب وتنقل فى المراتب الى ان صار فى دولة الظاهر خوشقدم أمير مائة مقدم ألف ثم صار فى دولة الظاهر تمربغا أتابكا ثم صار بعد خلعه سلطانا بعد تعززمنه وتمنع وحصلت له البشارة بالسلطنة من عدة أولياء الله الصالحين قبل أن يليها وكان محبا للخير معتقدا فى الصلحاء * ويحكى عنه أنه كان يحكى عن نفسه أنه لما جلب الى مصر للبيع وهو امام راهق او بالغ كان معه رفيقه احد المماليك الجلب فتحادثوا مع الجمال فى ليلة من ليالى شهر رمضان فقالوا لعل هذه ليلة القدر والدعاء فيها مستجاب فليدع كل واحد منا بدعاء يحبه فقال قايتباى اما انا فاطلب سلطنة مصر من الله تعالى فقال الثانى وانا اطلب من الله ان أكون اميرا كبيرا والتفتا الى الجمال وقالا له اى شئ تطلبه فقال انا اطلب من الله خاتمة الخير فصار قايتباى سلطانا وصار صاحبه اميرا كبيرا فكانا اذا اجتمعا يقولان فاز الجمال من بيننا رحمهم الله وكان ملكا جليلا وسلطانا نبيلا له اليد الطولى فى الخيرات والطول الطائل فى اسداء المبرات بنى بالمساجد الثلاثة عدة ربط ومدارس وجوامع عظيمة الآثار باهرة الانوار ولهم بمصر والشام وغزة آثار جليلة وخيرات جميلة اكثرها باق الى الآن وجميع عمائره يلوح عليها الواضح النورانية والانس * وفى اول ولايته ارسل الى مكة بالمراسيم والخلع للسيد الشريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان بولاية الحرمين الشريفين والى قاضى القضاة برهان الدين ابراهيم بن ظهيرة الشافعى بقضاء مكة ومراسيم تتضمن الامر بابطال جميع المكوسات والمظالم وان ينقر ذلك على اسطوانة من اساطين الحرم الشريف فى باب السلام وفى آخر سنة أربع وسبعين وثمانمائة والتى قبلها بنى مسجد الخيف بناء عظيما محكما وجعل فى وسط المسجد قبة عظيمة هى حد مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى خيف منى وبنيت جداراته المحيطة به وبنى أربع بوائك من جهة القبلة فصارت قبة عالية فيها محراب النبى صلى الله عليه وسلم وبلصق القبة مأذنة التى على عقد باب المسجد بثلاثة أدوار صنعة الاستاذين وبنى دارا بلصق الباب وكانت مسكن امراء الحاج وعلى الباب فى الدار المذكورة سبيل علا الصهريج كبير جعل فى صحن المسجد عتلاء من المطر وجعل للمسجد بابا آخر الى جهة عرفة وخوخة صغيرة الى الجبل الذى فى سفحه غار المرسلات وهو الموضع الذى أنزلت فيه سورة المرسلات على النبى صلى الله عليه وسلم وبالجملة فهذا المسجد أثر عظيم باق الى الآن من آثار المرحوم السلطان قايتباى وقد غلب عليه الدثور عمر الله من عمره أو تسبب فى تعميره * وعمر السلطان المذكور مسجد نمرة فى عرفة وهو المسجد الذى يجمع فيه الامام بين الظهر والعصر جمع تقديم فى يوم عرفة للحجاج المحرمين فى ذلك الآن لا يجمع عند أبى حنيفة فى غير ذلك الحال جمع تقديم الا فى ذلك المسجد ولا جمع تأخير الا فى المزدلفة بين المغرب والعشاء للحجاج وجعل فى

صدر ذلك المسجد رواقان عظيمان يتظلل بهما الحجاج وقت الصلاة عن الشمس وجدد العلمين الموضوعين
لحد عرفة والعلمين الموضوعين لحد الحرم وبعض المسجد الذى بمزدلفة على جبل قزح وهو المشعر الحرام
على رأى وجدد عين عرفات وابتدأ المعمار العمل فيها من سفح جبل الرحمة الى وادنعمان فوجد الماء
بكثرة فاقتصر على ذلك ولم يصل الى أم العين وكانت قد انقطعت منذ مائة وخمسين سنة وكان الحجاج
يقاسون فى يوم عرفة من قلة الماء مالا يصبر عليه ثم أصلح البركة وملأها بالماء ثم أصلح عين خليص
وأجراها وأصلح بركتها وبنى قبتها وامتلأت البركة وعم النفع بها وبعين عرفات وكان ذلك من أعظم
الخيرات بالنسبة الى الحجاج والزوار * وفى سنة تسع وسبعين وثمانمائة وصل منبر خشب للمسجد الحرام
فى الخامس والعشرين من ذى القعدة الى مكة المشرفة فى البر فركب فى جهة باب السلام وجر الى المطاف
وخطب عليه الخطيب فى أول ذى الحجة * وفى سنة احدى وثمانين أصلح خشب سقف المسجد بالرواق
الشرقى وعمر رخام الحجر الشريف من داخله وخارجه ورصصت الشقوق التى بين أحجار المطاف داخل
البيت الشريف * وفى سنة اثنتين وثمانمائة أمر السلطان قايتباى وكيله وتاجره الخواجا شمس الدين محمد
ابن عمر الشهير بابن الزمن وشاد عمائر الامير سنقر الجمالى ان يحصل له موضعا مشرفا على الحرم الشريف
ليبنى له مدرسة يدرس فيها علماء المذاهب الأربعة ورباطا يسكنه الفقراء ويعمر له ربوعا ومسقفات
يحصل منها ريع كثير يصرف منه على المدرسين وعلى القراء وأن يقرأ له ربعة فى كل يوم يحضرها القضاة
الاربعة والمتصوفون ويقرر لهم وظائف ويعمل مكتبا للأيتام وغير ذلك من جهات الخير فاستبدل
رباط السدرة ورباط المراغى وكانا متصلين وكان الى جانب رباط المراغى دار للشريفة شمسية من شرائف
بنى حسن اشتراها منها وهدم ذلك جميعه وجعل فيها اثنين وسبعين خلوة ومجمعا كبيرا ومشرفا على الحرم
الشريف وعلى المسعى الشريف ومكتبا ومأذنة وصير المجمع المذكور مدرسة بناها بالرخام الملون
والسقف المذهب وقرر فيه أربعة مدرسين على المذاهب الأربعة وأربعين طالبا وأرسل خزانة كتب
وقفها على طلبة العلم وجعل مقرها المدرسة المذكورة وجعل لها خازنا عين له مبلغا وقد استولت عليها
أيدى المستعيرين وضيعوا منها جانبا كبيرا وبقى منها ثلثمائة مجلد وهو تحت تكلم مؤلف هذا الكتاب
صنتها وكلت بعض ما فات منها وجلدت منها ما يحتاج الى التجليد واستخلصت بعض ما وجدته واعدته الى
الوقف صانه الله وجعل الواقف فى ذلك المجمع للقضاة الأربعة حضورا بعد العصر مع جماعة من الفقهاء
يقرأون له ثلاثين جزأ من القرآن وجعل فقيها يعلم أربعين صبيا من الايتام ورتب لكل واحد من الايتام
وأهل الخلاوى ما يكفيهم من القمح فى كل سنة وللمدرسين والمؤذنين وقراء الأجزاء مبالغ من الذهب
تصرف لهم كل سنة وبنى عدة ربوع ودور تغل فى كل عام نحوا الفى ذهب ووقف عليهم بمصر قرى وضياعا
كثيرة تغل حبوبا كثيرة تحمل فى كل عام الى مكة وعمل من الخيرات العظيمة مالا يعلم ذلك لسلطان قبله
وذلك باق الى الآن الا أن الأكلة قد استولت على تلك الاوقاف فضعفت جدا وهى آيلة الى الخراب
وصارت المدرسة سكنا لامراء الحاج أيام موسم الحاج وسكنا لغيرهم من الامراء اذا وصلوا الى مكة فى
وسط السنة وصارت أوقافها أكلة للنظار عمر الله من عمرها وأحيا من أحياها وكان الفراغ من بناء
هذه المدرسة والرباط والبيتين أحدهما من ناحية باب السلام والثانى من ناحية باب الحريريين فى
سنة أربع وثمانين وثمانمائة على يد الامير سنقر الجمالى رحمه الله تعالى * وفى هذه السنة وردت
أحكام السلطان قايتباى الى صاحب مكة يومئذ مولانا السيد الشريف جمال الدين محمد بن بركات بن

حسن

حسن بن عجلان رحمه الله تعالى يتضمن انه رأى مناما وان بعض المعبرين عبر له ذلك المنام بغسل البيت الشريف من داخله وخارجه وغسل المطاف وانه أمره ان يفعل ذلك فحضر مولانا السيد الشريف محمد ابن بركات رحمه الله تعالى بنفسه وقاضى القضاة برهان الدين ابراهيم بن على بن ظهيرة وباش الترك الراكز بمكة الامير قايتباى اليوسفى والامير سنقر الجمالى والدوادار الكبير الامير جانى بك نائب جدة المعمورة وبقية القضاة والاعيان بمكة وفاتح بيت الله الحرام عمر بن ابى راجح الشيبى والشيبيون والخدام وغسلوا الكعبة الشريفة من داخلها اقدر قامة ومن خارجها اقدر قامة وغسلوا أرض الكعبة وسائر المطاف الشريف وطيبوها بالطيب وكان ذلك فى يوم الخميس لثمان بقين من ذى الحجة الحرام من السنة المذكورة

﴿فصــل﴾ ومن أعظم ماوقع فى أيام السلطان قايتباى من الامور الهائلة حرق المسجد الشريف النبوى ذكرناه استطرادا لانه أمر هائل عظيم * وتفصيل ذلك ان فى ثلث الليل الاخير من ليلة الاثنين ثالث عشر شهر رمضان سنة ست وثمانين وثمانمائة طلع رئيس المؤذنين الشيخ شمس الدين محمد بن الخطيب الى المأذنة الشرقية اليمانية فى ركن المسجد الشريف المعروف بالرئيسية وهو يذكر ويمجد وكانت السماء متراكمة الغيوم متوارية النجوم اذ سمع رعدا هائلا وسقطت صاعقة لها لهب كالنار أصاب بعضها هلال المأذنة فانشق رأسها ومات الرئيس الى رحمة الله تعالى وسقط باقيها على سقف المسجد الشريف عند المأذنة فعلقت النار فيه ففتحت ابواب السماء ونودى بالحريق فى المسجد فحضر أمير المؤمنين يومئذ السيد قسطل بن زهير الجمالى وشيخ الحرم والقضاة وسائر الناس وصعدت أهل النجدة والقوة الى سطح المسجد بالمياه فى القرب يسكبونها على النار لتطفى فالتهبت وأخذت فى جهة الشمال والمغرب وعجزوا عن اطفائها فهربوا واستولت النار عليهم فمات منهم فوق عشرة انفس وعظمت النار جدا وأحاطت بجميع سقف المسجد الشريف واحرقت مافى المسجد من المصاحف وخزائن الكتب والربعات وكانت كتبا نفيسة ومصاحف عظيمة وصار المسجد كبحر لجى من نار يرمى بشرر كالقصر الى ان استوعب الحريق جميع المسجد والقبة العليا التى فوق قبة النبى صلى الله عليه وسلم وذاب الرصاص ولم يصل أثر النار الى جوف الحجرة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام لسلامة القبة السفلى وعدم التأثير فيها مع ماسقط عليها مما هو أمثال الجبال وأحرقت حتى الحجارة الاساطين وسقط منها نحو مائة وعشرين اسطوانة واحترق المنبر الشريف النبوى والصندوق الذى فى المصلى الشريف والمقصورة التى حول الحجرة الشريفة وقد سلمت الاساطين الملاصقة للحجرة الشريفة وسلم ماحول المسجد من البيوت وشوهد أشكال طيور بيض يحومون حول النار كأنها تكفها عن بيوت جيران النبى صلى الله عليه وسلم مع وقوع بعض شرر النار فيها وعدم تأثيره فيها * قال مؤرخ المدينة وعالمها ومفتيها مولانا السيد نور على بن عبد الله السمهودى رحمه الله بعد سوق هذه الحكاية بالبسط من هذا فى كتابه خلاصة الوفا باخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم وفى ذلك عبرة تامة وموعظة عامة أبرزها الله تعالى للانذار فخص بها حضرة النذير الاعظم صلى الله عليه وسلم وقد ثبت ان أعمال امته تعرض عليه فلما ساءت الاعمال المعروضة ناسب ذلك الانذار باظهار المجازى بها يوم العرض قال الله تعالى وما نرسل بالآيات الا تخويفا وقال تعالى ذلك الذى يخوف الله به عباده ياعباد فاتقون قال وشرعوا فى تنظيف المسجد بنقل انقاضه من مقدم المسجد الى مؤخره للصلاة فيه وعمل فى ذلك امير المدينة وقضاتها وعامة اهلها حتى النساء والصبيان

تقربا الى الله تعالى وبادروا بارسال قاصد الى مصر وعرضوا ذلك على السلطان قايتباى رحمه الله تعالى فتهول من هذا الحادث العظيم وتوجه الى عمارة المسجد الشريف وعرف نعمة الله عليه لتأهيله لهذا الشرف العظيم ورسم بابطال جميع المعاليم المكية وغيرها وان يتوجه شادها السيوفى سنقر الجمالى مبادرا الى المدينة الشريفة وارسل اليه نحوا من ثلثمائة من ارباب الصنائع وكثيرا منه الحمير والجمال والبغال وسائر مؤنهم ومبلغا من الخزانة نحو مائة الف دينار فا كثر وجهز المؤن الكثيرة الى ان امتلأت البنادر بها كالطور والينبع ونقلت الى المدينة الشريفة واستقبلوا العمارة بجد واجتهاد الى ان كملت عمارة المسجد الشريف والقبة الشريفة والمواذن وفرغوا منها على هذا الوجه الذى هو عليه الآن فى هذا الزمان * وذكر السيد السمهودى رحمه الله تعالى فى تفصيل كتابه خلاصة الوفا فراجعه ان أردت احاطة العلم به وذكره بأبسط من ذلك فى تاريخه الكبير الذى سماه وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى صلى الله عليه وسلم وأمر السلطان قايتباى أن يبنى له رباطا ومدرسة ومأذنة حول المسجد الشريف فبنوا له مدرسة عظيمة ورباطا مشرفا على المسجد الشريف ما بين باب السلام وباب الرحمة وأرسل الى المدرسة خزانة كتب جليلة جعل مقرها المدرسة موقوفة على طلبة العلم الشريف وأرسل مصاحف كثيرة وكتبا لخزانة المسجد الشريف عوض ما احترق منها ووقف قرى كثيرة بمصر تحمل غلاتها الى جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم فيفرق عليهم لكل شخص ما يكفيه من الحب بطول السنة فكان حصة كل نفر سبعة ارادب فى العام فسوى فى ذلك بين الصغير والكبير والحر والعبد وذلك الخير جار الى الآن وزاد عليه الآن سلاطين آل عثمان أكثر مما أوقفه السلطان قايتباى لمكة والمدينة جزى الله المحسنين خيرا وضاعف لهم ثوابا وأجرا

(فصل) فى حج السلطان قايتباى * اعلم ان ملوك الجراكسة ما حج منهم أحد غير السلطان قايتباى لكثرة تمكنه فى الملك وكثرة ما فعله من الآثار الجميلة فى الحرمين الشريفين فاقام الامير الكبير يشبك الدوادار نائبا عنه بمصر وخرج الى الحج فى سنة اربع وثمانين وثمانمائة قبل وقوع حريق المسجد الشريف النبوى بنحو عامين وكان امير الحاج خوشقدم خرج بالمحمل الشريف وبركب الحاج المصرى فخرج السلطان قايتباى بقصد الحج والزيارة بعد خروج ركب الحاج بثلاثة ايام ووصلت القصاد الى شريف مكة يومئذ سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى جمال الدين السيد محمد بن بركات بن حسن بن عجلان سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان وكان من اخص المخصوصين به وصاحب الحل والعقد عنده قاضى القضاة شيخ الاسلام مولانا القاضى برهان الدين ابراهيم بن ظهيرة القاضى الشافعى يومئذ بمكة طيب الله ثراه فتهيا هو والسيد الشريف محمد بن بركات لملاقاة السلطان فان القصاد أخبروا انهم فارقوه من عقبة أيلة وهى نهاية الربع الاول من طريق الحج وارسل مولانا السيد الشريف احد قواده ليسبقه الى ملاقاة السلطان بسماط حلوى فوصل الى الحوراء ولاقى السلطان ومد له السماط الحلوى هناك فجلس عليه السلطان بنفسه وأظهر غاية اللطف والمجابرة واكل وقسم على امرائه وعسكره وكان سماطا كبيرا جميلا *(ويحكى)* من لطافة السلطان قايتباى انه لما جلس على السماط تناول شيأ من الحلوى يقال له كل واشكر واكل منه وسأل من الذى جاء بالسماط ايش اسم هذا عندكم فقال له القائد هذا اسمه كل واشكر فقال له سلم على سيدك وقل له أكلنا وشكرنا * ثم لما وصل السلطان الى الينبع عدل منه الى المدينة لزيارة النبى صلى الله عليه وسلم وتوجه اليها وكان قد خرج الى ملاقاته سيدنا ومولانا السيد الشريف

محمد بن بركات وولده السيد بن هزبر بن محمد ومولانا القاضي ابراهيم بن ظهيرة قاضي جدة فبلغهم في اثناء الطريق ان السلطان عدل الى زيارة النبي صلى الله عليه وسلم فتوجهوا الى منزلة بدر وأقاموا به منتظرين عود السلطان من المدينة الشريفة * قال السيد السمهودي في تاريخه الكبير حج السلطان قايتباي في سنة أربع وثمانين وثمانمائة وبدأ بالمدينة النبوية لزيارة التربة المصطفوية على الحال بها أفضل الصلاة والسلام فقدمها طلوع الفجر من يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي القعدة الحرام فلبس حولها حلل التواضع والخشوع وتحلى بما يجب لتلك الحضرة النبوية من الهيبة والخضوع فترجل عن فرسه عند باب سورها ومشى على أقدامه بين ربوعها ودورها حتى وقف بين يدي الجناب الرفيع الحبيب الشفيع صلى الله عليه وسلم وناجاه بالتسليم وفاز من ذلك بالحظ الجسيم ثم ثنى بضجيعيه رضي الله عنهما بعد ان صلى بالروضة الشريفة التحيه وعفر جبهته في ساحتها السنيه وعرض عليه الدخول الى الحجرة الشريفة فتعاظم ذلك وقال لو أمكنني ان أقف أبعد من هذا الموقف وقفت فالجناب عظيم ومن ذا الذي يقوم بما يجب له من التعظيم * ثم صلى الجمعة في الروضة الشريفة في الصف الاول بين فقراء الزوار والى جانبه امامه الشيخ الامام العالم العلامة برهان الدين بن الكركي * ثم توجه لزيارة السيد حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم ومن حوله من الصحابة الذين استشهدوا يوم أحد رضوان الله عليهم أجمعين فمشى مترجلا حتى خرج من باب المدينة ولم يزل ذلك دأبه ولم يركب بالمدينة تأدبا مع النبي صلى الله عليه وسلم وعاد من الزيارة وحضر الصلاة الجمعة قال السيد السمهودي رحمه الله تعالى فبدأني السلطان بالملاطفة وسألني عن بعض المباحث فرأيت من تواضعه وحلمه وثقوب فهمه ما يفوق وصف الواصف فأنشدته بيتي التلخيص

كانت مسائلة الركبان تخبرني * عن أحمد بن سعيد طيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت * أذني بأطيب مما قد رأى بصري

فطرب لهما جدا واجتمعت به قرب المغرب في الروضة ففاتحني بالكلام ورأى في المحراب النبوي مكتوبا قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام فسألني عن هذه الآية هل نزلت قبل المعراج أم بعد وكيف كان الاستقبال قبل نزولها فشرعت له في الجواب فأقيمت الصلاة في أثناء ذلك فصلينا فلما فرغ من الصلاة صلى ست ركعات بسكون وتأدب فلما انقضت الصلاة أقبل على طالبا الجواب فذكرت له ان نزولها بالمدينة وان فرض الصلاة كان بمكة ليلة المعراج وذكرت ما حكي في تعدد نسخ القبلة وصلاته صلى الله عليه وسلم بين الركنين اليمانيين جاعلا الكعبة بينه وبين بيت المقدس الى غير ذلك من الفوائد وهو مصغ اليها متلذذ بسماعها واستمر بنا على ذلك حتى أقيمت صلاة العشاء فصلينا ثم عرضت عليه مرقم بعض البدع من المدينة فأمر برفعها وطلبت منه رفع المكوس من المدينة فأمر بازالتها وجعل لأمير المدينة في مقابلة ذلك ألف أردب قررها له في كل عام وفرق بالمدينة على فقرائها وفقهائها وعلمائها نحو ستة آلاف ذهب وحصل لي منه خيرا كثيرا واحسان جزيل ثم برز في اليوم الثالث من المدينة الشريفة قاصدا حج بيت الله الحرام انتهى كلام السمهودي ملخصا قال العز بن فهد فلما وصل الخبر الى بدر بعود السلطان وبروزه من المدينة الشريفة الى السيد الشريف محمد بن بركات ومن معه ركبوا من بدر لملاقاة السلطان فاجتمعوا به في منزلة الصفراء وتلاقيا على ظهر الخيل وتصافحا ومشى السيد الشريف عن يمين السلطان والقاضي برهان الدين بن ظهيرة عن يساره

وباقى من معهما ممالوليهل السلطان على بعد ومشوا أمامه وصار السلطان يلاطفهم ويسأل عن أحوالهم ويشكر مساعيهم ويطمن خواطرهم ويجابرهم بالمكالمة وينصت لهم اذا تكلموا واستمروا كذلك الى أن وصل السلطان الى اوطاقه فرجعوا عنه الى مخيمهم ثم صلوا يسايرونه فى الطريق ويظهر كمال النشاط ويبدى لهم وافر الانبساط وألبسهم السلطان خلعا فاخرة مرارا عديدة وفارقوه من بدر وتقدموا على السلطان الى وادى مر الظهران ورتبوا هناك سماطا حافلا جميلا للسلطان ولمن معه فلما كان صبح يوم الأحد مستهل ذى الحجة وصل السلطان مخيمه بالوادى ووجد السماط ممدودا فجلس السلطان ومن معه على السماط وأكل منه وأطعم وفرق على من معه من عسكره الخاص به وخلع على الخدام والأنفار الذين مدوا السماط خلعا فاخرة متعددة جميلة ووصل بقية القضاة والخطباء والأعيان من مكة للسلام على السلطان فسلموا عليه وانصرفوا امامه وركب السلطان ومعه شيخ الاسلام القاضى ابراهيم بن ظهيرة وولده القاضى أبو السعود وأخوه القاضى أبو البركات وامام السلطان الشيخ برهان الدين الكركى الحنفى واستمروا الى ان دخلوا الى مكة من أعلاها وكان القاضى ابراهيم هو الذى تقدم لتطويف السلطان وصار يلقنه الأدعية والتلبية الى ان دخل السلطان من باب السلام البرانى فطلع بفرسه منه فجفل به جواده فسقطت عمامته واستمر مكشوف الرأس الى أن تقدم المهتار رمضان وتناول العمامة من الارض ومسحها وناولها السلطان فلبسها وكان ذلك تأديبا له من الله تعالى حيث كان يتعين عليه أن يترجل ويدخل محرما مكشوف الرأس تواضعا لله تعالى * ثم لما وصل الى عتبته الداخلة من باب السلام ترجل ونزل وقرأ بين يديه الرئيس بصوت جهورى قوله تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا ثم انه رفع يده للدعاء للسلطان وأمن من حوله من أهل الاصوات ودخل من باب السلام ومولانا القاضى ابراهيم يلقنه الدعاء الى أن دخل الطواف وقبل الحجر الأسود وهو الذى يطوفه ويلقنه الادعية والرئيس ينادى بالدعاء له من أعلا قبة زمزم والناس محيطون بالمطاف الشريف يشاهدونه ويدعون له الى ان تم طوافه وصلى خلف مقام ابراهيم ثم خرج من باب الصفا الى الصفا وسعى راكبا ومعه القاضى ابراهيم يلقنه الدعاء فلما فرغ من سعيه فعاد الى الزاهر وبات فى مخيمه وركب فى الصبح فى موكبه ولاقاه مولانا السيد الشريف محمد بن بركات وأولاده وقاضى القضاة البرهانى ابراهيم بن ظهيرة وابنه الجمالى أبو السعود وأخوه القاضى فخر الدين وابن عمه والخطباء وأعيان الناس وأكابر التجار فخلع السلطان قايتباى على الجميع ومشوا قدامه فى موكب عظيم وأبهة عظيمة ولم يتخلف أحد بمكة من النساء والرجال حتى المخدرات ودخل بمكة بهذا العنوان الى أن وصل الى مدرسة فترجل الناس له وسلم عليهم ودخل الى مدرسته ومد له بها السيد الشريف محمد بن بركات سماطا جليلا واستمر على ذلك يمد له صباحا وليلا الاسمطة الجميلة ومد له فى ثانى يوم قاضى القضاة البرهانى سماطا جميلا واستمر السلطان بمدرسته ما ظهر لاحد غير انه يتصدق بالمال كثيرا وركب مرة لدرب اليمن يشاهد ما قدم له مولانا السيد الشريف من الابل والخيل وتشكر من فضل السيد الشريف واستمر بمدرسته الى أن طلع الى عرفات ومعه امامه راكب الى جانبه وهو شيخ الشيوخ البرهانى ابراهيم بن الكركى والامير شيبك الجمالى وأولاد القاضى يحيى بن الجيعان كاتم السر وخصيصه القاضى ابو البقا بن الجيعان

ورمضان المختار ووقف بجبل الرحمة متضرعا الى الله تعالى سائلا من رحمته القبول وكانت الوقفة يوم الاثنين فأفاض مع الناس وأتم حجه وفرق الاضاحى غنما كثيرة وأهدى شيأ كثيرا وكان المناسب ان ينحر شيأ من البدن فما أشار عليه أحد بذلك وعاد بعد أيام التشريق الى مكة وتوجه الركب المصرى وتأخر هو بمكة أياما وقرر وظائف بمدرسته لأهلها من المدرسين والطلبة وقراء صحيح البخارى وقراء الربعة وخادمها وخادم المصحف والفراشين والبوابين والوقادين والجبادين والسقايين والسبيل والايتام والعريف والفقيه والمؤذنين وناظر المدرسة والوقف والجابى والصيرفى وأصحاب الحلاوى ونحو ذلك وجعل لكل واحد كفايته من القمح والدراهم والزيت وكتب بذلك وقفية أشهد على نفسه بذلك فيها وعمل من الخيرات مالم يسبق اليه وحضر بنفسه يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجة بطرف الايوان وقدامه المصحف على كرسى وفرق على الحاضرين اجزاء الربعة الشريفة وتناول السلطان جزأ منها كأحد القراء وقرؤا الى ان ختم القاضى ابراهيم ولم يؤخذ من السلطان الجزء حتى وضعه بنفسه وجمعت الاجزاء فى صندوق الربعة ودعا الداعى للسلطان ومد للحاضرين سماط حلوى بدور المدرسة ونزل السلطان وجلس الى جنب القاضى ابراهيم وأكلوا ثم سقاهم سكرا وسوبية وفرق عليهم فتوحا وانصرفوا * وكان بنى السلطان سبيله على عين الداخل الى خان الجزازين بالمسعى يقال له العلقمية وكان أمامه الى جهة القبلة بالمسعى سبيل قديم للقاضى شهاب الدين الطبرى على عين الذاهب الى المروة فأشار الخواجا شمس الدين بن الزمن والمهندس أن يهدم هذا السبيل حتى تظهر عمارة السلطان وسبيله فهدم وصار المسعى مكشوفا وعمارة الخان والسبيل ظاهرا وسافر السلطان فى ظهر يوم السبت لأربع عشرة ليلة خلت من ذى الحجة بعد ان طاف للوداع والرئيس يدعو له على قبة زمزم ومشى القهقرى الى أن خرج من باب الحزورة وركب معه السيد الشريف محمد بن بركات وأولاده وقاضى القضاة ابراهيم بن ظهيرة الى الزاهر ثم ردهم وودعهم وسار الى مصر وعاد الى مملكته ولم يختل عليه شىء من أمر المملكة مع غيبته عن تخت مصر مدة سفره الى الحج وعوده اليها وهى نحو ثلاثة أشهر وذلك لاتقانه أمر الملك وتدبره فيه وضبطه رحمه الله تعالى * وكان واسطة عقد ملوك الجراكسة وأقربهم الى قلوب الرعية فى اللطف والمؤانسة وأجلهم جمالا واجلالا وأحسنهم احسانا وأفضلهم افضالا وأكملهم عقلا ونبلا واعتدالا وأكثرهم فى جهات الخير آثارا وأوفرهم عمائر وأوقافا وادوارا وأطولهم طولا وزمانا وأكملهم ملكا وقوة وامكانا وكانت أيامه كالطراز المذهب ودولته تنجلى كالعروس فى حلل الجوهر والذهب وعاشت الرعية فى أيامه عيشا رغدا وظهرت العلماء فى أيامه وغوا فصار وانجوم الهدى الى أن انتبه له الزمان الجائر واستيقظت له صروف الليالى والجدود العواثر ودارت عليه كما دارت على من قبله الدوائر وهذا شأن الدنيا الدنية فى أبنائها الاصاغر والاكابر ودأبها فى السلاطين والملوك الغوابر والبقاء والدوام لله عز وجل القدير القاهر فقدم على غاية ما يريد أجله وما أغنى عنه ما جمعه من خيله وخوله فأقدم على ما قدم من صالح عمله وترك ما خوله من متاع الدنيا وراء ظهره وأدرج فى أكفان أعماله بعد ما غسل بدموع فقره وأنزل من سرير الملك الى التابوت الى قبره وقدم على رب كريم ووقف بين يدى ملك الملوك الحكيم الحليم

اذا أمسى فراشى من تراب * وصرت مجاور الرمس الرميم
فهنوفى أصحابى وقولوا * لك البشرى قدمت على كريم

فكان انتقاله رحمه الله تعالى فى أواخر يوم الأحد لثلاث بقين من ذى القعدة الحرام سنة احدى
وتسعمائة وصلى عليه يوم الاثنين ودفن بتربته بالصحراء التى بناها فى حياته فى غاية الحسن والزينة وبها
مساكن للقراء وأوقاف دارة عليهم الى الآن ليس بمصر أحسن تربة منها وصلى عليه بعد ذلك صلاة الغائب
بالمساجد الثلاثة وكان له مشهد عظيم لم يعهد الملك قبله وكانت مدة سلطنته ثلاثين سنة الا ثمانية أشهر
ولم يملك أحد من ملوك الجراكسة قدر مدة ملكه رحمه الله تعالى ❊ وولى بعده الملك ولده الملك الناصر
أبو السعادات محمد ❊ وكان شابا يغلب عليه الجنون والسفه وما كان له التفات الى الملك والى السلطنة
بل غلب عليه اللهو واللعب والحركات المستبشعة ❊ يحكى عنه أمور قبيحة ❊ منها انه كان اذا سمع بامرأة
حسناء هجم عليها وقطع دائر فرجها ونظمه فى خيط أعده لنظم فروج النساء ❊ ومنها ان والدته كانت
من أعقل النساء وأجلهن هيأت له جارية جميلة جدا وجهزتها به فى بيت مزين أعدته لها فلما دخل بها
وغلق الباب على نفسه وعليها ربطها وشرع يسلخ جلدها عنها كالجلادين وهى حية فلما سمعوا صوتها
وبكاءها أرادوا الهجوم عليه فما أمكنهم لانه قفل الباب من داخل فاستمر كذلك الى أن سلخها وحشى
جلدها بالثياب وخرج يظهر لهم استاذيته فى السلخ وان الجلادين يعجزون عن كماله فى صنعته ❊ ومنها انه
مر وهو فى موكبه بدكان حلوانى يبيع الحلاوة وبسطته قدامه فأقامه من دكانه وجلس مكانه يبيع
الحلاوة ودار حوله أمراؤه يشترون منه وأخذ بيده الميزان وصار يزن لهم الحلاوة الى أن حجبت وكان له
حركات من هذه الخرافات منها ما يضحك ومنها ما يبكى الى أن سقط من أعين العسكر وسطوا عليه كما
سطا بالحسام الأبتر وسلخوه كما سلخ تلك الضعيفة بالخنجر ومزقوه كل ممزق ولعذاب الآخرة أكبر فمن
غروره انه خرج مستخفيا منفردا عن عبيده وخدمه متباعدا عن خوله وحشمه فتوجه يمشى وحده الى
بر الجيزة فأمكن له عشرة أنفس من مماليك أبيه فى خيمة على ممره فلما وصل اليهم وكان وحده منفردا خرجوا
عليه من الخيمة ومسكوا بلجام فرسه وضربوه بالسيوف الى أن قطعوه وجاؤا به مقتولا الى القاهرة ودفنوه
فى تربة أبيه فى سنة أربع وتسعمائة ❊ ثم ولوا بعده خاله الظاهر قانصوه ❊ وهو خال الناصر محمد بن
قايتباى كان ساذجا أميا لا يعرف الا بلسان الجركس قريب العهد ببلده لان السلطان قايتباى جلبه
من بلاده وهو كبير وخطه الشيب وصار يرقيه بواسطة زوجته خوندادم الناصر فبذلت له الأموال
والخزائن وأرادت اقامته مقام ولدها الناصر وأرادت تقويته واقامته واصلاحه ولن يصلح العطار
ما أفسد الدهر فما استكمله الجند للايالة وما أهلوه للسلطنة وكيف له بها وأنى له فخلعوه بعد أن سلموه
سنة وسبعة أشهر وأخرجوه من الملك فى أواخر سنة خمس وتسعمائة ❊ وولى بعده أمير كبير يسمى
جان بلاط وتلقب الملك الأشرف جان بلاط ❊ فى أوائل سنة ست وتسعمائة وما تهنى بالسلطنة ولا وافقه
أحد عليها وخلع بعد ستة أشهر ❊ وولى مكانه الملك العادل طومان باى ❊ وما استكمل يوما واحدا
بل هجم عليه العسكر وقتلوه فما أقدم أحد على السلطنة وكانت الامراء متوفرة وكلهم يشير بعضهم الى
بعض فى الجلوس على تخت الملك فاتفقوا على أن يولوا قانصوه الغورى لانهم رأوه لين العريكة سهل
الازالة أى وقت أرادوا ازالته أزالوه لانه كان أقلهم مالا وأضعفهم جاها وأوهنهم قوة فأشاروا عليه أن
يتقدم فأبى فألزموه بذلك فقال أقبل ذلك منكم بشرط أن لا تقتلونى ولذا أردتم خلعى من السلطنة
أخبرونى عما تريدون وأنا أوافقكم على ذلك وأترك لكم الملك وأمضى حيث أريد فعاهدوه على ذلك
فقبل منهم وولوه السلطنة ولقبوه ❊ السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى ❊ فى سنة

ست وتسعمائة وفرح العسكر بولايته لانهم سئموا تعدد السلاطين وسرعة تقضى ملكهم بل فرح العامة وأمنوا على أنفسهم وأموالهم فى الجملة وكان قانصوه الغورى كثير الدهاء ذا رأى وفطنة وتيقظ الا أنه كان شديد الطمع كثير الظلم والعسف بخيلا محبا للعمارة ﴿ومن جملة عماراته الجامع والتربة﴾ بين القصرين بمصر وكان فى نيته أن يدفن بها ووقف عليها أوقافا كثيرة وما قدر له دفنه فيها بل ذهب تحت سنابك الخيل وما عرف وما تدرى نفس بأى أرض تموت * وله آثار جميلة فى طريق الحج فى عقبة أيلة وما تر بمكة المشرفة وغيرها وكان يحفظ حرمته على الأمراء بالدربة والتنزل من غير تشديد عليهم ولا اظهار عظمة أو نخوة وذلك فى ابتداء أمره الى أن تمكن من قوته وبأسه * حكى شيخنا شهاب الدين أحمد بن موسى بن عبد الغفار المغربى الاصل ثم المصرى نزيل الحرمين الشريفين وهو ممن أخذنا عنه رحمه الله تعالى عن والده وكان من المباشرين أرباب الأقلام من ديوان السلطان قانصوه الغورى رحمهما الله تعالى قال اشتم الغورى مبادى فتنة أراد الأمراء احداثها وأرادوا أن يجعلوها مقدمة لخلعه من السلطنة فلما استشعر الغورى ذلك منهم عمل ديوانا جمع فيه الامراء والمقدمين وأمرهم بالجلوس وجلس بينهم كأحدهم وكانت عادة الامراء والمقدمين الوقوف بين يدى السلطان ولا يجلسون معه الا على السماط فى الاكل فقط فلما أجلسهم وجلس بينهم استنكروا ذلك منه وصاروا يتفقدون عن سبب ذلك وكل مصغ الى ما يقول متوجه للسلطان غاية التوجه فقال يا أغوات جمعتكم لأسألكم سؤالا خطر لى وأطلب جوابه على الوجه الذى ترونه صوابا فقالوا نعم فقال أسألكم عن جماعة جاؤا الى رجل وناولوه صرة من الدراهم مربوطة مختومة وأودعوها عنده فقال انما استودع منكم هذه الوديعة بشرط ان تأتونى وتطلبوا وديعتكم منى بلا نزاع ولا خصومة فأرد وديعتكم اليكم فقالوا له نعم قبلنا منك هذا الشرط وأودعوه ومضوا ثم عادوا اليه بعد مدة وقالوا انطلب الوديعة بنزاع شديد ومخاصمة ومضاربة فقال لهم هذه وديعتكم حاضرة خذوها بلا نزاع وضراب معى كما اشترطت عليكم فقالوا لا بد لنا من الخصام والنزاع فأيهم على الباطل وأيهم على الحق ففهموا مراده واستعفوا منه فقال لهم أنا ما جلست معكم الا لتعلموا انى كأحدكم لا أمتاز عنكم بشئ وهذه السلطنة أسلمها اليكم أرادوا ولا أنازعكم فيها ولا أخاصمكم عليها وانما أنا واحد من الجند فقبل كل واحد منهم يده وأذعنوا له بالسلطنة وسألوه فى استمراره سلطانا عليهم وسكنت الفتنة بهذا التدبير وغفلوا عنه مدة واشتغلوا عنه بضرورات أخرى وطال معه الحيل الى ان صار يأخذهم واحدا بعد واحد ويتغافل ثم يعمل حيلة أخرى وعملة أخرى لاحدهم فيأخذهم بها او يوقع بين الاثنين ويأخذ هذا بذاك ويأخذ ذاك بهذا او يدس لهم الدسائس من السم فى الطعام ونحوه حتى أفنى قوانصهم ودهاتهم وأعدهم عددا وعددا فصاروا يظلمون الناس ظلما ويعاملون الخلق عسفا وغشما وصار يغضى عنهم ويتغاضى لهم فأظهروا الفساد وأهلكوا العباد وأكثروا العناد وطغوا فى البلاد وصار هو يصادر الناس ويأخذ أموالهم بالقهر والباس وكثرت العوانية فى أيامه لكثرة ما يصغى اليهم وصاروا اذا شاهدوا أحدا توسع فى دنياه وأظهر التجمل فى ملبسه أو مثواه ومشوا به الى السلطان فيرسل اليه الاعوان ويطالبه بالقرض ويستصفى أمواله ويسلمه الى المسوياشى ليأخذ ماله ويهلك أهله وعياله ويعذبه بأنواع الامتحنة الى ان يصير فقيرا بعد غناه وعدما بعد ثروته واستغنائه وجمع من هذا الباب أموالا عظيمة وخزائن واسعة جسيمة ذهبت فى آخر الامر سدى وتفرقت بيد العدا وتمزقت بددا وهكذا كل مال يؤخذ على هذا الاسلوب ويجمع

بهذا الطريق المنكوب لا ينفع من جمعه بل يضر صاحبه ويهلك سامعه وهيهات أن ينفع مال حصل بأنين كل حزين وسلب بالقهر والعسر من كل مظلوم مسكين وكيف ينفع سالبه وما نفع صاحبه وكيف يتهنى به من اكتسبه على هذا الوجه وأبكى كاسبه

الا ان مالا كان من غير حله * سيخرب يوما أهله وأقاربه

وأما الميراث فبطل في أيامه وصار اذا مات أحد يؤخذ ماله جميعه للسلطنة ويترك أولاده فقراء الا ان اعتنى به اعتناء كبيرا جعل له نزرا يسيرا من مال أبيه وأخذ لنفسه باقيه واشتد طمعه وكثر ظلمه في آخر أيامه فاستجاب الله فيه دعاء المظلومين وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين * حكى لي والدي رحمه الله تعالى عن شخص مجاب الدعوة من أولياء الله تعالى انه رأى بمصر في أيام السلطان الغوري جنديا من الجراكسة الجلبان أخذ متاعا من دلال ولم يرضه في قيمته فتبعه الدلال يطلب حقه منه وهو يمتنع منه فقال له الدلال بيني وبينك شرع الله تعالى فضربه بالدبوس فشج رأسه وسقط الدلال مغشيا عليه ومضى الجندي بالمتاع وما قدر أحد من المسلمين على منعه عما فعل قال الرجل فصعب علي مشاهدة هذا الحال فرفعت يدي الى الله تعالى ودعوت على الجندي المزبور وعلى سلطانه وعلى الظلمة من أعوانه فصادف ساعة الاجابة وبت تلك الليلة على طهارة وأنا متفكر في أمرهم وأحدث نفسي بذلك وأقول كيف يزول ملك هذا السلطان العظيم وقد ملأت جنوده الارض وانى للمسلمين بسلطان آخر يرفق بالرعايا وتطمئن في دولته البرايا وأخذني النوم فرأيت فيما يرى النائم ملائكة نزلت من السماء وبأيديهم مكانس يكنسون الجراكسة من أرض مصر ويلقونهم في بحر النيل فاستيقظت من النوم واذا بقارئ يقرأ القرآن فأنصت له فاذا هو يقرأ قوله تعالى فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين فعلمت ان الله يأخذهم أخذا وبيلا فما مضى قليل الا وبرز الغوري بجنوده وأمواله وخزائنه من مصر لقتال المرحوم المغفور له السلطان سليم خان الى حلب فجاء الخبر بعد قليل بأنه انكسر وقتل أكثر جنوده وفقد الملك تحت سنابك الخيل في مرج دابق وهرب بقية السيوف من الجراكسة وصيروا الدويدار طومان باي سلطانا والسلطان سليم في أثرهم يفتح البلاد ويضبطها الى ان وصل الى الريدانية خارج مصر فخرج اليه طومان باي ومن معه الى قتاله فما حل هو ومن معه الاساعة وانكسروا ودخل السلطان سليم خان الى مصر وضرب وطاقه في الجزيرة الخضراء على ساحل النيل وهرب طومان باي الى البر ومسكه شيخ عرب وجاء به الى أوطاق السلطان سليم خان فأمر بصلبه في باب زويلة حتى يراه الناس ويصدقون بأنه مسك وصاروا يزعمون بأنه اختفى ليحصل له فرصة فيخرج وكثر كلام الناس وصار مظنة الفساد وكثرة القيل والقال فأمر السلطان سليم بصلبه تسكينا للفتنة وكان صلبه في باب زويلة في حادي عشر ربيع الاول سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وبصلبه انقطعت دولة الجراكسة كما انقطعت دولة غيرهم من أرباب الدول من الاتراك والاكراد والعبيديين وهكذا شأن الدنيا في أبنائها تتقلب بهم وتتحول عنهم أي تقلب وأي تحول كما قيل

ما اختلف الليل والنهار وما * دارت نجوم السماء في الفلك
الا لنقل السلطان من ملك * قد زال سلطانه الى ملك
وملك ذي العرش دائم أبدا * ليس بفان ولا بمشترك

وملوك الجراكسة اثنان وعشرون ملكا أولهم الملك الظاهر برقوق وآخرهم طومان باي ومدة ملكهم

ماثة وثمانية وأربعون ما ملوا بس لطومان باى أثر لقصرأ يام سلطنته ولا شرف قانصوه مآثر جميلة ومآثر حسنة جليلة رحمه الله تعالى وسامحه * ومما عمره السلطان قانصوه الغوري بمكة المشرفة باب ابراهيم بعقد كبير جعل علوه قصرا وفى جانبه مسكنين لطيفين وتامدة للكراء حول باب ابراهيم ووقف الجميع على جهات الخير ولا يصح وقف ذلك القصر لانه فى هواء المسجد وكذلك المسكنان لان أكثرهما واقع فى أرض المسجد وما أمكن العلماء ان ينكروا عليه ذلك فى أيام سلطنته ودولته لعدم اصغائه الى كلام أهل الشرع والدين وعدم اقدام العلماء على الملوك والسلاطين للطمع فى الدنيا الدنية وللخوف على مناصبهم الاعتبارية فلا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم * وبنى أيضا ميضأة خارج باب ابراهيم على عين الخارج من المسجد هى بطالة الآن لان روائح عفونتها قد تصل الى المسجد فيتأذى به المصلون فأبطل وغلق قريبا فى سنة ثمانين وتسعمائة بالامر الشريف السلطانى * ومن آثار الاشرف الغورى أيضا الترخيم الواقع فى حجر البيت الشريف عمل بأمره فى أيامه وا [illegible] مكتوب فيه وفرغ من عمله عام تسعة عشر وتسعمائة * ومن آثاره بناء سور جدة فانها كانت غير مسورة وكانت العربان فى أيام الفتنة تهجم على جدة وتنهبها وأسرت [illegible] الغورى وكان من أعيان التجار من أهل الاعتبار فهجموا الى بيته وأنزلوه من السطح واركبوه معهم على ظهر فرس اردفه واحد من زبيد وأخذوه الى أماكنهم وهو قرب عقبة السويق من درب المدينة الشريفة ومكث عندهم الى أن اشترى نفسه بثلاثين ألف درهم فردوه الى مكة بعد ان استوفوا هذا القدر منه ونهبت جدة مرارا فى الفتن التى وقعت بأرض الحجاز بعد وفاة المرحوم المقدس الشريف محمد بن بركات بين أولاده وجرت أحوال يطول شرحها فأرسل السلطان الغورى أحد أمرائه المقدمين وهو الأمير حسين الكردى وجهز معه عسكرا من الترك والمغاربة واللوند نحو خمسين ضرا بالدفع ضررا لفرنقال فى بحر الهند وكان مبادى ظهورهم وأمره بدفع الفتن الواقعة اذ ذاك فى جدة وجعلها له أقطاعا فلما وصل الأمير حسين الكردى الى جدة بنى عليها سورا فى سنة سبعة عشر وتسعمائة وهو الباقى الى الآن وكان ظلوما غشوما يسفك الدماء ولا يرحم من فى الارض ليرحمه من فى السماء فاذا خيم أو طاف فى سفر أو حضر رتب حوله أعوانه وجنوده ترتيبا خاصا الارهاب من حضر ونصب أعواد الصلب والشق والشنكلة وأقام جلادين للقتل والتوسيط والضرب والبهدلة فأى مسكين وقع فى يده قتله بأدنى سبب أو عذبه بالمقارع أو صلب اظهارا للناموس الفرعونى المهيب واخافة للخلق بالسياسة والترهيب كما يحكى ان الحجاج دخل بلدة فصادف انسانا عند دخوله فأمسكه وأمر بضربه فقال له بأى ذنب تضربنى بسببه فقال أريد ارهاب أهل البلاد فحملني بنفسك ساعة فضربه خمسمائة سوط ثم أطلقه * وكانت للامير حسين المذكور اسمطة ممدودة فى سائر الأيام وكان أكولا بذولا للطعام سمحا فى المواكلة والاطعام يستوفى الخروف وحده مع أرغفة عدة ونفائس له معدة وكان كردياد خيلا فى وظائف الجراكسة لا يعدونه منهم ولا يعتبرونه فيما بينهم فأراد السلطان الغورى ابعاده عنهم حماية منهم وكان معتنيا به فأعطاه بندر جدة على وجه التيمار وجهز معه عمارة ليقاتل الفرنج الذين ظهروا فى بنادر أرض الهند واستطرقوا اليها من بحر الظلمات من وراء جبل القمر التى هى منبع ماء النيل وعاثوا فى أرض الهند ووصل اذاهم وافسادهم الى بلاد العرب وبلاد اليمن وقصد السلطان الغورى دفع اذاهم عن المسلمين بارسال الأمير حسين الكردى الى جدة فلما أتى جدة سورها وبنى ابراجها واحكمها وهدم كثيرا من بيوت الناس فيما يقارب موضع السور لوضع الاساس

واستخدم عامة الناس فى حمل الحجر والطين حتى التجار المعتبرين وسائر المتسببين وضيق على البنائين بحيث يحكى ان أحدهم تأخر قليلا عن المجى، فامر ان يبنى عليه فبنى عليه واستمر قبره جوف البناء الى يوم الجزاء الى غير ذلك من الظلم الشديد والجور العتيد وبنى السور جميعه فى دون عام من شدته وغشمه واقدامه وظلمه واستمر حاكما بجدة الى ان تقوى بالمال وتأثل فتوجه الى الهند فى حدود سنة احدى وعشرين وتسعمائة ودخل واجتمع بسلطان كجرات يومئذ وهو المرحوم المغفور له السلطان خليل شاه مظفر ابن السلطان محمود شاه الكجراتى فاكرمه وعظمه وأنعم عليه بنعم طائلة عظيمة جليلة ولما سمعوا الفرنج به ارتفعوا عن بنادر كجرات الى بنادر الركن وتحصنوا بقلعة متقنة محكمة لهم هناك هى تحت ملكهم الى الآن يقال لها كوة بالكاف العجمية المضمومة والواو الشديدة المفتوحة بعدها هاء ساكنة يسر الله تعالى لسلطان الاسلام وقطع بسيفه دابر الفرنج اللئام وكافة عباد الصليب والاصنام وقد احسن من قال

أعباد المسيح يخاف صحبى * ونحن عبيد من خلق المسيحا

ولم يستقر الامير حسين فى كجرات بل عاد الى اليمن وافتتح فى طريقه على عوده مملكة عن بنى طاهر ملوك اليمن ظلما وعدوانا فى سنة اثنين وعشرين وتسعمائة بعد أمور يطول شرحها وترك بها نائبا له فى زبيد اسمه برسباى جركسى وترك السلطان عامر بن عبد الوهاب وكانوا ملوكا من أهل السنة والجماعة ظاهرين فى الاعتقاد ظاهرين على أهل البدع والالحاد رحمهم الله تعالى وانقرضت به دولة بنى طاهر من اليمن وعاد الامير حسين لمنيته وحتفه كالباحث عنها بظلفه وقدم الى مكة وكانت دولة الجراكسة قد انقرضت بمصر وملكها السلطان سليم خان بن بايزيد خان بن محمد خان رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح الجنان وسقى عهده صوب الرضا والغفران * وتوجه سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى سيد السادات الاشراف وتاج رؤس الشرفاء من بنى عبد مناف مولانا السيد الشريف جمال الدنيا والدين محمد أبو نمى بن بركات خلد الله سعادته وابد دولته وسيادته أرسله والده الشريف بركات ليدوس البساط السلطانى بمصر وعمره يومئذ اثنا عشر عاما فحصل له بذلك غاية التعظيم والاكرام وبلغ بذلك جميع ما طلبه ورام وعاد الى والده الشريف معززا مكرما ومعه احكام شريفة بكل ما طلبه واراده وارسل حكم الى السيد عزاز بن عجلان ابن السيد الشريف بركات رحمه الله بقتل الامير حسين الكردى المذكور وهو الذى استخرج هذا الحكم لعداوة سابقة بينه وبين الامير حسين المذكور فأخذ مقيدا الى جدة وربط فى رجله حجر كبير وغرق فى بحر جدة فى موضع يقال له ام السمك فأكلته الاسماك بعد ان كان يعد فى الاملاك وكان طعاما للحيتان بعد اطعامه الضيفان وغرق مقيدا فى الاصفاد بعد ان قتل ماشاء الله من العباد وتفرق فى البلاد جنوده واعوانه بددا ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا

(الباب السابع فى ظهور آل عثمان خلد الله سلطنتهم القائم الى آخر الزمان وذكر نبذة من مناقب اسلافهم السلاطين العظام وذكر ما عمروه فى بلد الله الحرام وفعلوا فيه من الخيرات الجسام وذكر بناء المسجد الحرام على الوضع الذى هو عليه الآن وفيه فصول)

(الفصل الاول) فى ذكر الفتح الخاقانى ودخول ممالك العرب والعجم فى سلك العثمانى ونبذة من

ذكر اسلافهم الكبار بطريق الاختصار خلد الله ملكهم العثماني زمان وأبقى ملك الأرض فيهم وفي عقبهم الى انتهاء الدوران * لما أراد الله تعالى باهل الأرض احسانا وافضالا وقدر ظهور العدل والفضل فيهم اكرامالهم واجلالا وقضى باطفاء نيران الظلم والفتن ورفع مواد الفساد والمحن وتأييد دين الاسلام وتقوية أهل السنة المستمسكين بسنن سنن محمد عليه افضل الصلاة والسلام واقامة الشرع الشريف على رغم الملاحدة اللئام اطلع في افق الخلافة العظمى شموس الايادى العثمانيه واسطع من أوج سماء السلطنة الكبرى بدور كمال المعدلة الخاقانية وأجلس على سرير الملك من ملكه الله اعظم ممالك الاسلام وفتح على يديه اكثر الامصار والبلاد بالسيف الصارم الصمصام والحسام الحاسم مواد ظلم الظلم من كل ظالم أوظلام ونشر به جناح الأمن والامان على اهل الايمان من الانام فأخذ أحاسن محاسن هذا الربع المسكون وكان مظهر القول من يقول للشيء كن فيكون ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادى الصالحون واستولى بتأييد الله ونصره على شام البلاد ومصره وملأ نطع الدنيا بدماء سيف قهره كما ملأها بافاضة سيف عدله وبسبب لطفه وبره وتشرفت بذكره في الحرمين الشريفين صدور المنابر ورؤس المنائر وعمر مساجدها وتلا انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر واقام الملة الحنيفية واحيي مالها من مآثر الملك المالك الهمام والليث الباسل الضرغام السلطان الاعظم والخاقان الاكرم الافخم خير خلق خلفاء الرحمان شرف سلاطين آل عثمان السلطان سليم خان ابن السلطان محمدخان ابن السلطان يلدرم بايزيدخان ابن السلطان مرادخان ابن السلطان اورخان ابن السلطان عثمان الغازى تغمدهم الله بالرحمة والرضوان وحفهم بروائح الروح والريحان وابدلهم عما انتقلوا عنه من الملك الفاني بالملك الباقي في غرف الجنان وابقى السلطنة فيهم خالدة تالدة الى يوم الحشر والميزان

هم معشر كلهم غاز وكلهم * خير الملوك صناديد الصناديد

أولئك الناس ان عدوا وان ذكروا * ومن سواهم فلغو غير معدود

لو خالد الدهر ذو عز لعزته * كانوا احق بتعمير وتخليد

وجده الاعلى السلطان عثمان الغازى رحمه الله تعالى اصله من التراكمة الرحالة النزالة من طائفة التتار والسلطان عثمان اول من ولى منهم السلطنة في بلاد الروم في سنة تسع وتسعين وستمائة وهو ابن ارطغول ابن سليمان و يتصل نسبه الى يافث بن نوح عليه السلام وهو الجد الأربعون لحضرة السلطان سليم خان ابن بايزيدخان رحمهم الله تعالى كانت أسماؤهم بلغة الترك القديم لم نذكرها لعسر ضبطها وهي مذكورة في التواريخ المذكورة وكان سليمان شاه سلطانا في الشرق في بلاد ماهان قرب بلخ وأخرج منها السلطان علاء الدين خوارزم شاه وتفرقت تلك الممالك وخرج سليمان شاه من بلاد ماهان بخمسين ألف بيت من التركمان الى أرض الروم ومر بحلب وعبر بحر الفرات فغرق بفرسه في الفرات وأخرج منه الى بحر الرحمة في أعلى الجنان ودفن امام قلعة جعبر وتفرق من معه من التركمان في أطراف تلك البلدان وذراريهم موجودون رحالون نزالون الى الآن * وكان لسليمان شاه اربعة أولاد اثنان منهما توجها الى بلاد العجم وهما سنقدر ودبندار وتوجه الى بلاد الروم اثنان وهما ارطغول ولوندوعدى وقدما على السلطان علاء الدين السلجوقي وكان سلطان بلاد قرامان وتحت ملكه قونية فاكرمهما وأذن لهما في الاقامة في أرضه واستأذناه في جهاد الكفار واجتمع عليهما طائفة من الغزاة وصار دأبهم الجهاد في سبيل

الله وكان مقرهم ما بين قره حصار وبجلك فى محل يقال له سكوتجك صير وقشلاقهم وجبل بيلا بيج
يجعلوه بيلاقهم فسكنوها مع مواصلة الغزاة والجهاد وقمع الكفرة حول تلك البلاد الى ان توفى
ارطغرل فى سنة تسع وثمانين وستمائة وخلف اولادا امجادا انجادا اشدهم باسا واقواهم جاشا
واغناهم مراسا السلطان عثمان وكان مولده فى سنة ست وخمسين وستمائة دأب فى خدمة والده فى
الجهاد وتفرس فى الغزاة فى سبيل الله منذ نشأ مع الاولاد واستمر مع والده مع الكفار فى القتال
والجهاد فرأى السلطان علاء الدين جده واجتهاده فى الجلاد وعلم قابليته ونجابته فى فتح أطراف
تلك البلاد فاكرمه وأعزه وأمده بانواع الاعانة والامداد وأرسل اليه الراية السلطانية والطبل
والزمر ووسمه باسم السلطنة تقوية ليده وشد العضد فلما وصل الطبل والزمر عملوا نوبة بين يديه
فعند أول سماعه اول صوت الطبل والزمر قام على قدميه تعظيما لذلك فصار ذلك قانونا لآل عثمان
باقيا مستمرا الى الآن فانهم يقومون على اقدامهم عند ضرب النوبة على ابوابهم وكان جلوس
السلطان عثمان على تخت السلطنة فى سنة تسع وتسعين وستمائة وافتتح فيها قرا حصار من الكفار
وأمر بصلاة الجمعة وخطب باسمه فقيه كان من اهل العلم اسمه طورسن فقيه * ثم افتتح قلعة حصار * ثم
كو يرى حصار * ثم قلعة بلجك * ثم قلعة اين اوكى * ثم قلعة يوند حصار * ثم قلعة اينه كول * ثم قلعة
يكى شهر * ثم زوج ولده أورخان على نيلوفر خاتون بنت تكور صاحب يار حصار فعمل أبوها سماطا
عظيما فلما حضرت الغزاة انتهزوا فرصة وقتلوا تكوروا فتحوا قلعة يار حصار فدخلها السلطان عثمان
وصارت من جملة مملكته واستمر فى الغزو والجهاد وافتتاح البلاد وقتل الكفار واهل العناد الى ان
دعاه الله الى جنته وأبدله سلطنة خيرا من سلطنته فاجاب داعى الحق لما دعاه وبادر الى اجابته ولبى
نداه فعاش سعيدا ومات شهيدا الى رحمة الله تعالى عن ست وستين عاما فى سنة خمس وعشرين
وسبعمائة وكانت مدة سلطنته سبعا وعشرين سنة وكان للسيف والضيف كثير الاطعام فاتك
الحسام كثير البذل واسع العطاء شجاعا مقداما على الاعداء ما خلف نقدا ولا متاعا الا درعا وسيفا
يجاهد بهما الكفار وبعض خيل وقطيعا من الغنم اتخذها للضيفان وانسالها الى الآن ترعى حول
بلاد بورسا أبقوها يمنا وتبركا (* ثم ولى بعده السلطان أورخان الغازى *) مولده سنة ثمان وسبعين
وستمائة وجلوسه على تخت السلطنة بعد والده المرحوم فى سنة ست وعشرين وستمائة ومدة سلطنته خمس
وثلاثون سنة وعمر ثلاثا وثمانين سنة وهو الذى افتتح بلاد بورسا وجعلها مقر سلطنته وفتح قلاعا كثيرة
وله حروب مع الكفار يسمى نيلوفر صولى * وكان السلطان أورخان فاق والده فى الجهاد وفتح البلاد
ففتح بورسا فى أيام والده * ثم قبون حصار وقلعة ازنيق فى سنة احدى وثلاثين وستمائة ثم قلعة كونيك
وقلعة بالى كسرى ولاية قره وقلعة كوجاسى وقلعة الوباد فى سنة خمس وثلاثين وستمائة وقلعة قرجه
طوزله فى سنة ست وثلاثين وستمائة وفتح عدة قلاع وحصون واتسعت مملكته ونفذت كلمته * واجتمعت
ملوك النصارى وجميع الكفرة على قتال العساكر الاسلامية ودفع ضرر المسلمين عن بلادهم فاتفق
قرال انكروس يعنى سلطانها وسلطان لانو والسرن واجمعوا ان يتعدوا من بلاد روملى الى بلاد اناطولى
ويقاتلوا السلطان أورخان فى محله وكان له ولد نجيب اسمه سليمان بك استأذن من والده ان يعدى الى
روملى ويقاتل الكفار الذين اجتمعوا لقتاله قبل ان يصلوا الى اناطولى فأجازه والده لما رآى نجابته
وشجاعته فتوجه مع خدامه فسمع به الغزاة فتبعه من الشجعان فوارس مجبورون وابطال مشهورون

فعدوا الى روملى فصادفوا الكفار فى غفلة وهم يريدون العبور الى جهة أناطولى فوقع بينهم حرب عظيم قتل فيه من الكفار ما لا يعد ولا يحصى وانهزم الباقون الى القلاع والحصون وتبعهم المسلمون يأسرون منهم ويقتلون ونصر الله الاسلام وخذل النصارى اللئام وافتتح المسلمون عدة قلاع وحصون وآل الكفار الى الدمار والبوار ثم الى عذاب النار ورجع سليمان بك الى والده مظفرا منصورا مؤيدا مسرورا وكان السلطان أورخان كوالده كثير الجهاد ظاهر الاعتقاد سليم الفؤاد عدوا لاهل الكفر والالحاد عاش سعيدا ومات حميدا فى سنة احدى وستين وسبعمائة ﴿ثم ولى بعده ولده السلطان مراد الغازى﴾ مولده سنة سبعة وعشرين وسبعمائة وجلوسه على التخت فى بروسا سنة احدى وستين وسبعمائة ومدة سلطنته أحدى وثلاثون سنة وعمر خمسا وستين سنة وولى السلطنة وعمره أربع وثلاثون سنة وافتتح كثيرا من البلاد منها ادرنه فى سنة احدى وستين وسبعمائة وهو أول من اتخذ المماليك وسماهم ينكجرية يعنى العسكر الجديد وألبسهم اللباد المثنى الى خلف وسماهم بركا بضم الموحدة وسكون الراء آخره كاف وكانت له صولة عظيمة على الكفار واجتمعت النصارى على سلطانهم اسبوت فقاتلهم السلطان مراد قتالا عظيما فقتل سلطان الكفرة وانهزم الكفار فأظهر واحد من ملوكهم الاطاعة اليه بلواش وتقدم ليقبل يد السلطان مراد خان فلما قرب منه اخرج خنجرا كان أعده فى كمه فضرب به السلطان مرادا فاستشهد الى رحمة الله تعالى فى سنة اثنين وتسعين وسبعمائة فصار القانون ان لا يدخل على السلطان ايلچى أو غيره بسلاح وان يفتش ثيابه وان يدخل على السلطان بين رجلين يكتنفانه ﴿وولى السلطنة بعده ولده يلدرم بايزيد خان﴾ مولده سنة ثمان وخمسين وسبعمائة وولى السلطنة وعمره اثنان وأربعون عاما ومدة سلطنته ستة عشر عاما ولما تولى استولى على كثير من قلاع النصارى وبلادهم وأراضيهم وصارت النصارى تنتمى الى بعض ملوك الطوائف فى بلاد الروم فلزم ان يستولى السلطان يلدرم بايزيد خان على ملوك الطوائف فضيق على جماعة منهم مثل ابن كريان أخذه وحبسه مع بعض وزرائه فهرب مع وزيره من الحبس ومضى الى تيمورلنك وهرب أيضا ابن منتشا منه وحلق لحيته وحواجبه وصار فى صورة قلندرى وذهب الى تيمور وكذلك ابن ايدين هرب فى صورة سقطى بياع الخرزات وكذلك ابن اسفنديار وغيرهم من آمراء تلك الديار وملوكها وصلوا الى تمرلنك وشكوا من السلطان بايزيد خان وحسنوا له أن يصل الى بلاد الروم فوصل الى البلاد الشامية والحلبية وقتل فيها وفتك وسفك الدماء وعاث فيها وأخذ تلك البلاد وأمراء اهلها ونهب المسلمين وشرح ما فعله فى بلاد الاسلام يطول جدا وذلك مذكور فى تاريخ الاسلام للذهبى وغيره واستمر تيمور يفسد فى الارض ويقتل ويسفك الدماء الى ان وصل الى أذربيجان وخرج السلطان بايزيد لقتاله وجمع عسكر الروم ولما التقى الفئتان هرب من عساكره طائفة التتار وعسكر منتشا وعسكر كرمان وتركوا السلطان بايزيد خان وذهبوا الى تيمور ووقع الحرب الشديد وقتل من أولاد السلطان بايزيد السلطان مصطفى فشرع عسكره فى الانهزام وثبت هو وقليل من معه واستمر يقاتل الى ان وصل الى تيمور يقاتل بنفسه الى ان وصل الى تيمور وقد عجزوا عنه فرموا عليه بساطا وأمسكوه وحبسوه فحصل له حمى غضبية فتوفى الى رحمة الله تعالى فى سنة خمس وثمانمائة * وتسلطن بعده أولاده وهم عيسى وموسى وسليمان وقاسم وصار بينهم النزاع والقتال نحو اثنتى عشرة سنة الى ان استقل بالسلطنة * (السلطان محمد خان ابن السلطان يلدرم بايزيد خان) * وفى سنة ستة عشر وثمانمائة ومولده فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة واستقل بالسلطنة وعمره تسع

وثلاثون سنة ومدة سلطنته تسع سنين وعاش ثمانية وخمسين عاما وكان شجاعا مقداما مجاهدا فى سبيل الله افتتح عدة قلاع وبلاد وبذل نفسه فى الغزو والجهاد ومهدها أعظم مهاد ومما افتتحه قلعة قسطمونية وقلعة أسكب وقلعة صامسون وقلعة آق شهر وغيرها وظهر فى أيامه بدر الدين بن سماونه وادعى السلطنة وجمع جمعا من مريديه فارسل السلطان محمد خان عسكرا لقتاله فقتل من مريديه نحو ثلاثة آلاف نفر ومسك بدر الدين بن سماونه وكان يرمى بسوء الاعتقاد وله رسائل فى شئ من ذلك وقد جمع بين الاصول الاستروشنية والفصول العمادية جمعا ضيق فيه العبارة وأخفى الاشارة وهو متداول بين العلماء لا يؤخذ الا باصله واما هو فلا يوثق بنقله لما يحكى عنه من المحلال العقيدة ان صح ذلك عنه وله فى الفقه متن سماه لطائف الاشارات وشرحه سماه التسهيل وله فى التصوف رسالة الواردات ورسالة مسرة القلوب ولما مسك قتل بافتاء مولانا حيدر العجمى فى سنة ثمان عشرة وثمانمائة وصلب وسكنت الفتنة * ثم خرج عليه محمد بن قرمان وأحرق بورسا فجاء السلطان محمد خان من بلاد روملى ووصل قونية ووقع بينه وبين محمد بك بن قرمان حرب عظيم مشهور انهزم فيه عسكر ابن قرمان ومسك محمد بن قرمان وولده مصطفى وأتى بهما أسيرين الى السلطان محمد خان فعاتبهما وعفا عنهما وتصدق عليهما بملكهما وللسلطان محمد مدارس وعمائر وأفعال خير وهو أول من عمل الصرلا هل الحرمين الشريفين من آل عثمان رحمهم الله تعالى فلما تم أجله فى أم الكتاب أراد الله نقله الى جنة المآب ودعاه من ملك الفناء الى البقاء المستطاب فعاش سعيدا ومضى حميدا وتحول من دار الفناء الى دار البقاء وان الى ربك الرجعى وكانت وفاته بعرض الاسهال فتكون له مرتبة الشهادة أيضا وذلك فى سنة خمس وعشرين وثمانمائة رحمه الله تعالى *(وولى بعده السلطان مرادخان بن محمد خان بن يلدرم بايزيد خان)* مولده فى سنة ست وثمانمائة وجلس على تخت السلطنة وعمره ثمانية عشر عاما ومدة سلطنته احدى وثلاثون سنة وعمره تسع وخمسون سنة وكان ملكا مطاعا مقداما فاتكا شجاعا بذولا واسع العطاء عين للحرمين الشريفين من خاصة صدقاته فى كل عام ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهب للشرفاء السادات من خزينته فى كل عام مثل فتح الفتوحات ولين الجوحات ومهد الممالك وأمن المسالك وأقام الشرع والدين وأذل الكفار والملحدين وأعز الاسلام والمسلمين * ومن جملة ما افتتحه بلاد سمندره وقلعة موره وقلعة قرال أنكروس وكسرهم وأمر منهم خلقا كثيرا واستمر يجاهد الكفار ويفتح الديار الى ان انتشا له ولده السلطان محمد فرأى نجابته ولمح فى غرته سعادته وعرف اقباله وشهامته وأجلسه على سرير السلطنة واختار لنفسه التقاعد والفراغ فى مغنيسا بحسن رضاه *(فتولى السلطان محمد بن مرادخان فى سنة ست وخمسين وثمانمائة)* مولده فى سنة ست وثلاثين وثمانمائة وجلس على التخت وقد استكمل عشرين سنة وكانت مدة سلطنته احدى وثلاثين سنة وكان من اعاظم سلاطين آل عثمان وهو الملك ؟ الضليل الفاضل النبيل العظيم الجليل أعظم الملوك جهادا واقواهم اقداما واجتهادا واثبتهم جاشا واقواهم فؤادا واكثرهم توكلا على الله واعتمادا وهو الذى اسس ملك بنى عثمان وقنن لهم قوانين صارت كالاطواق فى أجياد الزمان وله مناقب جميلة ومزايا فاضلة جليلة وآثار لا تمحوها تعاقب السنين والاعوام وغزوات كسر بها أصلاب الصلبان والاصنام ‌(ومن أعظمها أنه) افتتح القسطنطينية الكبرى وساق لها السفن تجرى رخاء برا وبحرا وهجم عليها بجنوده وأبطاله وأقدم عليها بخيوله ورجاله وحاصرها خمسين يوما أشد الحصار وضيق على من

فيها

(قوله الملك الضليل) لا يصح هذا الا ان يسمى به هذا الملك الجليل اذا اقام مقام مدح والملك الضليل القب امرئ القيس بن حجر القيموده لانه اضل ملكا آباؤه وقصته مشهورة اه

فيهامن الكفار والفجار وسل على من فيهاسيف الله المسلول . وتدرع بدرع الله الحصين المسبول ودق باب النصر والتأييد ولج ومن قرع باباولج ولج وثبت على متن الصبر الى ان آتاه الله بالفرج ونزلت عليه ملائكة الله القريب الرقيب بالنصر العزيز من الله تعالى والفتح القريب ففتح اصطنبول في اليوم الحادى والخمسين من أيام محاصرته وهو يوم الاربعاء العشرين من جمادى الآخرة سنة سبع وخمسين وثمانمائة وصلى في أكبر كنائس النصارى صلاة الجمعة وهى أياصوفية وهى قبة تسامى قبة السماء وتحاكى فى الاستحكام قباب الاهرام وماوهت ولاوهنت كبرا ولاهرما كأن ابراجها ابراج الافلاك ومسامير أبوابها نجوم السماك فرق منها جلابيب الصلبان والاصنام وخلع عليها خلع المساجد الاسلام وأبدلها الله تعالى عن الظلمات نورا وكساها بنور الاسلام شرفا وعزا وحبورا لازالت محلا للصلاة والعبادة والاعتكاف مقر الاستقرار قلوب العلماء والاصفياء والزهاد فيها والعراف مستقر السلاطين آل عثمان أهل المعدلة والانصاف أبد الآبدين ودهر الداهرين الى أن يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين * وقد أسس المرحوم المقدس فى اصطنبول للعلم أساسا راسخا لايخشى على شمسه الافول وبنى بها مدارس كالجنان لها ثمانية أبواب سهلة الدخول وفنن بها قوانين تطابق المعقول والمنقول وترغب فى طلب العلم الشريف وتكسو الطالبين حلل القبول بعد الخمول فجزاه الله خيرا عن الطلاب ومنحه بها أجرا وأكثر ثواب فانه جعل لهم فى أيام الطلب مايسد به فاقتهم وجعل لهم بعد ذلك مراتب يترقون اليها ويصعدون بالتمكن والاعتياد عليها الى أن يصلوا الى سعادة الدنيا ويتوصلون بها أيضا الى سعادة العقبى وانه رحمه الله استجلب العلماء الكبار من أقاصى الديار وأنعم عليهم وعطف باحسانه العام اليهم كمولانا على القوشجى والفاضل الطوسى والعالم الكورانى وغيرهم من علماء الاسلام وفضلاء الانام فصارت اصطنبول بهم ام الدنيا ومعدن الفخار والعليا واجتمع فيها أهل الكمال من كل فن فعلماؤها الى الآن أعظم علماء الاسلام وأهل حرفها ادق الفطناء فى الانام وارباب دولتها هم أهل السعادة العظام لاسيما العلماء الاكرمين فللها فى أجيادهم هى باقية الى يوم الدين ولوذكرت مناقبه وعددت مآثره لشحنت بها المجلدات اسكنه الله فسيح الجنات وانزل على قبره شآبيب الرحمة والبركات وكانت وفاته سنة ست وثمانين وثمانمائة *تولى الملك السعيد السلطان بايزيد خان الغازى* ومولده سنة ست وخمسين وثمانمائة وجلس على تخت الملك فى ثامن عشر ربيع الأول سنة ست وثمانين وثمانمائة وعمره اذذاك ثلاثون عاما وعمر اثنين وستين عاما وهو من أعيان السلاطين العظماء تفرع من شجرة زكية طيبة اصلها ثابت وفروعها فى السماء وتحدر من سلالة الملوك الا كابر وورث سرير السلطنة كابرا عن كابر وتزينت باسمه رؤس المنابر وترشحت بذكره صدور المنابر وامتلأت بدائع اوصافه بطون الصحف والدفاتر وافتتح الفتوحات وغزا فى سبيل الله اعظم الغزوات * فمما افتتحه قلعة متلون وقلعة كوكلك وقلعة آق كرمان فى سنة ثمان وثمانين وثمانمائة وقاتله اخوه السلطان جم فبرز السلطان بايزيد لقتاله وتقاتلا فانهزم السلطان جم وفر الى مصر وحج فى زمن السلطان قايتباى وعادوا كرمه السلطان قايتباى اكراما زائدا فذهب الى ورسق وجمع طائفة من الغواة ونازع اخاه على الملك فقاتله السلطان بايزيد فانكسر السلطان جم ثانيا وفر الى بلاد النصارى فى سنة سبع وثمانين وثمانمائة فأرسل اليه السلطان بايزيد أحد عبيده فى صورة حلاق مجهول فلما رآه السلطان جم تأنس به وسأله

عن صنعته فقال حلاق فاستخدمه وأمره أن يحلق رأسه فحلق رأسه بموسى مسموم وهرب فى الحال وأثر السم فى رأسه وسرى الى بدنه فمات الى رحمة الله تعالى وله أشعار لطيفة بلسان التركى * ومما افتتحه السلطان بايزيد من القلاع العظيمة والحصون المحكمة القديمة قلعة مدون وقلعة قرون وغير ذلك من القلاع والحصون وظهر فى أيامه فى بلاد العجم شاه اسماعيل ابن الشيخ حيدر ابن الشيخ جنيد الصوفى فى سنة خمس وتسعمائة * وكان الشيخ حيدر ابن الشيخ جنيد الصوفى له ظهور عجيب واستيلاء على ملوك العجم يعد من الاعاجيب فقتل فى البلاد وسفك دماء العباد وأظهر مذهب الرفض والالحاد وغير اعتقاد أهل العجم الى الاختلال والفساد بعد الصلاح والسداد وأخرب بلاد العجم وأزال من أهلها حسن الاعتقاد والله يفعل فى ملكه ما أراد وتلك الفتنة باقية فى تلك البلاد وشرح ذلك يحتاج الى تاريخ مستقل ولا أعلم أحدا تعرض له من العلماء الامجاد * وظهر من اتباع شاه اسماعيل المذكور فى بلاد الروم شخص ملحد زنديق يقال له شيطان قولى أهلك الحرث والنسل وعم بالفساد والقتل وتبعه غواة لا تحصى وقويت شوكته وعظمت به فى ذلك القطر الفتنة فأرسل السلطان بايزيد وزيره الأعظم على باشا بعسكر كثير لقتال هذا الباغى وأيده بجيش عظيم لقطع جادرة هذا الطاغى فاستشهد على باشا فى ذلك القتال وانكسر شيطان قولى المفسد التعيس وعسكره من جنود ابليس وقتل مع طائفة من أعوان الأباليس وأسكن الله تلك الفتنة بعد ما طمت وكفى الله شر أولئك الاشرار بعد ما عظمت فتنتهم وعمت وذلك فى سنة خمس عشرة وتسعمائة * وكان السلطان بايزيد رحمه الله وجعل الجنة مثواه من المجاهدين فى سبيل الله الذين لا يزالون على الحق ظاهرين على من ناواهم منصورين على من شق عليهم العصا وعاداهم يجاهدون لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى فما زال غازيا فى سبيل الله مظفرا منصورا على أعداء الله الى ان صارت بيضة الاسلام بسيوفه محمية محفوظه وحركاته وسكناته بعين عناية الله واعانته منظورة ملحوظه فكانت أيامه من أحسن الأيام وأكثرها أمنا وراحة وجمع قلب للانام وكانت به كلمة الاسلام مجموعه وكلمة أهل الضلال خاسئة مقموعه وتولى الله على يديه اعزاز دينه واذلال طواغيت الشرك وشياطينه وكان مع ذلك محبا لفعل الخيرات مثابرا على بذل الاطعام والصدقات دخل الخلوة فأجلس أربعين وارتاض مثل الصلحاء السالكين ودخل معه الخلوة مولانا والد أبى السعود أفندى المفتى المفسر رحمه الله تعالى وبنى الجوامع والمدارس والعمارات ودار الضيافات والتكايا والزوايا والخانقاهات ودار الشفاء للمرضى والحمامات والجسور ورتب للمفتى الأعظم ومن فى رتبته من العلماء العظام فى زمنه كل عام عشرة آلاف عثمانى ولكل واحد من مدرسى الثمانية من مدارس والده المرحوم السلطان محمد خان فى كل عام سبعة آلاف عثمانى ولكل واحد من مدرسى شرح التجريد الفى عثمانى وكذلك رتب لمشايخ أهل الطريق من الله ومريديهم وأهل الزوايا لكل واحد على قدر مرتبته وصار قانونا جاريا بعده مستمرا وكان يحب أهل الحرمين الشريفين ويحسن اليهم احسانا كبيرا ورتب لهم الصر فى كل عام وكان يجهز لفقراء الحرمين الشريفين فى كل سنة أربعة عشر ألف دينار ذهبا يصرف نصفها على فقهاء مكة ونصفها على فقهاء المدينة وكانوا يستعينون بها ويرتفقون بها ويدعون له واذا ورد عليه من أهل الحرمين الشريفين أحد ينعم عليه ويحسن اليه ويرجع من عنده بصلات عظيمة ومواهب جليلة وممن ورد عليه فى شبابه خطيب مكة المرحوم الشيخ محيى الدين بن عبد

القادر بن عبد الرحمن العراقي والشيخ شهاب الدين بن الحسين العليف شاعر البطحاء وفاضلها ونال منه خيرا كثيرا وصنف العليف تاريخا سماه الدر المنظوم في مناقب السلطان بايزيدخان ملك الروم لا يخلو من فوائد لطيفة * ومما نظمه الشهاب العليف في مدحه رحمهما الله تعالى من قصيدة رائية طنانة مطلعها

خذوا من ثنائي موجب الحمد والشكر * ومن در لفظي طيب النظم والنثر

(ومنها)

فيا راكبا يسري على ظهر ضامر * الى الروم يهدي نحوها طيب النشر
لك الخير ان وافيت برصى فسر بها * رويدا الاصطنبول سامية الذكر
له املك لا يبلغ الوصف كنهه * شريف المساعي نافذ النهي والأمر
الى بايزيد الخير والملك الذي * حمى بيضة الاسلام بالبيض والسمر
وجرد للدين الحنيفي صارما * أباد به جمع الطواغيت والكفر
وجاهدهم في الله حق جهاده * رجاء لما يبغي من الفوز بالأجر
له هيبة تملا الصدور وصولة * مقسمة بين المخافة والذعر
أطاعه ما بين روم وفارس * ودان له ما بين برصى الى مصر
هو البحر الا انه دائم العطا * وذلك لا يخلو من المد والجزر
هو البدر الا انه كامل الضيا * وذا لك حليف النقص في معظم الشهر
هو الغيث الا أن للغيث مسكة * وذا لا يزال الدهر يهطل بالقطر
هو السيف الا ان للسيف نبوة * وفالا وذا ماضي العزيمة في الأمر
سليل بني عثمان والسادة الأولى * علا مجدهم فوق السما كين والنسر
ملوك كرام الأصل طابت فروعهم * وهل ينسب الدينار الا الى التبر
محوا أثر الكفار بالسيف فاغتدت * بهم حوزة الاسلام سامية القدر
فيا ملكا فاق الملوك مكارما * فكل الى أدنى مكارمه يجري
لئن فقتهم في رتبة الملك والعلا * فان الليالي بعضها ليلة القدر
فقد تك ملوك الأرض طرا لأنها * دراري وأنت البدر في غرة الشهر
تعاليت عنهم رفعة ومكانة * وذاتا وأوصافا تجل عن الحصر
لك العزة القعساء والرتبة التي * قواعدها تسمو على منكب النسر
سموت علوا اذ دنوت تواضعا * وقمت بحق الله في السر والجهر
غدت بك اهل الروم تزهو وملاحة * وترفل في ثوب الجلالة والفخر
ألست ابن عثمان الذي سار ذكره * مسير ضياء الشمس في البر والبحر
عينك تروي عن يسار ونائل * ووجهك يروي في البشاشة عن بشر
واني لصوان لدر قلائدي * عن المدح الا فيك يا ملك العصر
فقابل رعاك الله شكري بمثله * فانك للمعروف من أكرم الزهر
فلا زلت محروس الجناب مؤيدا * من الله بالتوفيق والعز والنصر

ويحكى أن القصيدة لما وصلت اليه فرح بها كثيرا وأمر لصاحبها أحمد العليف بألف دينار ذهبا جائزة ورتب له فى دفتر الصرف كل عام مائة دينار ذهبا تصل اليه فى كل عام وصارت بعده الى أولاده * وكان للمرحوم السلطان عدة أولاد صاروا ملوكا وصار لأولادهم أولاد فمنهم السلطان جهان شاه والسلطان أحمد والسلطان قورقند والسلطان سليم والسلطان محمود والسلطان عبد الله والسلطان علم شاه وكان أنجبهم وأمجدهم وأعزهم وأسعدهم وأكملهم وأرشدهم السلطان سليم شاه وكلهم أعلام الهدى ومصابيح الدجا ونجوم لرجوم شياطين العدا نشأوا فى مهد السلطنة وحجرها ونموا ما بين سحرها ونحرها من شجرة طاب عودها واعتدل عمودها ولا غرو ان يجود الجواد كأصله وتلوح مخايل الليث على شبله والولد سر ابيه فى فضله ونبله وكل شىء فى الحقيقة يرجع الى أصله

ملوك بنى عثمان من كان أصلهم * كرام لهم فى المكرمات مفاخر
اذا ولد المولود منهم تهللت * له الأرض واهتزت اليه المنابر

ولما ترعرعوا وبرعوا أخرجهم والدهم الى السناجق العالية فى بلاد الروم وأنعم عليهم بالولايات العظام وحفظ بهم ملك الاسلام وقلدهم الأمور الجسام فجعل لأكبر أولاده السلطان أحمد مملكة أماسيه وما والاها وكان يتوقع منه أن يكون ولى عهده ويأبى الله الا ما أراد وأنعم على السلطان جهان شاه بمملكة قرمان وأعمالها وولى السلطان قورقند مملكة منتشا وتوابعها وجعل للسلطان سليم مملكة طرابزون وهو الذى جرى حلبة السعادة فسبق وسبق فى علم الله تعالى سلطنته فكان أولى من الجميع وأحق وأعطى السلطان محمد مملكة الكفار وما يليه من بلاد التتار وكلهم ملوك ابرار وسلاطين كبار

من تلق منهم فقل لاقيت سيدهم * مثل النجوم التى يهدى بها السارى

وأسعد الله جهان شاه ومحمدا وأحمد بالوفاة فى حياة والدهم وكفاهم الله تعالى القتل والقتال وصار حال ما عدا السلطان سليم الى ما صار رحم الله تعالى جميع أولئك الابطال وعوضهم عن سلطنة هذه الدار جنات تجرى من تحتها الانهار * وكان والده السلطان بايزيد خان استولى عليه مرض النقرس وهو أكثر مرض آل عثمان رحمهم الله تعالى فضعف عن الحركة وترك السفر سنين متعددة فصار العسكر لبطرهم وكثرة راحتهم وسكونهم يطلبون سلطانا شابا قوى الحركة كثير الاسفار ليجاهد بهم فى سبيل الله تعالى ويغنمون من الكفار غنائم ورأوا أن السلطان سليم خان أجلد من سائر اخوانه واقوى على ذلك لقوة جنانه وعلو شانه فمالوا اليه ومال اليهم وتوجه بالعطف والحنو عليهم وخرج على والده محاربا وركب عليه مقاتلا ومغاضبا فقاتله أبوه فهزمه وولى هاربا ثم عطف على والده ثانيا لما رأى ميل العسكر اليه واختيارهم له على والده واجتماعهم عليه. ورأى السلطان بايزيد توجه أركان الدولة والعسكر الى السلطان سليم وأشار عليه وزراؤه أن يفرغ عن السلطنة للسلطان سليم بقلب سليم ويختار التقاعد فى أدرنه فى عز وتعظيم وأبرموا عليه فى ذلك فما رأى بدا فى اجابتهم الى ما سألوا وموافقتهم الى ما طلبوا وأملوا فطلبوه الى حضوره وعهد اليه السلطان بالسلطنة وسلم اليه التخت وتوجه مع خدامه الخواص الى ادرنه فلما وصل الى قرية جورلو انكسر زجاج مزاجه وعجز الاطباء فى علاجه وسقاه ساقى الحمام كاس أجله المحتوم فسلم الى قابض الأرواح روحه المرحوم وأقدم على الله تعالى الحى القيوم ورزق مرتبة الشهاده ونال بها أعلى درجات السعاده وانتقل من الملك الزائل الفانى الى الملك الدائم الباقى وكان ذلك فى سنة ثمان عشرة وتسعمائة ﴿ وولى

موضعه

موضعه السلطان الأعظم السلطان سليم خان ﴿و﴾ كاسر سلطان العجم وفاتح اقليم مصر وسائر ممالك العرب طيب الله ثراه وجعل الفردوس الاعلى محله ومأواه * مولده في أماسيه سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة وجلس على تخت السلطنة وعمره ست وأربعون سنة وكانت مدة سلطنته تسع سنين وكان عمره جميعا أربعا وخمسين سنة لم يعمر أكثر من ذلك ولم تطل مدة سلطنته لانه كان كثير القتل وهذه عادة الله في السلاطين والامراء والحكام اذا أكثروا سفك الدماء وكان سلطانا قهارا ملكا جبارا كثير السفك قوى البطش عظيم الفتك كثير الفحص عن أخبار الناس شديد التوجه الى أهل النجدة والناس عظيم التجسس عن اخبار الممالك عارفا بمسارب الطرق والمسالك وكان يغير زيه ولباسه ويتجسس بالليل والنهار ويطلع على الاخبار ويستكشف الاسرار وله عدة مصاحبين يدورون حول القلعة وفي الأسواق وفي الجمعيات والمحافل ومهما سمعوا به ذكروا له في مجلس المصاحبة فيعمل بمقتضى ما يسمع بعد الوثوق منهم وقد أدركت جماعة منهم من مصاحبيه المذكورين وسمعت منهم حسن مصاحبة السلطان سليم المرحوم معهم ولطف معاشرته لهم وشدة تيقظه ودقة فهمه وتحفظه مع كثرة مطالعته للتواريخ وتفرسه في اللغة الفارسية وحسن نظمه بالفارسية والرومية بحيث فاق فيه فصحاء الطائفتين ورأيت بيتين بالعربي بخطه الشريف كتبهما في علو المقياس في الكوشك الذي أمر ببنائه لما افتتح مصر وسكن الروضة قد انمحى لطول الزمان مداده ومال الى لون البياض سواده وكان هذا الكوشك محترما مقفلا لا يصل اليه أحد لعظمة بانيه ولا يتبذل بالدخول اليه لعظمة راعيه فدخلت الى مصر في سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة وكان يوم كسر النيل السعيد ففتحوا هذا الكوشك لبكلربكي مصر يومئذ خسرو باشا وكنت مصاحبا للمعلم مولانا عبد الكريم العجمي فطلع وأطلعني معه في صحبته خسرو باشا المذكور فرأيت على الرخام الابيض كتابة خفية لا تكاد تظهر الا بتأمل هذين البيتين

الملك لله من يظفر بنيل منى * يرده قسرا ويضمن بعده الدركا
لو كان لى أو لغيرى قدر أنملة * فوق التراب لكان الأمر مشتركا

وكتبه سليم بذلك الخط والقلم ولعمرى ان كان هذان البيتان من نظم المرحوم فهما غاية في البراعة ونهاية في التمكن من الصناعة فيدل على تمكنه رحمه الله في اللسان العربي أيضا لانهما من أعلى طبقات الشعر العربي البليغ المنسجم وان كان قد تمثل بهما وهما الغيره فهذه أيضا مرتبة علية في حسن التمثيل وحسن الاستحضار وفهم الاشعار العربية وذوقها وهذا القدر يستكثر على علماء الروم وعلماء العجم المكبين على علوم العربية فضلا عن سلاطينهم المشغولين بضبط الممالك وفتحها والفائقون في ذوق الشعر العربي وحسن آدابه من العلماء والموالى في غاية القلة معدودين منهم ولا يعد هذا نقصا فيهم لان فهم الشعر العربي على وجهه كما ينبغى قليل أيضا في علماء العرب الا من توغل منهم في علم الادب وتعب في تحصيله ودأب .

وقد كانوا اذا عدوا قليلا * وقد صاروا أقل من القليل

﴿ثم لما استولى﴾ السلطان سليم خان على سرير السلطنة وفرغ من دفن والده توجه الى قتال أخيه السلطان أحمد فهزمه هيبة السلطان سليم عسكر أحمد وبقى في عدد قليل فاخذ أسيرا وأتى به أسيرا الى السلطان سليم فامر بخنقه فخنق وتوفى تاسع صفر سنة تسع عشرة وتسعمائة * ثم فر السلطان قورقند

الى كهف جبل وأراد التسحب منه الى مكان مضيق فعرف مكانه فسلك رجى به اليه فخنق وكذلك
بالسلطان محمد ابن السلطان شهنشاه والسلطان عثمان ابن السلطان علمشاه والسلطان مصطفى
والسلطان أورخان والسلطان سليمان أولاد السلطان محمود وسبعة أولاد كلهم رضع فى المهد خنقهم فى
ليلة واحدة فى بورسا فكانت ليلة ملئت البلاد بكاء وعويلا وصراخا أعظم من صراخ الثكلى
ومأتما طويلا بكت فيها حتى الحجارة تتفجر منها مدامع الانهار وتشقق ثيابها حتى كمائم الازهار ولطم
الخدود حتى انشقت الوان أحمر ثم أسود ولبس حتى الليل ثياب الحداد وتعمم بالاسود وكان أمر الله
قدرا مقدورا وسيف الفنا بيد القضاء ماضيا مشهورا

فلا المعزى بباق بعد ميته * ولا المعزى ولو عاشا الى حين

﴿فلما استقر﴾ للسلطان سليم الملك وهيهات اين الاستقرار وثبت على تخت السلطنة وانى له بالثبات
والقرار شرح فى قهر الملوك وأخذ الممالك والاستيلاء على الاقاليم والبلدان والمسالك فبدأ بقتال شاه
اسمعيل ابن الشيخ حيدر الصوفى كما سنذكره مجملا من ذلك فى هذا الفصل الثانى فانى ما ظفرت بكتاب
فيه تفصيل ذلك وانما تلقيته من أفواه الرجال وأخبرنى ثقة من أعيان كتبة الديوان الشريف على ان
السلطان بايزيد رحمه الله تعالى حذره منجم حاذق من أهل عصره وان هلاكه يكون على يد ولد يولد له بعد
ما ولد له عدة أولاد وكان تحذيره له قبل ان يولد السلطان سليم فطلب امرأة معتمدة عنده بيدها جواريه
الموطوآت وهى قابلة لمن تضع حملها منهن وكانت من الصالحات الخيرات الدينات فقال لها اذا وضعت
احدى الجوارى بعد الآن صبيا فاقتليه ولا تبقيه حيا واذا وضعت انثى اتركيها تعيش مع بناتى وأكد
عليها فى ذلك غاية التأكيد فاستمرت على ذلك الى ان ولدت السلطان سليم والدته فرأته صبيا فحزنت عليه
وتناولته القابلة لتخنقه فرأت صورة جميلة فرقت وقالت باى وجه ألقى الله تعالى فى قتل هذا الطفل
المعصوم والله لا اقدم على قتله ثم قالت بايزيد قد حصل له بنت جميلة حسنة الصورة فلما أخبر بذلك سماها
سليمة واستمر على ذلك والحال مكتوم لا يعلم غير الله تعالى والقابلة والام وصار كلما ظهر وانتشأ ظهر عليه
سيما الغلبة والقهر واذا اجتمعت البنات وجلس بينهن لطم من الى جانبه وضرب ونهب ما وجد بايديهن
من ملعوبات الاطفال وكانوا يحذرون منه فدخل السلطان بايزيد فى يوم عيد الى داخل السرايا وأمر
بالمكان فزين واستدعى كل واحدة منهن أنواع الحلوى والفواكه وأحضر بينهن السلطان سليم واسمه
سليمة فشرع فى مداعبته على عادته وخطف ما بين أيديهن من الحلوى والفواكه ووضع الكل بين يدى
نفسه والكل خائفات منه هائبات له فتعجب بايزيد لذلك وصار يتأمله جدا وفى أثناء ذلك دار حولهم
يعسوب كبير أرادوا امسكه فعجزوا عنه وهو يلسع من يريد مسكه فيهربون منه فمد السلطان سليم يده اليه
وهو طائر حوله فصاده بكفه ومرسه وخبصه ورماه من يده فتعجب السلطان بايزيد منه وقال للنساء
الواقفات هذا لا يكون بنتا اكشفوا لى عنه فبادرت القابلة وقالت نعم هذا صبى وليس ببنت فقال لها
وكيف خالفتى أمرى وما قتلتيه فقالت خفت من الله رب العالمين وخلصت ذمتك وذمتى من قتل
معصوم لا ذنب له فتفكر طويلا ثم قال ما قدر الله فهو كائن لا مفر عنه وأمر بالكف عنه وتربيته الى
ان كان ما كان بتقدير الله تعالى

﴿الفصل الثانى فى قتال شاه اسمعيل وانهزامه﴾ هو شاه اسمعيل ابن الشيخ حيدر ابن الشيخ جنيد ابن
الشيخ ابراهيم خواجا على ابن الشيخ صدر الدين موسى ابن الشيخ صفى الدين بن اسحق الاردبيلى واليه

تنسب الأولاد فيقال لهم الصوفيون وكان الشيخ صفي الدين صاحب زاوية في أردبيل وله سلسلة في المشايخ أخذ عن الشيخ زاهد الكيلاني وتنتهي بوسائط الى الامام أحمد الغزالي وتوفي الشيخ صفي الدين في سنة خمس وثلاثين وسبعمائة وهو أول من ظهر منهم بطريق المشيخة والتصوف وأول من اختار مسكن اردبيل وبعد موته جلس في مكانه الشيخ صدر الدين موسى وكانت السلاطين تعتقد فيه وتزوره وممن زاره والتمس بركته تيمور لما عاد من الروم وسأله ان يطلب منه شيأ فقال اطلب منك ان تطلق كل من أخذته من بلاد الروم أسيرا فأجابه الى سؤاله واطلق الاسرى جميعهم فصار أهل الروم يعتقدون الشيخ صدر الدين وجميع المشايخ الاردبيليين من ذريته الى الآن وحج والده السلطان خواجا علي وزار النبي صلى الله عليه وسلم وتوجه الى زيارة بيت المقدس وتوفي هناك وقبره معروف في بيت المقدس * وكان ممن يعتقده ميرزا شاه رخ ابن تيمور ويعظمه فلما جلس الشيخ جنيد مكان والده في الزاوية باردبيل كثر مريدوه واتباعه في اردبيل فتوهم منه صاحب اذربيجان يومئذ وهو السلطان جهان شاه قرا يوسف التركماني من طائفة قراقونيلو فاخرجهم من أردبيل فتوجه الشيخ جنيد مع بعض مريديه الى ديار بكر وتفرق عنه الباقون وكان من أمراء ديار بكر يومئذ عثمان بك بن علي بك من طائفة آق قونيلو جد اوزن حسن بك البايندري وهو أول من تسلطن من طائفة آق قونيلو جد اوزن حسن بيك وولي سنة وأخذ واملك فارس من طائفة قراقونيلو وأول سلاطينهم قرا قونيلو وآخر سلاطينهم قرا يوسف بن قرا محمد التركماني ومدة سلطنتهم ثلاث وستون سنة وانقرض ملكهم على يد أوزن حسن بك المذكور في شوال سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة * وكان أوزن حسن بك ملكا شهما مقداما مطاعا مظفرا في حروبه ميمونا في نزوله وركوبه الا انه وقع بينه وبين السلطان محمد ابن السلطان مرادخان حرب عظيم في بايبرت فانكسر أوزن حسن بك وقتل ولده زينل بك وهرب هو وسلم من القتل وعاد الى أذربيجان وملك فارس والعراقين ولما التجأ الشيخ جنيد الى طائفة آق قونيلو أصاهره أوزن حسن بك وزوجه بنته خديجة بيكم فولدت له الشيخ جنيد ولما استولى أوزن حسن على البلاد وطرد عنها ملوك قوقونيلو وأضعفهم عاد الشيخ جنيد مع ولده الشيخ حيدر الى أردبيل وكثر مريدوه واتباعه وتقوى بأوزن حسن بك لانه صهره فلما توفي حسن بك ولي موضعه السلطان خليل ستة أشهر ثم ولده الثاني السلطان يعقوب فزوج بنته حليمة بيكم من الشيخ حيدر فولدت له شاه اسمعيل في يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من رجب سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وكان على يديه هلاك ملوك العجم طائفة آق قونيلو وقراقونيلو وغيرهم من سلاطين العجم كما هو معروف مشهور * وكان الشيخ جنيد جمع طائفة من مريديه وقصد قتال كرجستان ليكون من المجاهدين في سبيل الله فتوهم منه سلطان شروان فخرج الى قتاله فانكسر الشيخ جنيد وقتل وتفرق مريدوه ثم اجتمعوا بعد مدة على الشيخ حيدر وحسنوا له الجهاد والغزاة في حدود كرجستان وجعلوا لهم رماحا من أعواد الشجر وركبوا في كل عود سنانا من حديد وتسلحوا بذلك وألبسهم الشيخ حيدر تاجا احمر من الجوخ فسماهم الناس قزلباش وهو اول من ألبس الناس التاج الأحمر لاتباعه واجتمع عليه خلق كثير فارسل شروان شاه الى السلطان يعقوب بن اوزن حسن يخوفه من خروج حيدر على هذه الصفة فارسل اميرا من امرائه اسمه سليمان باربعة آلاف نفر من العسكر وامره ان يمنعهم من هذه الجمعية فاطاعه فاتفق مع شروان شاه فقاتلاه ومن معه فقتل الشيخ حيدر وأسر ولده شاه اسمعيل وهو طفل وأسر معه اخوته وجماعته وجاء بهم سليمان بك الى السلطان

يعقوب فارسل بهم الى قاسم بك الغرنالك وكان حاكم شيراز من قبل السلطان يعقوب وأمره أن يحبسهم في قلعة اصطخر فحبسهم بها واستمروا الى أن توفي السلطان يعقوب في سنة ست وسبعين وثمانمائة ﴿وولى بعده السلطان رستم﴾ ونازعه في السلطنة اخوته وتفرقت المملكة واستقل في كل قطر واحد من أولاد السلطان يعقوب ثم توفي السلطان رستم ﴿وولي مكانه السلطان مراد بن يعقوب﴾ والوند بك بن عمه وكان شاه اسمعيل في لاهجان في بيت صائغ في بيت يقال له نجم زركر وبلاد لاهجان فيها كثير من الفرق الضالة كالرفضة والحرورية والزيدية وغيرهم فتعلم منهم شاه اسمعيل في صغره مذهب الرفض فان أباه كان شعارهم مذهب السنة السنية وكانوا مطيعين منقادين لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يظهر الرفض غير شاه اسمعيل وتطلبه من أمراء الوند بيك جماعة وطلبوه من سلطان لاهجان فابى أن يسلمه لهم وأنكر وحلف لهم انه ماهو عندي وورّى في يمينه وكان مختفيا في بيت نجم زركر وكان يأتيه مريدو والده خفية ويعتقدون فيه ويطوفون بالبيت الذي هو ساكن فيه الى ان اراد الله ما اراد وكثرت داعية الفساد واختلت احوال البلاد باختلاف السلاطين وكثرة المضاد بين العباد لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا وحينئذ كثر اتباع شاه اسماعيل فخرج هو ومن معه من لاهجان واظهر الخروج لثار والده وجده في أواخر سنة خمس وتسعمائة وعمره يومئذ ثلاثة عشر سنة وقصد ملك شروان لقتال شروان شاه قاتل ابيه وجده وكلما سار منزلا كثر عليه داعية الفساد واجتمع عليه عسكر كثير الى ان وصل الى بلاد شروان فخرج لمقاتلته فانكسر عسكره وأتوا به شاه اسماعيل أسيرا فامر ان يضعوه في قدر كبير ويطبخوه ويأكلوه ففعلوا كما امر وأكلوه * وكان ذلك اول فتوحاته ثم توجه الى قتال الوند بيك فقاتله وانهزم منه واستولى على خزائنه وقسمها في عسكره وصار يقتل من ظفر به قتلا ذريعا ولا يمسك شيأ من الخزائن بل يفرقها في الحال ثم قاتل مراد بك ابن السلطان يعقوب فهزمه وأخذ خزائنه وفرقها على عسكره ثم صار لا يتوجه الى بلاد الا يفتحها ويقتل جميع من فيها وينهب جميع أموالهم ويفرقها الى ان ملك تبريز واذربيجان وبغداد وعراق العرب وعراق العجم وخراسان وكاد أن يدعي الربوبية وكان له عسكر يأمرون بأمره ويقتل خلقا لا يحصون ينوف على الف الف نفس بحيث لا يعهد في الاسلام ولا في الجاهلية ولا في الامم السابقة من قتل من النفوس ما قتله اسماعيل شاه وقتل عدة من اعاظم العلماء بحيث لم يبق احد من أهل العلم في بلاد العجم واحرق جميع كتبهم ومصاحفهم لانها مصاحف اهل السنة وكان امر بقبور المشايخ نبشها واخرج عظامهم وأحرقها واذا قتل أميرا من الامراء اباح زوجته وامواله لشخص آخر * ومن جملة مضحكاته انه جعل كلبا من كلاب الصيد أميرا ورتب له ترتيب الامراء من الخدم والكواخي والسماط والكيلار والأوطاق والفرش الحرير ونحو ذلك وجعل له سلاسل الذهب ومرتبة ومسندا يجلس عليه كالامراء وسقط منديل من يده الى البحر وكان في جبل شاهق مشرف على البحر المذكور فرمى نفسه خلف المنديل من عسكره فوق الف نفس تحطموا وتكسروا وتفرقوا وكانوا يعتقدون فيه الألوهية وانه لا ينكسر ولا ينهزم الى غير ذلك من الاعتقادات الفاسدة * فلما وصلت اخباره الى السلطان سليم خان تحركت فيه قوة العصبية الغضبية واقدم على نصر السنة الشريفة السنية وعد هذا القتال من أعظم الجهاد وقصد ان يمحو من العالم هذه الفتنة وهذا الفساد وينصر مذهب اهل السنة الحنيفية على مذهب اهل البدع والالحاد ويأبى الله الا ما أراد فتهيأ السلطان بخيله ورجله

وعساكره المنصورة ورحله وتهيأ القتاله واقدم على جلاوه وجد اله وهو يجر بخميس العرمرم ويصول بسيف عزمه ويقدم ويتقدم الى أن تلاقى العسكران فى قرب تبريز ورتب السلطان عسكره ونزل من عند الله النصر القريب والفتح العزيز فتجالد الفريقان وتطارد الفرسان وتعانق الشجعان بهدرون كالبحار الفوالج فوق البحور المواثج وتصادمت فرسان الزحف والصيال وتصادم أطواد الجبال وصارت نجوم الأبطال رجوم البطش والقتال فزلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وخيلت المعركة سماء غمامها القسطل وصواعقها بروق البيض من بريق الصيقل ورعودها صليل السيوف فى أعناق الجحفل وغيوثها صبيب الدم من أوداج رؤس تحز وتفصل واحجار المداقع كجلمود صخر حطه السيل من عل الى ان طارت قلوب الاعداء هوا وذهبت قواهم هبا وولوا على ادبارهم ادبارا وانهزم شاه اسماعيل وولى فرارا ولم يجد من دون الله انصارا وضاقت الارض حتى ان هاربهم اذا رأى غير شىء ظنه رجلا وقتل غالب جنوده وأمرائه وساقت العساكر المنصورة العثمانية من ورائه وكادوا ان يقبضوا عليه ففر من بين ايديهم وهم ينظرون اليه وترك ما تخوله فى مخيمه من آثاث نجلائه وكان لانظير له فاغتنمه عسكر السلطان سليم ووطئت حوافر خيله أرض تبريز فنهى فيها وأمر وقتل من أراد وأسر وأعطى الرعية تمام الأمن والأمان ونشر فيها أعلام أهل الايمان وأخذ من أراد منها من الأفاضل المتميزين فى الصنائع والفضائل والشعراء الاماثل وساقهم معه الى اصطنبول على القانون وأراد ان يقيم فى تبريز للاستيلاء على أقليم العجم والتمكن من تلك البلاد على الوجه الاتم فما أمكنه ذلك لكثرة القحط واستيلاء الغلاء بحيث بيعت العليقة بمائتى درهم وسبب ذلك ان القوافل التى كان أعدها السلطان سليم لان تتبعه بالميرة والعليق والمؤن تخلفت عنه فى محل الاحتياج اليها وما وجدوا فى تبريز شيأ من المأكولات والحبوب لان شاه اسماعيل أمر باحراق أجران الحب والشعير وغير ذلك واضطر السلطان سليم الى العود من تبريز الى بلاد الروم وتركها خالية خاوية على عروشها ثم تفحص عن سبب انقطاع القوافل عنه فأخبر ان سبب ذلك سلطان مصر قانصوه الغورى فانه كان بينه وبين شاه اسماعيل محبة ومودة ومراسلات بحيث انه كان السلطان الغورى يتهم بالرفض فى عقيدته بسبب ذلك فلما ظهر للسلطان سليم خان ان الغورى هو الذى أمر بقطع القوافل عنه صمم على قتال السلطان الغورى أولا وبعد الاستيلاء عليه وعلى بلاده يتوجه الى قتال شاه اسماعيل ثانيا * فلما استقر عليه ركاب السلطنة الشريفة العثمانية فى تخت ملكها الشريف تهيأ لأخذ مصر وازالة دولة الجراكسة وتوجه بعسكره الجرار الى ناحية حلب فى سنة اثنين وعشرين وتسعمائة وخرج الى قتال قانصوه الغورى بجميع عساكره من الجراكسة وغيرهم وتلاقى العسكران بقرب حلب فى مرج دابوم * وكان الغورى يتوهم ويخاف على نفسه من ملك الامراء خيربك ومن جان بردى بك الغزالى وكانا يكرهانه فى الباطن ويكرههما كذلك فأمرهما ان يتقدما لقتال السلطان سليم وجعلهما وعسكرهما حجابا أمامه ووقف الغورى بخواص عسكره الذى يعتمد عليه من الجلبان الذين أراد ان يقدمهم خلف خيربك والغزالى وقصد بذلك ان يقتلا بالبنادق والضربزن فى اول مرة ثم يسلم هو ومن معه وتفطن خيربك والغزالى لذلك وكانا ارسلا الى السلطان سليم وطلبا منه الامان وتوثقا منه ان لا يقتلهما بل يكرمهما وينعم عليهما فارسل السلطان سليم لهما بالامان وعهد لهما عهدا يطيب من خاطرهما وأن يوليهما مملكة مصر والشام فقبلا ووافقاه على ذلك قبل القتال فلما تلاقى العسكران

واضطرمت نيران البنادق فى مرج دابق ففر خير بك بمن معه من الميمنة وفر الغزالى بمن معه من الميسرة وبقى السلطان الغورى بمن معه من خواصه وجلبانه فى القلب فاطلقت البنادق والضربزنات فهلك من هلك وهرب من هرب لا يدرى أية سلك وانقلب النهار ليلا لاظلامها بالدخان وامتلأ وجه الارض لشعب النفط والنيران وداس الغورى تحت سنابك الخيل وتجاوز العدل ظلام الظلم كما يمحو النهار الليل وذهبت ظلمات الجراكسة كانهم كانوا هباء منثورا. واكلت اشلاء قتلاهم الوحوش والطيور كان لم يكونوا شيأ مذكورا واقبلت رايات اقبال السلطان سليم على قلعة حلب الشهباء وقد احمرت من اسالة الدماء فطلب اهلها منه الامان والتسليم فاجابهم الى القبول لطفا وكرما فخرجوا الى لقائه بالمصاحف والاعلام وهم يجهرون بالتسبيح والتكبير ويقرؤن وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى فقابلهم بالاجلال والاكرام وأفرغ على كواهلهم خلع اللطف والانعام وتصدق بأنواع الصدقات الجزيلة على الخاص والعام وحضر صلاة الجمعة وخطب الخطيب باسمه الشريف ودعا له ولآبائه وأسلافه وبالغ فى المدح والتعريف

وما زاده الألقاب فخرا وسوددا * باطناب ذى مدح واكثار مادح

وعندما سمع السلطان سليم الخطيب يقول فى تعريفه خادم الحرمين الشريفين سجد لله شكرا وقال الحمد لله الذى يسر لى أن صرت خادم الحرمين الشريفين وأضمر خيرا جميلا واحسانا جليلا لاهل الحرمين الشريفين وأظهر الفرح والسرور بتلقبه بخادم الحرمين المنيفين وخلع على الخطيب خلعا متعددة وهو على المنبر وأحسن اليه احسانا كثيرا بعد ذلك وأقام بحلب أياما يسيرة وهو يمهد الملك ويجرى أحكام المعدلة والسياسة ويحسن الى العرب ثم ارتحل بالجيش المنصور الى الشام فخرج أهل الشام الى لقائه وطلبوا منه الأمن والأمان واللطف والرأفة والاطمئنان فأجابهم الى ما سألوه وبسط لهم ما طلبوه وأملوه فقبلوا الأرض بين يديه وبالغوا فى الدعاء بدوام دولته والثناء عليه فخلع على كل من يستحق التشريف خلع الرضا والاكرام وألبسهم التشاريف الفاخرة كلا بحسب حاله واستحقاقه للانعام ودخل الى الشام بموكبه الشريف الكريم وأقام به لتمهيد المملكة برأيه القويم وخطب له الخطباء فخلع عليهم وأكرمهم وأحسن اليهم وقابل الناس بسن ضاحك ووجه يتهلل سرورا وجبين أغر يملأ الأرجا ضياء ونورا وأمر بعمارة تربة الشيخ محيي الدين بن عربى رضى الله عنه ورتب عليه أوقافا كثيرة وعمل له مطبخا يطبخ الطعام فيه لفقراء الشيخ المرحوم وجعل عليها متوليا وناظرا يجمع الريع ويصرفه فى جهات الخير ونظره أعظم الأنظار فى بلاد الشام الى الآن وما أجرى الله تعالى مثل هذا الخير العظيم على يد أحد من الجراكسة ولا من كان قبلهم ولا شك أن روحانية الشيخ رضى الله عنه هى التى جلبت السلطان سليم طيب الله ثراه الى سلطنة بلاد العرب وحصل له الامداد العظيم بالبركة والنصر والتأييد فى حصول ما أمله وطلب وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ويؤتى الملك من يشاء وينزع الملك عمن يشاء بيده الخير وهو على كل شئ قدير * واستمر السلطان سليم خان بارض الشام الى أن مهد أمورها وضبط حصونها وقصورها ثم توجه الى افتتاح اقليم مصر ورفع البؤس عنها والأمر ولما وصل الى خان يونس قتل فيه الوزير المعظم حسام باشا وكان من أهل الخير وله عمارة فى آق شهر يخرج منها الطعام للمسافرين دائما رحمه الله تعالى واستمر السلطان سليم متوجها الى مصر فوصل الى بلاد غزة ثم عدل منها بمفرده الى زيارة القدس والخليل فى نفر قليل بقصد الزيارة فأحسن الى أهل القدس

والى

والى أهل خليل الرحمن وعاد الى معسكره وصار كلما مر ببلد أو قرية أو قصبة فى طريقه أحسن الى الرعايا
ونظر بعين المعدلة والاحسان الى البرايا وأزال عن الضعفاء ظلم الظالمين ونشر العدل فى العالمين
وفرّ بقية السيوف من الجراكسة الى مصر وولوا عليهم الدوادار وجندوا الجنود وعقدوا الالوية والبنود
وخرجوا الى الريدانية بظاهر مصر ونصبوا المدافع الكبار وملؤها بالبارود والأحجار وهيؤها
ليطلقوها اذا أقبلت العساكر العثمانية فلما أخبرهم الجواسيس بذلك عدلوا الى غير ناحية وجاؤا من
خلف جبل المقطم من معسكر الجراكسة ورموا بالمدافع والمكاحل والضربزانات على العجل واستدبرت
مدافع الجراكسة مركوزة لمن يأتى من أمام الريدانية بلا نفع ولا دفع وقاتل السلطان طومان باى ومن
ثبت معه من امراء الجراكسة قتالا قويا واظهر طومان باى شجاعة قوية عرف بها وشهدله المصاف وهو
يغوص فى العسكر ويصول ويعود ويكر ويفر وقتل من وزراء السلطان سليم فى ذلك اليوم سنان باشا
وأسف السلطان سليم على شهادته * ومن جملة نكته انه قال عندما اخبر بهروب عساكر الاعداء وقتل
سنان باشا أى فائدة فى مصر بلا يوسف ووجه النكتة ان يوسف يلقب بسنان فى عرفهم وبعد ان ثبتوا
ساعة انكسروا وانهزموا وتمزقوا وتشتتوا وتفرقوا وهرب طومان باى الى البر ونزل على شيخ عربان بنى
حرام عبد الدايم بن بقر ودخل السلطان سليم الى مصر ونزل فى ساحلها فى الجزيرة الوسطانية وطاف
عسكره بالبلد وامنوا الناس وازالوا عنهم الخوف والبأس ما عدا الجراكسة فانهم اذا ظفروا بهم أتوا بهم
الى السلطان سليم خان فيأمر بضرب رقابهم وترمى جثثهم فى بحر النيل وتجمع رؤسهم اكواما بعد اكوام
الى ان عفنت الجزيرة بروائح القتلى وعفونة رؤسهم فانتقل السلطان سليم الى المقياس وامر ان يبنى له فى
علوه كوشكا عاليا سكنه مدة مقامه بمصر هربا من عفونات اشلاء القتلى * ثم ان شيخ العرب عبد الدايم
تقرب الى خاطر السلطان سليم خان وسلم اليه السلطان طومان باى اسيرا وانعم السلطان سليم على شيخ
العرب بالخلع والتشاريف والانعامات السلطانية وحبس طومان باى عنده واراد ان يكرمه ويجعله
نائبا عنه بمصر اذا برز عنها الى الروم وصار يحضره فى مجالس الصحبة ويستخبره عن الامور والاحوال
فارجف اهل مصر عن طومان باى انه لم يقم فى الاسر وانه اختفى وانه يجمع عسكرا وينتهز الفرصة وانه
شجاع لا يطاق ولا يقدر عليه احد فبلغ السلطان سليم خان أراجيف الناس ورأى ان الفتنة
لا تسكن ما دام طومان باى محبوسا فامر ان يركب على بغلة ويحف بعسكر الينكجرية ويمضى الى باب
زويلة ويصلب فيه ليراه الناس ويصدقوا بانه مسك فصلب على باب زويلة لاحدى عشرة ليلة خلت من
شهر ربيع الاول سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ثم ولى القضاة الاربعة على المذاهب الاربعة بمصر وهم
قاضى القضاة كمال الدين الطويل ولاه قضاء الشافعية وقاضى القضاة نور الدين على بن يس الطرابلسى
الحنفى قاضى الحنفية وقاضى القضاة الدميرى المالكى قاضى المالكية وقاضى القضاة شهاب الدين
أحمد بن النجار الحنبلى قاضى الحنابلة وولى ملك الامراء خير بك مصر وولى جان بردى الغزالى الشام
كما وعدهما بذلك ومهد الامور وسار الى الاسكندرية وعاد الى مصر ثم الى تخت مملكته القسطنطينية
العظمى فى يوم الخميس لخمس بقين من شعبان سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة وأخذ معه كثيرا من
أعيان مصر مكرما الى الروم كما هو قانونهم ووصل الى تخت ملكه ومقر سلطنته مظفرا منصورا وشكر الله
وحمده على نصرته وتأييده وكان عبدا شكورا وافتقد خزائنه فوجدها قد انصرف غالبها فانه كان قد
أصرف فى هذين السفرين وهما السفر الى بلاد قزلباش والسفر الى اقليم مصر خزائن عظيمة فجمعها

آباؤه وأسلافه فلما أراد سفراثالثا الى بلاد العجم لقطع جادرة طائفة القزلباش رأى ان ما بقى من خزائنه لا يفى بتلك المصارف فتأخر ليجتمع فى خزائنه ما يجمع له من خراج البلاد قد ريفى بالمراد ويأبى الله الا ما أراد

ما كل ما يتمنى المرء يدركه * تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

فظهر فى اثنا ظهره جراحه منعته الراحه وحرمت عليه الاستراحه وعجزت فى علاجه حذاق الاطباء وتحيرت فى دائه العقول الالباء وعظم الجرح وكبر القرح واتسع الخرق والتهب الحرق وكانت توضع الدجاجة فى جرحه فتذوب بحره وشوهدت معاليق أكباده فى جوفه من خلف ظهره وأنشبت المنية أظفارها فيه فما نفعه التمائم والرقا وفدى بالاموال والارواح فما قبل الفدا وقال

ولو قبل الفداء لكان يفدا * وان جل المصاب عن التفادى

ولكن المنون لها عيون * تكثر لحاظها فى الانتقاد

فقل للدهر أنت أصبت فالبس * برغم نيلك أثواب الحداد

فقضى نحبه والى ربه ومضى سليم بقلب سليم قادما على الله الكريم الغفور الرحيم وتبوأ مقعده من سرير الملك نجله الوارث السعيد كذلك يؤتى الله الملك من يشاء وينزع الملك عن يشاء وهو الفعال لما يريد * وكان وفاته رحمه الله تعالى وأسكنه غرف الجنان وأنزل عليه شآبيب المغفرة والرضوان فى سنة ست وعشرين وتسعمائة

* الفصل الثالث فيما عمره المرحوم السلطان سليم خان فى الحرم الشريف وبعض احسانه الى أهل الحرمين الشريفين فى أيام سلطنته * كان رحمه الله تعالى كوالده المرحوم كثير المحبة لاهل الحرمين الشريفين حسن الالتفات اليهم كثير الاحسان والعطف عليهم وضاعف الصدقة الرومية التى كان يجهزلهم والده المرحوم ويكرم من قدم عليه منهم أتم اكرام ويحسن اليه أجل احسان وانعام فوصلت صدقاته الرومية ووصل معها دفتر الصرة على حكم ما قرره والده المرحوم لأهل الحرمين فى أول سلطنته عام تسعة عشر وتسعمائة وتضاعف له الدعاء بالحرمين الشريفين وسافر له جماعة من أهل مكة منهم الخطيب محيى الدين العراقى فحصل له منه انعام جزيل وخير جميل ورتب له فى دفتر الصر مائة دينار ذهبا وفرح بمن قدم عليه من الحجازيين وأنعم على كل بحسبه وكان يرسل الصدقات الرومية فى كل سنة فلما افتتح مصر وجد بها من قضاة مكة قاضى القضاة صلاح الدين محمد بن أبى السعود بن ابراهيم بن ظهيرة وكان السلطان الغورى حبسه بمصر من غير ذنب بل للطمع ولما خرج بعساكره من مصر الى مرج دابق أخرج كل من فى حبسه من أرباب الجرائم الا القاضى صلاح الدين فانه أبقاه فى الحبس فلما انكسر وقتل فى مرج دابق اخرجه السلطان طومان باى من الحبس فلما دخل السلطان سليم الى مصر جاء اليه القاضى صلاح الدين فأكرمه وعظمه وخلع عليه واحسن اليه وجهزه الى مكة معززا مكرما وكان بمصر جماعة من الحجاز ممن احسن اليهم كلهم وأكرمهم * وولى أمانة جدة للتاجر الخواجا قاسم الشروانى وكان مقيما بمكة ثم سافر الى مصر فصادف دخول السلطان سليم الى مصر فخدمه وتقرب الى خاطره الشريف فأرسله الى مكة أمينا فى بندر جدة اميرا عليها فوصل اليها وتمكن من البندر وارسل السلطان سليم من امرائه الى مكة الامير مصلح الدين بك بالصدقات الرومية وبكسوة الكعبة الشريفة وبجمل الشريف رومى فوصل فى صحبته امير الحاج المصرى المقر العلائى بالمحمل الشريف المصرى على المعتاد

وبرز شريف مكة يومئذ السيد بركات للاقاة المحملين الى سبيل الجوخى هو وولده سيدنا ومولانا السيد الشريف جمال الدين محمد ابو نمى أطال الله تعالى عمره الشريف ولبس الخلعة الشريفة السلطانية وسار امام المحملين المصرى والرومى بأعلامهما وطبولهما واستمر فى هذا الموكب الى أن فارقا المحملين وأمير الحاج والامير مصلح الدين من عند باب السلام وادخل المحملان الى الحرم الشريف ووضعا عن يمين مدرسة الاشرف قايتباى ونزل امير الحاج المصرى فى مجمع البرقية على يمين الخارج من باب الصفا وهو رباط صاحب بلدة كلبركه من ملوك الركن وقد هدمت الآن فى ذلك الجانب من البيوت والمدارس الملاصقة بجدر الحرم الشريف توسيعا لطريق السيل ودفعا لضرر دخوله الى المسجد الحرام من ذلك الجانب اذا تراكم السيل وكان هدمها بالامر الشريف السلطانى فى سنة اربع وثمانين وتسعمائة وفرقت الصدقة الرومية فى يوم الجمعة لاربع مضين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة فى الحرم الشريف على الفقهاء وقرر لجماعة من المجاورين لكل واحد مائة ذهب منهم مولانا نور الدين حمزة ابن القاضى مصطفى القرمانى ومولانا زين الدين على القرمانى وقرر باسم مولانا السيد الشريف ابى نمى اطال الله تعالى عمره الشريف خمسمائة دينار ذهبا فى اول دفتر الصدقات باقية الى الآن باسم الشريف تقبض له فى كل عام وفرقت بعد هذه الذخيرة وهى صدقة كانت تجهز من خزينة مصر من قبل ملوك الجراكسة أبقاها السلطان سليم على حالها وأجراها فى كل عام من خزينة مصر تفرق على فقراء الحرمين الشريفين وعلى مشايخ العرب أرباب الدرك فى طريق الحج وهى باقية الى الآن وفرقت الصدقات المصرية التى تجمع من أوقاف الحرمين بمصر وتجهز الى الحرمين الشريفين ويقال لها الصر الحكمى وهو باق الى الآن وان تقهقر وضعف وصار يصرف على حكم الربع والخمس لضعف الاوقاف المصرية واستيلاء الأكلة عليها ودخول الظلمة فيها أحيى الله من أحياها وأنمى حياة من عمرها ونماها وبعد الفراغ من توزيع الصدقات قرئت ختمة شريفة فى الحطيم الشريف حضرها الامراء والقضاة والفقهاء والاعيان باسم السلطان سليم وأهدى الى صحائفه الشريفة ثوابها وقرر الامير مصلح الدين ثلاثين نفرا يقرأ كل واحد منهم جزأ شريفا قرآنيا فى كل يوم فتكمل بهم ختمة كاملة فى كل يوم يهدى ثواب ذلك الى السلطان سليم خان وقرر لهم مفرقا للاجزاء وداعيا وحافظا للاجزاء وجعل لكل واحد منهم اثنى عشر دينارا ذهبا فى دفتر الصدقات الرومية تصل اليهم فى كل عام ثم جمع طائفة من الفقراء أعطى لكل نفر ثلاثة دنانير ذهبا وسماها المتفرقة وكتب أسماءهم فى الدفتر ثم كتب بيوت فقهاء مكة المشرفة وكتب أسامى من فى ذلك البيت وعين لكل نفر منهم ثلاثة دنانير ذهبا والحق ذلك فى دفتر الرومية وسماها البيوت وهى باقية الى الآن ثم كثر عليه الفقهاء فجمعهم فى حوش كبير وأعطى لكل واحد دينارين ذهبا وسماهم العامة وكتب أساميهم وألحقهم بالدفتر وهذا الترتيب كله باق الى الآن وثوابه لمن أسس فعل الخيرات جار فى صحائف حسناته الى يوم القيامة * ثم خطب الخطيب شرف الدين يحيى النويرى خطبة التروية فى سابع ذى الحجة وفى ظهر اليوم الثامن توجه الناس الى عرفات وتوجه الامير مصلح الدين بالمحمل الرومى وتوجه المقر بالمحمل المصرى الى عرفات وصلوا فى يوم التاسع صلاة الظهر والعصر جمعا بينهما بعد الزوال بعد أن خطب الخطيب فى مسجد نمرة * ثم شرعوا فى الوقوف فى ذيل جبل الرحمة وخطب قاضى القضاة صلاح الدين بن ظهيرة امام الموقف الشريف خطبة عرفة ووقف بين يديه الامير مصلح الدين بالمحمل الرومى وأمير الحاج المصرى بالمحمل المصرى ولم يصل فى ذلك العام المحمل الشامى ودعا

الخطيب للسلطان سليم خان وكذلك سائر الحجاج وأفاض الناس حين أفاض الامام وكانت الوقفة
الشريفة يوم الاربعاء المبارك وباتوا بالمزدلفة ثم أفاضوا بعد الفجر يوم النحر الى منى ونزل شيخ الكعبة
من منى في يوم النحر ونزل معه الامير مصلح الدين لاتمام بعض الاوامر السلطانية وانفاذها ولايصال
الخير والاحسان الى الفقراء واستجلاب الدعاء من الصلحاء بنصرة السلطان سليم خان ودوام سلطنته
وفي ليلة الجمعة في أواخر شهر ذي الحجة الحرام طلب بعض الاولياء الصالحين والعلماء العاملين منهم
مولانا الشيخ عبد الكبير ابن الشيخ يس الحضرمي والشيخ عبد الله بن ناكبر الحضرمي وشيخنا الشيخ
محمد بن عبد الرحمن الحطاب المالكي وولده شيخنا الشيخ محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحطاب المالكي
والشيخ أيوب الازهري وجماعة من العلماء وأحضر لهم دواب يركبونها الى التنعيم عند مساجد السيدة
عائشة رضي الله عنها وركب معهم وأشار عليهم ان يعتمروا عن والدة السلطان سليم خان فأحرم كل واحد
منهم بالعمرة عن المرحومة ولبى عنها وعادوا الى الكعبة الشريفة فطافوا ثم سعوا وحلقوا وأهدوا ثواب
ذلك العمرة الى صحائفها ثم أحسن اليهم ورتب لهم الصرف في دفتر الصدقات فدعوا له وللمرحومة ولولدها
السلطان سليم خان رحمهم الله تعالى * ثم وصل من بندر السويس الى بندر جدة بحر اسفائن مسمارية
فيها حبوب الصدقات السلطانية لاهل الحرمين الشريفين جهزها ملك الامراء خير بك نائب السلطنة
الشريفة بمصر بأمر السلطان سليم وهي سبعة آلاف اردب جاء منها ألفا أردب لاهل المدينة وخمسة
آلاف اردب لاهل مكة ووصل الامر الشريف السلطاني أن يوزع ذلك الأمير مصلح الدين بمجلس في
الحرم وطلب قاضي القضاة شيخ الاسلام مولانا القاضي صلاح الدين بن ظهيرة الشافعي والقضاة
الثلاثة الحنفي والمالكي والحنبلي ونائب جدة الامير قاسم الشرواني وبقية الفقراء والاعيان وقرأ
عليهم المرسوم السلطاني واستشارهم في توزيع ذلك فذكروا له أنه لابد من عرض ذلك على شريف
مكة سيدنا ومولانا الشريف بركات وأخذ رأيه في ذلك فأرسل اليه ساعيا وكتبوا له
صورة الامر الشريف السلطاني واستدعوا رأيه العالي في ذلك فكتب اليهم الجواب بالمبادرة
الى امتثال الأمر الشريف وتوزيع ما وصل من حب الصدقة الشريفة على المستحقين بحسب اتفاق
الامراء من أعيان أهل المجلس فاجتمعوا ثانيا بعد وصول الجواب واتفق رأيهم على بيع بعض ذلك
الحب ليصرف في نقله من جدة الى مكة وأن يكتب أسامي الناس على العموم ويصرف الى كل واحد
ما يخصه من الحب وما يخصه من ثمن ما باعوه بعد استيفاء المصارف وأمر شيخ الاسلام الصلاحي أن
يباشر كتابة دفتر ذلك ورقم أسامي الناس الشيخ رضي الدين الجناوي الشاهد العدل كبير الشهود
العدول في باب السلام المكي فكتب بيوت كل محلة وكتب ما في كل بيت من أعداد الانفار رجالا
ونساء وأطفالا وخدما ما عدا التجار والسوقة والعسكر فكانوا اثنى عشر ألف نفر فخص كل نفر
رباعي بكيل الربع الكبير الذي هو أربع كيل من أربعة وعشرين قدحا بالكيل المصري المستقر
الآن وأن يدفع مع ذلك لكل نفر دينار ذهب فوزع ذلك جميعه على هذا الوجه ثم جعل لكل واحد
من القضاة الاربع ثلاث أرادب وزيد في أسماء بعض البيوت بحسب الاعتناء بشأن كبير البيت
وهذا أول صدقات الحب الشريف السلطاني واستمر الى الآن وزيد على ما كان بحيث صار فقراء
مكة والمجاورون يتعيشون بوصول هذا الحب اليهم اما في جميع السنة أو أكثرها فلو فقدوا ذلك
والعياذ بالله هلكوا وكذلك يرتفقون بالصدقات الرومية وغيرها مما كان سبب الانعام بها عليهم

سلاطين

سلاطين آل عثمان نصرهم الله تعالى وخلد ملكهم السعيد وطوق بقلائد احسانهم خدام الدعاء لهم من الأحرار والعبيد

أقامت فى الرقاب لهم اياد * هم الاطواق والناس الحمام

فيجب على كافة المسلمين عموما وعلى أهل الحرمين الشريفين خصوصا الدعاء بدوام سلطنة آل عثمان خلد الله سلطنتهم مدا الزمان فان دولتهم الشريفة هى عماد الاسلام واحسانهم متواصل الى كافة الأنام سيما جيران بلد الله الحرام وجيران نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام فانهم فازوا بالانعامات الوافرة فى أيام هذه الدولة الزاهرة وحازوا من الصدقات المتكاثرة فى نوبة هذه السلطنة القاهرة مالم يتصوروه من الدول الماضية الغابرة فالله تعالى يديم علينا سلطانهم كما دام علينا برهم واحسانهم

﴿ومما جدده الأمير مصلح الدين﴾ المذكور بناء مقام الحنفية فانه كان مسقفا على أربعة أعمدة فى صدره محراب عمل سنة احدى وثمانمائة فأراد أن يوسعه ويجعله قبة فأمر بعقد مجلس حضر فيه القضاة الأربعة والأئمة والعلماء والأعيان وقال لهم ان الامام الأعظم أبا حنيفة روح الله تعالى روحه الشريف بروائح الروح والريحان والرحمة والرأفة والرضوان جدير بأن يكون له فى هذا المسجد الحرام مقام يجتمع فيه أهل مذهبه ومقلدوه يكون أوسع من هذا المقام فذكر بعض العلماء انه لاشك فى عظم كل واحد من الأئمة رضوان الله عليهم أجمعين غير أن تعدد المقامات فى مسجد واحد لاستقلال كل مذهب بامام مما أجازه كثير من العلماء وان تعدد هذه المقامات فى وقت حدوثه أنكره العلماء غاية الانكار فى ذلك العهد ولهم فى ذلك العصر رسالات متعددة باقية بأيدى الناس الى الآن وان علماء مصر أفتوا بعدم جواز ذلك وخطأوا من قال بجوازه ثم انفض المجلس على غير اتفاق * ثم ذكر القاضى بديع الزمان ابن الضياء الحنفى ان جده القاضى أبا البقاء بن الضياء أفتى بجواز ذلك فشرع الأمير مصلح الدين فى اتمام ماقصده وهدم تلك السقيفة ووسع المكان وعمل فيه قبة عالية من الحجر الأصفر والأحمر الشميسى وأصرف على ذلك ذهبا كثيرا واستمر مقاما يصلى فيه امام الحنفية بالحنفيين الى أن غيره الأمير خوش كلدى أمير بندر جدة وهدم القبة وبنى المقام مربعا ذا طبقتين جعل الطبقة العليا للمكبرين لتصل أصواتهم الى سائر المسجد الحرام لارتفاع مكانهم وهو باق الى الآن على هذا الحكم ثم بعد فراغ الامير مصلح الدين من بناء القبة توجه الى المدينة الشريفة بما معه من الصدقات الرومية وتصدق بها على جيران النبى صلى الله عليه وسلم وكتب دفترا لأساميهم وأحسن اليهم احسانا وافرا واستجلب الدعاء منهم للمرحوم السلطان سليم خان ثم توجه الى الينبع وركب البحر الى مصر ثم الى الروم وأبقى له ذكرا جميلا وحصل ثوابا جزيلا رحمه الله تعالى

﴿الباب الثامن فى دولة السلطان المحفوف بالرحمة والرضوان سليمان خان وبعض ما فعله﴾

﴿من المآثر الحسان والصدقات الجارية والخيرات الباقية على صفحات الزمان﴾

﴿سقى الله عهده سحائب الرضا والغفران﴾

كان سلطانا سعيدا ملكا أيده الله لنصرة الاسلام تأييدا (وولى السلطنة) بعد وفاة والده المرحوم السلطان سليم خان فى سنة ست وعشرين وتسعمائة وجلس على تخت السلطنة وما دمى أنف واحد ولا أريق فى ذلك محجمة دم * ومولده الشريف سنة تسعمائة - كذا ذكره مولانا محمد بن خطيب قاسم الرومى فى حاشية كتاب له مختصر من ربيع الابرار للزمخشرى سماه الروضة ورأيت ذلك بخط طائفة

من الفضلاء المعتمدين فيكون سنه الشريف حين ولى السلطنة ستا وعشرين سنة واستمر فى السلطنة تسعا وأربعين سنة وكان عمره أربعا وسبعين سنة وشهرين وهو سلطان غاز فى سبيل الله مجاهدا لنصرة دين الله مرغم أنوف عداه بلسان سيفه وسنان قناه كان مريدا فى حروبه ومغازيه مسددا فى آرائه ومعازيه مسعودا فى معانيه ومغانيه مشهودا فى وقائعه ومراميه أبان ملائه ملك وانى توجه فتح وقتل وأين سافر سفر وسفك وصلت صراياه الى أقصى الشرق والغرب وافتتح البلاد الواسعة الشاسعة بالقهر والحرب وأخذ الكفار والملاحدة بقوة الطعن والضرب وأيد الدين الحنيفى بحدود سيفه الباتر وأقام الملة الحنيفية وأحيا ما هما من مآثر ونصر مذهب أهل السنة السنية وأظهر شعائر الشرائع وردع أهل الالحاد وقمعهم فمالهم من ناصر وكان مجدد دين هذه الامة المحمدية فى هذا القرن العاشر مع الفضل الباهر والعلم الزاهر والادب الغض الذى يقصر عن شأوه كل أديب وشاعر ان نظم نضد عقود الجواهر أونثر أزرى منثور الازاهر أونطق قلد الاعناق الدر الفاخر له ديوان فائق بالتركى وآخر عديم النظير بالفارسى يتداوله ابلغاء الزمان وتعجز أن تنسج على منواله فضلاء الدوران تتناقله الركبان بكل لسان وتستلذ بمعانيه العقول والاذهان وكان رؤفا شفوقا صادقا صدوقا اذا قال صدق واذا قيل له صدق لايعرف الغل والخداع ويتحاشى عن سوء الطباع ولا يعرف المكر والنفاق ولا يألف مساوى الاخلاق بل هو صافى الفؤاد صادق الاعتقاد منور الباطن كامل الايمان سليم القلب خالص الجنان لايرتاب فى كمال ديانته ولا يشك فى ولايته

وما تناهيت فى بثى محاسنه • الا وأكثر ما قلته أدع

وقد أهلنى الله لان قبلت يده الشريفه وتشرفت برؤية طلعته المنورة اللطيفه وشاهدت ذاته العلية المنيفه فرأيت نورا يتلألا وهيبة ألبسها الله مهابة واجلالا وجبينا يتضوع ضياء وجمالا وألبسنى تشريفه التشريف الشريف وشملنى باحسانه الوافر الوريف فها أنا الى الآن أتقلب فى جزيل انعامه واعيش الى الآن فى فائض تفضلاته واكرامه وأترحم على ذاته الطاهرة الجميله كلما تذكرت احسانه وجميله وأخلد ذكره الحسن فى أوراق الليل والنهار وأرقمه فى صفحات دفاتر الايام حيث لايمحوه كرور الدهور والاعصار ولا تزيده الايام الاجدة ونضاره ولايزال غضا طريا جديد البراعة والعباره

﴿فصل فى ذكر أولاده الكرام وأحفاده النجباء العظام﴾ كان أكرمهم وأنجبهم وأمجدهم وأسعدهم وأرشدهم وخلاصة عنصره وربيب حجره ومهد مشيد اركان الملك العثمانى السلطان سليم الثانى أجلسه الله على سرير القرب والتدانى وعوضه ملك الفردوس الباقى عن الملك الفانى مولده سنة تسع وعشرين وتسعمائة كما يأتى فى محله ومنهم السلطان الشهيد السلطان مصطفى وهو أكبر أولاده ومولده سنة أحدى وعشرين وتسعمائة استدعاه والده من المحل الذى ولاه وهو مغضبا الى اركلى وهو متوجه الى تبريز لأخذ بلاد العجم فوصل اليه ممتثلا أمره باذلا نفسه وكان والده يتوهم منه تمرد عليه فلما حضر بين يديه أمر طائفة من البكمان بخنقه بالخنق صبرا وقتل قهرا فى آخر شوال سنة ستين وتسعمائة وألطف ماقيل فى تاريخه ظلم بى حدود آخر شوال ثم أرسل ابراهيم باشا الخادم الى بورسا لقتل ولد طفل له اسمه مراد فمضى اليه وخنقه وبوالده ألحقه رحمهما الله تعالى ولم يرتكب السلطان سليمان هذا

الامر الفظيع الذى قطع القلوب أى تقطيع الا لتسكين الفتن واطفاء نائرة المحن ما ظهر منها وما بطن صونا لدماء المسلمين وحفظا لنظام التأمين والتطمين * ومن أولاده السعداء السلطان محمد مولده سنة ثمان وعشرين وتوفى على فراشه بأجله فى سنة خمسين وتسعمائة * ومنهم السلطان السعيد الشهيد الغريب الشريد بايزيد مولده سنة ثلاث وثلاثين وتسعمائة اجتمعت به مجلسا واحدا فى رحلتى الثانية الى الروم فى سنة خمس وستين وتسعمائة وقد استدعانى وأنا مار عليه بقرب كوتاهيه يقال لها قرابولك وكان الامر منسجما بعد بينه وبين والده المرحوم فعدلت اليه وحضرت بين يديه فأقبل على بكليته وأقبلت عليه وعظمنى وعظم أمرى وأكرمنى فوق قدرى وباسطنى وخاطبنى بدون واسطة وقربنى وأخلى مجلسه لى وحدى ولم يترك فرعا من الفروع الذى أجهد كشفها وتحقيقها الا سألنى عنها بلطف وتودد وأجبته عنها بأدب وسكون وملاحظة وادرجت مع ذلك نصائح تصلح للملوك وهو يصغى اليها ويحسن فى الاصغاء الى استماعها ويتفكه ويتلذذ بسماعها وسألنى فى الاقامة عنده لمصاحبته فاعتذرت اليه وكرر ذلك فأبيت عليه وكان الخير فى ذلك وكلما طال المجلس استأذنت للقيام فيأبى ويقول ما أسرع ما مللت حديثنا ونحن نستطيب حديثك وكان أول المجلس من صلاة الظهر واستمر الى بعد صلاة العصر فألبسنى تشريفه وأحسن الى بأثواب صوف ودراهم لها صورة وفارقته ودخلت اصطنبول وتوفيت والدته السلطانة أم السلاطين الخاصكية بعد دخولى وحضرت جنازتها وما اجرى من الصدقات عليها وكانت هى كالطلسم للسلطان بايزيد فلما توفيت حصل الشنآن بينه وبين أخيه السلطان سليم خان ادى الى فتن عظيمة ومحاربات قتل فيها نحو خمسين ألف نفس فصاعدا * ثم لما عجز عن مقاومة والده وأخيه هرب الى شاه طهماسب ففرح به وأقام ناموسه وعجز عن حفظه فشرع طهماسب فى المكر والخداع وتفريق عسكره والاعتذار بضعف بلاده عن ان تسعهم ففرقهم ثم استولى عليه وحبسه هو وأولاده وقتل عسكره واحدا بعد واحد واغتنم منهم مالا كثيرا وترددت الرسل بينه وبين السلطان سليمان فى تسليمه لوالده فلما تأكد طلبه من طهماسب ذكر انه أصرف عليه خزينة مال وانه لا يسلمه الا بأن تعطى له فسئل عن قدر ذلك فذكر مقدارا عظيما يكون مثل خراج مصر سنة فأمر السلطان سليمان بدفع ذلك القدر اليه فلما تسلمه احضر السلطان بايزيد وأولاده الاربعة وكل واحد كالبدر الطالع والنجم الساطع فخنقوا مع والدهم بادارة الوهق حتى لم يبق فيهم رمق واخمدوا انفاسهم بالاوتار واطفأوا تلك الانوار ورزقوا سعادة الشهادة بالاضطرار وهم السلطان محمود والسلطان عبد الله والسلطان اورخان والسلطان عثمان وحملت توابيتهم أجسادهم فى توابيت من قزوين الى سيواس ودفنوا فى سيواس واسكن الله الفتنة والوسواس وذلك فى سنة سبعين وتسعمائة * وكان للسلطان بايزيد طفل فى بورسا فأمر بخنقه أيضا فخنق والله تعالى يبل مضاجعهم بأقطار امطار الرحمة والرضوان ويعوضهم عن شبابهم الجنة ويروح أرواحهم فى غرف الجنان بالروح والريحان والحور والولدان والخيرات الحسان * ومنهم الشهزاده جهان كيرخان مولده سنة سبع وثلاثين وتسعمائة وكان احدب ظريفا ضعيف الروح لطيفا يحبه والده ولم يفارقه الى ان توفى بأجله فى حلب بمرض الخناق فى سنة ستين وتسعمائة ونقل الى اصطنبول ودفن فى تربة أخيه محمد الشهزاده * ومنهم الشهزاده السلطان مراد توفى بأجله فى سنة سبع وعشرين وتسعمائة * ومنهم الشهزاده السلطان محمود توفى بأجله سنة ثمان وعشرين وهذا والذى قبله مدفونان فى تربة السلطان سليم جدهما رحمهم الله تعالى * ومنهم الشهزاده السلطان

عبدالله توفى بأجله فى سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة وتوفيت والدة السلطان سليمان خان فى سنة أربعين وكانت صالحة زاهدة محبة لفعل الخيرات كثيرة الصدقات أسكنها الله أعلى غرف الجنات

﴿فصل فى وزرائه العظام﴾ كان أول وزرائه آصف زمانه بزرجمهر اوانه معدن الرأى والدها موضع العقل والنهى محمد الجمالى الصديقى المعروف ﴿ميرى باشا صلاقه﴾ وزير ابو الده فابقاه على وزارته مدة وكان السلطان سليم تتبع فى أول سلطنته طوائف العلماء التميزين بكمال العقل والرأى فلم يجد أكمل عقلا منه وكان قاضيا فى بعض القصبات فقربه وولاه وزارته العظمى واستمر فى مدة سلطنته وزيرا عنده لم يغير وسلم من قتله لكمال دربته مع كثرة من قتل من الوزراء وكان فاضلا كاملا متين الرأى عاقلا يضرب المثل بفراسته وعلمه وعقله وحلمه فلما وزر للسلطان سليمان رأى فى خدمته من شباب مماليكه من هو على الوزارة طائرا اليها بجناحيه ورأى سلطانا شابا يميل الى اقرانه وذوى اسنانه وهو بينهم لشيخوخته وكبر سنه لا يناسبهم فاستعفى عن الوزارة فأجيب الى سؤاله فانجمع للنظر فى حاله وماله ورأى لعين كماله عدم ثبات الدهر فى أحواله وأخذ فى زاد ترحاله وقدم من الخيرات ما يكون ذخيرة لآخرته من الباقيات الصالحات * فمن آثار عمارته فى ادرنه فى دربند وكان محل قطاع الطريق ينهب فيه قوافل المسلمين فعمل هنالك تكية عظيمة ومحلا لنزول المسافرين فيه طعام يطبخ لهم ويقدم اليهم ومسجدا جامعا ورتب لذلك كلما يحتاج اليه ووقف أوقافا عظيمة عليه فصار أثرا باقيا على صفحات الزمان وجميلا يذكر به ويدعى له الى انقضاء الدوران وله خيرات أخرى غير ذلك يلوح عليها علامات القبول عند الله تعالى * وكان عزله فى سنة تسع وعشرين وتسعمائة وولى مكانه فى وزارته العظمى من المماليك الذين عنده داخل السرايا أرده باشا ومه الخاص * ابراهيم باشا وكان شابا قد امتلأ غصن نضارته بماء الشباب ولازمته السعادة والعز والعظمة والدولة من جملة خدام الركاب وكان أقدم منه فى الخدمة أحمد باشا وظن ان الوزارة لا تعدوه الى غيره لانه من خواص مماليك والده وابراهيم باشا من مماليك السلطان سليمان نفسه فزاحمه فى صدر دست الوزارة وجلس بقوة دلاله بخدم السلطنة الشريفة فى محل الصدارة فشكاه ابراهيم باشا الى السلطان فدبر فى ازالته من ذلك المكان فطلبه السلطان سليمان وجعل له ايالة مصر وأعطاها تيمارا له واقطاعا يستجلب به خاطره فمضى الى مصر والباغى اوهار يتقصد ابراهيم باشا للعداوة السابقة ويرميه بما يوجب قتله فبرز الامر لجماعة من الامراء المستحفظين بمصر أن يجتمعوا عنده ويقتلوه فى محله بالأمر الشريف السلطانى ويولى أحدهم مكانه الى أن يرد الأمر الشريف باقامة بكار بكى بمصر وأرسلت هذه الاحكام الى الأمراء المذكورين فوقعت تلك الأحكام فى يد أحمد باشا قبل أن يصل الى الامراء المذكورين فجمعهم فى ديوانه وذكر لهم ان الأمر الشريف السلطانى ورد اليه بقتلهم فأذعنوا للامر الشريف فقتلهم ثم سولت له نفسه العصيان وظن أنه يأوى الى جبل يعصمه من السلطان وانه يقابل ويقاتل بجيش يلفقه من مصر فابدا الطغيان وادعى السلطنة لنفسه على المنابر وأمر أن يدعى لنفسه على المنابر فى أيام الجمع ورتب عسكرا من العوانية وجمع وضرب السكة باسمه على الدراهم والدنانير وصادر الناس وجمع المال الكثير وعصى عليه أهل قلعة الجبل فجمع عليها الشطار وأخذها بالحيل وقتل من فيها من عسكر السلطان وأوقد نيران الفتنة والعصيان وكان ممن حبسه للمصادرة جانم الحمزاوى ومحمد بك وأراد قتلهما وقد أخر الله أجلهما فاتفقا أنه دخل الحمام فكسرا الحبس وخرجا ونصبا سنجقا سلطانيا وناديا من أطاع السلطان فليقف تحت لوائه فاجتمع تحت السنجق خلق

كثير وجمٌّ غفير وصار سردارهم محمد بك وجانم الحمزاوي بمثابة الوزير وتوجها بالعسكر الى الحمام فكبسا
أحمد باشا وقد حلق نصف رأسه وأعجله النصف الثاني هجوم العسكر السلطاني فهرب الى السطوح
وتسلق من مكان الى مكان وخلص الى البر والتجأ الى شيخ عرب الشرقية عبد الدائم بن بقر وقوي
العسكر السلطاني ونهبوا ما جمعه من الاموال بالظلم والمصادرة وخرجوا اليه يطلبونه وخوفوا عبد الدائم
وحذروه من عصيان السلطنة فاتاهم به مسوكا فقطعوا رأسه وطافوا به في مصر وعلقوه في باب زويلة ثم
جهزوه الى الاعتاب السلطانية وذلك في سنة ثلاثين وتسعمائة وضبط محمد بك وجانم الحمزاوي مصر الى
ان ورد مصطفى باشا وضبط مصر بكارا بكيا واستمر ابراهيم باشا في وزارته العظمى معظما عند
السلطان نافذ الامر واسع العطاء كريما بذولا منفردا بالأمر والنهي الى ان أفرط بالدلال وزاد
في الاذلال واستبد بالامور واستقل بمصالح الجمهور فأنفت الغيرة السلطانية من ازدياد دلاله وما
تحملت زيادة عجبه وادلاله فطلبه السلطان في ليلة من أواخر رمضان الى عنده وأنعم عليه على جاري
عادته بنفائس الانعام ووهب له جميع ما في مجلسه من أواني الذهب المرصعة بالجواهر الغاليه وطيب
خاطره وطيبه بالعنبر والمسك والغاليه وأمره أن يبيت عنده في مجلس خاص به كان عادته أن يبيت فيه
وصبر عليه الى أن غلب سلطان الكرا على مقلته وأماقيه وأمر بذبحه وأخطأ الذابح نحره فصاح
مستجيرا والسلطان قريب منه وقد صمم فيه أمره فأمر أن يكمل ذبحه فقطع رأسه وأطفأ نبراسه
وأخمدت أنفاسه وما كانت نار الغضب على ابراهيم بردا وسلاما بل زادته حرا واضطراما ولعل كثرة
احسانه الى الناس ونشر مكارمه التي زادت على الحد والقياس نفعته عند الله في الدار الاخرى ولعله
صدقت نيته في بعضها فصادفت قبولا وكان عند الله الكريم ذخرا فكم من عمل صالح يكون سببا للنجاة
من النار ويدخل به صاحبه الجنة مع الشهداء والأبرار وما ربك بظلام للعبيد وكان قتله في الليلة
السادسة والعشرين من رمضان سنة احدى وثلاثين وتسعمائة ثم ولي الوزارة الوزير الثاني وكان
من الارنوت من مماليك المرحوم السلطان سليم خان وكان محبا لله لطيفا معتقدا في طائفة العلماء معتدلا
في أحواله صادقا في أقواله لطوفا في آرائه وأفعاله اجتمعت به في أول رحلة الى اصطنبول سنة ثلاث
وأربعين وتسعمائة وكان يكاتب والدي ويلتمس دعاءه فاكرمني وأقبل عليّ وأحسن الي وربّاني عند
السلطان وأخبره عن والدي وكبر سنه وانفراده بعلم الحديث وعلو السند في عصره فحصل لي احسان كثير
وانعام كبير جزاه الله عني أحسن الجزا ورحمه وأسكنه جنات العلى واستمر وزيرا الى ان توفي مطعونا
في سنة وأربعين وتسعمائة * ثم ولي بعده الوزارة العظمى لطفي باشا * وجنسه من الارنوت بياض بالأصل
وهو من مماليك المرحوم السلطان سليم وكان له فضل واشتغال ومشاركة في بعض الفضائل وله رسالة
بالتركية شرح فيها الفقه الاكبر لامامنا الأعظم أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه وله آثار حسنة
في وزارته منها ابطال الاولاق فانه كثر في تلك الايام وعم أذاهم للمسافرين وكانت الطرقات لا تخلو
منهم فيأتي أحد الاولاقية الى المسافر ويرميه عن دابته ويركبها الى أن تنقطع فيرميها ويأخذ دابة مسافر
آخر وهلم جرا ولا يسلم منهم أحد فلما ولي الوزارة أبطل ذلك كله وعين ان لا يرسل الاولاق الا
في المهمات العظيمة السلطانية المتعلقة بظهور عدو على المملكة يخشى عليها منه وامثال ذلك من الأمور
العظيمة جدا فقل ضررهم بعد ذلك على المسافرين وصارت الناس تدعو له بسبب ازالة هذه المظلمة
وكانت الخلفاء تعد خيلا لا تربط لهم في كل بلاد وقرية تحت حكومتهم وكانت تسمى خيل البريد فيركبها

الى ان يصل الى قرية اخرى فيجد فيها ايضا خيل البريد فيركبها ويترك الاول وهكذا الى ان يصل الى
بغداد ويرجع عنها بالامر الذى يؤمر به وكان لهم خدام لمثل هذه الخيول بعلوفات ومرتبات رحمهم الله
تعالى ورحم من أزال بقية ظلم الاولاق ورفعه عن المسلمين بالكلية وعين لهذه المهمات خيل البريد كما
كان يفعله الخلفاء رحمهم الله تعالى واستمر لطفى باشا الى ان وقع بينه وبين زوجته مشاحنة وهى اخت
حضرة السلطان سليمان * وسببها كثرة ميله الى الجوارى فشكته الى اخيها فطلبه عنده وضربه بالقوس
على رأسه وامر بمفارقتها ففارقها مكرها وطلب الاذن فى الحج فاذن له بالحج فى سنة تسع واربعين
وتسعمائة فاجتمعت به ورأيت تأليفه وامرنى بتعريبه فعربته ثم امرنى بان أترجمه بالفارسية فترجمته له
حسب ما اراد واحسن الى بسبب ذلك ثم عاد من الحج الى الباب واستأذن ان يكون فى قرية له من اقطاعه
فاذن له فاستمر فيها الى ان توفى رحمه الله فى سنة ست وخمسين وتسعمائة وكان عزله فى سنة سبع
واربعين وتسعمائة ﴿وولى مكانه الوزارة العظمى سليمان باشا الخادم﴾ هو من الأرنؤط من
مماليك السلطان سليمان وكان قد ولى ايالة مصر قريبا من عشرة اعوام ثم عزل عنها ثم اعيد اليها
وجعل سردار العسكر المجهز الى الهند لدفع ضرر الفرنج الملاعين عن المسلمين واستيلائهم على بنادر
الهند ثم كثرت اذاهم لبنادر اليمن ووصولهم الى بندر جدة والى بنادر السويس على مرحلتين وعاثوا
فى البحر واخذوا سفائن الحجاج والتجار غصبا ونهبوا أموال المسلمين وانفسهم قتلا واسرا وفتكوا
بسلطان كجرات السعيد السلطان بهادر شاه وقتلوه غدرا فتحركت الحمية السلطانية واضطرمت نار
العصبية الاسلامية السليمانية فامر سليمان باشا ان يعود الى مصر وان يعمر سفائن يركبها مع عسكر جرار
الى ارض الهند ويقطع دابر الكفار وينظف تلك الاقطار من الكفرة الفجار فعمل نحو سبعين غرابا
وسفائن مسمارية كبار لحمل الاثقال ورتب العسكر وقتل عند سفره جماعة لاذنب لهم غير صدق خدمتهم
وحسن الوفاء بعهدهم حسدا لهم على ما آتاهم الله من فضله منهم الأمير جانم الحمزاوى وولده الأمير
يوسف وكانا من السناجق العظيمة السلطانية ختم الله لهما بالشهادة وقتل أيضا الأمير داود بن عمر
أمير الصعيد وكان كريما باذلا حافظا للبلاد الصعيد بغير ذنب أتاه * ثم توجه الى الهند وصلب صاحب عدن
فى طريقه مع انه فتح له باب عدن وزين الأسواق بوصول العسكر المنصور السلطانى فبمجرد وصوله
اليه صلب على صارى السفينة وجعل سنجقا فى عدن وتوجه الى الهند وعاد منها الى اليمن من غير أن
ينال كفار الفرنج منه ضرر * وكان الأمير أحمد صاحب زبيد اذ ذاك من جملة اللوند الذين استولوا
على تلك الديار فأعطاه الأمان وطلبه الى عنده وقتله وولى بعده أميرا ممن كان معه وعاد الى مصر ثم الى
الباب العالى وأسفرت سفرته على أخذ زبيد وعدن وكان ظالما غاشما كثير سفك الدماء لا يعتمد له على
عهد ولا يوثق له بأمان لم يعهد منه شجاعة ولا اقدام وانما يفتك بمن يقع فى يده مأسورا مغلولا ودعاه
المرحوم السلطان سليمان خدمته لوالده السلطان سليم وصدقه فى الخدمة فولاه الوزارة العظمى عوضا
عن لطفى باشا لما عزله واستمر وزيرا أعظم مدة يسيرة الى أن عزله ﴿وولى مكانه الوزارة العظمى رستم
باشا﴾ فى سنة احدى وخمسين وتسعمائة وكان السلطان قد زوجه كريمته صاحبة الخيرات خانم سلطان
بنت السلطان سليم خان فملأ عين الوزارة وزين صدر الصدارة وهو من جنس الأرنؤط من مماليك
السلطان سليم خان رحمه الله تعالى وكان ذكيا ألمعيا حاذقا فطنا ذكيا ذا بال وسيع وفكر دقيق بديع
جيد الحافظة حسن القريحة ثاقب الرأى حليما صبورا رزينا وقورا كامل العقل كثير الأدب

اجتمع فيه من صفات الكمال مالم يجتمع فى غيره من الرجال ولم تكن فيه خصلة تشينه غير افراط حب الدنيا والميل الشديد الى جمعها بكرة وعشيا وتلك خصلة عمت أكثر الطباع والشيم وغلبت على أكثر أمالى الهمم ولا يملأ عين ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب واستمر فى الوزارة العظمى الى أن قتل المرحوم السلطان مصطفى وكان ذلك مما يقال بتأسيسه وتحيله وتدسيسه حتى ان بعض الظرفاء جعل تاريخ ذلك ما زعم انه الهم به وهو (مكر رستم) وتوهم من العسكر الاقدام عليه بالقتل فعزله السلطان صونا له وخوفا عليه من العسكر ﴿وولى مكانه الوزارة العظمى أحمد باشا﴾ الذى كان وزيرا ثانيا وكانت وزارته تحلة القسم ونقلة لما أضمره السلطان فى خاطره الاشم الى أن قدر الله ما قدره فى الأزل ودنا منه وقت حلول الأجل فعند بروزه من عرض الأمور عليه وانصرافه من بين يديه أمر بقتله عند الباب الداخل من السرايا فقتل هنالك وأخرج ملفوفا فى بساط وتفرقت عنه الأتباع والأسباط ومضى الى الله الكريم وأقدم على الغفور الرحيم ﴿وأعيد عوضه رستم باشا﴾ واستمر وزيرا كبيرا معتبرا اعتبارا كثيرا يعمل بآرائه وينفرد بانفاذ الأمر وامضائه لا يعارضه أحد من الاركان بل يطيعونه ويذعنون له غاية الاذعان وصار لا يتصرف قضاة العسكر والدفتردارية والبكلاربكية وسائر الحكام والنظار فى منصب جليل أو حقير صغير أو كبير الا بأمره واشارته وارادته بحيث لم يعهد لوزير قبله أحاط بالامور كاحاطته وحفظ جزئيات المناصب وكلياتها وتيقظ لحفظه ويقظته وكان لا يخلو من الصدقات والاحسان والميل الى العلماء والصلحاء واستمر على عظمته وجلالته لم يختل منها شئ الا فى فتنة السلطان بايزيد ولكل شئ حد محدود وأمد من المقدور معدود فان السلطان أتهمه بالميل مع بايزيد ونزلت بسبب ذلك مرتبته عنده بالبون البعيد ولكنها كانت تهمة واهية لا أصل لها وكان خائفا من ذلك أشد الخوف ولم يشاوره السلطان فى شئ من أحوال بايزيد وكان يشاور على باشا فأدى الحال الى ما أدى ولو استشار رستم باشا وأطاعه فى رأيه لم يتفاقم أمره الى ما آل اليه لحسن سياسته ودقة تدبيره والأمر الى الله من قبل ومن بعد وما قدر الله فهو كائن والاقدار تدور حول أولى الاخطار وكم أريق فى هذه الفتنة دم لا ذنب لصاحبه وكم قتلت بالتوهم نفوس مظلومة لا جرم لهم فى هذه البلاد ونوائبه

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى * حتى يراق على جوانبه الدم

واستمر رستم خائفا يترقب الى أن أمرضه الوهم وأنحله فصار فى فراشه يتقلب الى أن وافاه أجله المحتوم فمات وأقدم على الله الحى القيوم وهو عليم بما تخفى الصدور وهو الرحيم الرؤف الغفور وكان وفاته فى سنة ثمان وستين وتسعمائة ودفن فى تربة فى قرب تربة الشهزاده السلطان محمد رحمهما الله تعالى ﴿(وولى بعده الوزارة العظمى على باشا)﴾ وكان من جنس البوسنة وكان جسيما طويلا فهما فطنا نبيلا على خلاف ما يتراءى من عظيم هيكله وسمن بدنه فانها مظنة البلادة فى الاكثر فاذا أخطأ فيه مقتضاه زادت الفطانة غاية كما تنقل هذه الهيئة عن الامام محمد صاحب أبى حنيفة رضى الله عنه فانه كان فى غاية الفطنة والذكاء يضرب به المثل فى ذلك وكان على باشا له فضيلة فى الانشاء ونظر فى التاريخ اجتمعت به فى رحلتى الى اصطنبول فى سنة خمس وستين وتسعمائة فرأيته لطيف المحاورة حسن المفاكهة لذيذ المصاحبة ذكر لى بعض غزواته الدالة على قوة شجاعته وانه باشر قتال الكفار بنفسه وانه افتتح قلعة عظيمة لقتلعها منهم فقلت له ان لم يقيد ما ذكرته بالتدوين يذهب من الخواطر

ولا يعلم تفصيله بعد سنوات قليلة واذا في من كان حاضرا في هذه الغزاة في خبره أيضا ولم يذكره أحد بعد ذلك مطلقا وينمحي علمه من صفحات الوجود بعد قليل وذكرت له اعتناء علماء العرب بعلم التاريخ وانه من جملة كتب التاريخ اللطيفة الروضتين في أخبار الدولتين لابن أبي شامة ذكر فيها دولة السلطان نور الدين الشهيد والسلطان صلاح الدين بن أيوب وغزواتهما مع الفرنج وافتتاح البلاد ومداومتهما على الجهاد وهو كتاب في غاية اللطف وحسن الوضع باق على صفحات الزمان معلوم عند القاصي والدان مخلد فيه ذكرهما مؤبد في أطباق أوراق الدهر أثرهما وهما في الحقيقة أميران من أمرائكم أحدهما بكار بكي مصر والثاني بكار بكي الشام فلأي معنى لا تكون أخباركم وآثاركم متداولة في الكتب مخلدة في صفحات الأعصار والحقب فأعجبه كلامي كثيرا وأمر فاضل ذلك الوقت في الانشاء العربي صاحبنا المرحوم المقدس مولانا على جلبي الحميدي المعروف بقنالي زاده أفندي أحد أفراد الدهر علما وفضلا وواحد علماء العصر كمالا ونبلا طيب الله ثراه وجعل الفردوس الأعلى مثواه أن يكتب شيأ في ذلك فشرع وأنا بعد هناك في شيء من هذا المعنى فاق في بابه لطافة وحسنا ثم تقلبت الليالي والايام ومنعت الموانع من حصول ذلك المرام

ثم انقضت تلك السنون وأهلها * فكأنها وكأنهم أحلام

واستمر على باشا على وزارته العظمى في صدر صدارته الاجل الاسما نافذ الأمر عالي القدر صاحب الصدر الى أن نقله الدهر عن صدارته ورماه الزمان عن قوس وزارته ودعاه داعي الفنا الى حفرته فعاش سعيدا ومضى الى لحده وحيدا فريدا وانتقل من دار الفنا الى دار البقا حميدا وما صحبه مما خوله غير ما تقدم من أعماله وقدم على الله الكريم بما كسب من أفعاله وهو أرحم الراحمين بعباده في كرمه وافضاله *ثم ولي مكانه الوزارة العظمى* في ذلك المقام الارفع الاسما آصف الوزراء العظام أسعد السعداء الكرام *حضرة محمد باشا* أبقاه الله تعالى في صدر الصدارة على الثبات والدوام وصانه عن آفات الدهر وحرسه عن نوائب الايام وناهيك به عقلا وحزما وصرامة وعزما واقداما وحزما ودقة وفهما وفكرا ثاقبا ورأيا صائبا وحذقا وفطانة وصدقا وأمانة وكمالا وجمالا ومهابة واجلالا وسعادة واقبالا ونظرا في عواقب الامور واعانة لمصالح الجمهور ومحبة للعلم والعلماء واعتقادا في الصلحاء والاولياء واحسانا الى الفقراء والضعفاء وقال فيه

وما بلغت كف امرىء متناولا * من المجد الا والذي نال أطول

وما بلغ المهدون للناس مدحة * وان أطنبوا الا الذي فيه أكمل

وكان على وزارته وعظمته وصدارته الى أن أظهر اليد البيضاء وكمال التدبير والمضاء بحيث تحير العقلاء في ثبات جاشه وعدم نفرته واستيحاشه وضبط الجيش الاعظم وحفظ الخميس العرمرم وهم في أرض العدو في حومة القتال وقوة الحرب والصيال وشدة الجلاد والجدال وقد توفي السلطان سليمان في ذلك الحال فلم يقع شيء من الاختلال وانتظمت الاحوال وأخذت قلعة سكتوار من القزال وهي محشوة بالعدد والعدد من الفرنج الابطال والسلطان في السكرات والغمرات وكتم ذلك عن جميع خدامه ومن حوله من الأغوات وأرسل الى ولده السلطان سليم من مسافة ستين يوما وأجلسه على التخت وما وضعت الحرب أوزارها بل أضمرت المجاهدون نارها وغنمت المسلمون وخذلت النصارى بأنصارها ثم عاد العسكر وقد انتصر الاسلام وانهد ركن الاصنام وخذل الله في

هـذا الحال طوائف الكفار اللئام وكان ذلك الاحتيال والترتيب بتـدبيرهـذا الوزير الحاذق اللبيب ورأيه المنير الثاقب المصيب وتداركه لما يجب تداركه بالقلب الرحيب وكل ذلك بالالهام والامداد من الله القريب الرقيب مع كثرة احسانه وتواتر انعامه وتأنس ألطافه واسعافه وا كرامه سيما أهل الحرمين الشريفين من اجراء عيون وحفر آبار وابنية للفقراء وغير ذلك من المآثر الجميلة والخيرات الوافرة الجزيلة التي يجمـل أن تفرد بالتأليف وتورد في تصنيف حليل لطيف وله مآثر في أكثر بلاد الاسلام وقد أجرى عين الزرقاء بالمدينة الشريفة بعد ضعفها وأضاف اليها آبارا منها بئر أريس وهي بفتح الهمزة وكسر الراء وسكون الياء المثناة التحتية واهمال آخره معروفة بقباء من أعذب آبار المدينة ذكر المجد الفيروزابادى ان النبى صلى الله عليه وسلم تفل فيها ووقع فيها خاتم النبى صلى الله عليه وسلم من يد سيدنا أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه وهو جالس على حافة البئر فأنزل فيها رجالا ليخرجوه فلم يظفروا به وركب عليها اثنا عشر ناضحا لينزحها فغلبهم الماء ولم يوجد الخاتم وكان أول الفتن الى أن أدت الى شهادته واختلاف الناس على سيدنا على رضى الله عنه ٢ وبسند هذه الفتن الى ذهاب خاتم النبى صلى الله عليه وسلم * ثم ان في عصرنا جعل حضرة الوزير الاعظم دبلا من مائها الى مصب عين الزرقاء وأصرف على ذلك أموالا عظيمة فقويت العين وأضاف اليها مياه آبار أخرى حلوة فقوى بها جريان عين الزرقاء الى أن أجرى دبلا منها الى باب الرحمة وجعل فيه موضع يتوضأ فيه الناس لدخول المسجد الشريف وأجرى دبلا منها الى حمام عظيم مكلف بناه في المدينة الشريفة انتفع به أهل المدينة والوراد ودعوا له بالخير وصار ثوابا جاريا * ومن خيراته أنه أوسع بئر ذى الحليفة ويقال لها بئر على رضى الله عنه وهو ميقات اهل المدينة واهل الشام للاحرام لدخول مكة فحفرها ونزل في الارض الى أن جعل وجه الماء عشرا في عشر لئلا ينجس بوقوع النجاسة فيها وجعل احد جوانبها الاربع درجا ينزل من أعلاه الى أسفله حيث كان محل الماء فصار كل احد يرد اليه بسهولة بلا تكليف ولا احتياج الى دلو وحبل ونحو ذلك وهذا خير عظيم جزيل * ومنها أنه أمر أن يبنى له بمكة المشرفة بقرب الحرم الشريف موضع يكون مأوى للفقراء صونا للمسجد الحرام عنهم وأن يبنى فيه مساطب ومباسط تصلح للمرضى فتكون دار الشفاء لهم وأن يبنى من خارجه دكاكين وبيوت تكرى وتصرف في مصالح هذا المكان وأمر ببناء حمام في وسط البلد عظيم البنيان طيب الماء والهواء وله رباط أيضا وخيرات أخرى كلها مثوبات عظمى * ووردت صدقاته في سنة أربع وثمانين وتسعمائة مضاعفة ففرقت في الحرم الشريف على الفقراء والضعفاء وتضاعف الدعاء منهم لحضرته الشريفة ولعله السعيد بلغه الله تعالى مراتب الكمال ورزقه السعادة والاقبال والله تعالى يطيل بقاءه ويديم عزه وعلاه ويثبت وزارته العليا ويبقيه في صدر الصدارة الكبرى مادامت الدنيا محفوظا بالملائكة الكرام محروسا بعين الله الحى الذى لا ينام مصونا من نوائب الليالى والايام بجاه سيد الانام عليه أفضل الصلاة والسلام

وهذا دعاء شامل النفع للورى * فيارب قابل بالقبول دعائى

﴿فصل في ذكر غزوات السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان﴾ كان السلطان المرحوم المغفور له محبا للجهاد في سبيل الله باذلا نفسه وخزائنه باعلاء كلمة الله يؤثر التعب في ذلك على الراحه ويحب الغزو ويرغب اليه عن الاستراحه بحيث لم ترتفع راية الاسلام على رأس أحد من السلاطين العظام

أكثر جهادا ونصرة للدين وأكمل عدة وآلة لقطع دابر المشركين وأكبرهم ملكا وسلطانا وأكثر جيوشا وأعوانا وأقطع سيفا وسنانا وأحمى للاسلام وذويه وانقى للشرك ومنتحليه وأعدى للافرنج الملاعين وأقمع للكفرة والملحدين وأقوى نصرا للاسلام والمسلمين وأشد عضدا لاهل الايمان وأنصر لاهل السنة فى هذا الزمان من السلطان سليمان خان فكم دوّخ بلاد الكفر واستباحها ودمر أرض أعداء الله بحافر فرسه واجتاحها وجاس خلال معانيها وربوعها وافتتح صياصيها وقلاعها وأخرب معابد الاصنام وبنى مساجد الاسلام فلو نشرت صحائف الدول لكانت دولته غرة تلك الدول ولو عددت فتوحات السلاطين لكانت مساعيه طراز تلك الحلل وان غزواته يجب افرادها بالتأليف لتبقى فى صفحات الدهر ذكره الشريف وأما هذا التصنيف اللطيف فلا يسع منها الا الطفيف فنذكرها اجمالا فى هذه العجالة ونعدد أسماءها فى غصون هذه الرسالة فان فسح الله فى الاجل وساعد العمر على ذلك الأمل حررنا لآل عثمان تأليفا جليلا وكتابا حافلا طويلا ليستفيد منه علماء العرب والعجم مالا يجدونه فى كتب تواريخ الامم ان شاء الله تعالى *فنقول أول غزواته* عندما ولى السلطنة غزوة انكروس برز اليها من القسطنطينية العظمى لاحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وتسعمائة بعسكر جرار وجيش كرار عظيم المقدار يدك الارض دكا ويصك الجبال الراسيات صكا فلما وصلوا الى ديار الكفار جاسوا خلالها ونازلوا أبطالها وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها ونهبوا امتعتها وأموالها وفتحوا حصونها وقلاعها وملكوا أرضها وبقاعها* وأعظم ما افتتح قلعة بلغراد وهى قلعة منيعة محكمة باقية الى الآن بيد المسلمين وأخذوا غيرها من بلاد المشركين وغنموا الغنائم الكثيره وآثروا الآثار الاثيره* وعاد السلطان الى دار ملكه سالما غانما ظفرا منصورا مؤيدا بنصر الله ظافرا مسرورا وزينت البلاد لانتصاره وكان الله من أنصاره وذلك أول فتوحاته وغرة أسفاره وغزواته وكان عوده الى سرير ملكه فى شهر ذى القعدة الحرام سنة تسع وعشرين وتسعمائة وفى هذا العام عصى جان بردى الغزالى الجركسى أمير الامراء بالشام وجمع طائفة من عصاة العرب وبعض أشقياء الجراكسة وادعى السلطنة وخطب لنفسه فجهز عليه فرهاد باشا فقاتله بقرب الصالحية وأمسكه وقطع رأسه وأزال عن المسلمين ضرره وبأسه وأرسله الى الباب العالى وكفاه الله أمره ودرأ عن المسلمين فتنته وشره وذلك لسبع مضين من شهر صفر الخير سنة سبع وعشرين وتسعمائة * الغزوة الثانية غزوة رودس هى جزيرة فى وسط البحر ما بين اصطنبول ومصر وبنى بها الكفار حصنا حصينا وحصارا فى غاية الاستحكام مكينا اتخذه الكفار مكمنا لاخذ المسلمين وأتقنوه غاية الاتقان والتمكين بحيث رسخ أساسه الى تخوم الارضين وارتفع رأسه الى نجوم الشرطين والبطين ينظرون الى السفاين التى تمر فى البحر من مسافة بعيدة فيتهيؤن للتحصن ان كان ذلك عسكرا من المسلمين ويأخذونهم ان كانوا من سفار البحر واتخذته النصارى معبدا يجهزون أموالهم اليه ويصرف فى استحكام بنائه واتقانه وجعلوا من أعلاه الى أسفله من جميع جوانبه نقوبا وضعوا فيها المدافع الكثيرة الكبيرة ترمى على من يقصدها من الخارج فتصيب كل من قصدها من جهة من الجهات ولها باب من حديد وسلسلة عظيمة فى وسط البحر تمنع المراكب من الوصول الى الباب ويهيؤن أغربة مشحونة بالسلاح والمدافع والمقاتلة اذا أحسوا بسفينة فى البحر من الحجاج والتجار أخرجوا اليها تلك الأغربة ونهبوا ما فيها من الاموال وأسروا المسلمين

فيقطعون الطريق على هذا الاسلوب ويجمعون الاموال ويصرفونها على مقاتليهم وكان هذا دأبهم وعجزت ملوك المسلمين عن دفع ضررهم وعم اذاهم المسلمين فجهز السلطان سليمان خان بعسكره المنصور الى أخذ هذه الجزيرة وكان مسيره اليها ونزول مخيمه الشريف في اسكودر متوجها الى هذا الغزو لعشر بقين من رجب المرجب سنة ثمان وعشرين وتسعمائة وكان وصوله الى رودس ونزوله عليها في شهر رمضان من السنة المذكورة فأحاط بها برا وبحرا وما أمكن منه في البران يتقدم من حصار رودس للخندق العظيم الذي حولها لمامنعونه بالمدافع العظيمة من أعلا الحصار ولا أمكن من في البحر القرب منها للسلسلة الممدودة من الحديد في البحر والرمي على من يقرب بها بالمدافع الكبار فصاروا يصيبون المسلمين بالمدافع ولا تصيبهم مدافع المسلمين لمتانة عرض الحصار وعدم تأثير المدافع فيه فتأخرت عساكر البر قليلا وأمروا بسوق الرمال والتراب أمثال الجبال وتترسوا بها وصاروا يقدمونها قليلا قليلا الى ان وصل التراب الى الخندق وامتلأ به وقرب منه حدار الحصار وارتفع عليه وصار الكفار تحت المسلمين يصابون ولا يصيبون ورموا عليهم النار وأحرقوهم بنار الدنيا قبل الآخرة الى ان عجزوا ووهنوا وتحققوا أنهم مأخوذون فطلبوا من السلطان سليمان خان الامان وشرطوا ان يحملوا نساءهم وأطفالهم وأولادهم ونقودهم ويعزموا ان أرادوا فأجابهم السلطان الى ذلك بعد ان نهاه الوزراء عن أمانهم فانهم لم يبق لهم منعة ولا قوة وان الاموال التي أرادوا حملها خزينة كبيرة وان هؤلاء الكفار اذا نجوا بهذه الخزينة أمكنهم التقوى بها وجمع العسكر من النصارى والعود الى أذى المسلمين فلم يطع السلطان الى عزلهم ومنعهم وأعطاهم الامان وخرجوا بجميع أموالهم وما يعز عليهم وأخذوا أولادهم ونساءهم وخرجوا الى بلاد الغرب وعملوا قلعة في مملكة اسبانيا من جزيرة الاندلس في غاية الحصار والمتانة ويقال لها مالطه وصاروا يؤذون المسلمين ويقطعون الطريق على الحجاج والسفار وهم الآن يعدوا عن المسلمين الان أذاهم كثير وافسادهم عظيم وقد ندم السلطان سليمان خان على اعطاء الامان لهم وأرسل اليهم عمارة عظيمة بعسكر عظيم لأخذهم آخر عمره وجعل عليهم مصطفى باشا الوزير الاسفنديارى سردارا فوقع بينه وبين القابودان فتنة أدت الى انكسار المسلمين وكان في ضمير المرحوم تدارك هذا الامر وارسال عسكر آخر لأخذ مالطه وقهرها فما أمهله العمر رحمه الله تعالى * وكان فتح رودس لست مضين من شهر صفر الخير سنة تسع وعشرين وتسعمائة وحصل لاهل الاسلام غاية الفرح والسرور بهذا الفتح العظيم وعمل الناس لذلك تواريخ لطيفة ألطفها *يفرح المؤمنون بنصر الله* وفتحت أيضا عدة قلاع في ذلك العام * منها استانكوس وقلعة بودرم وقلعة أيدوس وغير ذلك من القلاع أخذت من الكفار الفجار وصارت في ضبط العساكر السليمانية وأرسل السلطان سليمان من وزرائه فرهاد باشا مع عسكر الى علي بك بن شاه سوار أمير أمراء ذلقادر فانه كان يظهر الطاعة ويبطن العصيان فاستدعاه الوزير الى عنده وأظهر انه وصلت اليه خلع شريفة سلطانية وتشاريف فاخرة خاقانية له ولاولاده فوصل اليه علي بك بن شهسوار مع أولاده الخمسة فأدخلهم فرهاد باشا الى محل خلوته وأمر بقتلهم فقطعت رؤسهم وجهزت الى الديوان الشريف وضبطت بلاده وكفى الله تعالى شره وذهب فساده ثم عاد السلطان من سفره الى تخت ملكه الشريف اصطنبول دار الاسلام لا زالت معمورة الى يوم القيام ووصل اليها في آخر ربيع الآخر سنة تسع وعشرين وتسعمائة * وفي هذا العام خرج معه كاشف الشرقية الأمير جانم الجركسي عن الطاعة وخرج معه كاشف البحيرة اينال بك واجتمع عليهما

طائفة من الجراكسة المناحسة وجماعة من عصاة العربان الأبالسة وأظهروا الطغيان فأرسل اليهم بكلر بكي مصر يومئذ مصطفى باشا عسكرا فقاتلوا فقتلا وقطع رأساهما وعلقا بباب زويلة ثم أرسلا الى الباب العالى وكانت فتنة ذرأ الله شرها وكفى المسلمين أمرها وذلك فى محرم سنة تسع وعشرين وتسعمائة ﴿الغزوة الثالثة عود السلطان سليمان خان الى كفار انكروس ثانيا﴾ فان ملك انكروس المسمى قزال ظهر منه الخلاف والجدال فتوجه اليه لقطع جادرته ومحو أثره وعادته السلطان المرحوم بالجيش الأعظم والخميس العرمرم وضرب أوطاقه الظفر فى حلقة لو بكار لاحدى عشرة ليلة خلت من رجب المرجب سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة * ثم رحل بالعساكر المنصورة الى أن وصل نهر طراوه وبنى عليه جسرا من السفاين وعدى بعسكره المنصور على الجسر واستمر الى أن وصل بودون وقاتل القزال الملعون لعشرين بقين من ذى القعدة الحرام سنة اثنتين وتسعمائة وفى ذلك الحرب الشديد انكسر قزال الكافر العنيد وانتصرت جيوش الاسلام وتمزقت عباد الصليب والاصنام وافتتحت فى هذه الغزوة عدة من القلاع المشهوره والحصون الشديدة المعموره وصارت من جملتها القلعة أونيك وقلعة تبروان وقلعة ابلوق وقلعة راحة وقلعة برقاص وقلعة بوكاى وقلعة واتوار وغيرها من قلاع الكفار وحصون أولئك الفجار وأعظمها قلعة بودون محل تخت انكروس الملعون فانها قلعة راسخة البناء عالية الفضاء سامية الى عنان السماء تناطح الثريا وتسامى السها وتطاول الجوزاء فى غاية الثبات والاتقان واستحكام الوضع والبنيان وهو تخت سلاطين انكروس ومقر سلطنة ملكهم المنحوس وعندما أحاط بها حضرة السلطان وجنود أهل الايمان علم من كان فيها من جنود الشيطان فخرجوا منها وهربوا وطلبت الرعايا الأمان فأمنهم حضرة السلطان وضبط البلاد وجعل فيها عساكر تحفظها من أهل العدوان وغنم كثيرا من الأموال والانفس والأرواح وقتل بأعداء الاسلام وسفك دمهم المطلول المباح وعاد الى مقر سلطنته ودار مملكته سعيدا مظفرا منصورا حميدا فوصل الى سرير السعادة وتخت الملك والسيادة فى أواخر شهر ذى القعدة الحرام سنة اثنتين وثلاثين وتسعمائة (الغزوة الرابعة غزوة بيج) اجتمعت كفار المان ونجمه قزال وقردنوس وأغاروا على قلعة بدوس وأخذوها من المسلمين على غرة فتوجه السلطان الى دفعهم وقلعهم وقمعهم وبرز من اصطنبول الى حلقة لو بكار لليلتين مضتا من رمضان سنة خمس وثلاثين وتسعمائة واستمر راحلا الى أن وصلت الى المخيم العالى امرأة من ملوك انكروس اسمها أردل مانواو داست البساط الشريف السلطانى والتزمت باداء خراج بلاد انكروس كل عام فقوبلت من الحضرة السلطانية بالقبول وخلع عليها الخلع الفاخرة وكتب لها الأحكام الشريفة بالامان وعادت الى بلادها فى أواسط ذى القعدة سنة خمس وثلاثين وتسعمائة واستمر الوطاق الشريف السلطانى الى أن وصل العسكر المنصور الخاقانى الى قلعة بودون وأحاطوا بها احاطة الأطواق بالأعناق وبياض العين بسواد الاحداق فى أواسط ذى الحجة من السنة المذكورة الى ان فتح الله بدون وسائر البلاد وخذل أهل الكفر والعناد وولوا هاربين مأسورين ومقتولين بعد الحرب الشديد لأربع مضين من محرم الحرام سنة ست وثلاثين وتسعمائة * ثم فتحت قلعة بتاق حصارى ثم توجه العسكر المنصور الى قلعة بيج وهى محل تخت نجمه القزال الخائب الآمال وأحاط بها مخيم مرادقات الفتح والنصر القريب بالعسكر المنصور المظفر من عند الله القريب المجيب وهرب منها نجمه قزال وهو مدبر مكسور وطلب أهل القلعة الأمان وأتوا بمفاتيحها الى حضرة السلطان

فاعطاهم

فأعطاهم الأمان وأخذ قلعة بنج وهي من أعظم قلاع الكفار المحكمة الراسخة القرار الرفيعة المنار وذلك لليلتين بقيتا من محرم سنة ست وثلاثين وتسعمائة ولما كانت القلعة المزبورة بعيدة من حدود ممالك الاسلام غير مأمونة من هجوم الكفار اللئام أمرت الحضرة السلطانية بهدمها فهدمت وأخربت ونهب أطراف تلك القلعة وسبيت أولاد النصارى ونساؤهم وتركت خرابا وعادت الحضرة السلطانية الى تخت الملك بالنصر والتأييد والعز المشيد والفرج الجديد فوصل الى اصطنبول في شهر ربيع الآخر سنة ست وثلاثين وتسعمائة ﴿الغزوة الخامسة غزوة المان﴾ لما وصلت الاخبار الى الابواب السلطانية ان نمچه قرال جمع طائفة من كفار المان وأراد الفساد والطغيان وتوجه السلطان سليمان خان الغازي في سبيل الله الى قتال هذا الكافر اللعين وبرز من دار الاسلام اصطنبول الى حلقة لو بكال العشر بقين من شهر رمضان المبارك عام ثمان وثلاثين وتسعمائة وأرسل في البحر لحفظ وجه البحر من النصارى وضبط الأسافل والسواحل أمير الامراء الكرام أحمد باشا القبودان بثمانين غرابا مشحونة بالابطال أهل الصفاح والكفاح وتطير اليهم بأجنحة الرياح من غير جناح الى أوائل شعبان المكرم من السنة المذكورة وافتتح عدة قلاع من بلاد الافرنج الفجار وأرهبوا الكفار واستعجلوا بهم الى عذاب النار ووصل المخيم الشريف السلطاني مع الجيش المنصور الخاقاني الى مملكة المان وحزوات وسبوا من ذراري الكفار أولادا كالنجوم الدراري ومن البنات والنساء خرائد كالكنس الجواري ونهبوا الاموال وقتلوا الابطال ودهكوا الرجال وهرب ملوكهم وتركوا رعيتهم وصعلوكهم وبذلوا ما بقي معهم من الاموال والذخائر على بذل الامان لهم ثلاثة أعوام فأجيبوا من جانب السلطنة الشريفة الى سؤالهم وكتب لهم بذلك توقيع الامان لترفيه حالهم وعادت الحضرة الشريفة السليمانية الى دار ملكها المسعود مظفر الجنود سعيد الجدود في أواخر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وتسعمائة ﴿الغزوة السادسة سفر العجم﴾ أرسل قبل سفره الميمون الوزير الاعظم ابراهيم باشا بعسكر معظم وجيش كالبحر الغطمطم وفئة كبيرة كالجيش العرمرم لليلتين مضتا من شهر ربيع الاول سنة احدى وأربعين وتسعمائة ووصل الى حلب وشتى بها هو ومن معه من العساكر المنصورة السليمانية والجيوش المؤيدة الخاقانية وبرز عقبه الوطاق الشريف السلطاني والمخيم المكرم الخاقاني العثماني الى اسكودر آخر شهر ذي القعدة الحرام سنة احدى وأربعين وتسعمائة واستمر متوجها لنصرة السنة الشريفة السنية وقمع طوائف الرفضة البدعية الى أن وصل مخيمه الشريف العالي الى ميلاق أوجان قريب تبريز وجاء الى استقباله المعظم ابراهيم باشا بمن معه من العسكر المنصور وتوجها بجميع العساكر المنصورة الى أخذ سلطانه من مملكة العجم فلما وصل الركاب الشريف السلطاني الى قصبة أبهر هرب من طائفة القزلباش محمد خان ذو الفادر ووصل الى لثم البساط الشريف العثماني فحصل له التشريف الشريف والانعام وقوبل بالتكريم والاحترام وصار من جملة عبيد الباب واستولى البرد الشديد على العسكر المنصور ونزل الثلج كأنه الجبال وهرب العدو ولم يقابل وصار يخادع ويقاتل فلزم التوجه الى بغداد لصون الرجال والابطال فلما سمع بوصول العسكر السلطاني حافظ بغداد من جانب قزلباش محمد خان هرب وترك بغداد ومن بها من الرعية فجاؤا بمفاتيحها الى الاوطاق السلطاني فنزل بعسكره المنصور في بغداد وأعطى الامان لاهلها واستكنوا في كنها وصارت من مضافات الممالك الشريفة العثمانية وكذلك ما حولها من جميع البلاد والبقاع وسائر الحصون والقلاع وكذلك

المشعشع والجزائر وواسط وأمرت الحضرة السلطانية بتحصين قلعة بغداد وحفظها وصونها من أهل الالحاد وزار مشهد سيدنا الامام الحسين وسيدنا الامام موسى الكاظم رضى الله عنهما ونور مرقدهما ونفع ببركتهما وبركات أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بتعميرهما وتكريم مزارهما الشريف وزار الامام الاعظم أبا حنيفة النعمان بن ثابت رضى الله عنه وبنى على قبره الشريف قبة وعمارة ومدرسة * وصلب فى بغداد دفتر داره المرحوم المغفور له الشهيد السعيد اسكندر چلبى بتهمة الخيانة فى المال السلطانى برمى أعدائه وحساده وبراءته من ذلك عند الله وعند الناس وكان كريما باذلا حسن الخلق محسنا ما خاب من قصده ولا حرم من أمله مع الفضل التام والكرم العام رحمه الله تعالى وأسكنه الفردوس الاعلى وبوأه من الجنات الدرجات العلى ويتهم الوزير ابراهيم باشا برميه بما رمى به وما حال عليه الحول حتى ألحق به واجتمعا فى دار الحق بين يدى الحكم العدل اللطيف الخبير * ثم توجه الركاب الشريف السلطانى بعد مضى شدة الشتاء لليلتين مضتا من شهر رمضان المبارك الى ناحية تبريز لانه بلغه ان الشاه شتى فى تبريز وانه مقيم بها فقصده للقتال ومحو أثره من صحائف الايام والليال فلما وصل الى منزل صاروقامش وصل من الشاه ومن باج لوخانم ايلچيا يطلب الصلح فلم يقابل بالقبول وتوجه الى تبريز فخرج الشاه وطائفة القزلباش من تبريز الى الاطراف والجهات وتركوا شهر تبريز خالية خاوية على عروشها وتبعهم العسكر المنصور فما ظفروا بهم وصار الشاه يتنقل من مكان الى مكان وتكررت رسله الى الابواب العالية يطرق باب الصلح وتحقق حضرة السلطان الاعظم ان الصلح خير فقبل الصلح وكتبت الاجوبة بقبول ما طلبه وانطوى بساط الحرب وتوجه المخيم الشريف السلطانى الى العود من بلاد العجم وغنم السلطان فى تلك السفرة أخذ البلاد وفتح عراق العرب وألطف تاريخ قيل فيه * فتحنا العراق * وكان وصول الركاب الشريف السلطانى مع العسكر المظفر العثمانى الى محل التخت الشريف السليمانى مع النصر والتأييد الربانى والفتح العظيم السبحانى لاربع عشرة ليلة مضت من شهر رجب سنة احدى وأربعين وتسعمائة * الغزوة السابعة غزوة أولونيه المعروفة بكورفس * وهى بلاد الكفار الفجار من اتباع اسبانيا الغدار توجه اليها فى البر بركابه الشريف العالى وأرسل فى البحر لطفى باشا والقابودان خير الدين باشا بنحو خمسمائة غراب مشحونة بعساكر البحر الى ان نزل بمخيمه المنصور على أولونيه فى سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة فاستباحها قتلا وأسرا ونهبا وافتتحت فى جزائر ذلك البحر أربعة وثلاثون حصنا حصينا هدمت الى الاساس وقتل من فيها من الناس وغنمت جيوش المسلمين من طائفة الكفار المشركين ما لا يحصى من الاموال والسبايا وعاد السلطان مع سائر عساكره المجهزة برا وبحرا الى تخت الملك الشريف سالمين غانمين والحمد لله رب العالمين * الغزوة الثامنة غزوة قرابغدان * توجه بنفسه النفيسة لافتتاح تلك البلدان وبرز بعسكره الجرار لقتل الكفار الفجار بالسيف والنار ووصل ركابه الشريف الى تلك البلاد وقتل فيها وفتك وأسال الدماء وسفك وافتتح القلاع وأخذ الرقاع والبقاع وغنم أموالا ومغانم كثيرة وأسر نفوسا عديدة غير محصورة وعاد الى تخت ملكه الشريف مؤيدا من عند الله تعالى بالنصر والتأييد والفتح الجديد فوصل الى دار الاسلام القسطنطينية الكبرى لست ليال بقين من ربيع الآخر سنة أربع وأربعين وتسعمائة * الغزوة التاسعة غزوة اسطوبورمن بلاد انكروس * وذلك ان السلطان رحمه الله كان أنعم على ازدلبالو بتلك البلاد وبلغه انها توفيت وان عجيه قرال ومن معه من الكفار والفجار أرادوا الاستيلاء

على بلادها بعد موتها فتوجه السلطان رحمه الله الى دفع اولئك الفجار سنة ثمان وأربعين وتسعمائة وهم على قتال غيره قزال لانه أراد أخذ بودون ووسوست له نفسه ما يتخيله المفسدون فلما أحس بوصول العسكر المنصور السلطانى فرهاربا الى الجبال وتقهقر عن القتال فتتبعه الابطال ففرقهم فى أطراف تلك الجبال فجالت العساكر المنصورة السلطانية فى تلك البلاد وقتلوا أهل البغى والعدوان والفساد وفتكوا بجيوش الكفر والطغيان وسبوا الاولاد والاطفال والنسوان وتركوا ديار الكفر قاعا صفصفا وغنموا مغانم كثيرة وذخائر تختار وتصطفى وفتحت قلعة اسطوبور بقرب بودون بعد الحرب الشديد وأضيفت الى الممالك السلطانية وضبطت وحفظت * وفتحت أيضا قلعة وشره وقتل من الكفار ما لا يعد ولا يحصى وعادت الحضرة السلطانية بمن فى ركابها الشريف من العساكر المنصورة العثمانية الى مقر تختها الشريف منصورين مؤيدين لتأييدهم الدين الحنيف * الغزوة العاشرة غزوة بيج واسترغون * توجه الركاب الشريف السلطانى والخيم المنصور السليمانى الى افتتاح عدة قلاع فى بلاد بيج لتنظيف أطراف البلاد من طوائف الكفار أهل العناد من قطع دابر أولئك الفجار بالغزو والجهاد فى سنة خمسين وتسعمائة وبرز من دار الملك اصطنبول بالجيش المتواتر الموصول والجند الاعظم المهول الى ان أحاط بقلعة ويوه وقلعة شقلاوش وهما من أحكم القلاع السامية وأعظم الحصون المرتفعة العالية تناطح النطح وتسامك السمك وتوازن الميزان فافتتحها فى غرة ربيع الاول من ذلك العام وصارت من مضافات ممالك الاسلام * ثم فتحت قلعة استرغون وهى قلعة فى غاية الاتقان والاستحكام أشد فى احكام البنيان من الاهرام كان قنديل رأسها نجوم الثريا وحارس بابها الكوكب العواء ونطاق منطقها وشاح الجوزاء مشحونة بالاموال والذخائر مملوءة بالعدد والعدد الوافر ألقى الله تعالى فى قلوب أهلها رعب عساكر الاسلام وخذلهم الله تعالى فما منعهم ذلك المنيع وما وجدوا الاعتصام فأخذوا أخذا وبيلا وأسروا وقتلوا تقتيلا ونهبت الاموال وسبيت النساء والاولاد والاطفال وأخذوا ما حولها من البلاد والبقاع وافتتح ما يقرب بها من الحصون والقلاع وكذلك فتحت قلعة استولين بلغراد وهى قلعة سامية العماد راسخة الاوتاد لم يخلق مثلها فى البلاد كأنها من بناء شداد أخذت وضبطت وعين لها ولغيرها من القلاع الحفاظ النبلاء الايقاظ ونصب لكل منها دزدارا وحصارية وقاضيا يجرى الاحكام الشرعية وسنجقا للاستحفاظ وصارت من مضافات الممالك المحروسة السلطانية وصارت الكنائس مساجد للصلاة والعبادات والبيع مشاهد للخيرات والطاعات وعاد الركاب الشريف السلطانى الى سرير ملكه وتخته الخاقانى مظفرا منصورا سالما غانما مسرورا * الغزوة الحادية عشر سفر القاص * وهى تحتمل تفسيرا طويلا لا تحتمله هذه العجالة فنعدل عن الاسهاب والاطالة * ومجملها ان القاص اخو الشاه لابيه وكان واليا على شروان فوقعت بينهما مشاحنة فى الباطن أدت الى توجه القاص الى الابواب الشريفة السلطانية وقبل اليد الكريمة الخاقانية السليمانية فحصل له من الحضرة السلطانية اقبال عظيم ومرتبة عليه وانعم عليه بالانعامات الجليلة السنية ووعده بأن ينصره على اخيه ويؤيده ويعلى كلمته ويواليه وأمر الوزراء العظام وأركان دولة الاسلام ان يقدموا له الهدايا الجزيلة والتحف الوافرة الجميلة ففعلوا ذلك وجابروه وعظموه وناصروه وكان ذلك فى سنة اربع واربعين وتسعمائة واستمر ملتجئا الى الظل الشريف الوريف الممدود على القوى والضعيف وصار السلطان سليمان خان يصاحبه ويلاطفه ويقربه

ويستدنيه بوالفه الى ان صمم العزم الجزم وشد نطاق الصرامة والحزم وبرز بعسكره المظفر ونصب أوطاقه فى اسكودار لثمان ليال مضين من شهر صفر الخير سنة خمس وخمسين وتسعمائة ومعه القاص ميرزا امكرما تكريما ومعززا تعزيزا وتوجهت الحضرة الشريفة السلطانية الى أخذ تبريز وامر القاص ميرزا ان يشتى فى بغداد الى ان يمضى زمان الشتاء فيهجم بالعسكر المنصورة فى بلاد العجم فاستمر الركاب الشريف السلطانى سائرا بالعون السبحانى والنصر والفتح الربانى الى ان أخذ قلعة وان بعساكر اهل الايمان وجعل فيها بكلر بكيا وعسكرا قويا فانها اقفل ديار العجم وحصنها بآلات الحصار والخدم واستمر القاص ميرزا متوجها الى بغداد ثم توجه ببعض العساكر السلطانية الى دركزين ووصل الى * همدان وتعدى منها الى اذربيجان ونهب تلك البلدان واستباح أوطاق أخيه ميرزا وعاد الى المخيم الشريف السلطانى والوطاق المحفوظ الخاقانى بما نهبه من الأموال وحصل له غاية الاعتبار والاقبال وقلب برد الشتاء فشتى حضرة السلطان بالمخيم الشريف السلطانى فى حلب وجهز جيشا كثيفا مع أحمد باشا لحفظ حدود البلاد وغزا طائفة الكرج واغتنم منهم غنائم وعاد الى الأوطاق الشريف السلطانى بغنائمه • وأما القاص ميرزا فنابذ بعض الوزراء وخرج من بغداد مغاضبا وأظهر النفور من جانب السلطنة الشريفة ولم يراع الايادى الجميلة السابقة واللاحقة وعزم الى أمير من أمراء الاكراد فعلم أخوه به فارسل اليه وخادعه واستدعاه الى عنده ودلاه فى بئر وطم أثره ومحى ذكره فرزق الشهادة ولحق بالشهداء والى الله المصير • ولما وصل علم ذلك الى الحضرة الشريفة السلطانية تأسف على ذهابه وعزل ذلك الوزير عزلا مؤبدا وعادت العساكر المنصورة السلطانية فى ركاب الحضرة السليمانية الى دار ملكها السعيد بالنصر والتأييد والسعد الجديد والعز المشيد فى أواخر سنة خمس وخمسين وتسعمائة

﴿الغزوة الثانية عشرة سفره الى الشرق﴾ لما بلغ الحضرة الشريفة السلطانية تحرك طائفة القزلباش على بعض الحدود السلطانية من جانب الشرق بادرت الحضرة السليمانية بجيوشها المنصورة العثمانية الى أن تشتى فى مدينة حلب وبعد انقضاء الشتاء يتوجه الى اخذ قزلباش فبرز الوطاق الشريف السلطانى من دار الاسلام القسطنطينية العظمى الى اسكودار فى أوائل شهر رمضان عام ستين وتسعمائة واستمر الى ان وصل الى اركلى يقطع المراحل والمنازل فاستقر أوطاقه الشريف العالى خارج اركلى واستدعى ولده السلطان مصطفى فامتثل امره الشريف ووصل اليه ودخل الى جركاه العالى فما برز الا فى تابوت حمل على الاعناق الى بورسا واتبع به ولده ودفن معه فى بورسا ايضا عليهما الرحمة والرضوان ورو روائح الروح والريحان وقع ذلك فى أواخر شوال سنة ستين وتسعمائة وقد قدمنا شرح ذلك وتوجهت الركائب الشريفة السلطانية الى بلاد حلب واستمر بها ايام الشتاء وتوفى بها السلطان جهانكير قرة عين السلطنة الشريفة وثمرة فؤادها العشر ليال بقين من ذى الحجة الحرام سنة ستين وتسعمائة وجهز تابوته الى اسطنبول فى ذى الحجة سنة ستين وتسعمائة • ولما انقضى الشتاء توجه الركاب الشريف السلطانى الى الجوان من بلاد العجم فأخلاها الشاه وتركها خالية ومضى الى الاطراف والجوانب ولم يقاتل ولم يحارب ولم يقابل فعادت الحضرة السلطانية الى أماسيه وأقام ليكر على بلاد العجم ثانيا فجاءت رسل الشاه وطرق باب الصلح فرأت الآراء الشريفة السلطانية اجابة الشاه الى سؤاله ترحما للعسكر السلطانية وصونا للدماء الزكية فأنعمت على الشاه بقبول ما يتمناه وامرت بارسال اجوبة حسب مراده ومناه وعادت حضرتها الشريفة الى تخت ملكها الشريف محروسا ظل سلطانها الوريف

* قوله همدان لعلها بالمعجمة لانها التى للعجم وأما همدان بالمهملة فهى باليمن اه

واستقر

واستقرت ذاتها العلية قريرة العين بالسعادة الباهرة السنية على تخت الخلافة البهية بدار الاسلام قسطنطينية لازالت بسيوف السلطنة العثمانية محروسة محمية آمين وذلك فى سنة احدى وستين وتسعمائة ﴿الغزوة الثالثة عشر غزوة سكتوار وهى آخر غزواته الكبار﴾ ولما كان دأب هذا السلطان الأعظم المجاهد فى سبيل الله ونصرة دين الاسلام كدأب آبائه وأسلافه العظام ولكل امرء من دهره ما تعود وعادة الجهاد فى سبيل الله أعظم ذخرا عند الله وأعود تاقت نفسه النفيسة الى الجهاد واشتاقت الى قتال الكفار الفجار وصممت على السفر الى بيج ودمشوار وكان مزاجه الشريف متوعكا باستيلاء مرض النقرس عليه ويتألم ألما شديدا ويتصبر صبر الرجال ويظهر غاية التجلد والاحتمال فمنعه عن السفر رئيس الاطباء صاحبنا المرحوم الشيخ بدر الدين محمد بن محمد القوصونى المصرى وكان من أحذق الحذاق وأفضل الفضلاء فى سائر العلوم على الاطلاق أديبا أريبا كاملا لبيبا طبيبا حبيبا بينى وبينه ملاطفات ومراسلات أدبية ومطارحات تجتنى ثمار الادب الغض من رياضها وتقتطف ازهار المفاكهة من أكمام الغصان حياضها برد الله مضجعه وأنزل عليه من زلال رحمته سلسبيلا وسقاه من الجنة كأسا كان مزاجها زنجبيلا فلم يمتنع السلطان المرحوم عن السفر ولم يطع الطبيب فيما ذكر وقال له اريد اموت غازيا وابذل روحى فى سبيل الله مجتهدا ساعيا فبرز بجيوشه المنصورة وجنوده وراياته المقرونة بالنصر وبنوده والظفر يقدمه والسعد يخدمه وأنقض كالشهاب الثاقب والحسام القاطع القاضب حتى طرق الكفار كالاحلام الطوارق وخفقت أعلامه كالرياح الخوافق واختطف أبصارهم ببوارق الأسياف والصواعق * وكان بروزه من القسطنطينية المحمية فى يوم الاثنين المبارك لتسع مضين من شوال المقرون بالظفر والسعادة والاقبال سنة اربع وسبعين وتسعمائة واستمر يموج بجيوشه كالبحر المواج ويفيض احسانه على فقير محتاج كالغيث الثجاج وهو يقطع المراحل والمنازل ويسلك فجاج المسالك والمناهل الى قطع الانهار الغزار والمياه العظيمة الكبار بجسور محكمة بنيت عليها وسفائن كالاطواد فرقت فيها لتدغم الجسور اليها الى أن أمكن تعديه ذلك بالخميس العرمرم ومرور ذلك الجيش الاكبر والسواد الاعظم ونزلوا بعد الحط والترحال ومعانات الاهوال على قلعة سكتوار من أعظم قلاع الكفار وهى أعظم قلاع دمشوار فأحاطوا بها كاحاطة الطوق بالعنق وداروا حولها وعليها دوران الافلاك على الافق وهى مدينة حصينة واسعة شاسعة مكينة راسخة البناء فى حضيض الماء شامخة الهواء الى عنان السماء فى غاية العلو والتحصين واعلاء درجات الاستحكام والتمكين واقوى ما بيد الكفار من المكان الحصين كانها فى الارتفاع والشهوق تناطح النطح وتعاوق العيوق وكان بريق نيرانها لمعان البروق عند الخفوق مشحونة بآلات الحرب والمدافع مملوءة بالمكاحل الكبيرة والمقامع موسوقة بجيوش النصارى وابطالهم موسومة بغشيانهم الشجعان من رجالهم فخفرهم عسكر الاسلام وحاصروهم وضيقوا عليهم مسالكهم وصابروهم وناوبوهم وصالوا عليهم وحاشوهم فتحصن الكفار فى قلعة سكتوار ورموا على المسلمين بمقامع النار فتترس المسلمون بالمتاريس وهجموا على الكفرة المناحيس وحمى الوطيس وتضمن الخميس وأقدم من الابطال المشهورين والفرسان والشجعان المخبورين من أظهر بشجاعته يده البيضاء آية للناظرين وطلب من الله النصر وهو خير الناصرين وعند اشتداد الحرب والقتال وتصادم الأبطال تصادم أطواد الجبال اذ غلب على السلطان توعكه وسقمه

واشتد عليه مرضه وألمه وغمرته غمرات الموت ولاحت أمارات الفوت وهو يلهج الى الله المجيب ويتضرع الى جنابه الرحيب بطلب الفتح القريب فاستجاب الله الكريم دعاه وحقق بحصول المراد رجاه واضطرمت النار فى خزينة بارود الكفار وهى مخزونة بقلعة سكتوار وكانوا أعدوها لقتال المسلمين وأكثروا منها لتكون موفرة عندهم فأصابها شرر من النار بتقدير القدير القهار فأخذت جانبا كبيرا من القلعة رفعته الى عنان السماء وزلزلت الأرض زلزلة هائلة الى تخوم الماء وتطايرت جلاميد أحجار الى الهواء ورمت شررا ولهبا ودخانا الى أن امتلأ الفضاء فضعفت بذلك طائفة الكفار وعذبهم الله بالنار قبل عذاب النار وتزاحم المجاهدون فى سبيل الله معتمدين على نصر الله بآلات الحرب والجهاد وصدق النية والاعتقاد واشتد القتال والجلاد ورمى الكفار بمدافع أقوى من الصواعق واخطف للأسماع والابصار من الرعود والبوارق وثبت المسلمون وأقدموا على النيران وهم كالأطواد الراسخة بقوة الجنان لم يتأوه أحدهم والنار تحطمه وتدفعه ولم يبال على أى جنب فى الله مصرعه وتقدم الجيش المنصور وطبول الحرب ومزاميرها كنفخ الصور يوم النشور والمدافع تتهادى كما تتهادى الشهب وتترامى بالأحجار كما تترامى بوارق السحب وتوجهت المسلمون توجها خالصا لوجه الله وحملت على الكفار حملة واحدة بعناية التيقظ والانتباه غير مبالين بموت ولا حياه موقنين بأن لا مفر عما قدره الله وتعلقوا بأطراف القلعة واقتلعوها من ايدى الكفار وهجموا عليها ودخلوها من فوق الاسوار وقتل منهم من قتل ونجا من نجا بمساعدة الاقدار وافتتحت قلعة سكتوار ورفعت الرايات السلطانية على أعلا منار ووضعت السيوف السليمانية فى جميع الفجار وقتلوهم وساقوهم الى جهنم وبئس القرار وعند وصول خبر الفتح الى السلطان سليمان فرح وحمد الله تعالى على هذه النعمة والاحسان واستسلم لربه وقال طاب الموت الآن وانتقل من سرير الدنيا الى سرر مرفوعة فى أعلا الجنان وأخفى حضرة الوزير الأعظم محمد باشا وفاة السلطان وخرج من عنده وفرق الجوائز السنية والانعامات واعطا الامراء والبكاربكى الترقيات وأمر بارسال البشائر الى سائر الاطراف والجهات وأرسل سرا يستدعى السلطان سليم خان الثانى ويستعجله فى سرعة الوصول الى التخت الشريف العثمانى وكتم ذلك عن جميع الخواص والخدام وعن جميع العسكر والامراء والوزراء وسائر الانام وأحسن التدبير فى هذا الكتم وهو من اللازم الحتم فى الامور العظام واستمرت أمور المملكة فى غاية الانتظام وأحوال العسكر المنصور السلطانى فى أعلا درجات النظام وهم فى ديار الكفر بعيدون عن ديار الاسلام وذلك من كمال العقل التام والرأى الثاقب الصائب التمام الى أن وصل حضرة السلطان سليم الى مقر تخته الكريم وأذن للعساكر المنصورة بالرجوع الى أوطانهم وعاد مع أركان دولته ووزراء سلطنته وبقية عساكر بابه الى القسطنطينية العظمى كما سيأتى تفصيله ان شاء الله تعالى وغسل المرحوم السلطان سليمان وحنط وكفن وانشد لسان الاعتبار يقول فيه

انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها * هل راح منها بغير القطن والكفن

ووضع فى تابوت وحمل على الاعناق وقد قلدها فى حياته قلائد نعم حلت محل الاطواق وهو ممن يليق ان ينشد فيه

كم قلت للرجل المولى غسله * هلا أطاع وكنت فى نعمائه

وانزل أفاويه الحنوط وغيرها * عنه وحنطه بطيب ثنائه
ومن الملائكة الكرام بحمله * فلطالما حملن من نعمائه

واستمر محمولا الى ان اتى به الى اصطنبول وخرج لاستقباله جميع العلماء والموالى العظام والمشايخ الاتقياء الكرام وسائر اصناف الانام وبكوا عليه بكاء طويلا وأكثروا نحيبا وعويلا وصلوا عليه وأمهم فى صلاة الجنازة المفتى الاعظم مولانا أبو السعود أفندى عالم بلاد الاسلام ودفن فى تربة اعدها لنفسه رحمه الله تعالى ورثاه الشعراء بكل لسان بقصائد طنانة سارت به الركبان أعظمها وأحسنها قصيدة المفتى المذكور وهى طويلة حسنة حذفت بعضها رواما للاختصار وذلك قوله رحمه الله تعالى

أصوت صاعقة أم نفخة الصور * فالارض قد ملئت من نقر ناقور
أصاب منها الورى دهياء داهية * وذاق منها البرايا صعقة الطور
تهدمت بقعة الدنيا لرفعتها * وانهد ما كان من دور ومن سور
أمسى معالمها يتما مقفرة * ما فى المنازل من دار وديور
تصعدت قلل الاطواد وارتعدت * كأنها قلب مرعوب ومذعور
واغبر ناصية الخضراء وانكدرت * وكاد يعلو الغبراء بالمور
فمن كئيب وملهوف ومن دنف * عان بسلسلة الاحزان مأسور
فيا له من حديث موحش نكر * يعافه السمع مكروه ومنفور
تاهت عقول الورى من هول وحشته * فأصبحوا مثل مجنون ومسحور
تقطعت قطعا منه القلوب فلا * يكاد يوجد قلب غير مكسور
أجفانهم سفن مشحونة بدم * تجرى ببحر من العبرات مسجور
أتى بوجه نهار لا ضياء له * كأنها غارة شنت بديجور
أم ذاك نعى سليمان الزمان ومن * مضت أوامره فى كل مأمور
ومن ومن ملأ الدنيا مهابته * وسخرت كل جبار وتيمور
مدار سلطنة الدنيا ومركزها * خليفة الله فى الآفاق مذكور
معلى معالم دين الله مظهرها * فى العالمين بسعى منه مشكور
وحسن رأى الى الخيرات منصرف * وصدق عزم على الالطاف مقصور
بآية العدل والاحسان ممتثل * بغاية القسط والانصاف موفور
مجاهد فى سبيل الله مجتهد * مؤيد من جناب القدس منصور
بالهدى الى الاعداء منعطف * ومشرفى على الكفار مشهور
وراية رفعت للمجد خافقة * تحوى على علم بالنصر منشور
وعسكر ملأ الآفاق محتشد * من كل قطر من الاقطار محشور
له وقائع فى الآفاق شائعة * أخبارها زبرت فى كل طامور
يا نفس مالك فى الدنيا مخلفة * من بعد رحلته من هذه الدور
وكيف تمشين فوق الارض غافلة * أليس جسمانه فيها بمقبور

حق على كل نفس أن تموت أسى * لكن ذلك أمر غير مقدور
فللمنايا مواقيت مقدرة * تأتي على قدر في اللوح مسطور
وليس في شأنها للناس من أثر * ومدخل ما بتقديم وتأخير
يا نفس فاتئدي لا تهلكي أسفا * فانها منظومة في سلك مقدور
اذ لست مأمورة بالمستحيل ولا * بما سوى بذل مجهود وميسور
ولا تظني مقدمات بل هو ذا * حي بنص من القرآن مزبور
له نعيم وارزاق مقدرة * تجري عليه بوجه غير مشعور
ان المنايا وان عمت محرمة * على شهيد جميل الحال مبرور
مرابط في سبيل الله مقتحم * معارك الحتف بالرضوان مأجور
ما مات بل نال عيشا باقيا أبدا * من عيش فان بكل الشر مغمور
ابتاع سلطنة العقبى بسلطنة الدنيا فاعظم بربح غير محصور
بل حاز كلتيهما اذ حل منزلة * من لم يغايره في أمر ومأمور
أما ترى ملكه المحمي آل الى * سرسري له في الدهر مشهور
وفي سلطنة الآفاق مالكها * براو بحر ابعين اللطف منظور
ظل الاله ملاذ الخلق قاطبة * وملتجى كل مشهور ومدحور
فانه عينه في كل مأثرة * وكل أمر عظيم الشان مأثور
ولا امتياز ولا فرقان بينهما * وهل يميز بين الشمس والنور
هذا مجدد ماجد زادت مهابته * تخت الخلافة في عز ومنصور
هذا الجديدان في أيام دولته * صارا كانهما مسك وكافور
أضحى بقبضته الدنيا برمتها * ما كان من مجهل منها ومعمور
بدا بطلعته والناس في كرب * وسوء حال من الاحوال منكور
فاصبحت صفحات الارض مشرقة * وعاد كأنها نورا على نور
سبحان من ملك جلت مفاخره * عن البيان بمنظوم ومنثور
كأنها ورباع الواصفين لها * بحر خبيس الى منقار عصفور
لازالت أحكامه بالعدل جارية * بين البرية حتى نفخة الصور

﴿فصل في بعض مآثر المرحوم السلطان سليمان خان وخيراته وصدقاته الجارية الحسان في جميع البلدان سيما في بلد الله الحرام وبلد خاتم الانبياء والرسل الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام﴾

(اعلم) ان الخيرات والمبرات والمساجد والعمارات والمدارس والخانقاهات واجراء العيون وبناء القلاع والخانات وغير ذلك من أنواع الخيرات في كل الجهات التي أنشأها المرحوم السلطان سليمان خان رحمه الله تعالى كثيرة جدا لا يمكن حصرها ولا تدخل تحت حيطة البيان ذكرها ولا يسع هذا الكتاب لكنا نذكر جملا من ذلك فما لا يدرك كله لا يترك كله ونذكر خيراته في الحرمين الشريفين ونحيل ما عداها الى السماع والمشاهدة برأى العين فمن ذلك الصدقة الرومية التي هي الى الآن مادة حياة أهل الحرمين الشريفين وبها معاشهم وقيام أودهم وسبب بقائهم ومددهم فانها وان كانت قديمة متواصلة

من زمن آبائه السلاطين العظام واجداده الملوك الفخام الا ان المرحوم السلطان سليمان خان هو الذى زادها واضاعفها واغناها وكثرها وقررها واضاف اليها من خزائنه الخاصة مبلغا كبيرا فهى ترد ولله الحمد فى كل عام بدفتر محفوظ مضبوط وامين وكاتب تقسم فى الحرمين الشريفين تجاه بيت الله المطهر المنيف وتقرأ الفواتح بالاخلاص ويكثر الضجيج من الفقراء والفقهاء والعلماء والصلحاء والدعاء بدوام سلطنة سلطان الزمان والرحمة والرضوان على آبائه واجداده من آل عثمان وتفرق عليهم حسب الدفتر الشريف السلطانى الموسوم بالشان الشريف العثمانى فيصرفون ذلك فى قضاء ديونهم فان فضل فضلة اصرفوها فى حجهم وكساويهم وانفقوها على عيالهم واولادهم ولم يقع الاحسان على هذه الصورة لاحد من السلاطين والخلفاء والملوك وغيرهم ولكن ليست بهذا الضبط والاستمرار والوصول فى محلها وتعميم الناس بها وكانت للخلفاء العباسيين وغيرهم صدقات كثيرة واسعة الا انها كانت ترد مرة فى العمر او عند وصول خليفة منهم الى الحج ما تحققنا مواظبة وصولها على هذا الوجه الذى شرحناه لاحد غير ملوك آل عثمان خلد الله سلطنتهم وهذه بركة جليلة ونعمة كبيرة جزيلة يتميزون بها على غيرهم فالله تعالى يديم ذلك على جيران بيته الحرام وجيران نبيه أفضل الانام عليه أفضل الصلاة والسلام بدوام سلطنة آل عثمان الملوك العظام المخلد ذكر جميلهم فى صفحات الايام ابقاهم الله تعالى الى يوم القيامة

* ومنها صدقة الحب وقد تقدم ان المرحوم سليم خان الاول أول من تصدق بارسال صدقة الحب الى اهل الحرمين الشريفين عند افتتاحه بلاد العرب وأخذه لاقليم مصر والشام وحلب واستمرت متواصلة الى زمن المرحوم السلطان سليمان خان وكانت ترسل من انبار الخاص السلطان وأفرد لها السلطان سليمان قرى بمصر اشتراها من بيت مال المسلمين ووقفها وجعل غلتها وريعها لاهل الحرمين الشريفين وكتب لذلك كتاب وقف حكم بصحته قضاة العسكر بالديوان الشريف العالى وجعل من ريعها الفا وخمسمائة اردب لاهل المدينة المنورة يجهزها فى كل عام الناظر المولى على ذلك ثم ضاعفها وجعل فى كل عام لاهل مكة المشرفة ثلاثة آلاف اردب ولاهل المدينة المنورة ألفى اردب واستمرت ترد كل عام وتوزع على أهل الحرمين حسب دفتر مقيد باحكام شريفة سلطانية وتذاكر باشوية وتقريرات من القضاة ونظار الحرم الشريف واستقر الحال على ذلك واستمر الى أواننا هذا والى ما بعد ان شاء الله تعالى وهذا أيضا احسان عظيم وخير جزيل عميم صار سببا لمعاش أهل الحرمين الشريفين وتقوتهم ومادة لحياتهم ومعيشتهم واودهم وقوتهم فلو عدموه والعياذ بالله هلكوا والدعاء من صميم قلوبهم مبذول فى الحرمين الشريفين بدوام دولة سلطان الزمان والترحم على آبائه الكرام واسلافه العظام وهذا الاحسان لم يعهد فى زمن السلاطين السابقة ولا أيام الخلفاء السالفة بل هو مخصوص بسلاطين آل عثمان الا ما فعله السلطان قايتباى رحمه الله تعالى بعد ما حج بيت الله الحرام وزار المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فانه وقف على أهل المدينة ضياعا وقرى يصل ريعها الى الآن الى الحرمين الشريفين وللسلطان جقمق أيضا أوقاف يصل منها شىء دون ذلك الى الحرمين الشريفين وقد آلت أوقافهما الى الخراب وضعف ريعها جدا وأما الاوقاف الشريفة العثمانية فعامرة آهلة يفيض منها الزوائد ويحصل منها الوفر وعليها مدار معيشة أهل الحرمين الشريفين عمرها الله تعالى وأغناها وعمر من عمرها ويزكى من زكاها * ومنها صدقات الجوالى وهى جمع جالية ومعناها ما يؤخذ من أهل الذمة فى مقابلة استمرارهم فى بلاد الاسلام تحت الذمة وعدم جلائهم عنها وهى من أجل الاموال ان

أخذت على وجهها المشروع ولأجل حلها جعلت وظائف العلماء والمتقاعدين من الكبراء وكان يخرج
منها شئ قليل في أيام الجراكسة لبعض المشايخ فلما كانت سلطنة المرحوم السلطان سليمان خان نور
الله تعالى مرقده وحفه بالرحمة والرضوان أخرجها من خزائنه العامرة بالتدريج الى العلماء والمشايخ
من أهل الحرمين الشريفين ومن أهل مصر ومن المتقاعدين بمصر و بالحرمين الشريفين الى ان استوعب
صرفها جميعها وزاد عليها قدرا أخرجه من خزائنه الشريفة وذلك من جوالى مصر وحدها غير جوالى
الشام وحلب وغيرهما من الممالك الشريفة العثمانية وغير ما يصرف على الفقراء والعلماء والمشايخ من
محصول المملكة في سائر ممالكهم المحروسة وغير ما يصرف ملوك بني عثمان من ريع أوقافهم وزوائدها
وغير ما يخرجون من خزائنهم العامرة في وجوه الخيرات واستمرار هذه الادرارات لاحد من السلاطين
والخلفاء والملوك العظام الكرام الحنفاء في زمن من الازمان في دولة ملك أودور سلطان فالله تعالى يبقي
هذه الدولة الشريفة الباهرة والسلطنة القاهرة الفاخرة الزاهرة الى ان تنقضي الدنيا وتقوم الآخرة * ومن
خيراته الدارة اجراء العيون ومن اعظمها اجراء عين عرفات الى مكة المشرفة وسبب ذلك ان العين التي
كانت جارية بمكة هي عين حنين وهي من عمل أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور زوجة هرون
الرشيد واسمها أمة العزيز وكان جدها المنصور يرقصها وهي طفلة ويقول أنت زبيدة فاشتهرت
بها وكانت من أهل الخيرات ولها مآثر عظيمة الى الآن * ومنها اجراء عين حنين الى مكة المشرفة وأصرفت
عليها خزائن أموال الى أن جرت الى مكة المشرفة وهي واد قليل الامطار بين جبال سود عاليات خاليات
من المياه والنبات وصفها الله تعالى بأنها واد غير ذي زرع فنقبت أم جعفر زبيدة الجبال الى أن سلكت
الماء من أرض الحل الى أرض الحرم وأنفقت على عملها ألف ألف وسبعمائة ألف مثقال من الذهب
فلما تم عملها اجتمع المباشرون والعمال لديها وأخرجوا دفاترهم لاخراج حساب ما أصرفوه ليخرجوا من
عهدة ما تسلموه من خزائن الأموال وكانت في قصر عال مطل على الدجلة فأخذت الدفاتر ورمتها في بحر
الفرات وقالت تركنا الحساب ليوم الحساب فمن بقي عنده شئ من بقية المال فهو له ومن بقي له شئ عندنا
أعطيناه وألبستهم الخلع والتشاريف فخرجوا من عندها حامدين شاكرين وبقي لها هذا الأثر العظيم
في العالمين رحمها الله تعالى وأسكنها الفردوس في أعلا عليين * وكانت هذه العين ترد الى مكة وينتفع
بها الناس ومنبع هذه العين في ذيل جبل شامخ يقال له طاد بالطاء المهملة والالف بعدها دال مهملة
من جبال النيه من طريق الطائف وكان يجري الماء الى أرض يقال لها حنين ليسقي به نخيل ومزارع
مملوكة للناس واليها ينتهي جريان هذا الماء وكان يسمى حائط حنين يعني بساتين حنين وهو موضع غزا
فيه النبي صلى الله عليه وسلم المشركين ويقال لتلك الغزوة غزوة حنين وخبرها مذكور في كتب سير
النبي صلى الله عليه وسلم فاشترت زبيدة هذا الحائط وأبطلت تلك المزارع والنخيل وشقت له القناة في
الجبال وجعلت له الشهاحيد في كل جبل يكون ذيله مظنة لاجتماع الماء عند الامطار وجعلت فيه
قناة متصلة الى مجرى هذا العين في محاذاتها يحصل منه المدد لهذه العين فصار كل شهاد عينا يساعد عين
حنين منها عين مشاش وعين ميمون وعين الزعفران وعين البرود وعين الطارقي وعين ثقبة
والجرنيات وكل مياه هذه العيون تنصب في ذيل عين حنين بعضها ويزيد بعضها وينقص بحسب
الامطار الواقعة على أم احدى هذه العيون أو على جميعها الى أن وصلت على هذه الصورة الى مكة المشرفة
* ثم انها أمرت باجراء عين وادي نعمان الى عرفة وهو عين منبعها ذيل جبل كرا وهو جبل شامخ

عالى جدا أعلاه أرض الطائف مسيرة نصف ثم ارمى أسفله الى أعلاه من صعد فيه أو نزل منه مرة لا يعود اليه لوعورة مرقاه وصعوبته وينصب من ذيل جبل كرا فى قناة الى موضع يقال له الاوجر من وادى نعمان ويجرى منه الى موضع بين جبلين شاهقين فى علو أرض عرفات فيها ولشعراء العرب تشوقات وتغزلات فى وادى نعمان وفيه يقول القائل

أيا جبلى نعمان بالله خليا * نسيم الصبا يخلص الى نسيمها
فان الصبا ريح اذا ما تنسمت * على كبد حرى تجلت همومها

(وبعده)

فعملت القنوات الى أن جرى ماء عين نعمان الى أرض عرفة ثم أديرت القناة بجبل الرحمة محل الوقف الشريف الاعظم فى الحج وجعل منها الطرق الى البرك التى فى أرض عرفات فتمتلئ ما يشرب منه الحجاج فى يوم عرفة ثم استمر عمل القناة الى أن خرجت من أرض عرفات الى خلف جبل من وراء المازمين على يسار العابر من عرفات ويقال له طريق ضباب بالضاد المعجمة المفتوحة فلالف بعدها باء موحدة مشددة وتسمى الآن عند أهل مكة المظلمة بضم الميم ثم ظاء معجمة ساكنة فلام مكسورة ثم ميم مفتوحة ثم هاء التأنيث * ثم تصل منها الى مزدلفة ثم تصل الى جبل خلف منى فى قبليها ثم تنصب الى بئر عظيمة مطوية بأحجار كبيرة جدا تسمى بئر زبيدة اليها ينتهى عمل هذه القناة وهى من الابنية المهولة عمايتوهم انه من بناء الجن * ثم صارت عين حنين وعين عرفات تنقطع لقلة الامطار وتهدم قنواتها وتخربها السيول بطول الايام وكانت الخلفاء والسلاطين اذا بلغهم ذلك أرسلوا وعمروها عند انتظام سلطنتهم على هذا المنوال فمن عمرها صاحب اربل وهو الملك الجليل مظفر الدين كجك كوكبودى بن على فى سنة أربع وتسعين وخمسمائة وكوكبودى معناه بالتركى الذئب الازرق وكان كثير الخير والاحسان وله ترجمة واسعة فى وفيات الاعيان لقاضى القضاة احمد بن خلكان رحمهما الله تعالى ذكر له أوصافا كريمة ومكارم عظيمة ذكر منها عمارة عين عرفات وغيرها من جزيل الخيرات ثم عمرها صاحب اربل مظفر الدين المذكور فى سنة خمس وستمائة * ثم عمرها بعد ذلك امير المؤمنين المستنصر بالله العباسى فى سنة خمس وعشرين وستمائة ثم فى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ثم فى سنة أربع وثلاثين وستمائة كما وجدت ذلك مكتوبا فى نصب حجارة مبنية فى قرب الموقف الشريف بعرفات * ثم بعد مائة عام تقريبا عمر عين حنين الامير جوبان نائب السلطنة بالعراقين فى أيام السلطان أبو سعيد خدا بنده فى سنة ست وعشرين وتسعمائة فاجرى عين حنين الى مكة وعم نفعها لاهل مكة فانهم كانوا فى جهد عظيم لقلة الماء فرحمهم الله بذلك رحم الله تعالى أهل الخير * ثم عمرها شريف مكة يومئذ السيد الشريف حسن جد سادتنا أشراف مكة الآن أبقاهم الله تعالى وأدام عزهم وسعادتهم مدا الزمان وكان من أهل الخير والاحسان أجزل الله ثوابه فى الجنان * وكان تعميره لها فى سنة احدى عشرة وثمانمائة فجرت وانجرت ونفعت وأبحت وكثر الدعاء له من أهل البلاد والحجاج والعباد تقبل الله منهم صالح أعمالهم * ثم انقطعت واقى الناس لذلك شدة شديدة الى ان عمرها صاحب مصر من ملوك الجراكسة الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى فى سنة احدى وعشرين وثمانمائة هكذا ذكره النسفى الفاسى رحمه الله تعالى * ثم عمرها وعمر عين عرفات أيضا بعد ذلك من ملوك الجراكسة السلطان الملك الاشرف قايتباى رحمه الله تعالى عمر عين عرفات وأجراها الى أرض عرفات وعمر عين حنين الى أن جرت الى مكة وعمر عين خليص وحصل بها الرفق للحجاج واهل البلاد ودعواله

وأثنوا عليه بذلك وبإحساناته وكثرة خيراته ضاعف الله تعالى أجره ومثوباته وذلك بمباشرة الامير
يوسف الجمالي وأخيه الامير سنقر الجمالي رحمهما الله تعالى في سنة خمس وسبعين وثمانمائة * ثم عمر عين
حنين آخر ملوك الجراكسة السلطان قانصوه الغوري رحمه الله تعالى في عام ست عشرة وتسعمائة على
يد الامير خير بك العمار رحمه الله تعالى الى أن جرت وملأت بركة الحاج والمعلاة ثم جرت الى بازان ثم الى
بركة ماجن في درب اليمن من أسفل وارتفق العامر بذلك ثم انقطعت في أوائل الدولة العثمانية بهذه
الاقطار الحجازية وبطلت العيون وتهدمت قنواتها وانقطعت عين حنين عن مكة المشرفة وصار أهل
البلاد يستقون من الآبار حول مكة من أبيار يقال لها العسيلات في علو مكة قريب من المنحنا ومن آبار
في أسفل مكة من مكان يقال له الزاهد ويسمى الآن الجوخي في طريق التنعيم وكان الماء غاليا قليل الوجود
وكذلك انقطعت عين عرفات وتهدمت قنواتها وكان الحجاج يحملون الماء الى عرفات من الاماكن البعيدة
وصار فقراء الحجاج يوم عرفة لا يطلبون شيأ غير الماء لعزته ولا يطلبون الزاد وربما جلبه بعض الاقوياء
من الاماكن البعيدة للبيع فيحصلون أموالا من تلك الاماكن البعيدة أيضا فارتفع سعر الماء جدا في يوم
عرفة وكنت يومئذ مراهقا في خدمة والدي رحمه الله تعالى وفرغ الماء الذي كنا حملناه من مكة الى عرفات
وعطش أهلنا فتطلبت قليلا من الماء للشرب فاشتريت قربة صغيرة جدا يحملها الانسان باصبعه بدينار
ذهب والفقراء يصيحون من العطش يطلبون من الماء ما يبل حلوقهم في ذلك اليوم الشريف فشرب
أهلنا بعض تلك القربة وتصدقوا بباقيه على بعض من كان مضطرا من الفقراء وعطشنا عقيبه وجاء
وقت الوقوف الشريف والناس عطاش يلهثون فأمطرت السماء وسالت السيول من فضل الله تعالى
ورحمته والناس واقفون تحت جبل الرحمة فصاروا يشربون من السيل من تحت أرجلهم ويسقون دوابهم
وحصل البكاء الشديد والضجيج الكثير من الحجاج في تحت الوقوف لما رأوا من رحمة الله تعالى ولطفه
بهم وإحسانه اليهم وتكرمه عليهم ولا أزال أتذكر تلك الساعة وما حصل بها من اللطف العظيم من كرم
الله العميم وأرجو به كرم الكريم وأتيقن انه الغفور الرحيم الذي أنزل على عباده الرحمة من بعد ما قنطوا
وبرزت الاوامر الشريفة السلطانية السليمانية باصلاح عين حنين واصلاح عين عرفات وعين لها
ناظرا اسمه مصلح الدين مصطفى من المجاورين بمكة فبذل جهده في عمارتها وأصلح قناتها الى ان جرت عين
مكة ودخلتها وجرت من أسفلها من بركة ماجن وأصلح عين عرفات وأجراها الى ان صارت تملأ البرك
بعرفات وذلك في سنة احدى وثلاثين وتسعمائة وصار الحجاج يروون من ذلك الماء العذب الفرات بعد
ذلك العطش الشديد في يوم عرفات ويدعون لمن كان سببا لاجراء هذه الخيرات * ثم اشترى ناظر العين
عبيدا اسودا من مال السلطنة وجعل لهم جرايات وعلوفات من خزائن السلطنة الشريفة برسم خدمة العين
ولاخراج أتربتها من الدبول والقنوات وهذه خدمتهم دائما وصاروا يتوالدون وهم باقون الى الآن طبقة
بعد طبقة لهذه الخدمة * ثم توجه مصطفى ناظر العين الى الابواب السلطانية السليمانية وعرض
في أمر العين أحوالا يجب عرضها فأجاب في كل ما سأل فيه وعاد مجبورا الى مصر ثم ركب من بندر
السويس الى مكة فغرق في بحر القلزم شهيدا وما غرق الا في رحمة الله تعالى وما مات بل هو حي عند الله
تعالى * وكانت وفاته الى رحمة الله تعالى في سنة سبع وثلاثين وتسعمائة واستمرت عين حنين جارية الى
مكة لكنها تقل تارة وتكثر أخرى بحسب قلة الامطار وكثرتها وعين عرفات تجري من نعمان الى عرفات
الى ان صارت عرفات بساتين وغرس بها الغروس وصارت مرجة خضراء تتجلى كالعروس الى أن قلت

الامطار ويبست العيون ونزحت الآبار في سنين متعددة من سنة خمس وستين وتسعمائة وما بعدها وكانت سنوات تقارب سني يوسف شدادا عجافا وانقطعت العيون الا عين عرفات فانها لم تنقطع الا انها قل جريانها في تلك السنوات ﴿ولما عرضت﴾ احوال العيون الى الابواب الشريفة السلطانية السليمانية التفت الخاطر السليماني العاطر السلطاني وتوجه العطف الشريف السليماني الى تدارك ذلك بأى وجه يكون وامر بالفحص عن احوال العيون وكيف يمكن جريانها الى بلد الله الامين المأمون فاجتمع المرحوم عبد الباقي بن على المغربي قاضي مكة يومئذ والامير خضر الدين خضر سنجق جدة المعمورة حينئذ وغيرهما من الاعيان وفحصوا ودار واو تأملوا واستشار وا فاجتمع رأيهم على ان أقوى العيون عين عرفات وطريقها ظاهرة ودبولها من بئر زبيدة الى مكة مبنية أيضا وانها المخفية تحت الأرض وانها تحتاج الى الكشف عنها او الحفر الى ان تظهر لان زبيدة لما بنيت الدبول من عرفة الى بئرها المشهور خلف منى الذى جميعها ظاهر على وجه الارض فالباقي أيضا من ذلك المحل الى مكة مبنى أيضا الا انه خاف تحت الأرض واستغنى عنها بعين حنين وتركت هذه ونبشت وطمت وغفل عنها هكذا ظنوا وخمنوا انهم تتبعوا عين عرفات من أولها من الاوجر الى نعمان ثم الى عرفة ثم الى المزدلفة ثم الى بئر زبيدة وأصلحوا هذه الدبول الظاهرة وكشفوا عن الباقي وبنوا ما وجد وامنها منهدما وذرعوا الباقي احتاجوا الى ثلاثين ألف دينار ذهبا وذرعوه وقاسوه فكان من الاوجر الى بطن مكة خمسا وأربعين ألف ذراع بذراع البناء الآن وهو أكبر من الذراع الشرعي بقدر ربعه وهذا الذى تخيلوه من وجود بقية الدبل تحت الأرض لم يوجد في كتب التاريخ وانما أداهم الى ذلك مجرد الظن بحسب القرائن وعرضوا ذلك الى الباب الشريف في أوائل سنة تسع وستين وتسعمائة فلما وصل علم ذلك الى المسامع الشريفة السلطانية السليمانية التمست صاحبة الخيرات اكليلة المخدرات تاج المخصنات ملكة الملكات قدسية الملكات علية الذات صفية الصفات ذات العلا والسعادات ﴿حضرة خانم سلطان﴾ كريمة حضرة السلطان الأعظم سليمان خان سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان أن يأذن لها في عمل هذا الخير حيث كانت صاحبة هذا الخير أولا أم جعفر زبيدة العباسية فناسب ان تكون هي صاحبة هذا الخير فأذن لها في ذلك فاستشارت الحضرة السلطانية وزراء ديوانها الشريف العالي فيمن يصلح لهذه الخدمة فاتفقت آراؤهم الشريفة أن هذه الخدمة لا يقوم بها الا دفتردار ديوان مصر الأمير الكبير المعظم فائض الجود والفضل والكرم صاحب السيف والقلم والعلم والعلم ﴿الامير ابراهيم بن تغرى بردى﴾ المهمندار ثم الدفتردار بمصر بوأه الله جنات تجرى من تحتها الانهار وسقاه من حوض الكوثر زلالا باردا يطفئ كل أوام وأوار وكان يومئذ قد عزل من منصب الدفتردارية وأمر بالتفتيش عليه عن أيام دفترداريته فعفى من التفتيش وأعطته السلطانة خمسين ألف دينار ذهب على ما خمنوه ليصرفها في عمل هذه العين فتوجه من البحر الى مكة المشرفة بتجمل عظيم وبرق كثير وترتيب يعجز عنه كبار البكاربكية وكان ذا همة عالية واقدام عظيم واهتمام تام وكرم نفس وشهامة وحسن تدبير ومعرفة وحذاقة وفطنة وكان بيني وبينه سابقة اجتماع وما رأيت أحدا من الامراء والوزراء والبكاربكية مع كثرة من اجتمعت به منهم أجمل نظاما ولا أحسن ترتيبا وانتظاما ولا أدق فكرا ولا أعلى همة ولا أصدق وفاء منه رحمه الله تعالى رحمة واسعة وغفر له مغفرة جامعة وبوأه الفردوس الاعلى وأرضى عنه خصماءه يوم القيامة وكان وصوله الى بندر جدة في يوم الجمعة لثمان بقين من ذى القعدة

الحرام سنة تسع وستين وتسعمائة فتوجهت الى ملاقاته اسابق احسانه الى فرأيته نزل بوطاقة من خارج جدة من الجهة الشامية فقابلني بالاجلال والاكرام وركب من جدة الى سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى نجم الدنيا والدين محمد أبي نمي خلد الله سعادته وأبد دولته وسيادته وكان يومئذ نازلا في مر الظهران فقابله بالاجلال والتعظيم والترحيب والتكريم ومدله سماطا عظيما ولاطفه ووا كله وأكرمه وباسطه وجابره فعرض على حضرته الشريفة ماجاء بصدده فقوبل بامتثال الأمر الشريف السلطاني وبذل الهمة والجهد في اتمام المهم المنيف الخاقاني وانه يقوم بذلك بنفسه وولده واتباعه وخدمه ثم ركب من عنده دخوله الى مكة سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى بدر الدنيا والدين مولانا السيد حسن أبو نمي صاحب مكة أدام الله عزه وسعادته وضاعف نصره وتأييده وسيادته وأبدله الاجلال والاكرام وقابله الترحيب والاحترام وجابره ولاطفه وباسطه ووالفه وأقبل كل منهما على الآخر كمال الاقبال وتحادثا بغاية الأدب والاجلال واستمر معه الى أن فارقه من باب السلام فدخل المسجد الحرام فطاف طواف القدوم وكان محرما بالحج وسعى بين الصفا والمروة وعاد الى مجمع قايتباى وهو المحل الذى عين لنزوله ومدله من قبل السيد حسن مد الله تعالى ظلال سعادته سماط عظيم جليل كبير فجلس عليه واكل منه هو وخواصه وأذن لاهل الرباط والفقراء والفقهاء وعامة الناس فأكلوا وحملوا وفضل شئ أمر بتفريقه على الفقراء وألبس الذى مد السماط قفطانا من السراسر العال وأعطاه ذهبا كثيرا * ثم جاء للسلام عليه سيدنا ومولانا رئيس الحرمين الشريفين وكبير البلدين المنيفين شيخ الاسلام مرجع العلماء الأعلام سيد السادات ببلد الله الحرام بدر الدنيا والدين مولانا السيد القاضي حسين الحسنى أدام الله عزه واقباله وخلد سعادته ودولته واجلاله ففرح به الأمير ابراهيم وقابله بالاجلال والتعظيم فعرض عليه أموره وأحواله واستشاره في سائر مابداله من أحواله فأشار عليه بالآراء الصائبه وأعلمه بما ينبغى رعايته ومرعى جانبه ومايجب عليه ملاحظته من الأمور اللازمة الواجبة (وأول مابدأ به الأمير ابراهيم) تنظيف بعض الآبار التى يستقى الناس منها وأخرج ترابها وزيادة حفرها لكثرة ماؤها وحصل للناس بذلك رفق كثير وشرع في جمع مايحتاج اليه في عمله وتوجه للكشف عنه الى اعلا عرفات وكثر تردده اليها وتفطنه لمجاريها ومناقبها ومشاربها ومساربها والفحص عن أحوالها الى أن وصل الركب المصرى وكان أمير الحاج يومئذ افتخار الأمراء الكرام عثمان بك بن بكاربكى اليمن بكاربكى الحبشة ازدمر باشا وصار بعد ذلك عثمان بكاربكى الحبشة بعد وفاة والده وصار بكاربكى اليمن وأظهر اليد البيضاء في افتتاح مدينة تعز * ثم صار بكلربكى الحسا ثم البصرة ثم قره آمد وهو من البكار بكية الكرماء العظماء المجملين المشهورين بالكرم والشجاعة أبقاه الله تعالى ووصل الى مكة قاضيا في ذلك العام مع الركب الشامى وهو أعلم العلماء الموالى أفضل الفضلاء الأهالى مولانا فضيل أفندى ابن مولانا على چلبى المفتى الجمالى وهو من أجلاء العلماء العظام له التصانيف الحسنة المقبولة وهو الآن أرتراق في الباب العالى مد الله تعالى ظلال افضاله وأفاض على الطلاب سحائب فضله وكماله وحج الناس حجة هنيئة وحج الأمير ابراهيم فرض حجه وعاد الحجاج الى أوطانهم فائزين بالغفران والقبول حائزين اكمل مطلب ومأمول * وشرع الأمير ابراهيم في الكشف عن دبول عين عرفات وضرب أوطاقه في الأوجرمن وادى نعمان في اعلا عرفات وشرع في حفر قعرها وتنظيف دبولها بهمة عالية جدا وكانت عماليكه القائمين في خدمته نحو اربعمائة مملوك في غاية

الجمال والرشاقة والحذاقة واللياقة وأقامهم في هذا العمل من الاوجر الى مزلفة وكتب لمحو الف نفس من العمال والبنائين والمهندسين والحفارين وجلب من مصر وبلاد الصعيد ومن الشام وحلب واصطنبول ومن بلاد اليمن طوائف بعد طوائف من المهندسين وخدام العيون والآبار والحدادين والبنائين والحجارين والقطاعين والنجارين وغيرهم ممن يحتاج اليهم واتى بآلات العمارة وصحبها معه من مصر من مكاتل ومساحي ومجارف وحديد وبولاد ونحاس ورصاص وغير ذلك من الهمة القوية والاقدام التام والاهتمام وعين لكل طائفة قطعة من الارض لحفرها وتنظيف ما فيها من الدبول ليظهر فيها سعيه واجتهاده وكان يظن انه يفرغ من هذا العمل الذي جاء بصدده فيما دون العام ويرجع الى الابواب السلطانية لينال المناصب العالية ويظفر بالمراتب السامية ويأبى الله الا ما اراد وما كل ما يتمنى المرء يدركه من المراد وألسنة الاقدار تناديه من وراء الحجاب كيف الخلاص والى أين الذهاب واستمر على هذا الجد والاجتهاد الى ان اتصل عمله بعمل زبيدة الى البئر الذي انتهى عملها اليها ولم يوجد بعده دبل ولا آثار عمل وضاق ذرعه بذلك وعلم أن الخطب كبير والعمل كثير وتحقق أن القدر الباقي من هذا العمل انما تركته زبيدة اضطرارا بغير اختيار وعدلت عنه الى عين حنين وتركت العمل من عند البئر لصلابة الحجر وصعوبة امكان قطعه وطول مسافة ما يجب قطعه فانه يحتاج من بئر زبيدة الى دبل منقور تحت الأرض في الحجر الصوان طوله ألفا ذراع بذراع البنائين حتى يتصل بدبل عين حنين وينصب فيه ويصل الى مكة ولا يمكن نقب ذلك الحجر تحت الحجر فانه يحتاج في النزول الى خمسين ذراعا في العمق وصار لا يمكن ترك ذلك بعد الشروع فيه حفظا لناموس السلطنة الشريفة فاوجد الامير ابراهيم حيلة غير ان يحفر وجه الارض الى أن يصل الى الحجر الصوان ثم يوقد عليه بالنار مقدار مائة حمل من الحطب الجزل ليلة كاملة في مقدار سبعة اذرع في عرض خمسة اذرع من وجه الارض والنار لا تعمل الا في العلو لكونها تعمل عملا يسيرا من جانب السفل مقدار قيراطين من أربعة وعشرين قيراطا من ذراع فيكسر بالحديد الى أن يوصل الى الحجر الصلب الشديد فيوقد عليه بالحطب الجزل ليلة أخرى الى أن ينزل في ذلك الحجر مقدار خمسين في العمق في عرض خمسة أذرع الى أن يستوفي ألفي ذراع على هذا الحكم وذلك يحتاج الى عمر نوح ومال قارون وصبر أيوب ومارأى عن ذلك محيصا فأقدم عليه الى أن فرغ الحطب من جميع جبال مكة فصار يجلب من المسافات البعيدة وغلا سعره وضاق الناس بذلك وتعب الأمير ابراهيم لذلك ووهبت أمواله وخدامه وأولاده ومماليكه على ذلك الى أن قطع من المسافة ألف ذراع وخمسمائة ذراع بالعمل وصار كلما فرغ المصروف ارسل وطلب مصروفا آخر الى أن أصرف أكثر من خمسمائة ألف دينار ذهبا من الخزائن العامرة السلطانية وغرق له مركب كان فيه باقي تجملاته وخزائنه ونقوده وفيه جملة من عبيده وأسبابه وكان ينوف على مائة ألف ذهب في ابتداء أمره ثم مات له ولد طفل نجيب كان خلفه عصر احترق عليه كثيرا ومات له ولدان مراهقان نجيبان فاضلان أخذا بمجامع قلبه وفتتا كبده ثم مات كتخداه وكان بمنزلة أمراء السناجق ثم مات أكثر مماليكه وهو يتجلد لتلك المصائب العظيمة ويتصبر عليها ويظهر الجلد فيها الى أن ذهبت قواه ومابقي رمقه ولا دماه وتزنه لا مهال ورمته الأهوال وجاءه الأجل الذي لا يتقدم ـ وأن أجل الله اذا جاء لا يؤخر فمات غريبا شهيدا ومضى الى ربه وحيدا فريدا في ليلة الاثنين ثاني رجب المرجب سنة اربع وسبعين وتسعمائة وصلى عليه عند باب الكعبة وكانت جنازته حافلة جدا وأسف الناس على فقده لكثرة احسانه ودفن بالمعلاة على يمين الصاعد الى

الابطح فى تربة كان أعدها لنفسه ودفن فيها ولديه وخلف طفلا وحملا وبنتا من أهل الخير كثيرة الصلاح والعبادة * كان ذكر لى أن مولده سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة رضى الله تعالى عنه وأرضى عنه خصماه وأمنه يوم الفزع الأكبر وسقاه من حوض الكوثر * ثم اقيم بعده فى هذه الخدمة سنجق جدة الأمير قاسم بك باقامة سيدنا ومولانا المقام الشريف العالى بدر الدنيا والدين مولانا السيد حسن صاحب مكة أدام الله تعالى دولته وسعادته وامره بمباشرة العمل وعرض ذلك على الابواب الشريفة السليمانية فبرز الامر الشريف السلطانى باستمرار قاسم بك المذكور فى خدمة العين أمينا على مصارفها وأن يكون سيدنا ومولانا شيخ الاسلام قاضى القضاة وناظر المسجد الحرام بدر الدنيا والدين السيد القاضى حسين الحسنى خلد الله تعالى ظلال سيادته وأبد قيام سعادته ناظرا على ما بقى من عمل عين عرفات الى أن تصل الى مكة المشرفة فاستقر الامير قاسم مباشرا لتعاطى هذه الخدمة وكان لا يخلو من قصور الفهم وحب الاستقبال وبعض عناد وما أراد مولانا شيخ الاسلام معارضته فتركه على رأيه وما أراد الله أن يتم العمل الشريف على يد قاسم بك فكان ثالث الأمرين السابقين فطرقه الأجل وأدركه الحين وفاز بمرتبة الشهادة وصار من شهداء العين وانتقل من الدار الفانية الى الدار الباقية قرير العين من ليلة خلت من رجب المرجب الفرد الأصب سنة ست وسبعين وتسعمائة وصلى عليه عند باب الكعبة الشريفة ودفن بالمعلاة الى جانب الأمير محمد بك الدفتردار المتوفى قبله أمين العين المزبورة واستوفت العين به ثلاثة من الأمراء السناجق سقاهم الله تعالى شرابا طهورا وكان بهم برا رحيما غفورا * ثم توجه سيدنا ومولانا شيخ الاسلام السيد القاضى حسين الحسنى مد الله تعالى ظلال افضاله وأقام خيام عزه وعظمته واجلاله توجها تاما الى تكميل ما بقى من عمل عين عرفات باعتبار ما بيده من النظر عليها حسب الأحكام الشريفة السلطانية النافذة فى الأقطار والجهات وجد فى الاهتمام وعرض على الأبواب الشريفة السلطانية السليمية بأن يكمل ذلك العمل سيدنا ومولانا شيخ الاسلام القاضى حسين المشار الى خدمته آنفا فأقدم بهمته العلية أتم اقدام الى اكمال هذا العمل الشريف بالاهتمام فساعدته السعادة والاقبال على الاتمام والاكمال فكمل العمل المبارك فيما دون خمسة أشهر بعد ان عجز عن اتمامه الأمراء المذكورون قريبا من عشرة أعوام وهلكت نفوسهم وأموالهم وخدامهم وما ظفروا بهذا المرام وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم * فجرت عين عرفات وانفجرت ينابيعها الجاريات ووصل الماء وهو يجرى فى تلك الدبول والقنوات الى أن دخل مكة لعشر بقين من ذى القعدة الحرام سنة تسع وسبعين وتسعمائة * وكان ذلك اليوم عيدا أكبر عند الناس وزال بوصول ذلك الماء الى البلد كل هم وباس وعمل فى ذلك اليوم سيدنا ومولانا المشار اليه أعطية عظيمة فى الابطح ببستانه العظيم الأفيح وجمع بين الأكابر والأعيان فى ذلك المكان ونصب لهم السرادقات والصيوان وذبح أكثر من مائة من الغنم ونحر عدة من الابل والنعم وقدم للناس على طبقاتهم أنواع الموائد والنعم وخلع على أكثر من عشرة انفس من المعلمين والبنائين والمهندسين خلعا فاخرة وأحسن الى باقيهم بالانعامات الوافرة وتصدق على الفقراء والمساكين وأنعم على الكبراء والأساطين شكرا لهذه النعمة الجزيلة وحمدا على هذه المنة الجليلة حيث أنعم الله بها على عباده وأحيا وأخصب منها اخير بلاده وكان يوما مشهودا وساعة سعيدة وزمانا مسعودا * ثم جهز أخبار هذه البشائر العظمى وحصول هذه النعم الجزيلة الكبرى الى الباب الشريف العالى السلطانى الأعظم والخاقان الأكرم

الاعظم السلطان سليم خان سقاه الله كؤس الرحمة والرضوان من حوض الكوثر فى أعلى غرفات الجنان والى سرادقات ذات الحجاب الرفيع والستر السابغ المسبول المنيع صاحبة الخيرات ملكة المليكات بلقيس الزمان ﴿حضرة خانم سلطان﴾ أدام الله تعالى ظلال عفتها وعصمتها وأسبغ أستار رفعتها وعظمتها فانعمت الصدقات الشريفة السلطانية بالانعامات الجزيلة والترقيات الكثيرة الجميلة على سائر المباشرين والمتعاطين بهذه الخدمة الشريفة الجليلة وحصل لمولانا شيخ الاسلام المشار الى حضرته الشريفة ترقيات عظيمة فصارت مدرسة السلطانية السليمانية بمائة عثمانى وما عهد ذلك لأحد من الموالى العظام فى مدارسهم وجهزت اليه أنواعا من الخلع الشريفة الفاخرة وخوطب من قبل السلطنة الشريفة الخاقانية بالخطابات العالية الوفية السامية المتضمنة للشكر الجميل منه وانه دخل فى جملة خواص السلطنة الشريفة المشمولين بنظر عواطفها المنيفة وانعاماتها الجزيلة الوريفة وصارت هذه العين من جملة الآثار الباقية على صفحات الليالى والايام والاعمال الصالحات الباقيات التى لا يفنيها تكرر السنين والاعوام وما عند الله من تضاعيف الاجر والثواب فهو خير وأبقى عند أولى الألباب ﴿ومن آثار المرحوم السلطان سليمان خان بمكة المشرفة المدارس الأربعة السليمانية﴾ وسبب ذلك ان الامير ابراهيم أمير اخور عين عرفات أسكنه الله من الجنة الغرفات عرض على الابواب الشريفة السلطانية السليمانية وأنهى الى الاعتاب العلية الخاقانية ان المناسب للشأن الشريف السلطانى وقدره العلى السامى السليمانى أن يكون لحضرة السلطان بمكة المشرفة أربع مدارس على المذاهب الاربعة يدرس فيها علماء مكة المشرفة علم الفقه ليكون سببا لاشتغالهم بعلم الشرع والدين ويرتفقون بوظائفها ويكون سببا لاحياء علم الشريعة ويسطر ثواب ذلك فى صحائف السلطنة الشريفة فأجابه السلطان سليمان المرحوم الى ذلك وبرزت الأوامر الشريفة السلطانية بعمل ذلك وعين لهذه الخدمة الأمير قاسم أمير جدة المذكور آنفا وان يبادر الى عمل ذلك فى أحسن الاماكن اللائقة لبناء هذه المدارس الجانب الجنوبى من المسجد الحرام المتصل به من ركن المسجد الشريف الى باب الزيادة وكان به البيمارستان المنصورى ومدرسة لصاحب كنبانة السلطان أحمد شاه سلطان كجرات من أقاليم الهند وكان من أصحاب الخير الكثير شديد المحبة للعلماء كثير البر والصدقات وكانت المدرسة بيد مؤلف هذا التاريخ والبيمارستان المنصورى وأوقاف المؤيد للسلطان الملك المؤيد شيخ سلطان مصر من ملوك الجراكسة وعدة دور تتعلق بسيدنا ومولانا المقام الشريف العالى السيد حسن صاحب مكة المشرفة أدام الله عزه واقباله ورباطا يقال له رباط الظاهر فاستبدل البيمارستان واستبدلت المدرسة ورباط كان بناه الخواجا نجشى القرمانى ولم تثبت وقفيته فباعه ورثته واشترى لجهة السلطنة الشريفة وجعل بدلا عن مدرسة الكنبانية واستبدل رباط الظاهر برباط آخر فى سويقة أحسن وأمكن فيه ووقف موضعه بدلا عنه ﴿وأما الدور التى لسيدنا ومولانا المقام الشريف العالى بدر الدنيا والدين مولانا السيد حسن أدام الله تعالى عزه ودولته فقدمها جميعها للسلطنة الشريفة واستبدلت أوقاف المؤيد بضياع قرى فى الشام اختارها ذرية المؤيد الموقوف عليهم وكتب مستندات ارجعها ثم شرع الأمير قاسم فى هدمها وطلب العلماء والصلحاء والأشراف ووضعوا الأساس فتقدم قاضى مكة المشرفة يومئذ قدوة العلماء الاهالى وصفوة العلماء الموالى مولانا شمس الملة والدين أحمد بن أحمد بن محمد بك النشانجى عظم الله تعالى شأنه ورفع قدره ومكانه ووضع بيده الشريفة الأساس وتبعه من حضر من العلماء

والسادات وأعيان الناس ووضع كل واحد منهم حجرا فى ذلك الاساس وكان يوما مشهودا مباركا مسعودا
وذلك لليلتين خلتا من رجب المرجب سنة اثنتين وسبعين وتسعمائة وكان عمق الاساس عشرة أذرع
وعرضه أربعة أذرع بذراع العمل ووضع فيه صخار كبار جدا وأحكموا الأساس احكاما قويا واستقر
قاسم بك فى بذل الجد والاجتهاد مشدودا لوسط كأنه بعض العمال يجرى بعصاه من أول العمل الى آخره
بقوة وجلادة من غير دقة فهم ولا لطف طبع مع الجلافة والغلاظ والاستبداد بالرأى وعدم المشاورة وعدم
الاصغاء الى رأى أحد فأتم بناء المدارس الاربع فى غاية الاحكام فى بعض الجدارات من غير تنميق وعمل
بها مأذنة عالية أحسن فيها ووقف لسقوف المدرسة ولدوراتها خشبات عتيقات واهيات تكسرت
وسقطت بعد وفاته وجددها مولانا شيخ الاسلام على وجه الاتقان والاحكام وكتب قاسم بك بعض
طرازها بخط ردى منحط وبعضه بخط رائق فائق لكونه أميا لا يعرف الكتابة ولا يصغى الى كلام أحد
وصارت الاحكام تتوارد اليه بالاستعجال والاهتمام وهو يستعجل فى الاتمام وعين المرحوم سليمان
عليه الرحمة والرضوان وظائف المدرسين والطلبة وغير ذلك من أوقافه بالشام وعين لكل مدرسة خمسين
عثمانيا فى كل يوم وعين للمعيد أربعة عثمانية فى كل يوم ولكل مدرس خمسة عشر طالبا لكل طالب
عثمانيين وللفراش كذلك وللبواب نصف ذلك يجهزها فى كل عام ناظر الاوقاف السليمانية بالشام مع
الركب الشامى الى مكة المشرفة فيوزع على المدرسين ولم تكمل المدارس الاربع الا فى دولة السلطان
الاعظم مالك الممالك الترك والروم والعرب والعجم السلطان سليم خان ابن السلطان سليمان خان عليهما
الرحمة والرضوان فأنعم بالمدرسة المالكية السليمانية وهى رأس المدارس الاربعة على سيدنا ومولانا
شيخ مشايخ الاسلام سيد العلماء والموالى العظام قاضى القضاة وناظر المسجد الحرام مولانا السيد
القاضى حسين الحسنى أدام الله فوائده على الدوام بخمسين عثمانيا ثم رقاه الى ان صارت مدرسة بمائة
عثمانى * وأنعم بالمدرسة الحنفية السليمانية على مؤلف هذا الكتاب بخمسين عثمانيا فى أواسط
جمادى الاولى سنة خمس وسبعين وتسعمائة فقرأت فيها قطعة من الكشاف والهداية وقطعة من تفسير
المفتى الأعظم مولانا أبى السعود العمادى بوأه الله غرفات الجنان وأنزل عليه شآبيب المغفرة والرحمة
والرضوان وقرأت فيها درسا فى الطب ودرسا فى الحديث وأصوله وانى أدرس الآن تكميل شرح الهداية
للعلامة الكمال بن الهمام الذى كمله لآن علامة علماء الاعلام فهامة فضلاء الموالى العظام مالك ناصية
العلوم وفارس ميدانه وحائز قصبات السبق فى حلبة رهانه فريد دهره فى التحقيق والاتقان ووحيد
عصره فى التدقيق والايقان صاحب التصانيف الفائقة التى سارت بها الركبان وتداولتها العلماء
فى سائر البلدان الكريم المحسن الى محبيه غاية الاحسان مولانا شمس الملة والدين أحمد المعروف
بقاضى زاده أفندى قاضى العسكر بولاية أناطولى أظهر الله على قلمه ما خفى ودق عن الافهام وأفاض
من زلال ألفاظه العذبة ما يروى أكباد العلماء الاعلام ذكر فيه من التحقيقات ما فات ابن الهمام وقلد
أعناق مذهب النعمان قلائد درر متسق النظام ومد لطلاب العلم الشريف موائد فوائد وضعها لهم على
طرف الثمام وأورد فيه من خاصة طبعه الشريف ثلاثة آلاف تصرف من بنات أفكاره وذلك فضل
الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ولا شك ان ذلك فيض من الله الكريم أفاض به من خزائن
جوده العميم فشكر الله صنيعه الجميل وأثابه على ذلك مزيد الاجر والثواب الجزيل ونفع بتآليفه سائر
طلبة العلم الشريف وأبقى فى صفحات العالم كتابه المفيد اللطيف الى أن يرث الله الارض ومن عليها

وهو

وهو خير الوارثين واقدأحسن الى فى أيام صدارته وربانى لدى الحضرة السلطانية فرقانى السلطان الأعظم والخاقان الاكرم السلطان مرادخان خلد الله سلطنته مدا الزمان فصارت مدرستى بمته بستين عثمانيا جزاه الله تعالى عنى أفضل الجزاء وأسبغ عليه من خزائن فضله وكرمه واسع الخير والعطاء * وانعمت السلطنة الشريفة بالمدرسة السلطانية السليمانية الشافعية لاقراء مذهب الشافعية بمكة المشرفة على بعض علماء الشافعية بخمسين عثمانيا فدرس فيها كتب فقه الامام محمد بن ادريس الشافعى رضى الله عنه وأحيا فقه الشافعية بها كما شرطه السلطان سليمان رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح الجنان وغمره فى بحار الرحمة والاحسان * وأما المدرسة الرابعة السلطانية السليمانية فقد جعلها المرحوم الواقف لاحياء مذهب الامام أحمد بن حنبل فعدل عنه الى علم الحديث الشريف وجعلت تلك المدرسة دار الحديث بخمسين عثمانيا يقرأ فيها الصحاح الستة فرحم الله السلطان سليمان وأثابه على مقاصده الجميلة من اسداء الخيرات واقتناء المثوبات باحياء العلوم الشريفة المطهرة وسائر الباقيات الصالحات اعلاء غرفات الجنات والنظر الى وجهه الكريم فى اعلا مراتب السعادات الاخروية الباقيات وهذا الذى ذكرناه بعض ما فعله من الحسنات ولو أردنا استيفاء ما فعله من الخيرات لاحتجنا الى عدة مجلدات فعدلنا الى ما أثبتناه فى هذه الورقات ووكلنا ما عداه الى المشاهدات فليس الخبر كالمعاينات

﴿الباب التاسع فى دولة السلطان الأعظم الخاقان الملك الاكرم الافخم العثمانى صاحب الخيرات الجارية والجوامع والمبانى السلطان سليم خان تغمده الله بالرحمة والرضوان وسقى ضريحه زلال الكرم والعفو والغفران وحفه بروائح الروح والريحان﴾

كان مولده الشريف فى سنة تسع وعشرين وتسعمائة وجلوسه الكريم على تخت ملكه الشريف بالقسطنطينية العظمى فى يوم الاثنين لتسع مضين من شهر ربيع الآخر سنة اربع وسبعين وتسعمائة ومدة سلطنته الشريفة تسع سنين وسنه حين تسلطن ست واربعون سنة وعمره كله ثلاث وخمسون سنة وبعد ثلاثة ايام من جلوسه على التخت الشريف الى سكتوار لحفظ العساكر الاسلامية المجاهدين فى سبيل الله فى حلق بلاد الكفر مشغولين بفريضة الجهاد بغاية الجد والاجتهاد وسار سيرا حثيثا الى ان وصل ركابه الشريف السلطانى الى سرد خديقال له سرم فلاقته عروض الوزير الاعظم آصف الزمان ﴿محمد باشا أنعش الله بوجوده الوجود انعاشا﴾ وتتضمن هجوم الشتاء وتيسر فتح قلعة سكتوار وقمع مردة الكفرة الفجار والتمس الاذن الشريف للعسكر المنصور الخاقانى بالعود الى الاوطان واستمر الركاب الشريف السلطانى بذلك المكان الى ان وصل مع بقية الوزراء واركان الدولة الى لثم الركاب الشريف السلطانى والاكتحال بتراب الباب الشريف الخاقانى وبعد ذلك يعودون فى الخدمة الشريفة الخاقانية الى مقر التخت الشريف السلطانى بالقسطنطينية العظمى فأجيب حضرة الوزير الاعظم الى ما اشار اليه ولستقر ركاب السلطنة الشريفة بذلك المحل والقرار عليه الى ان ورد حضرة الوزير الاعظم المشار الى حضرته العليه وباقى الوزراء من اركان الدولة الشريفة السلطانية وقبلوا الركاب السلطانى وهنوه بالملك الشريف الخاقانى وعادوا فى خدمة السلطنة الشريفة الى اصطنبول بغاية الامن واليمن والبشر والقبول عند الوصول وعند الوصول الى باب السرايا السلطانى حصل من رعاع العسكر وغوغائهم سوء ادب وممانعة عن الدخول الى السرايا

الشريفة وطلبوا ما دام تمـم عند تجرد السلطان أدت الى سوء أدب من بعض جهالهم فجاء المرحوم المفتى الاعظم رئيس العلماء الاعلام وكبير كبراء الموالى العظام مولانا أبو السعود أفندى العمادى ثبت الله تعالى خطاه فى الجنة وأفاض عليه سحائب الأجر والثواب والفضل والمنة فوعظ العسكر والان لهم الكلام والتزم لهم عوائدهم وتراقياتهم وعطاياهم العظام فلانوا بعد القسوة واستغفروا من تلك الهفوة وصحوا من سكر الجهالة واهتدوا بعد الضلالة ودخل حضرة السلطان الاعظم الى سراية الشريف وجلس على تخته العالى المنيف ووفى للعسكر بما التزم لهم به حضرة الفقيه الاعظم وأفاض احسانه عليهم وأنعم وانصرف فى ذلك خزائن عظيمة لاتحصى ووزع عليهم من العسجد والورق مالا يحصى ولا يستقصى وأمر بقتل بعض من كان سببا لهذه الغوغاء من السفهاء وسكنت الفتنة ولله الحمد على جزيل النعماء وله الشكر على جميع الآلاء وله الحمد فى الآخرة والأولى ودخل عليه العلماء العظام للتهنئة بالملك والتحية والسلام ثم اركان الدولة على قوانينهم وحصل لهم بحسب مراتبهم الاجلال والاكرام وقرت عيون الانام بكمال الامن والاطمئنان وتمام حسن النظام * ثم جهزت البشائر السلطانية الى الممالك الشريفة العثمانية بالخلع الشريفة الخاقانية فحصل لنواب السلطنة الشريفة كمال الفرح والسرور وتمام البشر والحبور بانتظام الامور ووصلت التهنئة من ملوك الاطراف بالتحف والهدايا اللطيفة الظراف وقرت العيون وزالت الغبون واستقرت الخواطر والظنون وكان سلطانا كريما رؤفا بالرعية رحيما عفوا عن الجرائم حليما محبا للعلماء والصلحاء محسنا الى المشايخ والفقراء كان احسانه يصل الى فقراء الحرمين وهو شاه زاده وتصل تشاريفه وكساويه فى كل عام الى العلماء والفقهاء وكان يصل الى احسانه وكسوته فى كل سنة وبعد أن ولى السلطنة الشريفة لم يقطع مادة احسانه واستمر يصل اليهم ذلك فى كل عام بحيث أضيف ذلك الى دفتر الصرة الرومية ويقسم كل سنة على حكمه السابق الى الآن فهو الملك الهمام المحسن المنعام الفائض الاحسان والانعام طال ما طافت بكعبته الآمال وصدع بأوامره الليالى والايام فأثمرت وغرس فى رياض السعادة غروس أشجار السيادة فبسقت وأثمرت وعمر بحسن نظره أرجاء البلاد فتحدثت بعد الخراب وعمرت ودمر بسياسة أركان الظلم فخربت ديار الظالمين ودمرت كم أظهرت اسواد الكفر بصارمه البيضاء آية للناظرين وكم جهزت جيوشا للجهاد فى سبيل الله فقطع دابر القوم الكافرين * فمن أكبر غزواته فتح جزيرة قبرس بسيف الجهاد * ومنها فتح تونس الغرب وحلق الواد * ومنها فتح ممالك اليمن واسترجاعها من العصاة البغاة أهل الالحاد * ومن خيراته تضعيف صدقة الحب وارساله مدة سلطنته الى الحرمين الشريفين ومنها الأمر ببناء المسجد الحرام زاده الله شرفا وتعظيما وكل ذلك من الآثار العظيمة والمزايا الفاضلة الكريمة فلنذكرها بطريق الاجمال لضيق المجال (فأما قبرس) فانها بالسين لا بالصاد كما يغلط فيه العوام جزيرة فى البحر قال الفقيه العدل المفتى أبو عبد الله بن عبد المنعم بن عبد النور الحميرى فى كتابه الروض المعطار فى أخبار الاقطار قبرس جزيرة على البحر الشامى كبيرة القطر مقدارها مسيرة ستة عشر يوما وبها قرى ومزارع وأشجار وزروع ومواشى وبها معدن الزمع القبرسى ومنها يجلب الى سائر الاقطار وبها ثلاث مدن ومن قبرس الى طرابلس الشام يومان فى البحر وقبرس على ممر الايام رخاها شامل وخيرها كامل وكان معاوية غزاها وصالح أهلها على جزية سبعة آلاف دينار فنقضوا العهد عليه فغزاها ثانية فقتل وسبى شيأ كثيرا * وروى انه لما افتتحت قبرس واشتغل المسلمون بتقسيم السبى فيما بينهم بكى

أبو الدرداء ونحى عنهم ثم احتبى بحمائل سيفه ودموعه تجرى على خديه فقيل له أتبكى فى يوم أعز الله فيه الاسلام وأهله وأذل الكفر وأهله فضرب على منكبيه وقال ويحك ما أهون الخلق على الله اذا تركوا أمره فبينما هى قوة ظاهرة وقدرة قاهرة على الناس اذا تركوا أمره فصار حالهم على ماترى من السبى والاهانة وبين جزيرة قبرس وساحل مصر خمسة أيام وبينها وبين جزيرة رودس مسافة يوم واحد وانما سميت جزيرة قبرس بوثن كان هناك يسمى قابوس كان يعظمه الكفار ويعظمون لأجله جزيرة قبرس وأهل مدينة قبرس موصوفون بالغنى واليسار وبها معادن الصفر ويجمع فيها اللاذن الحسن الرائحة الذى يغلب العود فى طيبه وهو الذى يجمع منه على الشعر خاصة وكان يحمل الى ملك القسطنطينية لأنه أفضله وما يجمع منه مما يتساقط على وجه الارض يبيعونه للناس وكانت أم حرام بنت ملحان الصحابية رضى الله عنها شهدت غزوة قبرس فتوفيت بها وأهل قبرس يتبركون بقبرها ويقولون هو قبر المرأة الصالحة وكانت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليدعو لها الله عز وجل أن يجعلها من الذين يركبون ثبج البحر فى سبيل الله ففعل وهو حديث معروف وكان الاوزاعى يقول انا نرى هؤلاء يعنى أهل قبرس اهل عهد وان صلحهم وقع على شئ فيه شرط لهم وشرط عليهم وانه لا يسعهم نقضه الا بامر يعرف به غدرهم ورأى عبد الملك بن الصلاح فى حدث أحدثوه ان ذلك نقض لعهدهم فكتب الى عدة من الفقهاء يشاورهم فى أمره منهم الليث بن سعد وسفيان بن عيينة وأبو اسحق الفزارى ومحمد بن الحسن فاختلفوا عليه وأجاب كل واحد بما ظهر له قالوا وانتهى خراج قبرس الذى يؤدونه الى المسلمين بعد المائتين من الهجرة الى أربعة آلاف ألف وسبعمائة ألف وسبعة وأربعين ألفا انتهى ماذكره صاحب الروض المعطار * قلت وقد تقدم مانقلناه انها افتتحت فى أيام دولة الجراكسة فى سلطنة الملك الاشرف برسباى الدقاقى وأسر ملكها فى سنة تسع وعشرين وثمانمائة فكان أهل قبرس فى أيام الدولة الشريفة العثمانية مهادنين يدفعون الى الخزانة العامرة السلطانية ما كان مقررا عليهم غير انهم أخذوا فى المكر والخداع واظهار الاطاعة والوفاق واخفاء الغدر والشقاق فصاروا يقطعون الطريق فى البحر على المسلمين واذا أخذوا سفينة من سفائن المسلمين قتلوا جميع من ظفروا به فى تلك السفينة لاخفاء مافعلوه وصاروا يؤون قطاع الطريق من النصارى ويساعدونهم على المسلمين الى أن كثر اذاهم وعم ضررهم فاستفتى المرحوم السلطان سليم خان من المرحوم مفتى الاسلام مولانا أبى السعود أفندى العمادى رحمهما الله تعالى فأفتاه بانهم غدروا ونقضوا العهود وان قتالهم جائز بسبب ما ارتكبوه من الغدر والخيانة فجهز عليهم حضرة السلطان سليم جيشا كثيفا وعسكرا منصورا منيفا أرسلهم من البر وعمارة عامرة من جانب البحر وجعل سردار الجميع حضرة الوزير المعظم والمشير المفخم نظام العالم مدبر مصالح جماهير الامم قائد جيوش الموحدين قاهر جيوش الكفار والملحدين اعتضاد الملوك والسلاطين المخصوص بعناية رب العالمين * حضرت مصطفى باشا اللالا * زاده الله عزا واجلالا وسعادة وسيادة واقبالا وايده النصر المبين والفتح القريب اسعادا واجلالا فامتثل الامر الشريف السلطانى وبرز محفوفا بالنصر الصمدانى والعون الربانى ومعه عسكر جرار من كل بطل مغوار ملأوا وجه الارض برا وبحرا كأنهم قطعة نار مضطرمة أو اشد حرا اين سلكوا دهكوا وملكوا وايا صدفوا من الاعداء سفكوا وفتكوا وضربت طبول النصر فكانت كنفخ الصور وانتشرت العساكر المنصورة فشوهد يوم الحشر والبعث والنشور وتوجه حضرة الوزير مظفرا مؤيدا منصورا وسعى الى

جهاد الكفار وكان سعيه مشكورا وطوى المراحل والمنازل وهو يطوى الارض طيا ويغزى بسيف عزمه أديم المهامه والمناهل فريا الى ان وصل ركابه العالى ومن معه من الجيش المنصور المتوالى الى جزيرة قبرس فأحاط بقلاعها احاطة الخاتم بالاصبع وفرق الجنود على حصونها فكانت من كل حصن احكم وأمنع وقد تحصن بها الكفار واعتصموا بقلالها وأحكموا اخنادقها وأوعروا مسالكها وسهلها وجبلها فارتجت بوصول تلك العساكر المنصورة حصون تلك الجزيرة وقلاعها وتزلزلت جبالها ورمالها وأصقاعها وبقاعها * وكان من أحكم الحصون المشيدة ثلاث قلاع فى غاية العلو والارتفاع ونهاية القوة والمنعة والامتناع شامخة البنيان راسخة الاركان * وأقواها قلعة ماغوسا لايحلق عليها من الطيور الا النسران ولايوازن ابراجها من بروج السماء الا الميزان تلامس فى العلو والشهوق نجوم الثريا والعيوق وتوازى بناء الاهرام فى الاتقان والاحكام بل تزيد عليها وتفوق لاتبالى بضرب المكاحل والمدافع ولايوهنها قرع المقارع والمقامع مشحونة بآلات الحرب من جميع الأنواع مملوءة بالمقاتلة وأهل القراع محشوة بأجلاف النصارى الأبطال أهل الصدام والمصارع وفيهم من الرماة من يرمى على الحدق ويحزر فلايخطى من الدرع الحلق وعندهم الميرة والقوت والأقوات والزرع والسباتين ومن دونهم خنادق عريضة نازلة الى تخوم الأرضين محمية بالمدافع الكبار ترمى من أعلى القلاع الى من يقرب منها بالليل والنهار فأحاطت العساكر المنصورة السليمية بتلك البقاع والحصون وناوشوهم القتال وأذاقوهم كؤس ريب المنون وقاتلهم المسلمون بالليل والنهار وقابلهم العدو بمرمى المدافع الكبار بالأصائل والابكار فكاد النهار أن ينقلب ليلا بدخان النار والدارق والليل أن ينقلب نهارا ببوارق قناديل البنادق الصواعق فحاصرهم المجاهدون فى سبيل الله وضيق عليهم جنود الاسلام الغزاة ورموا بالمدافع الكبار السلطانية عليهم فحطمت دورهم وهدمت قصورهم فصارت بيوتهم قبورهم وكسرت ظهورهم ففتحت ببركة النبى صلى الله عليه وسلم قلعتان وبقيت القلعة وهى ماغوسا وفيها سلطانهم محصور وكل محصور مأخوذ مأسور فثبت وأظهر الجلد وكابد فى محاصرته أنواع الكمد الى أن وهنت قواه وذابت كبده وحشاه واضطر الى طلب الأمان والتذلل لحضرة الوزير الرفيع الشان فشملته عناية حضرة الوزير الرفيع الشان المعظم المكين وأعطاه الأمان وشرط عليه أن يفك من عنده من أسارى المسلمين ويدوس البساط السلطانى ليتم له التأمين ويحصل له التطمين فوافق على ذلك وأطلق الأسرى وحضر ليقابل حضرة الوزير المعظم جبرا وقسرا فأخبر بعض الأسرى أنه خان بعد انعقاد الأمان وقتل جماعة من المسلمين وفعل هذه الخيانة فلما علم حضرة الوزير المعظم أن ملكهم قد خان طلبه الى بين يديه وأهانه غاية الهوان وركب وحمل غاشية السرج وأمره أن يمشى قدامه كسائر الغلمان ثم ضرب عنقه لخيانته ونقض عهده وأخذ أمواله وذخائره وقتل من أراد واستأسر واسترق من أراد وصارت قبرس دار الاسلام وأضيفت الى سائر الممالك الاسلامية العثمانية باجتهاد هذا الوزير المعظم واصابة رأيه وتدبيره الصائب الأتم وما بلغنى تفصيل ما وقع فى هذه الغزوة وما أمكننى تحقيقها وأردت كثيرا افرادها بالتأليف وذكر ما وقع فيها فلم أظفر بذلك فان أظفرنى الله تعالى بالاطلاع على أكثر مما ذكرته هونا أجعل له تاريخا مستقلا واسع المجال لطيف المفاكهة بليغ المقال ان شاء الله تعالى (وأما فتح بلاد اليمن) فان اقليم اليمن من صنعاء الى عدن كانت داخلة فى الممالك السلطانية العثمانية فى أيام دولة المرحوم السلطان الاعظم

سليمان خان أسكنه الله تعالى فردوس الجنان وحف بروضته الطيبة الطاهرة بالروح والريحان
وكان أول فتحها الخاقاني على يد الوزير المعظم سليمان باشا الخادم بكلربكي مصر المتوجه الى الهند لغزو
الفرنج الغرتقال في سنة خمس وأربعين وتسعمائة وأقام بكلاربكيا واستمر كذلك في تصرف البكلربكي
الذي يولى من الباب الشريف السلطاني يتولاها واحدا بعد واحد الى أن صارت مملكة اليمن واسعة
يمكن أن يولى في أعلاها في الجبال من أعلاها الى تعز بكلربكي ويولى في التهائم وهي زبيد وسائر السواحل
والبنادر بكلاربكي آخر وكان هذا عين الخطا فان ذلك مظنة الاختلاف والجدال كما قال الله الكبير
المتعال لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا فقبل عرضه في الباب العالي وصدر الى تكثير المناصب وتعديد
البكلاربكية فولى على اليمن وجبالها المرحوم مراد باشا وكان يقال له كور مراد لخلل كان باحدى
عينيه وكان خرج من السراي السلطاني وكان من أمراء السناجق وصار أمير الحاج الشامي ثم ولى
سنجق غزة ثم أعطى نصف مملكة اليمن * وولي جهة التهائم لحسن باشا وهو أيضا من المماليك
السلطانية برز من السراي السلطاني فانقسمت عساكرها وأموالها ومحصولها الى نصفين وضعف أمر
كل واحد وكان مطهر بن شرف الدين يحيى الزيدي يعقله وسولت له نفسه العصيان وكانت
داعية العصيان مضمرة في خاطره فصادف انقسام المملكة ووصول وفاة المرحوم السلطان سليمان خان
فأظهر العصيان هو ووافقه من العربان وجهز أميرا من أمرائه يقال له علي بن شويع وجمع عليه
العربان فقطعوا الطريق على مراد باشا في محطة دمار وهو غافل عن عصيانهم وكان قاصدا من تعز الى
صنعاء وهي محصورة بالعربان الزيديين فعدموا علائق الخيل وخلوا من الطعام بالكلية وكلما أرسل
من طائفته من يأتيه بالغلال والميرة قطعوا عليه الطريق وقتلوه فلما زاد به هذا الأمر وفطن بعصيان
العربان رجع مراد باشا الى تعز وسلك وادي خبان وهو محل وعر بين جبلين عاليين في غاية الوعورة
والصعوبة عسر المسالك كثير المهالك فلما توسطوا بين هذين الجبلين وقد امتلأت قللهما كالجراد المنتشر
ورموهم بالأحجار والصخار الكبار والصغار وأطلقوا عليهم المياه فصار مراد باشا وعسكره يخوضون في
ذلك الماء وقد ازدحموا على محل الخروج وهو مكان ضيق سدته الجمال والأحمال وليس لهم منعة ولا لهم
نجدة ولا لخيلهم قوة ولا قدرة على الجولان فاستسلموا للقتل وقتل منهم من دنا أجله وخرج مراد باشا ومعه
عشرون سنجقا سلبتهم العربان وتركوا كل واحد منهم عريانا في لباس وسائر بدنه مكشوف فأووا الى
مسجد يقال له مضرح وعيون المنايا تسرح اليهم وتطمح فوصل اليهم شيخ مضرح وكان له ثار قديم عند
الأروام كان سليمان باشا صلب أباه لما افتتح عدن فصاح واثاراه وقتل مراد باشا وأرسل رأسه الى
مطهر وقيد الأمراء وقدمهم الى مطهر فلم يقتلهم بل حبسهم في مطامير تحت الأرض ومات بعضهم من
الضيق والضنك وخلص ممن له بقية عمر بعد ذلك واستمر أمراء مطهر يأخذون جبال اليمن الى أن أخذوا
صنعاء وتعز وحصن حب وعدن وعجزوا عن أخذ زبيد صانها الله بالأولياء والصلحاء وبها شرذمة قليلة
من الأروام مع حسن باشا مع ظلمه وغشمه لأهل زبيد ومصادرته لكل زبيد ووصل لأخذها علي بن
شويع ومعه فوق خمسين ألف مقاتل وحط خارج زبيد فخرج اليه بقية العسكر السلطاني وهم نحو
مائتي فارس وبرزوا لقتال هذا الجمع الغفير وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين
وحملوا على علي بن شويع وقد ألقوا بأنفسهم الى التهلكة فزلت أقدامه وفر هاربا وسقط من فرسه في
هروبه ولحقه جماعة من الاسباهية أرادوا قتله فلحقه عبد من عبيده بفرس فركب وهرب ونجا

بنفسه لانجاه الله وجمعهم من مقابرز بيد أصوات مدافع ترمى عليهم من غير أن يرى شخص فنصر الله المؤمنين على أولئك الملحدين فى الدين وقتل منهم مالا يعلم عدده الا الله تعالى وغنمت العساكر وطاقهم وأحمالهم وأثقالهم وولوا على أدبارهم أجمعين ولم يقدموا بعد ذلك على زبيد كأنها عليها حصن من حديد من عند الله العزيز الحميد فلما أحاطت العلوم السلطانية بما وقع من هذا الاختلال فى اليمن برزت الأوامر السلطانية الشريفة الى بكلر بكى مصر يومئذ الوزير المفخم نظام العالم صاحب السيف والقلم مدبر مصالح جماهير الأمم فاتح ممالك اليمن الأيمن من كوكبان الى عدن وقالع قلاع حلق الوادو آخذ بلاد تونس الغرب ودافع الكفر عنها والمحن ليث عرين الوطيس افتراسا وأشدهم باسا وجاشا الوزير المعظم سنان باشا أنعش الله به الوجود والدين الحنيفى انعاشا وأيد بنصره أهل السنة السنية وفرش الأرض بعدلته فراشا فانه أسد ضرغام وليث قمقام وحسام صمصام وكريم محسن فائض الجود والاكرام جواد بذول لم يحن الهلال الا ليكون هلالا فى حافر جواده ولا مدت الثريا كف الخضيب الا لتمسك بذيل افضاله وامداده ولا فتحت الزوى أفواهها الا لتنطق بمدحه ألسنة الاقلام ولا حبر الحبر بياض الطروس الا ليشير أن الليالى والأيام له من جملة الخدام طال ما طوق الاعناق أطواقا من الافضال والانعام كأنها أطواق الحمام وكثيرا ما أحسن الى العلماء والصلحاء من جيران بلد الله الحرام وجيران سيد الأنبياء والرسل الكرام عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام وكنت ممن شملنى بره وانعامه ووصل الى فى أكثر الأيام احسانه واكرامه فخلدت ذكر محاسنه فى صفحات الكتب ورقمت كرائم صفاته فى صفحات الأوراق لا يخلقها الجديدان ولا يبليها الدهر الغابر وكتبت باسمه الشريف تاريخا فلاحيته البرق اليمانى ذكرت فيه أحوال اليمن من سنة تسعمائة واستيلاء حسين الكردى وطائفة الجراكسة ثم اللوند الى زمن الفتح العثمانى على أبو زيد سليمان باشا ثم استيلاء الزيديين جيوش مطهر بن شرف الدين ثم الفتح العثمانى ثانيا على يد الوزير المعظم سنان باشا أدام الله نصره وجلاله وخلد سعادته واقباله على سبيل التفصيل وكنت صدرت ذلك التاريخ بقصيدة طنانة من نظمى الطنان سارت بها الركبان وتلقتها بالقبول أدباء علماء البلدان أحببت ايرادها هنا لبلاغتها عند علماء البيان وفصحاء اللسان تسابق ألفاظها ومعانيها الى الآذان والاذهان تسابق أفراس الرهان يعد كل بيت منها بديوان وتسحب كل كلمة منها اذيال البلاغة على سحبان وهى هذه

لك الحمد يا مولاى فى السر والجهر * على عزة الاسلام والفتح والنصر
كذا فليكن فتح البلاد اذا سعت * به الهمم العلياء الى شرف الذكر
جنود رمت فى كوكبان خيامها * وآخرها بالنيل من شاطئ مصر
يجسر من الابطال كل غضنفر * بصارمه يسطو على مفرق الدهر
عساكر سلطان الزمان مليكنا * خليفة هذا العصر فى البر والبحر
حمى حوزة الدين الحنيفى بالقنا * وبيض المواضى والمثقفة السمر
له فى سرير الملك أصل مؤثل * تلقاه عن اسلافه السادة الغر
ملوك تساموا للعلا وخلائف * أولوا العزم فى أزمانهم وأولوا الأمر
شموس يفيض النور عمو غيامها * من الكفر منهم يستمد ضيا البدر

هم ملؤا عين الزمان وقلبه * فقرت عيون العالمين من البشر
هم العقد من أغلا اللآلي منظما * وسلطاننا في الملك واسطة الدر
شهنشاه سلطان الملوك جميعهم * سليم كريم أصله طيب الفخر
عماد يلوذ المسلمون بظله * وسد منيع للانام من الكفر
وحين أتاه أن قد اختل جانب * من اليمن الاقصى أصره على القهر
وساق لها جيشا خميسا عرمرما * يدك جبال الأرض في السهل والوعر
لهم أسد شاكي السلاح عرينه * طوال الرماح السمهرية والبتر
وزير عظيم الشان ثاقب رأيه * يجهز في آن جيوشا من الفكر
يقوم بأعباء الوزارة قومه * يسد جيوش الدين بالايدى والازر
أباد له بالناس كاسرة العدا * ولكنها بالجود جابرة الكسر
به أمن الله البلاد وطمن الـ * عباد وأضحى الدين منشرح الصدر
سنان عزيز القدر يوسف عصره * ألم تره في مصر أحكامه تجرى
تدلى الى أقصى البلاد بجيشه * ومهد ملكا قد تمزق بالنشر
وشتت شمل الملحدين وردهم * مثال قرود في الجبال من الذعر
وقطع رؤسا من كبار رؤسهم * لهم باطن السرحان والطير كالقبر
وكان عصى موسى تلقف كلما * بدا من صنيع الملحدين من السحر
ولا زال فيهم عامل الرمح عاملا * ولا برحوا في الذل بالقتل والاسر
وما عين الا عمالك تبع * وناهيك من ملك قديم ومن فخر
وقد ملكتها آل عثمان اذ مضت * بنو طاهر أهل الشهامة والذكر
فهل يطمع الزيدى في ملك تبع * ويأخذه من آل عثمان بالمكر
أبى الله والاسلام والسيف والقنا * وسر أمير المؤمنين أبي بكر

﴿ولما تم الفتح الخاقاني العثماني﴾ في القطر اليماني عاد الوزير المعظم الى بلد الله المكرم وحج حجة الاسلام وزار المزارات العظام وصادف الحج الأكبر وكانت الوقفة الشريفة يوم الجمعة أفضل الايام واثر ببلد الله الحرام أنواع الخيرات والانعام وأحسن الى أهل الحرمين الشريفين ومن حضر فيهما من حجاج الانام وقابل شرفاء مكة أدام الله عزهم وسعادتهم بالاعزاز والاحترام * فمن آثاره الخاصة به في المسجد الحرام * تعمير حاشية المطاف وكانت من بعد أساطين المطاف الشريف دائرة حول المطاف مفروشة بالحصا يدور بها دور حجارة منحوتة مبنية حول الحاشية بالحجر الصوان المنحوت ففرشت به في أيام الموسم وصار محلا لطيفا دائرا بالمطاف من بعد أساطين المطاف وصار ما بعد ذلك مفروشا بالحصا الصغار كسائر المسجد خاص به ذكره الله بالصالحات وأدام له العز والسعادات * ومنها تعمير سبيل في التنعيم أنشأها وأمر باجراء الماء اليها من بئر بعيدة عنها يجرى الماء منها الى السبيل في ساقية مبنية فيما بينهما بالجص والنورة وعين لها خادما يسقى من البئر ويصب في الساقية فيصل الماء الى السبيل يشرب منه ويتوضأ به المعتمرون والواردون والصادرون ويدعون له بالنصر والتأييد وعين مصاريف ذلك من ريع أوقاف له بمصر * ومنها آبار أمر بحفرها بقرب المدينة الشريفة لقوافل الزوار في وادى مفرح

وغيرها كثيرة النفع جدا * ومنها قراءة ختمة شريفة كل يوم يقرؤها ثلاثون نفرا بمكة وأخرى بالمدينة الشريفة وعين لكل قارئ جزاء في كل سنة تسعة دنانير ذهبا وكذلك لمفرق الأجزاء والداعي ولشيخ القراء وعين مصارف ذلك جميعه من أوقافه التي من محروسة مصر عمرها الله تعالى وجعل ناظرها والمتكلم عليها وعلى سائر ما عينه من الخيرات سيدنا ومولانا شيخ الاسلام قاضي القضاة وناظر المسجد الحرام سلالة آل النبي عليه أفضل الصلاة والسلام بدر الملة والدين السيد القاضي حسين الحسيني أدام الله عزه واقباله وضاعف سعادته واجلاله وكل هذه الخيرات باقية جارية الى يوم القيامة ان شاء الله تعالى * وأما حلق الواد و بلاد تونس الغرب فهي من أجل الغزوات العثمانية وأعظم فتوحاتهم الكبيرة العلية الواقعة في أيام السلطان الأعظم العثماني السلطان سليم خان الثاني رحمه الله رحمة واسعة وغفر له مغفرة جامعة ومتعه بالنظر الى وجهه الكريم ومنحه لذات جنة النعيم * وبيان ذلك أن سلاطين تونس الغرب من آل حفص لما ضعفوا ووهنوا ووقع بينهم الاختلاف صار بعضهم يلتجئ الى نصارى الافرنج ويأتي بجنود الكفرة يستعين بهم على أخذ تونس وصار الافرنج يقاتلون من في تونس من المسلمين ويقتلونهم ويسبون أولادهم ونساءهم ويبنون القلاع في تلك البقاع ويواصلون بجنود النصارى الى بلاد المسلمين ويولون من تحت أيديهم سلطانا من ذوي حفص سلاطين تونس قديما على بلاد تونس ومن بها من المسلمين الى أن صار المسلمون تحت حكم النصارى وعم أذاهم على المسلمين وانفردوا منهم وبنوا قلعة عظيمة محكمة الاتقان مشيدة البنيان بقرب تونس في موضع يقال له حلق الواد كأنه بناء شداد أو وضع العادين من قبائل عاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد بآلات الحرب والقتال وصارت النصارى تكمن فيها اللعين ويرسلون منها المراكب والأغربة في البحر على بلدان المؤمنين الموحدين ويقطعون الطريق قتلا وأسرا ونهبا وسلبا الى أن تعدى ضررهم على طوائف أهل الاسلام وزاد فساد أهل الصليب على ضعفاء المسلمين من الأنام * وكبير النصارى الآن صاحب اشبيلية من جزيرة الاندلس أعادها الله تعالى دار الاسلام ببركة النبي سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام ويسمونه العوام أصبانية تحريفا لكلمة أشبيلية جهز جيشا كثيفا لأخذ تونس ووالس على ذلك سلطان تونس أحمد بن حسن الحفصي قابله الله على سوء فعله بما يستحقه فأخذ النصارى مملكة تونس ووضعوا السيوف في أهلها فقتلوا الرجال وسبوا الأولاد والنساء والأطفال وباء أحمد المذكور باثمه واسود في صحائف الليالي والأيام ديباجة وجهه واهمه وانقلب خاسئا مدحورا وانخلع عن ربقة الدين وازداد خيبة وكفورا ونفرت قلوب المسلمين منه وزادت نفورا وكيف لا يكون كذلك وقد استعان بملة الكفر على الاسلام واستدعى عبدة الصليب والأصنام ينتصر بهم على أهل ملة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وامتهن دار الاسلام تونس باقدام أولئك الكفرة اللئام والاعتصام بالله الكبير المتعال ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم فانتشرت هذه الاخبار المدهشة والانباء المظلمة الموحشة الى ان وصلت أبواب سلطان سلاطين الاسلام ظل الله الممدود على مفارق الانام مالك صهوة الملك من الذرة الى الغارب ملك الملوك من مشارق الارض والمغارب واسطة عقد ملوك آل عثمان المشمول بشمول المرحمة والمكرمة والغفران من الله الكريم المنان السلطان سليم خان ابن السلطان سليمان خان سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان وأبقى السلطنة في عقبه الى انتهاء الزمان فلما طرق سمعه الشريف هذا الحادث الرجيف وعلم ما صاب اهل الاسلام من هذه المصائب العظام والامتهان الذي قصم

الظهر وأوهن العظام استشاط من خطار غضبا واضطرمت نار حميته وتأججت لهبا وتحركت العصبية الاسلامية والتهبت نيران الحمية العثمانية وقام وقعد وأرغى وازبد وابرق وارعد وهدد واوعد وخاطب الوزراء العظام والبكاربكية الكبراء الفخام وقال من يقدم منكم على نصرة الاسلام واذلال عبدة الاصنام ويستنقذ من اسراء المسلمين بيد اولئك النصارى الطغام ويخرج من عهدة الكفار الفجرة اللئام فبادر الوزير المعظم والليث الغشمشم صاحب السيف والقلم فاتح ممالك اليمن الاعن المكرم أبو الفتوحات المفخم لازالت ألوية نصره منشورة الذوائب مشرقة كالشمس يغشى ضوءها المشارق والمغارب صاعدة الى افق السماء حتى تزاحم منها كب الكواكب وقال أنا لسد الخلة أنا لها أفرج كربتها وافتح مقفلها واصلح خللها وازيل عللها ولم تدخرنا السلطنة الشريفة الخاقانية وما ربتنا العواطف الكريمة العثمانية الالبذل أرواحنا واموالنا فى مثل هذه الحوادث وندفع عن المسلمين مايصابون به من المصائب الكوارث فقابله السلطان الاعظم بالشكر منه والثناء عليه وشرفه بالالتفات الشريف السلطانى اليه وجعله سردار العساكر المنصورة وامره ان يتوجه الى قهر النصارى المقهورة وامر أن يتوجه معه لمساعدته ومعاونته ودفع ملالته وسآمته وضبط العساكر البحرية وترتيب السفن الحربية قابودان الباب العالى فارس ميدان البحر السابق الى قلة أبراج المعالى الاسد الضرغام والليث القمقام والصارم الصمصام أمير الامراء العظام حضرة قلج على قابودان باشا يسر الله له من الفتوحات مايشاء فشرعا فى اخذ اسباب السفر واخذا معهما من أمراء السناجق وأمراء العساكر كل اسد غضنفر وكل باسل معقود بناصيته أسباب النصر والظفر وكان له فى حرب البحر اليد البيضاء والمعرفة التى يتصرف بها فى الماء والهواء وشحنوا مائتين غراب تطير بأجنحة القلاع وتهدم بما فيها من المدافع محكمات الحصون والقلاع وعدة من المونات الكبار لحمل الاثقال ودفع الاحمال الثقال وشيل مكاحل النحاس لحطم الثغور وهدم السور والجسور الى الاساس وكثرة التخويف والترهيب وشدة القوة والبأس * وكان بروز العسكر المنصور من القسطنطينية العظمى يوما عظيما مشهودا وساعة مباركة أظهرت يمنا وبركة وسعودا وذلك غرة ربيع الاول سنة احدى وثمانين وتسعمائة وركب الوزير الاعظم سردار العسكر حضرة سنان باشا والقبودان والعساكر المنصورة بنصر الله الملك الديان ثبج البحر كأنهم طوفان فوق طوفان وطارت بهم الأغربة على وجه البحر أقوى طيران وتلت ألسنة القراء وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها حتى وصلوا الى مالوكايا من مملكة البندقية ووصلوا فى يوم الخميس لخمس مضين من شهر ربيع الأول * كيمان اقجير واستقروا بها ليلة الجمعة وأصبحوا متوجهين والسعد يخدمهم والنصر والظفر يرافقهم ويقدمهم وقد عبروا بسفائنهم آبا العمان وما أمكن لغيرهم من العساكر عبور العمان بهذه السفائن الكثيرة خوفا من تصادمها عند شدة تموج البحر ولكن الله يسلم من أراد لا دافع لمراده ولا راد وهو على كل شئ قدير فساروا تارة بالقلوع وتارة بالكورك على وجه ذلك البحر الوسيع الى أن ظهرت لهم فى اليوم الثامن جبال قلاورية واستمروا كذلك الى أن وصلوا وقت الظهر من اليوم التاسع طبرق حصارى وهو حصار منيع للكفار على ساحل البحر فلما وصلت العساكر المنصورة الاسلامية الى ذلك المكان حاربهم الكفار الملاعين فدكهم العسكر المنصور دكا ودكوا من تحت ارجلهم الارض دكا فهربت الكفار الى قلعة حصينة تسمى نجمة ووقع قتال عظيم استشهد فيه من رزق الشهادة وأعطاه الله فى جهاده الحسنى وزيادة منهم حضرة

كتخداى القابودان سنجق قره حه ايلى محمد بك نزل من سفينته مشتاقا الى الجهاد فى سبيل الله فأصابته
بندقة فى خده نفذت من الجانب الآخر واستمر صاحب فراش خمسة أيام وتلت عليه الملائكة ولا تحسبن
الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل احياء عند ربهم يرزقون فانتقل الى رحمة الله تعالى شهيدا ثم رمى وقت
المغرب مدفع لاعلام الغزاة بالعود الى سفائنهم للسير فحضروا وركبوا ورفعت القلاع وصاروا يسيرون
تارة برفع القلع وتارة بالكورك الى أن وصلوا فى اليوم الرابع عشر الى جزيرة مسينة استقر بها عساكر
المسلمين ثم ساروا فلما وصلوا الى محاذاة حصار صراقول حصلت فرتونة فى البحر تفرقت بسببها السفائن من
الضحى الى آخر النهار ثم اجتمعت وقت العشاء فى محل يقال له كيرثم مروا بقلل ابان فحوصرت وهدمت
قلعتها وقتل من بها من النصارى ثم ساروا فلاحت قلعة اولا ووصل اليها بعض العسكر المنصور ونهبوا
ما وجدوا بها من الذخائر وقتلوا من ظفروا به من النصارى وعادوا الى سفائنهم وصاروا ينزلون كل يوم لأجل
السبقية الى جانب من ساحل مجلية وكلما وصلت يدهم اليه من نهب وغارة وقتل وأسر لطائفة الكفار
بادروا اليه وأخربوا اقراهم ودورهم وبساتينهم وعادوا الى سفائنهم فاجتمع كل من فى ذلك الساحل
من النصارى من فارس وراجل فصاروا عسكرا وأقدموا على قتال من ينزل من المسلمين فخرج اليهم من
السفائن بعض البحارين والكورجية وبعض من فى نيته الجهاد فى سبيل الله فقاتلوا الكفار وهزموهم
وقتلوا منهم خلقا كثيرا وفر الباقون ولم يعهد للملاعين مثل هذه الهزيمة والخسران وذهاب أرواحهم
واموالهم واسرا اولادهم ونسائهم قبل الآن والعذاب الاخرة اشد وابقى ثم اطلق المسلمون النار فى تلك
السواحل وأحرقوا اشجارها ودورها وقصورها وعجلوا باهلها الى نار جهنم وساءت مصيرا * وفى اليوم
السادس عشر من شهر ربيع الاول ظفر عسكر الاسلام بسفينة للنصارى مشحونة بالقمح كانت
متوجهة الى بعض قلاعهم فاغتنم المسلمون ذلك وكان أخذها فألا حسنا للمسلمين * وفى اليوم الثامن عشر
من الشهر المذكور وصلوا جودا واسى وطاب الريح للمسلمين فوصلوا الى قلعة خراب فى قرب تونس
قريبا من قالبية بورنى وهى على ثمانية عشر ميلا من مدينة تونس فزينت السفائن والأغربة بالرايات
المصبوغة ألوانا اظهارا لهيبة الاسلام وعنوانا للعساكر المنصورة وارسوا فى اليوم الرابع والعشرين فى
جزيرة حلق الواد ونزلت العساكر المنصورة السلطانية ونصب وطاق حضرة الوزير المعظم والقابودان
المكرم على مسافة لا يصل اليها المدافع ونزلوا المدافع الكبار الذى اذا رمى بها ازلزلت الجبال وتهدمها
وتخرب الأطواد الكبار وتحطمها وشرعوا يتقربون قليلا قليلا الى القلعة ويبنون لهم متاريس
يتترسون بها ويسوقون الأتربة أمامهم ويتسترون خلفها ويحفرون خنادق فيها كيلا تصيبهم المدافع
ويتقدمون ويدنون من القلعة على هذا الاسلوب الى أن أحاطت العساكر المنصورة بقلعة المنجنيقات
والمدافع ووجهت الى صوب الكفرة أفواه المكاحل الكبار والصانع وبرز حضرة الوزير المعظم سنان
باشا محفوفا بنصر الله يخوض حول الموت وهو يراه محتسبا نفسه فى سبيل الله معتمدا على عون معين
نصير تسجد لعظمته الجباه وأقدمت العساكر المنصورة بصدق اعتقادها وثبتت النصارى بغلظ
اكبادها من اشد الصواعق واخطف للابصار والاسماع من الرعود والبوارق تخطف ما صادفت من
النفوس والأرواح وتمزق ما صدمت من الهياكل والاشباح وتفك اللحم من العظم وتذيب الشحم
وتسيل الدم والعساكر المنصورة مقدمون على هذه الأهوال ثابتون ثبات الاطواد والجبال على
الحرب والقتال اذ وصل الخبر بوصول بكار بكى تونس المولى عليها من قبل السلطنة الشريفة العثمانية

السليمية

السليمية أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام والمجاهدين العظام حيدر باشا وكذلك بكاربكي
طرابلس الغرب أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء المجاهدين العظام ذو القدر والعظمة والاحتشام
مصطفى باشا أيدهما الله تعالى بالنصر والتأييد وظفرهما على كل كافر عنيد وكانا وصلا قبل
وصول العمارة السلطانية من البر الى مقدار نصف يوم عن تونس بقصد محاصرتها وأخذها فلما
علم البكلار بكيان بوصول العمارة السلطانية الى حلق الواد واشتغال العسكر المنصور السلطاني بالجهاد
وصلا ليلا بالخفية مع قليل من الغلمان الى وطاق سردار العمارة المنصورة الوزير المعظم الباشا سنان
واجتمعا به وفرح كل منهما كمال الفرح وحصل له الاطمئنان وطلبا منه الامداد والاعانة على أخذ
تونس وما أمكن الوزير المعظم سنان باشا أن يتوجه معهما بنفسه فأمر طائفة من أمرائه وعين نحو ألف
نفر مع التفكجية وبعض المدافع الكبار والضربزنات أن يتوجهوا مع البكلار بكيين من السناجق فخر
الأمراء العظام ابراهيم بك من سناجق محروسة وسنجق قرستي محمود بك وسنجق قره حصار بك
بك ومقدار الفي نفر من طائفة كوكللوا مع أغاهم حبيب بك فتوجهوا في الحال مع حيدر باشا ومصطفى
باشا واحاطوا بتونس وكان سلطانها الوالي مع النصارى احمد الحفصي ومن معه من النصارى ورأوا
أنهم عاجزون عن حفظ تونس لسعتها ورأوا ان قلعتها ايضا خراب بالمرة لا تصونهم فخرجوا من
تونس الى مرحلة بقربها يقال لها قومولودكر يعني بحر الرمل وعملوا بها حصارا من الخشب حشوه بالتراب
وتحصنوا فيه وكانوا نحو سبعة آلاف مقاتل ما بين كفار ومرتدين ومردة من النصارى المخذولين
وشحنوا هذا الحصار بآلات الحرب والمدافع والذخيرة ونحو ذلك فلما اخلت تونس من أعداء الدين فتحها
عساكر المسلمين وضبطوها وحصنوها ثم برزوا الى قتال أولئك الملاعين وحاصروهم في قلعتهم التي
أحدثوها وأحكموها بالاخشاب والألواح والطين وأرسلوا خبر ذلك الى سردار عسكر المسلمين الوزير
المعظم سنان باشا فأرسل لنصرتهم وامدادهم واعانتهم القابودان المعظم والبكلار بكي المفخم قلج علي
فتوجه بطائفة من المسلمين من العساكر المنصورة السلطانية الى اعانة بكلاربكي تونس حيدر باشا
وبكلربكي طرابلس الغرب مصطفى باشا ومن جهز معهما من العساكر سابقا وهم محيطون بالقلعة التي
تحصنوا بها الكفار الأشقياء والعربان المرتدين فرأى قلج علي باشا صعوبة أخذ القلعة لكثرة من فيها
من المقاتلة وطلب عسكرا آخر وعدة ومدافع أخرى من الوزير المعظم سنان باشا فأرسل له ألف
ينكجري وصوصولجي اشي ومن سلحدارية الباب العالي على أغا وجهز معهم ثمانية مدافع وستة ضربزن
ولحقوا بالقابودان قلج علي باشا وأحاطوا بقلعة الكفار وبنوا المتاريس من كل جانب ومع ذلك كانت
الكفرة والملاعين ومن ارتد منهم من عربان تونس في غاية الكثرة والقوة ومعهم الخيول فخرجوا من
القلعة مرارا وهجموا على عساكر المسلمين عند المتاريس في جهة من جهات القلعة وقاتلوا المسلمين قتالا
شديدا وعادوا الى قلعتهم واستشهد في ذلك كثير من المسلمين وانتقلوا الى رحمة الله تعالى في أعلى عليين
فلما بلغ حضرة الوزير المعظم ما فيه عساكر المسلمين من الشدة جاء بنفسه اليهم فان المسافة قريبة وعساكر
السلطنة محيطة بقلعة حلق الواد والحرب قائم على حاله فتوجه حضرة الوزير الى تلك القلعة المحصورة
بقرب تونس وشاهدها ووزع على جوانبها عساكر المسلمين وقوى جاشهم وعين في كل موضع طائفة
وأشار على القبودان والبكلار بكية بما رأى فيه الصواب وطمنهم وشد قلوبهم وعاد من يومه الى حلق
الواد لاحتياج عساكر المسلمين اليه في هذه الجهة أيضا واستمر كل من الفريقين على مجاهدة الكفار وهم

على الثبات والقرار لا يسأمون من مصادمة النار ولا يخافون من الموت لانهم مقدمون على جنة الخلد وملك لا يبلى طالبون درجة الشهادة من الله العلي الأعلى *ووصل في هذه الاثناء بكاربكي الجزائر سابقا أمير الأمراء العظام أحمد باشا لاعانة عسكر الاسلام وأقبل على حضرة الوزير المعظم واستأمر لما يأمره به فأعطاه عدة من المدافع وعين له جهة الجنوب من حلق الواد فتوجه اليه وبنى المتاريس عليها وجاهد في الله حق جهاده وأقدم على قتال الكفار والتى الى الحرب مقاليد قياده فوصل العسكر المنصور الى حافة خندق الكفار بعد أربعة عشر يوما وبنوا على حافته المتاريس وكان الكفار قد نقبوا تحت الارض نقبا طويلا ووصلوا به الى موضع كان كركخانه وفيه قلة برج يصلح للتحصين فوصلوا اليه من تحت الأرض وملأوه من الرجال وآلات الحرب ففطن المسلمون لذلك وكان قريبا من الجانب الذى فيه حضرة الوزير فتوجه اليه بنفسه النفيسة ووقع فيه حرب شديد وأخذت القلعة وقتل من فيها من النصارى المخذولين وأرسل حضرة الوزير بالليل من يقيس عمق الخندق الذى وصل اليه العسكر المنصور فكان عمقه ستين ذراعا بذراع العمل وقعره متصل بالبحر مملوء بماء البحر فتشاور الوزير مع الأمراء وأصحاب الرأى في ذلك فما وجدوا لذلك حيلة غير ان يملأ الخندق بالتراب وتبنى عليه المتاريس فأمر الوزير المذكور سائر العسكر بذلك فشرعوا في نقل التراب من خلف المتاريس وباشر حضرة الوزير المشار اليه ذلك ونقل بيده الشريفة التراب ابتغاء مرضاة الله العزيز الوهاب ونصرة لدين الاسلام وتأييدا لملة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ورأى الأمراء ذلك فبادروا بأنفسهم الى نقل التراب ورأى العسكر المنصور ذلك فهموا غاية الاهتمام وأقدموا نهاية الاقدام وحملوا التراب كأمثال القباب ورموا بها في الخندق الى ان امتلأ فارتفع وزاد في الارتفاع فبنوا المتاريس فوق ذلك الى أن اعتلوا على الحصار وذلك لاربع عشرة ليلة خلت من ربيع الثانى سنة احدى وثمانين وتسعمائة فصارت مدافع المسلمين تصل الى وسط قلعة الكفار وتقتلهم وتحرقهم بالنار وتسوقهم الى جهنم وبئس القرار * ووصل رمضان باشا ومعه ثلاثة آلاف مقاتل واجتمع بحضرة الوزير المعظم وطلب منه خدمة يؤديها فأرسله بمن معه من عسكر الاسلام الى اعانة المسلمين الذين حصروا الكفار بالقلعة التى بقرب تونس فتوجه اليها ونزل في جهة من جهاتها وحط عليها مع من هنالك من البكاربكية والأمراء والغزاة والمجاهدين والكبراء واستمر حضرة الوزير في محاصرة حلق الواد والاستيلاء على من فيها من أهل الكفر والعناد وأقدم المسلمون على الدخول على الحصار لما شاهدوا وهن الكفار وحمل الوزير المعظم بمن معه من الابطال حملة تزلزل الجبال وحمل من الجهات الثلاث من العسكر والأمراء والرجال فدخلوا القلعة وفتحوها عنوة بالسيف والقتال لست مضين من جمادى الأولى سنة احدى وثمانين وتسعمائة ووضعوا السيف فيمن وجدوا بها من الكفار وساقوهم بالنار الى عذاب النار جهنم وبئس القرار وغير ذلك واستوسر صاحب القلعة كبير النصارى المخذولين وكذلك أسر سلطان تونس أحمد بن حسن الحفصى وقيدهما وحبسهما حضرة الوزير وأمر بقتل سائر من وجد من النصارى والعرب المرتدين وفرح بفتح هذا الحصن كافة أهل الاسلام والمؤمنين واستبشروا بهذا النصر والفتح المبين فانه يعد من أجل فتوحات الاسلام وأعظم التأييدات لدين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وكانت هذه القلعة من أحكم القلاع التى أحكمها الشام وأقواها في المكنة والاستحكام وأشدها ضررا على أهل الاسلام *ومن عجيب الاتفاق ان هذه القلعة المذكورة بنتها النصارى في ستة وثلاثين

وتسعمائة

وتسعمائة وكانوا استحكامها فى ثلاث وأربعين سنة وافتتحها حضرة الوزير المعظم سنان باشا فى ثلاث وأربعين يوما من محاصرتها بعد السنين التى أحكم فيها بناؤها كل يوم بسنة * ولما تم هذا الفتح المبارك رأى حضرة الوزير ان ترميمها واعادتها وحفظها بالعسكر يحتاج الى مؤنة كبيرة وخزائن من الأموال كثيرة مع قلة جدواها وبعدها عن الباب العالى وطول مداها ورأى ان الأولى هدمها وتخريبها فهدموها حجرا وتركوها خبرا لا أثرا وأعملت المعاول فى رأسها الى أن وصلوا الى اساسها فصارت طللا من الاطلال ودمنة يلعب فيها هبوب الصبا والشمال ولا يسمع فيها نداء أو صدا الاصداء يوم أوصدا ولم يبق بها أنيس الا اليعافير والا العيس وأرسل حضرة الوزير المعظم بشائر النصر والفتح المتوالى الى جهة الباب الشريف العالى والى سائر بلاد الاسلام ليأخذ المسلمون حظهم من هذا البشر التام والفرح الشامل العام ويفرح المؤمنون بنصر الله والملائكة الكرام ويدعوا بدوام هذا السلطان الأعظم نصره الله وخلد ملكه على الدوام

وهذا دعاء لا يرد لانه * يزان به كل الورى والممالك
تراه بلا شك أجيب لانه * اذا ما دعونا أمنته الملائك

وتوجه البشير كأنه الصبح الصادق ينشر على الخافقين رايات النصر الخوافق ويملأ برايات الفرح أقطار المغارب والمشارق

وكوكب الصبح نجاب على يده * مخلق تملأ الدنيا بشائره

ثم لما فرغ حضرة الوزير مما ربه من حلق الوادو فعل فى تلك الوهاد والمهاد والاوعاد والانجاد ما أراد توجه بعسكره المنصورة الى تونس لتطمئن طلعته الغراء من بها من المسلمين وتونس فوصل اليهم وهم محاصرون قلعة النصارى المخذولين مجاهدون مجتهدون فى أخذ أولئك الملعونين ففرح بوصوله البكار بكية الذين يحامون لنصرة الدين واشتد أزرهم وقوى جاشهم على قتال المشركين كيف وقد نشأوا على الطعان والقراع كما نشأ الاطفال على الرضاع وضروا بدماء الكفار ضراوة الأسود والسباع بما تفترسه من الصيد وهن جياع وحمل باقدامه حضرة الوزير المعظم على من فى القلعة حملة الأسد الغشمشم وتسابقت العساكر المنصورة الى استئصال أعداء الدين سبق السيل الغطمطم وتعلقوا بأطراف الحصار وصبروا على حر السيف والنار واستشهد كثير من المسلمين الكرام وقتلوا فى سبيل الله وهم أحياء لا أموات عند الله فى دار السلام واستمر عساكر المسلمين على الاقدام على الموت الزام وحد السيف والحسام الى ان دخلوا القلعة ونصبوا الرايات السلطانية على القلعة فدخلوها ووضعوا السيف فى الكفار عبدة الصليب وقتلوا منهم ثلاثة آلاف دراع مغلغل من فرقه الى قدمه فى سابغات الحديد ورمى نفسه الباقون من أعلا القلعة الى أسفلها وهم زهاء خمسة آلاف نفس نزلوا على أقدامهم فى الرمل وهربوا فقدر رمية سهم أو سهمين وشرعوا فى التترس بأتربة ورمال أرادوا أن يتحصنوا بها واالمسلمون مشغولون بقتل من بقى فى القلعة ونهب الأمتعة والاسلاب فوجدوا بها أخشابا وألواحا أعدها الكفار لاتقان القلعة واحكامها وبارودا كثيرا ومدافع وابوسا وآلات الحرب وبكسماطا كثيرا لازوادهم وكانت القلعة بسبب العجلة غير محكمة البناء وعجلتهم العساكر المنصورة السلطانية الاسلامية عن اتمامها واتقان استحكامها فلو تأخر ورود العساكر السلطانية عنهم فى ذلك العام لكانوا أتقنوا تلك القلعة اتقانا قويا لا يقوى عسكر الاسلام على فتحها بعد ذلك ولكن خذل الله تلك

الطائفة أيضا ثقفوا بوصول حضرة هذا الوزير المعظم بهذا الخميس العرمرم في هذا العام قبل استيفاء
إستحكام القلعة غاية الاحكام وكان ذلك بيمن سعادة طالع السلطنة الشريفة العثمانية وحسن اهتمام
هذا الوزير الأعظم ولطف تدبيراته العلية ورقة آرائه الثاقبة الجلية ثم أمر حضرة الوزير أن يستعقب
العساكر المنصورة الاسلامية أولئك الهاربين من الكفار فتبعوهم ووجدوهم قد شرعوا في عمل
مكان يتحصنون فيه فهجموا اليهم هجمة واحدة فتيقن الكفار أن لا مفر لهم ولا محيص فقاتلوا أشد قتال
وقاتلهم المسلمون بالنصال وصار الوجه في الوجه والناب في الناب والسيوف المسلولة من القراب
تغوص في الرقاب والخناجر تدق في اللبات والحناجر حتى سالت الدماء كالسيل العباب الى ان أنبت كافور
تلك الرمال شقيقا وصير أحجار الفلا عقيقا وضرب النقع في السماء طريقا وجند الله على كل حال هم
الظافرون والكافرون هم الصاغرون وصب من دماء أولئك الارجاس ما نجس به الرمل على طهارته
والبر على سعته وقتل الكفار عن آخرهم قتلا ذريعا وشكر المسلمون لله عز وجل صنيعا وانتصر على
النصارى أهل ملة الاسلام الذي بعث الله به رسوله عليه الصلاة والسلام الى كافة الانام وعاد حضرة
الوزير المعظم ظافرا منصورا غانما مسرورا مثابا مأجورا وغنمت العساكر المنصورة السلطانية
والجيوش الموفورة الايمانية ما يكل عن حصره أنامل التحرير وتضيق عن ذكره أدراج الأساطير
وجهزت البشائر الى الأبواب الشريفة السلطانية والاعتاب المنيفة العثمانية وتطايرت أخبار البشارة
الى سائر المسلمين في الآفاق تخفق على الخافقين أجنحة السرور والبشر الخفاق ما بين حدود الغرب
والاشراق ولولا لطف الله تعالى بأهل الاسلام لكان البلاء عاما على سائر بلاد المسلمين فان السلطان
الاعظم الأفخم السلطان سليم خان لو لم يهتم بدفع هذه الكفار الملاعين لكانوا يتسلطون على أخذ تونس
وأخذ الجزائر كلها وكانوا يحكمون قلاعها وأسوارها وحصونها وحصارها غاية الاحكام وكانت ترتد عن
الاسلام عربان المغرب وتتقوى الكفار الفجار على أخذ مصر وغيرها من ديار الاسلام لا بلغهم الله
المرام وأنزل عليهم الخزي والخذلان والنكال الى يوم القيام وقد أعان الله سلطان الاسلام لدفع
أولئك الكفرة الطغام ومزقهم كل ممزق بالسيف والسنان والحسام وشتت شملهم ومزق جمعهم
فلا يقوم لهم رأس بعد ذلك فالله تعالى يشكر لتأييد الاسلام صنيع هذا السلطان الاعظم والخاقان
الاكرم الأفخم السلطان سليم خان صاحب هذه الهمة العالية والقوة والأيادي الحسان ويجازيه
عن الاسلام والمسلمين خيرا دائم الفيضان ويشكر همة هذا الوزير الأعظم العالي الشان على نصر
أهل الايمان أعظم جزاء على هذا الفتح العظيم بحد السيف والسنان * وكان هذا الفتح الاخير
في يوم الخميس المبارك لخمس بقين من جمادى الاولى سنة احدى وثمانين وتسعمائة وقتل في القلاع
الثلاث من الكفرة الخبائث عشرة آلاف مقاتل ساقهم الله تعالى الى النار وقد استشهد من الغزاة
والمجاهدين ما يوازي عشرة آلاف غازي فمن أمراء السناجق من أمراء الاكراد خضر بك
وسنجق ابنه ملتي مصطفى بك وسنجق ملكه مسدلو برويز بك وسنجق برك مصطفى بك وسنجق
أولينة أحمد بك وسنجق ترخانة بايزيد وسنجق اسكندرية صفر بك وكتخدا الينكجرية فرهاد
ورأس زمرة الباب وكثيرا من الزعماء وأرباب التيمار وغيرهم عدة عديدة وأعطى حضرة الوزير
الأمان لطائفة من الكفار رأى في ذلك مصلحة يوازي زهاء مائتي نفر برزوا في أمان حضرة الوزير
وأخبروه بأمور مهمة كان يريد الاطلاع عليها منها ان عندهم من العلج الاستاذين في عمل الطوب

الكبار

الكبار الذى يعجز جميع الكفار عن عمل مثلها مائتى نفر وخمسة أنفار ممن لا نظير لهم فى هذه الصناعة فأمنهم وطلبهم وأخذ بخاطرهم وأعطاهم الامان على أنفسهم وشرط عليهم أن يسبكوا دائما النحاس ويجعلوه مدافع كبارا ويعمل لهم علوفة ويوضع فى أرجلهم القيود ويكفل بعضهم بعضا فرضوا بذلك وطلبوا الامان على هذا الشرط فكساهم الوزير وكتب لهم علوفات على حسب مراتبهم وصاروا من خدام الترسخانة السلطانية موكلا عليهم من يحفظهم ويتيقظ لهم ويستخدمهم فى الخدم السلطانية ويسبكون النحاس للطوب الكبار والمدافع العظام وظفر حضرة الوزير المعظم فى قلعة حلق الود وقلعتى تونس بمائتى مدفع وخمسة وثلاثين مدفعا لحفظ تونس من الكفار الفجار وأرسل مائة وثمانين مدفعا من أكبر المدافع العظيمة الى الباب الشريف السلطانى ليستعان بها على قتال الكفار اللاغين اذا دهز عليه العساكر فى كل حين * ثم لما فرغ حضرة الوزير المعظم الكبير من هذا الفتح العظيم والغنم الكثير أنعم على من فى ركابه الشريف من الامراء والكبراء والبكلربكية وسائر الزعماء وأرباب التيمار وبلوكات العسكر المنصور وأرباب الجوامك والعلوفات بالترقيات العظيمة والمناصب الكبيرة كل أحد بقدر سعيه واستحقاقه ومرتبته وعرض ذلك على سرير السلطنة الشريفة وكان مقدارا كثيرا من الخزائن العامرة السلطانية فقوبل جميع ذلك بالقبول ووقعت موقع الاجابة فى المأمول والمسئول وذلك فى مقابلة ما بذلوا أموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وجاهدوا فى الله حق جهاده ونصروا الاسلام والمسلمين وأنعمت السلطنة على حضرة الوزير بأنواع الانعامات السنية والترقيات الكثيرة العلية والخلع الفاخرة البهية والتشريفات الزاهرة السلطانية فى مقابلة سعيه فى نصرة الدين وبذل أمواله للغزاة والمجاهدين وأخذ ثار المسلمين من الكفرة والمشركين على وجه لم يقع فى كثير من الزمان مثل هذا الفتح العظيم الشان وذلك بمحض الاعانة الربانية والنصرة الالهية السبحانية ولله الحمد على نصرة الاسلام وتأييد سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام * ثم عاد حضرة الوزير المعظم المنصور المكرم خلد الله عليه سوابغ النعم الى الابواب الشريفة السلطانية بمن معه من عسكر الباب الشريف السلطانى وأذن لغيرهم من العسكر المنصور وسائر الامراء والبكلربكية بالعود الى أوطانهم وأماكن حكومتهم مجللين محترمين مجبورين منصورين سالمين غانمين واستمر حضرة الوزير المعظم الى ان ورد الى الباب الشريف العالى السلطانى وقبل قوائم السرير الشريف العثمانى فقوبل بأنواع البشر والتهانى وشمله النظر الشريف الخاقانى ونظرت اليه السلطنة بعين القرب والتدانى وأفرغ على كاهله مرة بعد أخرى خلع التشريف الخسروانى وقبل كل ما عرضه حضرة الوزير المعظم المشار اليه على الأعتاب الشريفة السلطانية من المطالب وأنعمت عليه السلطنة الشريفة بكل ما سأل فيه من المقاصد والمآرب وكان يوم دخوله الى اصطنبول يوما عظيما مشهودا ووقت حلوله فى منزله السعيد وقتا مباركا مسعودا وازدحمت الخلق على مشاهدة طلعته والتبرك بوجهه الكريم وميمون غرته وصاروا يتبركون بالنظر الى المجاهد فى سبيل الله ويطلبون الدعاء منه وممن معه من المجاهدين الغزاة والأسارى من النصارى يقادون بين يديه بالسلاسل والاغلال مقرنين فى الاصفاد بشديد الذل والنكال ودخلت سفائن العمارة وأغربتها الى الاسقال مزينة مزخرفة بالبيارق والسناجق يخفق عليها رايات الفرح بالنصر والظفر والجلالة وأطلقت المدافع للفرح فزلزلت الارض زلزالها وكادت تصم الآذان فلا تسمع الناس مقالها وعساكر الباب السلطانى وردت صفوفا بعد صفوف وتعاطفت عائدة بالنصر والتأييد

ألوفا بعد ألوف ودخل أيضا القابودان المعظم المجاهد الأكرم الأفخم حضرة قلج على باشا المكرم لازال في حرب البحر مظفرا منصورا مسعود القدم فقوبل من الحضرة الشريفة السلطانية بغاية القبول والاقبال وخوطب بلسان الشكر والتعظيم والاجلال وأنعم عليه بسائر مقاصده ومطالبه وحصل له غاية ما يتمناه من سؤله ومآربه وحصل لسائر العساكر المنصورة الاحسان الموفور وشكر لهم سعيهم المشكور وأعظم من ذلك ما حازوه من الاجر والتعظيم والثواب الجزيل الجسيم وناهيك بهذا العز والفخر وقد بقي لهم هذا الذكر الجميل في صفحات الدهر والله تعالى يديم هذه الدولة الشريفة العثمانية على تداول الليالي والأيام ويحمي بحمايتهم كافة ويؤيد بتأييدهم ملة الاسلام ويبقي سلطنتهم على الدوام الى يوم القيام فكم لهم ولأسلافهم الغزاة والمجاهدين في نصرة الملة الحنيفية الغراء من يد بيضاء آية للناظرين وكم فتحوا دار الكفر وصيروها دار الاسلام على رغم المشركين والكافرين ويكاد يلتحق فتوحاتهم بفتوحات الصحابة رضي الله عنهم أجمعين * ولقد حكت علماء أمة الاسلام واتفق قول الأئمة الاعلام رضوان الله عليهم أجمعين وشملهم برحمته انه أرحم الراحمين أن سيوف الحق أربعة وما عداها للنار سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم في المشركين وسيف أبي بكر رضي الله عنه في المرتدين وسيف القصاص بين المسلمين * أقول وسيوف بني عثمان رحمهم الله تعالى وأبقى الملك فيهم وفي عقبهم الى يوم القيامة ان شاء الله تعالى اذا اعتبرتها وتأملتها لا تخرج عن هذه السيوف الأربعة فانهم مازالوا من أول أسلافهم رحمهم الله تعالى الى الآن يجاهدون الكفار والمشركين ويقاتلون الملحدين والباغين ويقيمون شرائع شعائر الدين فالله تعالى يمد ظلال سلطنتهم عن المسلمين ويؤيد بهم أهل السنة ويقمع بهم كافة الملحدين وهذا دعاء يجب أن يدعو لهم به طوائف المؤمنين فانهم عماد الاسلام وقوام هذا الدين المتين وسبب قيامه بين الأنام والدعاء لهذه السلطنة الشريفة دعاء لأهل الاسلام واعزاز لدين الله تعالى ونصرة لسيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام وتأمين البلاد وتطمين العباد وتوهين أهل الفساد وقطع بادرة الالحاد وقمع جميع أرباب البغي والفساد

* فصل فيما جدد المرحوم السلطان الأعظم سليم خان من الخير والاحسان زيادة على والده المرحوم السلطان سليمان خان تغمدهما الله بالرحمة والرضوان * وذلك في أول سلطنته الشريفة أمر لأهل الحرمين الشريفين أن يزاد لهم سبعة آلاف أردب حب من صدقته المقبولة المبرورة زيادة على ما كان يرسله والده المرحوم لهم في كل عام فكانت تحمل في كل سنة من الانبار الخاصة السلطانية على ظهور الجمال من مصر الى السويس وتوضع في سفائن الدشايش الشريفة السلطانية من بندر السويس الى بندر جدة والى الينبع وتوزع على الفقراء وكان برز أمره الشريف العالي ان يضاف ثلاثة آلاف أردب الى الدشيشة العامة السليمانية لفقراء المدينة الشريفة وتوزع عليهم وأن يوزع خمسمائة أردب على الفقراء المنقطعين بالينبع العاجزين فيها عن السفر الى المدينة الشريفة فيستعينون بها على التوجه الى حيث أرادوا وتوزع خمسمائة أردب على فقراء جدة المنقطعين بها العاجزين عن التوجه الى مكة لأداء حج الفرض والنفل وذلك مقصد جميل للمرحوم فكان الفقراء يتوسعون فيها ويرتفقون بها وكانت ترد اليهم في كل عام من أعوام سلطنته الشريفة وكان الدعاء مبذولا له من سائر الفقراء المحتاجين المضطرين وكان يحوز بذلك ثوابا جزيلا وأجرا وافيا جميلا رحمه الله تعالى رحمة واسعة وأثابه المثوبة العظمى في الدرجات الآخرة على مقاصده الجميلة وخيراته الوافرة الجزيلة * ومنها أيضا ما كان يتصدق

به على فقراء الحرمين الشريفين أيام كان شاهزاده قبل أن يلى السلطنة العظمى فانه كان يرسل ألف دينار ذهبا توزع أيام موسم الحج فقراء مكة يستعينون بها على الوصول من المدينة الشريفة المنورة الى مكة المشرفة لأداء الحج الشريف فى كل عام وكان يخص بعض العلماء والصلحاء والمشايخ بكسوة من الاصواف الخاصة وبعض غير ذلك يرسلها اليهم يستمد منهم الدعاء بظهر الغيب منهم * فلما ولى السلطنة الشريفة وجلس على التخت الشريف السلطانى كان يرسل لهم عوائدهم السابقة فى كل عام وجعل ذلك مضافا الى دفتر صر الرومية فكانت ترد أيام سلطنته الشريفة واستمرت ترد الى الآن بعد انتقاله الى رحمة الله تعالى وذلك أيضا من مقاصده الجميلة وخيراته الباقية العميمة وله أنواع من الخيرات أيضا فى القدس الشريف وفى الشام وفى حلب وفى مصر بجامع الأزهر وغيرها من الممالك الشريفة العثمانية غير ما بنى فى بلاد الروم من المدارس والجوامع والتكايا وغير ذلك رحمه الله تعالى

﴿فصل فيما وقع من عمارة الحرم الشريف المكى فى أيامه رحمه الله تعالى﴾ اعلم ان عمارة المسجد الحرام زاده الله تعالى شرفا وتعظيما ومهابة وتكريما من أعظم مزايا الملوك والخلفاء وأشراف أكابر السلاطين العظماء وقد يسر الله تعالى ذلك لسلاطين آل عثمان أيد الله تعالى نصرهم وخلد سعادتهم مدا الزمان فوقع الشروع فيها فى أيام السلطان الاعظم الخاقان الاكرم الأفخم خليفة الله فى أرضه القائم باقامة سنته وفرضه ملك البرين والبحرين سلطان الروم والترك والعرب والعجم والعراقين صاحب المشرقين والمغربين خادم الحرمين الشريفين المحترمين عامر البلدين المكرمين المنيفين واسطة عقد ملوك بنى عثمان السلطان سليم خان ابن السلطان سليمان خان أمطر الله تربتهما سحائب الرحمة والرضوان وجعل قبرهما روضة من رياض الجنان وجعل السلطنة كلمة باقية فى عقبهما الى يوم الحشر والميزان

الى أن يعود العارضان كلاهما * ويحشر فى القتلى كليب لوائل

﴿وسبب الأمر الشريف﴾ بتعمير المسجد الحرام ان الرواق الشرقى مال الى نحو الكعبة الشريفة بحيث برزت رؤس خشب السقف الثالث منه عن محل تركيبها فى جدر المسجد وذلك الجدر هو جدر مدرسة السلطان قايتباى وجدر مدرسة الأفضلية التى هى الآن من أوقاف المرحوم ابن عباد الله فى شرقى المسجد الحرام وفارق خشب السقف عن موضع تركيبه فى الجدار المذكور اكثر من ذراع ومال وجه الرواق الى صحن المسجد ميلا ظاهرا بينا وصار نظار الحرم الشريف يصلحون المحل الذى قد فارق خشب السقف اما بتبديل خشب السقف بأطول منه أو بنحو ذلك من العلاج وأما الرواق الذى ظهر ميله الى صحن المسجد فترسوه بأخشاب كبار حفروا لها فى المسجد تمسكه عن السقوط واستمر الرواق الشرقى متماسكا على الاسلوب فى أواخر دولة المرحوم السلطان سليمان خان وصدرا من دولة المرحوم السلطان سليم خان ثم لما أحس ميلان الرواق المذكور عرض ذلك على الابواب الشريفة السلطانية السليمية سنة تسع وسبعين وتسعمائة فبرز الامر الشريف السلطانى بالمبادرة الى بناء المسجد الحرام جميعه على وجه الاتقان والاحكام وان يجعل عوض السقف الشريف قببا دائرة بأروقة المسجد الحرام ليأمن من التأكل فان خشب السقف كان متآكلا من جانب طرفيه بطول العمد وكان يحتاج بعض السقف الى تبديل خشبه بخشبة أخرى فى كل قليل اذ لا بقاء للخشب زمانا طويلا مع تكسر بعضه * وكان له سقفان بين كل سقف نحو ذراعين بذراع العمل وصار ما بين السقفين مأوى للحيات والطيور فكان من أحسن الرأى

تبديلها بالقبب لتمكنها ودفع مواد الضرر عنها ووصلت احكام شريفة سلطانية الى بكاربكى مصر يومئذ الوزير المعظم والمشير المفخم حضرة سنان باشا أدام الله تعالى سعادته واقباله وضاعف عظمته واجلاله ان يعين لهذه الخدمة من أمراء السناجق المستحفظين بمصر من يخرج من عهدة هذه الخدمة الشريفة ويكون فى غاية الديانة والامانة والمعرفة والخير والصلاح فأمر البكاربكى يومئذ وهو سنان باشا أمراء مصران يقبلوا هذه الخدمة فما أقدم أحد على تلقيها بالقبول لكثرة مشقتها واشتغالهم بأمور دنياهم والتوغل فيما يعود عليهم نفعه عاجلا من غير مشقة * وكان من جملة الامراء المحافظين بمصر كتخداى المرحوم اسكندر باشا الجركسى بكاربكى مصر سابقا فخر الامراء العظام ذخر الكبراء ذوى الاحترام احمد بك بارك الله فيه وفى ذويه وأناله من خيرى الدنيا والآخرة ما يرتجيه وكان ممن اجتمع فيه هذه الخصال المحمودة المطلوبة من حب الخير والتوجه الى الله تعالى وقلة الميل الى الدنيا وزخارفها والميل الى الفقراء والضعفاء والعلماء والتواضع مع الناس وحب المعدلة والاستقامة مع صدق الخدمة وكمال الديانة والامانة والاقدام وعلو الهمة ووفور الاهتمام فطلب منه حضرة الوزير المشار اليه هذه الخدمة الشريفة وأضيف اليه عمل بقية دبل عين عرفات من الابطح الى آخر المسفلة بمكة المشرفة فان السلطنة الشريفة امرت ان يبنى لها دبل مستقل ولا تجرى فى دبل عين حنين فعينت هذه الخدمة أيضا للامير احمد المذكور وعرض له ذلك الى الباب الشريف العالى فوردت الاحكام الشريفة السلطانية له بذلك حسب ما عرض له واضيف الى الخدمة سنجق جدة المعمورة تعظيما للشانه وتوقيرا لقدره ومكانه وبعد ورود الاحكام الشريفة السلطانية اليه اخذ فى اهبة السفر وتوجه من مصر من طريق البحر الى بندر جدة ثم وصل الى مكة شرفها الله تعالى فى أواخر سنة تسع وسبعين وتسعمائة مهتما غاية الاهتمام سائلا من الله تعالى الاعانة والامداد التام وكانت الأوامر الشريفة السلطانية والمتكلم عليه من جانب السلطانية المنيفة الخاقانية سيدنا ومولانا ناظر المسجد الحرام ومدرس مدرسة أعظم سلاطين الأنام . بدر الملة والدين حسين الحسينى خلد الله سعادته ففرح بهذه الخدمة الشريفة الفرح التام وشد مناطق حزمه على مناطق عزمه وقام فى ذلك أحسن قيام وحصل بين مولانا الناظرى الأمير أحمد المشار اليه كمال الملاءمة والاتفاق وبذلك يحصل تمام النجاح والارتفاق وجرت عادة الله أن الخير كله فى الوفاق والشر جميعه فى الشقاق ولم يكن الرفق فى شىء الازانه ولم يكن العنف فى أمر الاشانه ومن أراد الرفق بعباد الله وفق الله تعالى به وأعانه ووصل لهذه العمارة الشريفة معمار دقيق الانظار جليل الآثار تقدم له مباشرة الابنية العظيمة وحصلت له بالتجربة خبرة تامة ومعرفة مستقيمة أجمع المهندسون على تقدمه فى هذه الصناعة ودقة نظره فى لوازم هذه البضاعة اسمه المعمار محمد جاويش الديوان العالى وهو انسان من اهل الخير عظيم الامانة كثير الديانة مستقيم الرأى منور الباطن مشكور السيرة زاده الله توفيقه وأرشد طريقه فاتفق الناظر والأمين والمعمار على الشروع فى هدم ما يجب هدمه الى آن يوصل الى الأساس فشرع أولا فى اكمال الدبل المستقل لاجراء عين عرفات وبناه من جهة المدعا ثم مر به من عرض ثم من جهة سويقة ثم عطف به الى السوق الصغير وأكمله الى منتهاه وبنى قبة فى الابطح جعل فيها مقسم ماء عرفات وركب فى جداره بزابيز من النحاس يشرب منها الماء ثم بنى مسجدا وسبيلا وحوض ماء للدواب على عين الصاعد الى الابطح فى قبلى بستان بيرم خواجه الصابر الى المرحومة الخاصكية أم سلاطين طاب ثراها وبنى مسجدا آخر وسبيلا ومتوضأ فى انتهاء سوق المعلاة على يسار الصاعد وكل ذلك من اعمال

الخير

الخير الجارية النافعة للمسلمين وعرض ذلك على أبواب السلطنة الشريفة فأنعمت على الامير المشار اليه بسبعين الف عثمانى ترقيا فى علوفته فى مقابلة هذه الخدمة ثم شرع فى تجديد اروقة الحرم الشريف فبدأ فيه بالهدم من جهة باب السلام فى منتصف ربيع الاول سنة ثمانين وتسعمائة وأخذت المعاول تعمل فى رأس شرفات المسجد وطبطاب سقفه الى ان ينكشف السقف فتنزل أخشابه الى الارض وتجمع فى صحن المسجد الشريف وينظف الارض من نقض البناء واتربته ويحمل على الدواب ويرمى فى أسفل مكة فى ناحية جبل الفلق ثم تمام الاساطين الرخام الى ان تنزل بالرفق الى الارض واستمروا فى هذا العمل الى ان نظفوا وجه الارض من ذلك من باب على الى باب السلام وهو الجانب الشرقى من المسجد ثم كشفوا عن أساسه فوجدوه مختلا فأخرجوا الاساس جميعه وكان جدارا عريضا نازلا فى الارض على هيئة بيوت رقعة الشطرنج وكان موضع تقاطع الجدران على وجه الارض قاعدة تركيب الاسطوانة على تلك القاعدة فشرع اولا فى موضع الاساس على وجه الاحكام والاتقان من جانب باب السلام لست مضين من جمادى الاولى سنة ثمانين وتسعمائة واجتمعت الاشراف والكبراء والامراء والفقراء والمشايخ والصلحاء تبركا وتيمنا بالحضور فى هذا الخير العظيم وقرئت الفواتح بالاخلاص من سويداء القلب الصميم وذبحت الابقار والانعام والاغنام وتصدق بها على الفقراء والخدام ووضع الاساس المبارك بأمانة الله تعالى وتبارك وكان يوما مباركا مشهودا ميمونا سعودا ولله الحمد على هذا الاكرام وله الشكر والثناء الحسن فى المبدء والختام وكانت الاساطين المبنية سابقا على نسق واحد فى جميع الأروقة فظهر لهم ان ذلك الوضع لا يقوى على تركيب القبب عليها لقلة استحكامها اذ القبة يجب أن يكون لها دعائم اربعة قوية تحملها من جوانبها الاربع فرأوا ان يدخلوا بين أساطين الرخام الابيض دعامات أخرى تبنى من الحجر الشميسى الاصفر يكون سمكها مقدار سمك اربع اسطوانات من الرخام ليكون مقيما لها من كل جانب فتقوى على تركيب القبب من فوقها ويكون كل صنف من أساطين الأروقة الثلاثة فى غاية الزينة والقوة ففى اول ركن من الرواق الاول دعامة قوية مبنية من الحجر الشميسى ثم اسطوانة رخام كذلك ثم دعامة من الحجر الاصفر الشميسى وعلى هذا المنوال الى آخر هذا الصف من أساطين الرواق ثم الصف الثانى من الرواق الثانى كذلك على هذا المنوال الى آخر هذا الصف من أساطين الرواق ثم الصف الثالث من الرواق الثالث على هذا المنوال وبنيت القبب على تلك الدعائم والاساطين فى دور المسجد جميعه وشرعوا من ركن المسجد الشريف من جهة باب السلام كما تقدم وقاسوا تلك الصفوف بخط مستوى وأزالوا ما كان قبل ذلك من الازورار والاعوجاج والحجر الشميسى نسبة الى شميس تصغير شمس جبل بقرب بئر شمس وهى حد الحرم من جانب جدة به جبيلات صفر تكسر منها هذه الاحجار وتحمل الى مكة مسافة مادون ليلة فكان فى ادخال هذه الدعامات الصفر ما بين الأساطين البيض حكمة أخرى غير الاستحكام والزينة وهى أن أساطين الرخام الباقية فى المسجد كانت تفى بجوانبه الاربع لان الجانب الغربى احترقت أساطينه الرخام وسقفه أيام الجراكسة فى دولة الناصر فرج بن برقوق فى سنة اثنتين وثمانمائة وأرسل من أمرائه الامير سيف الظاهرى الى مكة المشرفة فعمر الجانب الذى احترق من المسجد الحرام بالحجر الصوان المنحوت كما قدمنا ذكر ذلك فى محله وصارت الجوانب الثلاث من المسجد الحرام وهى الجانب الشرقى والجانب اليمانى والجانب الشامى على نسبة واحدة أساطينها من الرخام الأبيض وأساطين الجانب الغربى جميعها من

قطع الحجارة المنحوتة من الحجر الصوان غير مناسبة للجوانب الأخر الآن و بادخال هذه الدعامات الصفر صارت الأساطين كلها على نسبة واحدة وهى أن كل ثلاث أساطين من الرخام الأبيض يكون رابعتها دعامة واحدة من الحجر الأصفر الشميسي وذلك فى غالب الأروقة من الجوانب الأربع من المسجد الشريف كلها قائمة على أقدامها بغاية الاحكام كأنها صفوف واقفة بالادب حول صحن مسجد بيت الله الحرام من جهاته الاربع وهى أعلى من الارتفاع السابق وأرفع كأنها تنشد بلسان حالها مفتخرة على أمثالها بل تفوق على ماسواها وتطول

ان الذى سمك السماء بنالنا * بيتا دعائمه أعز وأطول

واستمر امير العمارة الشريفة حضرة الامير احمد المشار اليه شكر الله سعيه وبارك له وعليه فى غاية بذل الجد والاجتهاد مقرون الحركة بالتوفيق والسداد يتلطف بالخدم والعمال و يتفضل عليهم بأنواع الافضال ويوصلهم اجورهم كاملة لا يقتطع منها مقتطعا من أحد ولا يضر بحاله بل يزيدهم من عنده ويسامحهم بماله مع كمال الدقة فى الأموال السلطانية الحرص على حفظها وعدم التبذير فيها وأما مال نفسه فيوسع به على الفقراء ويبذل لهم وللخدام والعمال ما أراد ويحسن الى أهل البلاد مع التواضع وحسن الخلق ولين الكلام ومواساة الناس فى جميع المهام والمشى فى تشييع الجنائز معهم وعيادة مرضاهم وسلام القدوم واستجلاب رضاهم بحيث ترك عظمة الامارة وصار من جملة فقراء الناس لكثرة تواضعه أحبه الناس وحمدوه وشكروا جميله واحسانه وذكروا كثرة تجمله ولطفه ولقد جاء الى منزلى متفضلا مرارا وأنا من آحاد الفقهاء بل من أدنى الفقراء وما فعل ذلك الا محبة فى الله أحبه الله لا لأمر يناله منى فانه اجل قدرا واعظم خطرا من ذلك وما ذكرته الا ليعلم حسن تواضعه وتخلقه وتلبسه بالأوصاف الجميلة وتحققه فلاجرم أن الله تعالى وفقه لهذه الخدمة السنية الفاخرة وأتم عمل هذا الخير العظيم على يده فيكفيه ذلك سعادة فى الدنيا والآخرة فكم من وزير كبير نبيل بل ملك عظيم جليل يتمنى الوقوف فى هذه الخدمة مع جلالته ويعدها من أكبر سعادة دنياه وآخرته وما قدرها الله تعالى الا لمن ظهرت العناية الازلية فى حقه فاختاره الله تعالى لذلك من بين عباده واصطفاه من خلقه وهو هذا الامير الكريم الصفات فالله تعالى يعينه على فعل الخيرات ويسدده فى أفعاله وأقواله ويوفقه للباقيات الصالحات فلما كمل جانبين من المسجد وهما الجانب الشرقى والجانب الشمالى وحصل خبر انتقال حضرة السلطان سليم الى دار النعيم رحمه الله وطيب ثراه وأحسن اليه فى الدار الآخرة واستمر حضرة الامير أحمد المشار اليه أحسن الله تعالى اليه فى عمله المبرور وفعله المعمور بالمعمور مستعينا بالله ولى الامور

(فصل فى وفاة المرحوم المقدس السلطان سليم الثانى وانتقاله الى عالم القدس من ملك هذا الفانى)

لما كان لكل اجل كتاب ولكل نفس انفاس معدودة قدرها الله تعالى فى أم الكتاب لا يسلم منه والد ولا مولود ولا سلطان ولا جنود ولا سيد ولا مسود ولا ينجو منه شئ خرج من كتم العدم الى فضاء الوجود

هو الموت سلطان البرايا العاجز * لديه وغلاب كمن لم يغالب
ودرع الفتى فى حكمه درع غارة * وايوان كسرى من بيوت العناكب

قدر الله تعالى له بالانابة عن كل ما يخالف أمره ورضاه وغلب عليه قرب توجهه الى الله صلاحه وتقواه

وطهره

وطهره الله تعالى بمقاساة المرض وكفاه وصيره نورا روحانيا جوهرا علويا سنيا وهيكلا شريفا مليكا يصلح لجناب قدسه الكريم ودعاه فلباه بقلب سليم ومضى الى رحمة ربه الرحيم فائزا بالملك الاخروى فى جنات النعيم مخاطبا من الحضرات الالهية بلسان الالطاف الرحمانية يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وأدخلى جنتى * وكان وقوع هذا الامر المهول لسبع مضين من شهر رمضان فيضان الرحمة والاحسان سنة اثنين وثمانين وتسعمائة ودفن جسده الشريف وهيكله الطاهر المنيف بقرب أياصوفية بتربة طيبة غرا وروضة نضرة غنا تنوح بها ورق الاطيار وتبكى فيها سحب الامطار وتشقق أثوابها أكمام الازهار وتلطم خدودها أوراق البهار أنزل الله تعالى عليه مطر الرحمة والرضوان وجعل قبره الشريف روضة من رياض الجنان

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما * سرى جوده فوق الركاب ونائله
أفاض عيون الناس حتى كأنما * عيونهم مما تفيض أنامله
فيا عجبا من مهجتى لا تشتكى بسائل * على ملك لا يعرف النهر سائله
فان دفنوا تحت التراب جماله * فما دفنت أوصافه وشمائله
سقى جدثا هالات عليه ترابه * أناملهم مع الغمام ووابله

﴿الباب العاشر﴾

فى سلطنة سلطان العصر والزمان خاقان خواقين العهد والدوران مالك ملوك المشرقين والمغربين سلطان سلاطين الخافقين خادم الحرمين الشريفين عامر البلدين المحترمين المنيفين اعظم سلطان خفقت عليه البنود وتشرفت بعده رؤس المنابر واكبر مليك جند الجنود وكتب الكتائب وحشد العساكر وأعدل خليفة انتظم به نظام الوجود وعقدت على عظمته عقود الخناصر

ملك اذا ضاق الزمان بأهله * بخلا توسع فى المكارم وانفسح
تكبوا السحائب اذ تجارى كفه * فالغيث من راحاته عرق رشح
ومكاف الاسد الهصور بعدله * فى القفر أن يرعى الغزال اذا سنح

المنصوب له على اعلا أوج ضمير السلطنة سرادق الخلافة العظمى المرفوع فى أرجا بساط البسيطة لواء الملك الاسنى العظيم الاسما * حضرة السلطان الاعظم والخاقان الاكرم السلطان مرادخان ابن السلطان سليم خان ابن السلطان سليمان خان

نسب كأن عليه من شمس الضحى * نورا ومن فلق الصباح عمودا

لازالت أعلام خلافته مرفوعة على هام الثريا ولا برحت ألوية سلطنته منصوبة فوق الكواكب مكانا عليا مادام الجديدان وطلع النيران ولمع الفرقدان * مولده الشريف فى سنة ثلاث وخمسين وتسعمائة وجلس على تخت الملك الشريف فى عاشر رمضان المبارك سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة وسنه الشريف حين ولى الملك المنيف ثلاثون سنة وهو ملك همام وأسد ضرغام وهزبر مقدام وسيف صمصام وبحر طمطام وملك بقائم سيفه ملوك الاملاك وأدار على حسب مراده الافلاك وملأ بصيت عظمته ما بين السماك والاسماك وخاطبه الصبح والليل أسعد الله صباحك ومساك خداوندكار العالم وسلطانه وامام المسلمين الذى اذا جلس على كرسيه فما قدر كسرى وايوانه وهو منذ هجر المهد والرضاع مجبول على كرم الخصال وشرف الطباع مشغول اللسان بالذكر والقرآن مشغول الجنان

بالسيف والجنان ممدود الهمة الى معالى الشان معقود الامنية بعلو القدر وسمو المكان لم يزل قائما بنصرة الدين وحماية بيضة الاسلام وتقوية جناح المسلمين وانى أنشر فى هذه الرسالة سيرة معدلته فى الرعايا وأتحدث بما طبعه الله عليه من كرم السجايا وحبب الى خلقه الشريف من الرأفة بالبرايا والمحبة لعلماء الدين وأكرامهم بالمواهب والعطايا وحسن نظره الى الحرمين الشريفين واحسانه الى الفقهاء والفقراء والصلحاء بالبلدين المنيفين وأمره الشريف بتكميل عمارة المسجد الحرام عمارة فائقة حسنة رائقة باقية فى صفحات الأيام فاق بها من قبله من الخلفاء الكرام وسائر سلاطين الأنام وكافة ملوك الاسلام فلقد آتاه الله مالم يؤت أحدا من العالمين وجمع له بين أعظم سعادة الدنيا والدين وجعله ملكا كريما وسلطانا رؤفا رحيما ومنحه ملكا جليلا عظيما واقفا عند مراده سبحانه فلا يتعداه عاملا فى أمره بتوفيق الله مراعيا العدل والاحسان فيما استرعاه

معالى بنى عثمان غير خفية * وكل الى شأو المفاخر سابق
وقد تخمد الشمس النجوم بضوءها * تفاوتت الأنوار والكل رائق
بأمر مراد ينجلى كل مشكل * غويص وتنقاد الجبال الشواهق
ويوهمنا فى ان آدم لم يمت * حنو على أولاده منه صادق
ولطف تسارى الخلق فيه فضمهم * كما ضمت الخصر الرقيق المناطق
بقاؤك فى الاسلام عز مؤبد * فدم وابق للاسلام ماذر شارق

طال ما عمرنى وغمرنى باحسانه وهو شهزاده قبل جلوسه الشريف على تخت السلطنة والسعادة وشملنى لحظه الشريف السلطانى بالحسنى وزيادة واستمر ذلك اللحظ الشريف السلطانى يشملنى بلطفه واكرامه ويكرمنى بحسن التفاته الشريف وانعامه فوق ما بيدى من المدرسة الشريفة السلطانية السليمانية مدرسة جده المرحوم المحفوف بالرحمة الرحمانية وأنعم على أولادى بالتدريس وأولادهم بكل اكرام واحسان لطيف نفيس

فلو أن لى فى كل منبت شعرة * لسانا يبث الشكر كنت مقصرا
وما بيدى الا الدعاء لنصره * ليملك قسرا ملك كسرى وقيصرا

وانى لأخدمه أنا وأولادى وأجنادى فى بلد الله المنيف بالدعاء بطول عمره الشريف وخلود ظل عدله الوريف وبقاء سلطنته القاهرة ودوام خلافته الزاهرة الباهرة وأخلد ذكره الشريف فى صدور الدفاتر والكتب وانشر طيب عرف شكره على مرور الاعصار والحقب وانى وان أعطيت فى القول بسطة وطاوعنى هذا الكلام المحبر

لأعلم انى فى الثناء مقصر * وان الذى أولاه أوفى وأوفر
فأى جميل من عطاياه ينتهى * وفى كل حين فضله يتكرر
ولكننى مادمت حيا لشاكر * ويشكره بعدى كتابى المسطر

﴿فصل﴾ ومن سعادة هذا السلطان الأعظم الاسعد ثبت الله سلطنته وشيد وأدام ملكه السعيد وخلد مقارنته هذا الوزير المعظم الاكرم الأفخم ظهير السلطنة الشريفة العثمانية وعضد الدولة المرادية الخاقانية مدبر الامور برأيه المصيب الثاقب ومهد مصالح الجمهور بفكره الدقيق الصائب أعظم وزراء السلاطين العظام وأكبر الصدور الكبراء الفخام فى دواوين أعظم ملوك الأنام ﴿حضرة

محمد باشا) المشار الى حضرته العلية سابقا فى وزارة والدهذا السلطان الأعظم وجده قرن الله صدارته بسعادته وجده وأدام صدارته فى ظل اقبال هذا السلطان الأكرم وشمله بسعده فأول خدمة هذا الوزير حسن التدبير حتى أجلس حضرة هذا السلطان الأعظم روح هذا العالم على السرير وقام بأعباء هذا الأمر الخطير ودبر ذلك برأيه السديد أحسن تدبير وأعانه على ذلك تقديرا للطيف الخبير وتيسيرا العلى الكبير والله على كل شئ قدير وأقبلت السلطنة الشريفة عليه الى أن صار ملهج لسانها وعظم فى عين الدولة الشريفة فحل محل انسانها وكبر شأنه وقد كان كبيرا عظيما وعم احسانه وكان كثيرا عميما وعرف نعمة الله فقابلها بالشكر والتحميد واعترف بآلاء الله تعالى طلبا للمزيد وربطا للجديد العتيد وأشرقت شمس سعادته فى الآفاق وأورقت رياض صدارته أنضر ايراق وقلد اجياد أركان السلطنة الشريفة بعقود مننه السامية المنيفة فكانت كالاطواق فى الأعناق والنور فى الأحداق بحيث لم يبق من أمراء الديوان وزعماء الجيوش والامراء والبكار بكية الاعيان من لم يضرب بسهم وافر من عطاه ولم يخدمه الافاز بانعامه وحباه وأحسن الى السادات والمشايخ والعلماء والموالى وسائر العظماء والاهالى والى أهل الحرمين الشريفين وجيران البلدين المطهرين المنيفين وأكثر فيهما الصدقات وأجرى فيهما الخيرات من اجراء العيون وحفر الآبار وبناء دار الشفاء والحمامات وغير ذلك من الاعمال الصالحات مستجلبا بذلك دعاء الفقراء والصلحاء وتوجه خاطر الأولياء والاصفياء بدوام دولة هذا السلطان الأعظم وقيام دولة سلطنته العظمى وخلافته الكبرى على هذا العالم فهم مواظبون على وظيفة الدعاء بدوام دولة سلطان الربع المسكون وبقاء صدارة هذا الوزير الاعظم بالسعد المقرون زين الله أعماله بحسن القبول وكسى ديباجة وجهه الشريف قبولا يدوم بدوام الصبا والقبول فى ظل مراحم هذا السلطان المحفوف بالعدل والاحسان خلد الله سلطنته العادلة مدا الزمان وأبد خلافته الكاملة مادام الفرقدان واضاء النيران * ومن سعادة هذا السلطان الأعظم خلد الله سلطنته القاهرة على جميع هذا العالم مقارنته لحضرة الخواجا المعظم الأسعد الأكرم الأفضل الاكمل الأعلم الفائق فى كل علم على من كان فى علم العلوم فائقا والتميز فى كل فن على من كان فى فن من الفنون ماهرا سابقا ان نظم أتى بعقود الجواهر من نحور الحور وان نثر نثر الزهر المنثور من الروض الممطور بعبارة فائقة فائقة البراعة فى الالسن الثلاثة وفصاحة بارعة فيها حازها كسبا وورائة طال ما بهر الناقد البصير بحسن التقرير ولطف التحرير وأتى فى البديهة بما يقصر بحثه بعد الروية كل ماهر نحرير ولا شك انه يغترف من بحر الفيض القدسى ويفيض بالقوة القدسية ما استفاضه من عالم القدس على عالم الانس وانه كتب الخط الحسن وما يقل حظ عذاره الانضر وتميز فى الكمالات على مشايخه فضلا عن أقرانه فى عمر شبابه الازهر باحث العلماء فى دقائق العلوم ورجح عليهم فى تحقيق فهم المنطوق والمفهوم ونفث السحر الحلال بكلامه ورقم على وجنات الطروس نفثات أقلامه فبهر العقول والالباب وأتى بالتصانيف الفائقة فى كل باب وأتاه العلم والسعادة وفصل الخطاب ثالث السعدين وثانى سعد الدين مكنه الله من العز المسكين ومنحه أعلى رتب السعادة والفضل والتمكين ولقد أسعده الله وأكرمه غاية التكريم فساقه الى تعليم هذا السلطان الاعظم ذى الطبع السليم والخلق الكريم وهو شهزاده فاقبل عليه بكمال قابليته الشريفة غاية الاقبال فانطبع فى مرآة قوته الدراكة نقوش صور العلم والكمال وانتقش فى صحيفة ذهنه

الصقيل مزايا الفواضل والفضائل والافضال فلما ولى السلطنة العظمى عرف له خدمته السابقه ورفع مرتبته السنية الفائقه وأعلى مكانته ومكانه وأعز قدره وأعظم شانه فانثالت العظماء والموالى العظام الى بابه وكذلك الاكابر والاعيان عمدوا الى جنابه فأحسن اليهم كما أحسن الله اليه وعطف عليهم بمزيد الحنو والاحسان كما عطفت السعادة والاقبال عليه فهو بالخير الجميل مذكور وبعفو التلطف والتكرم معروف مشهور طالما شملنى باحسانه الكثير الوافر وعضدنى بلطفه وجميله المتواتر وأخذ بيدى أخذ الله بيده وأدام عليه فضله الباهر وأحسن غاية الاحسان الىّ وتفضل بأنواع التفضل علىّ وشمل بفضله أولادى وذوى نظر الله بعين عنايته وألطافه اليه وأجرى مواد الكرم والاحسان على يديه وأسعده فى ظل هذا السلطان الاسعد وخلد سلطنته العظمى وأبد خلافته الكبرى وأيد

وهذا دعاء للبرية نافع * وحسن رجاء للسعادة جامع
وقد حفه حسن القبول لانه * عليه صحاح الصدق والله سامع

(فصل) ومن سعادة هذا السلطان الاعظم عمر الله بشمول سعادته وبرحمته علماء العالم كثرة العلماء العظام الاعالى والفضلاء الفخام الموالى والمشايخ الاولياء الكرام والاهالى فى بابه الكريم العالى وتحت ظله الظليل المتعالى فمنهم من اجتمعت به وعرفت كمال فضله واعترفت بعد مشاهدته برفعته فى العلم ومحله واغترفت من بحر فوائده وتقلدت بدرر فرائده ومنهم من كاتبنى بفضله وكاتبته لفضله وتحققت ثقوب فهمه ووفور علمه وعقله ومنهم من أحطت علما بكماله بعد التفحص عن مرتبة فضله وافضاله فوجدتهم فى الرتبة العليا فى الفضل والكمال فائقين علماء الدنيا فى هذا العصر على كل حال فانى أتتبع علماء كل أقليم وأسأل عن مراتبهم فى العلم وكمالاتهم فى التعلم والتعليم وأكثر الفحص عن أحوالهم وتصانيفهم وفضائلهم وفوائدهم وتآليفهم واستجلب ما يمكن جلبه وأطلب منهم ذلك اذا أمكننى طلبه وانشر ذلك بين العلماء فى كل بلاد وأبذله لطلبة العلم الشريف من أهل القابلية والاستعداد وهذا دأبى منذ اميطت عنى تمائم وأنيطت بمفارق عقود العمائم مع كثرة الواردين الى بلد الله الحرام والوافدين من الاقطار الشاسعة لاداء حجة الاسلام وشدة شغفى بلاقاتهم والتيمن ببركاتهم والسؤال عن فضائل فضلائهم وكمالاتهم فكنت أكثر الناس خبرة بأحوال العلماء ودرجاتهم فوجدت الموالى العظام من علماء الروم هم الفائقين فى هذا العصر فى هذه العلوم ونظرهم فيها أدق نظر فى المنطوق والمفهوم زادهم الله جلالا وكمالا وفضلا باهرا وافضالا وكل ذلك بشريف التفات هذا السلطان العالم سلطان العالم خليفة الله الأعظم على كافة الأمم جمل الله بوجوده الأنام وأكرم بعظيم اكرامه العلماء الكرام وأكابر فضلاء الموالى العظام فرفلوا فى أيام سعادته فى حلل المناصب العالية الفخام وأحرزوا قصب السبق فى ميادين المراتب فى ظله الظليل المستدام أدام الله تعالى لهم ذلك الى قيام الساعة وساعة القيام * وأما زمرة المشايخ والأولياء والصلحاء والأصفياء نفعنا الله ببركاتهم وأدخلنا ببركة محبتهم فى عداد خدام عتباتهم فمن شأنهم عدم الظهور لأعين الناس الا نادرا * وأما أرباب الظهور منهم للارشاد عباد الله تعالى كأهل الزوايا وأصحاب النفع والتكايا فكثير ظاهرون كثرهم الله تعالى ونفع بهم ويجب على كل أحد أن يعتقد فيهم ولا ينكر على أحد منهم وان شاهد منهم ما ينكره حمل نفسه على قصور

الفهـم فكم فيهـم من ملامتى يقصد أن ينكر عليه ويخفى حاله على الناس فحمل حاله على الصلاح أسلم وأجـل * وقد ذكر الشيخ الاكبر مولانا محيي الدين بن عربي رضى الله عنـه فى أول فتوحاته المكية من أعظـم سـعادة الانسـان أن يعتقـد فى كل من انتسب الى الله تعالى ولو كان كاذبا فنسأل الله تعالى ان يسـعدنا بالاعتقاد فى أوليـائه حيث كانوا وكيف كانوا ويدخلنا فى زمرتهـم ويبعـدنا عن المنكرين عليهم

فصل ومن أعظم مآثره الجميلة الكرام وأكرم آثاره الجليلة العظام اتمام عمارة المسجد الحرام زاده الله شرفا وتعظيما ومهابة وتكريما وقد تقدم ان والده السلطان الأعظم المندرج الى رحمة ربه الكريم الاكرم شرع فى تعميره على الوجه الذى تقدم وأتم منه الجانب الشرقى والجانب الشمالى الى ان انتهت العمارة الشريفة الى باب العمرة فأمر الى أن تتم العمارة وسلم ملكه المشيد الى نجله السعيد السـلطان الاعظم الفريد السلطان المشار اليه الافخم الاكرم خلد الله ملكه الاعظم وأفاض على العالمين عدله الاقوم * فبرز أمره الشريف تعالى الى أمير العمارة الشريفة المشار اليه سابقا افتخار الامراء الكرام أحمد بك ان يبذل جده وجهده فى بناء المسجد الحرام ويسرع فى انجاز عمارته بكمال السعى والاهتمام فبادر الامير المشار اليه الى بذل الجد والاجتهاد وتوجه بكليته الى اتمام العمارة فى خير البلاد فأعانه الله على اتمامها ومد بذلك سائر خدامها الى ان تم بناء الجانبين الغربى والجنوبى من المسجد الحرام بجميع شرافاته وأبوابه ودرجاته من داخل المسجد الحرام وخارجه فى أيام هذا السلطان الاعظم الاكرم خلد الله ملكه الاقوم وأبد سلطانه الافخم وأفاض عليه سوابغ الفضل والنعم فتم ولله الحمد بسعد طالعه السعيد وكمل على هذا الوجه الجميد بحسن توجهه الشريف وقوة عزمه المشيد وكان ذلك فى آخر سـنة أربع وثمانين وتسـعمائة وصار المسجد الحرام نزهـة للناظر وبغية للخاطر وجلاء للنواظر وصفا للقلوب والخواطر بحيث ما عمره الخلفاء العباسـيون قبل ذلك لا يحسـن عنده ان يذكر ويوصف لأن هذا البناء الشريف أمكن وأزين وأعلى وأشرف فكان الآن ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد بعقود عالية كأطواق الذهب فى الاجياد وقبب سامية كقباب الافلاك الشداد وشرافات شريفة مشرفة على المهاد والوهاد بل أعلا وأشرف وأجل وألطف وأرفع وأنحف فبنى ذلك بالرخام الابيض المرمر والحجر الشميسى المنحوت الاصفر كأنه سبائك الذهب أو سبائك العسجد والجوهر مكتوب على الابواب وصدور الاروقة آيات الكتاب والاسم السامى السلطان المستطاب بحلى الذهب بخط كسلاسل الذهب على كل موضع ما يناسب من الآيات الشريفة القرآنية بالكتابة المنسوبة الفائقة الجميلة واخترع الفضلاء لذلك تواريخ عـديدة بكل لسان واخترت أخصرها لانه خير مساجد الله ثم رأيت بعض الفضلاء جعـل لهـذه العمارة الشريفة تاريخـا فى بيت مفرد فأعجبنى نظمه لحسـن سبكه واستيفاء المعنى فيه فذكرته وهو هذا البيت

جدد المسجد الحرام مراد * دام سلطانه وطال أوانه

ثم رأيت تاريخا جعله سيدنا ومولانا شيخ الاسلام وناظر المسجد الحرام ومدرس أعظم مدارس أعظم سلاطين الانام سيد السادات العظام بدر الملة والدين مولانا السيد القاضى حسـين الحسينى قاضى المدينة المنورة سابقا أدام الله اجلاله وضاعف فضله وافضاله فأثبته هنا بحسـن انشائه ولطف مبناه وسـلامة لفظه وبلاغة معناه وهو هـذا بإسمه سبحانه انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر

وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك ان يكونوا من المهتدين * شرع في عمارة هذا
الحرم الشريف وتجديده من اختاره الله من خلفائه وعبيده المقدس المرحوم السعيد المبرور المغفور له
الشهيد سلطان الاسلام والمسلمين خاقان خواقين العالمين المستغنى بفضل الله ظلال دار النعيم
حضرة الملك الاعظم السلطان سليم نور الله تعالى ضريحه وروح بروائح الجنان روحه بناه وأكمله وأتقنه
وحسنه وجمله وارث الملك الاعظم الامام الافخم والخليفة الاكبر الغطمطم والملك القاهر العرمرم
من ملكه الله شرق البلاد وغربها وجعل طوع يده بلاد عجم الرعايا وعربها وأطلعه سراجا منيرا في
المشارق والمغارب وملكا مرفوعا على هام الكواكب وصيره للاسلام حصنا محيطا وجعل ظله المديد
على كافة الناس بسيطا وعدله الفريد في جميع الوجود مبسوطا وقمع بسلطنته الشريفة طوائف
الكفر والعناد وجمع له بين الملك في الدنيا والفوز في المعاد خليفة الله على كافة العباد ورحمة الله
الشاملة لجميع البلاد سلطان سلاطين الزمان خلاصة آل عثمان السلطان ابن السلطان ابن
السلطان الخنكار الأعظم مراد لازال الوجود بدوام خلافته عامرا ولا برح الاعيان في أيام سلطنته
قوياظاهرا زاده الله قوة ونصرا وشد بعلائكته الكرام أزرا فتاريخ تمامه قد جاء (أطال الله لمن أتمه
عمرا) * ثم ورد من الباب الشريف العالي تاريخ منظوم در النحور وغرب البحور ولثره كالدر المنثور والزهر
المنثور بخطبة وتعريفات السلطان الأعظم في آخره ثلاثة أبيات بالعربي لا أعلم من أبدعه واخترعه
وأنشاه ونظمه ورصعه وورد معه حكم شريف سلطاني يتضمن الأمر بكتابته على بعض أبواب المسجد
الحرام فامتثل الأمر الشريف وكتب هذا التاريخ البديع اللطيف على باب سيدنا العباس الى باب
علي رضي الله عنهما في الجانب الشرقي من المسجد ونقر له في الحجر الشميسي وطلي محل للذهب في ذلك
المقام ليقرأه الخاص والعام ويبقى ذلك النقر في الحجر على صفحات الليالي والأيام وهو هذا * الحمد لله
الذي أسس بنيان هذا الدين المتين بنبي الرحمة والارشاد وخصه بمزيد الفضل والكرامة والاسعاد
وجعل حرم مكة مطافا لطوائف الطائفين الحاجين من أقاصي البلاد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه
الأجلة الامجاد ووفق عبده المعتاد باحكام الاحكام الشريفة وتشييد أركانها على وجه المراد المدخر
ذخر الآخرة المزيد من زاد المعاد أدام الله ظله الممدود على مفارق العباد السلطان ابن السلطان ابن
السلطان السلطان مراد جعل الله الخلافة فيه وفي أعقابه الى يوم التناد لتجديد معالم المسجد الحرام
الذي سواء العاكف فيه والباد فتم في افتتاح سلطنته العظمى لازال للحرمين المحترمين خادما
ولأساس الجور والاعتساف هادما بتجديد حرم بيت الله عز وجل بأمره المعزز المبجل وعمر ما حوده
ما تضعضع من أركانه بعدما كان ينقض هو الى جدرانه لجدد جدران البيت العتيق وسوره بأكمل زينة
وصورة بعدما أبلاه الجديدان وأكل عيدان أرضها الارضة والديدان فرفع القباب موضع السطوح
المبنية بالاخشاب وابتهج بهذه الحسنة الكبرى كل شيخ وشاب فاذعنوا له بالشرف الباهر والمجد
الفاخر تالين قوله تعالى انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وداعين له من الله الجميل
والذكر الزاخر قائلين اللهم أدمه في سرير الخلافه محروسا بحفظك من آفة وظافرا على من يريد خلافه
مشيدا للمساجد والمدارس مجددا لكل خير منهدم ودارس واجعل بابه للراجين حرما آمنا وجنابه
للمعتاجين كفيلا ضامنا يأتون اليه من كل فج عميق لحرمة البيت العتيق تقبل الله معطي السؤال
بجاه الرسول هذا الدعاء الحري بالقبول فلما اسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان جاء مشيد الاركان

حا كرياض الجنان وصار عنوان خلافته وبراعة استهلاله المنشور سعادته فى أول سنة اربع وثمانين وتسعمائة الهجرية وكان الابتداء بذلك التجديد بأمر والده الدارج الى مدارج الملك المجيد السلطان السعيد يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم السلطان سليم ابن السلطان سليمان ابن السلطان سليم ابن السلطان بايزيد ابن السلطان محمد ابن السلطان مراد ابن السلطان أورخان ابن السلطان عثمان مكنهم الله على سرر فى دار الجنان وأثل اخلافهم فى مسند الخلافة الى انقراض الزمان وكان الشروع فى الرابع عشر من ربيع الاول من شهور سنة ثمانين وتسعمائة فلما سلم السلطان سليم وديعته بأحسن تسليم وارتحل من دار القصور الى ماهيأ الله له فى الجنة من القصور قبل تمام مارام من تجديد المسجد الحرام وأجلس الله على سرير الخلافة نجله النجيب أحسن اجلاس وجعل حرمه مثابة للناس يسر الله له الاتمام بطلعة اقباله وجوده الليالى والايام وأنام الانام فى مهد عدله الى قيام الساعة وساعة القيام ونظم راقم هذه الارقام تاريخا لائقا ان يكتب فى هذا المقام وهو هذا

جدد السلطان مراد بن سليم * مسجد البيت العتيق المحترم

مرمنه المسلمون كلهم * دار منشور اللواء والعلم

قال روح القدس فى تاريخه * عمر سلطان مراد الحرم

انتهى * ومن جملة تعمير الحرم الشريف حفر خارج المسجد الحرام من الجانب الجنوبى الذى هو مجرى السيل الآن فان الارض علت وامتلأ السيل كله الى أسفل مكة بالتراب الى أن لم يبق للدخول الى المسجد من الابواب التى فى تلك الجهة الا فى ثلاث درجات بعد ان كانت نحو خمس عشرة درجة يصعد منها الى أن يدخل من الباب الى المسجد وكان هذا السيل يقطع ويحمل ترابه الى خارج البلد من جهة المسفلة فى كل عشرة أعوام مرة فغفل عنه نحو ثلاثين عاما فعلت الارض فجاءت سيول طائحة ليلة الاربعاء عاشر جمادى الاولى سنة ثلاث وثمانين وتسعمائة فدخلت من أبواب المسجد وامتلأ المطاف الشريف ووصل الماء الى حول الكعبة الشريفة وعلا الى أن غطى الحجر الأسود وجدار الحجر الشريف ووصل الماء والطين الى عتبة الكعبة الشريفة وعلا الى أن قرب من قفل الباب الشريف ووقف الماء فى الحرم الشريف يوما وليلة وما أمكن أداء الصلوات الخمس فتعطلت الجماعة سبعة أوقات وبادر مولانا شيخ الاسلام ناظر الحرم الشريف والامير المعظم المكرم أحمد بك أمير العمارة الشريفة بخدامهم وعبيدهم وسائر المشدين وخدام الحرم الشريف والفقهاء والاعيان والتجار الى فتح طريق الماء من أسفل مكة ثم نظفت وغسل داخل البيت الشريف ثم نظف وغسل المطاف الشريف ومقام الحنفى ثم اخرجت الاوساخ من الحرم الشريف وكوم الطين أكواما فى المسجد ثم اخرج ثم فرش المسجد الشريف بالحصباء الجديدة وتعب فى ذلك حضرة الامير أحمد بك وصرف من ماله مبلغا كبيرا ثم شرع فى قطع المسيل وتهبيط أرضه الى أسفل عشر درجات أو نحوها من الجانب الجنوبى من المسجد الحرام الى آخر المسفلة وهو عمر سيل أعالى مكة فصار السيل اذا سال درج بسرعة ولم يصل الى أن يمكنه الدخول الى المسجد الحرام وفعل ذلك أيضا من جهة باب الزيادة فى الجانب الشمالى وهو عمر سيل قيقعان وحواليه وجرى الى باب الزيادة ولم يصعد الى باب المسجد بل يدخل سردابا واسعا يسمى العنبة ويجرى فيه الى أن يخرج من قرب باب ابراهيم فيسيل الى أسفل مكة مع المسيل الكبير وصان الله المسجد الحرام بذلك وصارت السيول بعد ذلك تسيل ولم تصل الى باب المسجد ولم تقرب منه وهذا رأى سديد وعمل مهم نافع

فيصان به المسجد الحرام من دخول السيول اليه غير انه يحتاج الى ان تنقد فى كل عامين أو ثلاثة اعوام فيقطع ما علا من الارض قبل ان يعلو كثيرا فيحتاج الى قطع كثير وصرف زائد فاللازم على ولى الامراء سلطان الاسلام والمسلمين نصره الله تعالى وشيد به قواعد الدين ان يقنن لذلك قانونا فيقطع هذا المسيل فى كل عامين مرة ليستمر المسيل منهبطا دائما لجريان السيل فيه صونا للمسجد الحرام عن دخول ماء السيل اليه فى كل سيل يأتى ويكون ذلك قانونا مستمر السلاطين ويسطر ثواب ذلك فى صحائف هذا السلطان الاعظم نصره الله تعالى * وكانت اليد البيضاء فى هذه المرة فى هذه الخدمة الشريفة للامير المعظم احمد بك المشار اليه انعم الله عليه واكرم منزلته لديه واجرى كل خير بيديه ويكفيه عند الله هذه المرتبة العظمى والمثوبات العظمى الكبرى * واخبرنى الامير المشار اليه اعظم الله شأنه واحسن اليه أن الذى صرفه فى عمارة المسجد الحرام هدما وبناء وقطع الأرض المسيل من جهة الجنوبى الى آخر المسفلة ومن جهة باب الزيادة الى آخر مجرى سرداب العنبة من خاصة اموال السلطنة الشريفة نصرها الله تعالى مائة الف دينار ذهب جديد سلطانى وذلك غير ثمن الاخشاب المحمولة من مصر الى مكة المشرفة وغير ثمن الحديد الصلب لآلات العمارة كالمساحى والمجارف والمسامير والحديد المحدد رأسه بطول الرواقين وبين الاسطوانتين تحت كل عقد كيلا يجلس طير الحمام عليه وغيره فيلوث المسجد بذرقه وهذا الحديد المحدد رأسه وتواصله يمنع من جلوس الطير عليه وغير أهلة القبب التى عملت بمصر من النحاس وطليت بالذهب وجهزت الى الحرم الشريف فركبت على اعلا القبب فصار لها منظر حسن وزينة عظيمة كأنها مصفوف بالاسا كف من الذهب بغاية السكون والادب حول بيت الله تعالى زاده الله تعالى رفعة وعظمة ومهابة واجلالا وأثمان ذلك خارج عن القدر المصروف فى العمارة الشريفة وكان عمل اهلة قبب المسجد الحرام بمصر بأمر بكلربكى مصر الآن نائب السلطنة الشريفة بها فى هذا الزمان أمير الأمراء العظام كبير الكبراء الفخام محيى البلاد والعباد بعدله الاعم سمى روح الله المسيح والامهاء تنزل من السماء زاد الله شأنه عظما وأنعش باحيائه العلماء العظماء والسادات الاجلاء الكرام وأفاض على أهل الحرمين الشريفين من فيض نيل كرمه الفياض ما يزيد على القياس ويزرع بسحائب معدلته ومرحمته بذر محبته ومودته فى قلوب الناس وأعانه على البر والتقوى وصانه وحماه عن جميع الأسوا وأفاض عليه جلائل نعمه الباطنة والظاهرة وجمع له بين سعادتى الدنيا والآخرة * ولما كان هذا المسيح أحيا موات مصر وعمر ما فيها من الخيرات وأبرأ جميع ما بها وبأهلها من الأوصاب وانعش أهل الحرمين الشريفين كما أحيى الموتى روح الله المسيح وجهز اليهم الصدقات المبرورة السلطانية المرادية وسرحها اليهم أحسن تسريح فهم داعون بدوام معدلته وخلود ملك السلطان الاعظم المحسن الجزيل الاحسان حيث ولى رعاياه من يرأف بهم وينعم عليهم بالخيرات الحسان أدام الله سعادته واقباله ورقاه وحفظه ورعاه وحماه من الاسواء ووقاه

* (فصل فى ذكر أساطين المسجد الحرام قبل هدمها وتجديدها على ما صارت عليه الآن) * اعلم أن عدد جملة اساطين المسجد الحرام فى جوانبه الاربع غير الزيادتين أربعمائة اسطوانة وتسعة وستون اسطوانة وما على أبوابه سبع وعشرون اسطوانة فتكون جملة أساطين أبوابه الشريفة أربعمائة أسطوانة وستا وتسعين أسطوانة بتقديم التاء على السين غير ما كانت من أساطين الزيادتين فكان فى الجانب الشرقى ثمان وثمانون اسطوانة كلها رخام مخروط ما عدا اسطوانة واحدة فى الصف الاوسط

عند باب علي قائمة من الآجر مبنية بالنورة مبيضة بالجص * وكان في الجانب الشمالي ويقال له الشامي مائة اسطوانة وأربع أساطين كلها رخام ماعدا أربعة عشر أسطوانة من آخر الصف الأوسط مما يلي باب العجلة وباب السدة فانها حجارة منحوتة * وكان في الجانب الجنوبي ويقال له اليماني مائة وأربعون أسطوانة كلها رخام ماعدا خمسا وعشرين اسطوانة في مؤخر هذا الرواق عند أبواب ام هاني فانها كلها حجارة منحوتة * وكان في الجانب الغربي سبعة وثمانون اسطوانة كلها حجارة منحوتة قطع دون الذراع منحوتة في نصف الدائرة مركبة على كل اثنين منها اثنين الى أن يطول في شكل أسطوانة الرخام مسبوك بينهما من الرصاص في داخل وسطها حديد بطول الاسطوانة منحوت مكانه في وسط الحجر مسبوك عليه بالرصاص عمل ذلك في ايام الناصر فرج برقوق لما احترق هذا الجانب الغربي من المسجد الحرام في آخر شوال سنة اثنتين وثمانمائة كما تقدم شرحه في محله فيكون جميع ما ادركناه من الاساطين غير الرخام مائة وتسعة وعشرون أسطوانة * واما أساطين دار الندوة فادركناها وستين أسطوانة من جوانبها الاربع كانت من الحجر الغشيم غير منحوت مطلية بالجص من ظاهرها وقد ينكشف عنه الجص فيظهر الحجر الغشيم فيها في الجانب الشرقي اثنا عشرة أسطوانة وفي الجانب الشمالي عشرون * ثم في أيام دولة المرحوم المغفور له السعيد الشهيد السلطان سليمان خان سقى الله عهده صوب الرحمة والرضوان أمر أميرا من أمرائه يجد وهو الامير خوش كلدي في سنة سبع وأربعين وتسعمائة وما بعدها أن يهدم مقام الحنفي الذي كان بناه الامير مصلح الدين في ابتداء الفتح العثماني لممالك العرب وأن يبني مكانه مربعا على وضعه الباقي الى آن ناهذا فجاء في فكره الشريف ان يجعل في المسجد الشريف حاصلا واسعا لحفظ مؤن المسجد واخشابه وآلاته وان يجعل الى جانبه حاصلا آخر يوضع فيه زيت قناديل الحرم الشريف وشمعه وقناديله وظروف زيته ومسارجه فعمد الى هذه الزيادة وجعل الجانب الشرقي منها حاصلين حجره وبني عليه وجعل له بابين لهذه المصلحة واستمر كذلك الى ايام دولة هذا السلطان الاعظم عمر الله به الوجود وأفاض على أهل العلم بظل سلطنته العادلة سحائب العدل والاحسان والجود فاعيد ذلك المحل المهجور من المسجد الحرام كما كان * وأما زيادة باب ابراهيم فقد كان منها في الرواق سبعة عشر اسطوانة من الحجر المنحوت صفين متصلين في الرواق القبلي الذي يلي المسجد الحرام اثنتان منها لاصقتان برباط رامشت على يمين المستقبل واثنتان لاصقتان برباط الخوزي على سائر المستقبل * وفي الجانب الشمالي ستة اساطين احداها الاصقة بالمنارة التي كانت بهذه الزيادة ولم يكن بالجانب الغربي من هذه الزيادة اساطين * ثم في أيام السلطان الغوري ارسل أميرا من أمرائه يقال له خير بك المعمار لتعمير زيادة باب ابراهيم في حدود سنة سبع عشرة وتسعمائة فبنى على باب ابراهيم قصرا مرتفعا مع مرافقه وجعل حول القصر من خارج المسجد معازل ومساكن وبنى خارج ذلك ميضأة تشتمل على مراحيض وبركة ماء وقف ذلك جميعه على جهات خير وبني من داخل باب ابراهيم على يمين الداخل حاصلا في أرض المسجد وفي علوه سكنا وعلى يسار الداخل مثله وقرر فيها بعض المستحقين وجعل في الجانب اليماني من هذه الزيادة حاصلا يشتمل على سبيل ماء وصهريج كبير يملأ من ماء المطر من سطح المسجد وأبقى الجانب القبلي والجانب الشمالي على حالهما وفرغ الامير خير بك المعمار من ذلك في حدود سنة عشرين وتسعمائة * وأما عدد شرافات المسجد الحرام من داخله فكانت أربعمائة شرافة وسبعة أنصاف شرافة * وأما الشرافات التي كانت على جدر المسجد من خارجه فهي اثنان وخمسون

شرافة متفرقة على أبواب المسجد الحرام ليس فيها شرافات وكانت فى زيادة دار الندوة من جوانبها
الاربع التى تلى بطنها اثنان وسبعون شرافة ولا شرافة للجهة الخارجة لاحاطة الدور بها وكانت فى زيادة
دار ابراهيم عليه بطنها فى ثلاث جهات منها وهى القبلى واليمانى والشامى بضع وأربعون شرافة * وأما
أبواب المسجد الحرام فهى تسعة عشر بابا كانت تفتح على ثمانية وثلاثين طاقا وهى باقية على حالها
ماعدا باب واحد فى زيادة دار الندوة وكان يفتح على طاقين فزادها الامير قاسم أمين بناء المدارس
الشريفة السلطانية السليمانية طاقا واحدا وصار على ثلاث طاقات فصارت طاقات أبواب المسجد
الحرام الآن تسعا وثلاثين طاقا فى كل طاق درفتان وسيأتى تفصيلها بعد ذكر الاسطوانات المتجددة
فى عصرنا * والذى اشتمل عليه المسجد الحرام الآن من الاساطين الرخام والاساطين الصفر الشميسى
والقبب والطواحين والمصليات وشراريف المسجد الحرام فهى ما نذكره * وأما الاسطوانات الرخام
فعددها ثلثمائة واحدى عشرة اسطوانة ففى جهة شرقى المسجد الحرام وهى ما يقابل باب البيت
الشريف اثنتان وستون اسطوانة رخام وفى جهة شاميه ويقال له الجانب الشمالى وهو ما يقابل الحجر
الشريف احدى وثمانون اسطوانة رخاما وفى جهة غربيه أربع وستون اسطوانة من ذلك وهو
ما يقابل المستجار العظيم ست اسطوانات من الحجر الصوان والباقى من الرخام * وفى زيادة دار الندوة
خمس عشرة اسطوانة من ذلك واحدة من الحجر الصوان وفى زيادة باب ابراهيم ست اسطوانات * وأما
الاسطوانات الصفر الشميسى فجملتها مائتان وأربع وأربعون اسطوانة وهى عبارة عن شكل مثمن
أو مسدس أو مربع على حسب ما اقتضاه المكان وهى فى طوال الاسطوانة العليا مقدار الثلث من
الحجر الصوان المنحوت وثلثاها من الحجر الشميسى المنحوت * فمن ذلك فى شرقى المسجد الحرام ثلاثون
اسطوانة * وفى جهة غربيه ست وثلاثون اسطوانة * وفى جهة جنوبيه ست وسبعون اسطوانة
وأربع فى أركان المسجد * وفى زيادة باب ابراهيم ثمانى عشرة * وأما القبب فعددها مائة واثنتان
وخمسون قبة * فمن ذلك فى شرقى المسجد الحرام أربع وعشرون قبة وفى الجانب الشامى ست وثلاثون
قبة واحدة فى ركن المسجد الحرام من جهة منارة الحزورة وفى زيادة دار الندوة ست عشرة قبة وفى
زيادة باب ابراهيم خمس عشرة قبة * وأما الطواحين فجملتها مائتان واثنان وثلاثون طاحنا وفى
الجانب الشمالى تسعة وخمسون طاحنا وفى الجانب الغربى ثلاثة وأربعون طاحنا وفى الجانب
الجنوبى أربعة وستون طاحنا واثنان فى مأذنة باب السلام و واحد فى ركن المسجد من جهة باب
العمرة وفى زيادة دار الندوة أربعة وعشرون طاحنا * وأما المصليات فجملتها ستة وخمسون مصلى
ففى جهة شرقى المسجد الحرام مقابل باب السلام ثلاثة وفى جهة شاميه اثنان وعشرون وفى جهة
غربيه ستة عشر وفى جهة جنوبيه خمسة عشر * وأما الشرافات فجملتها ألف وثلثمائة وثمانون شرافة
فمن ذلك فى شرقى المسجد الحرام مائة واثنتان وستون شرافة * فمن الرخام سبع وعشرون فى وسطهن
واحدة طويلة ومن الحجر الشميسى مائة وخمس وثلاثون * ومن جهة شاميه ثلثمائة واحدى وأربعون
* فمن الرخام ثمانية وسبعون منها ثلاث طوال والباقى من الحجر الشميسى * ومن جهة غربيه مائتان
وأربع * فمن الرخام اثنتان وعشرون فى وسطهن واحدة طويلة والباقى من الحجر الشميسى وفى
زيادة دار الندوة مائة واحدى وتسعون من الحجر الشميسى وفى زيادة باب ابراهيم مائة وست
وأربعون من الحجر الشميسى لا غير * وأما ابواب المسجد الحرام الآن فعدتها تسعة عشر بابا تفتح على

تسعة وثلاثين طاقا في كل طاق درفتان فيها خوخة تفتح فتحها بالجانب الشرقي أربعة أبواب وفي الدرفة اليمنى من الطاق الاوسط خوخة أيضا تغلق الدرفتان وتفتح الخوخة ليلا لمن يدخل المسجد أو يخرج منه فترد الخوخة كما كانت وكذلك جميع الخوخات * الاول باب السلام ويعرف بباب بني شيبة وهو ثلاث طاقات وهذا الباب لم يجدد فيه شيء لكونه عامر احكم البناء وفي الدرفة اليمنى من الطاق الاوسط خوخة تغلق الدرفتان وتفتح الخوخة ليلا لمن يفتح المسجد ويخرج منه * الثاني طاقان ويعرف بباب الجنائز وبباب النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجدد في هذا الباب غير الشرافات التي عليها وعدتها أربع وعشرون شرافة * الثالث ثلاث طاقات ويعرف بباب العباس لمقابلته لدار العباس رضي الله عنه ويعرف أيضا بباب الجنائز * الرابع ثلاث طاقات ويعرف بباب علي وبباب بني هاشم وقد جدد هذا الباب والذي قبله على أحسن وضع * وعدد ما عليهما من الشرافات مائة وخمسة عشر شرافة وبالجانب الجنوبي سبعة أبواب * الاول طاقان ويقال له باب بازان لان عين بازان قريب منه وقد جدده هذا بأسلوب حسن وعدد ما عليه من الشرافات ستة عشر شرافة * الثاني طاقان ويعرف بباب البغلة بباء موحدة وغين معجمة وقد جدد هذا الباب ولم يعمل عليه من الشرافات * الثالث باب الصفا لانه يليه ويعرف أيضا بباب بني مخزوم وهو خمس طاقات وقد جدد هذا الباب تجديدا حسنا وعدد شرافاته تسع وعشرون * الرابع طاقان ويعرف بباب أجياد الصغير وقد جدد وعدد شرافاته تسع عشرة شرافة * الخامس طاقان ويعرف بباب المجاهدية ويقال له باب الرحمة وقد جدد هذا الباب وعدد شرافاته عشرون * السادس طاقان ويعرف بباب مدرسة الشريف عجلان لاتصاله بها وقد جدد الباب أيضا وعدد شرافاته عشرون * السابع طاقان ويعرف بباب أم هاني وقد جدده هذا الباب ببناء حسن لطيف واسلوب ظريف وعدد شرافاته ثلاث عشرة شرافة * وبالجانب الغربي ثلاثة أبواب * الاول طاقان ويعرف بباب الحزورة ولم يجدد في هذا الباب شيء اصلا لعمارته * الثاني طاق واحد كبير يقال له باب ابراهيم ولم يجدد هذا الباب أيضا لعمارة قصره لان قصر الغوري مبني عليه * الثالث طاق واحد ويعرف بباب العمرة لان المعتمرين من التنعيم يخرجون منه ويدخلون في الغالب وكان قديما يسمى باب بني سهم وقد جدده هذا الباب وعدد شرافاته ثلاث شرافات * وبالجانب الشمالي خمسة أبواب * الاول طاق واحد ويعرف بباب السدة وكان يقال له باب عمرو بن العاص رضي الله عنه وقد جدده هذا الباب أيضا وعدد شرافاته ست شرافات * الثاني طاق واحد ويعرف بباب العجلة ويعرف بباب الباسطية لاتصاله بمدرسة عبد الباسط المتقدم أيضا وقد جدد هذا الباب أيضا وعدد شرافاته سبع * الثالث طاق واحد بزيادة دار الندوة في ركنها الغربي ولم يجدد هذا الباب أيضا * وطيقانه ثلاث طاقات بالزيادة المذكورة بجانبها الشامي وقد كان هذا الباب قديما طاقين الى أن أمر المرحوم الامير قاسم بك ببناء المدارس السلطانية ففتح طاقا ثالثا ثم هدمت الطاقات الثلاث عند بناء المسجد الحرام وأعيدت كما كانت وعدد شرافاته اثنتان وعشرون شرافة * الخامس طاق واحد ويعرف بباب الدريبة بالقرب من منارة باب السلام وقد جدده هذا الباب الامير قاسم بك المذكور سابقا عند بنائه للمدارس السليمانية ﴿وأما مناثر المسجد الحرام﴾ فهي الآن ست منائر يؤذنون عليها في الأوقات الخمس * أولها منارة باب العمرة عمرها أبو جعفر المنصور ثاني ملوك بني العباس وعمرها بعده وزير صاحب الموصل محمد الجواد بن علي بن أبي منصور الاصفهاني في سنة احدى وخمسين وخمسمائة وكان رئيس

المؤذنين يؤذن بها فى زمن الفاكهى ويتبعه سائر المؤذنين * ثم صار فى زمن التقى الفاسى يؤذن رئيس المؤذنين بباب السلام ويتبعه سائر المؤذنين وهو الآن يؤذن الاوقات الخمس على قبة زمزم ويتبعه المؤذنون الا ليالى رمضان فى التسحير فان رئيس المؤذنين يسحر فيها على منارة باب السلام ويتبعه المؤذنون فى التسحير واحدا بعد واحد وكذلك فى التمجيد والتذكير والتوديع ونحو ذلك وقد أدركنا هذه المأذنة وهى عتيقة البناء فأمر بتجديدها المرحوم المقدس المغفور له الاقدس السلطان سليمان خان عليه الرحمة والرضوان فهدمت الى الأرض وبنيت بالآجر وأعيدت كما كانت بدور واحد الا انهم غيروا رأسها على اسلوب منائر بلاد الروم وكانت أسلوب منائر مصر يعلق عليها فى رأسها ثلاث قناديل فى ثلاثة أعواد مغروزة فى قبة صغيرة على رأس المأذنة وكان ذلك فى احدى وثلاثين وتسعمائة * وثانيها منارة باب السلام عمرها المهدى بن المنصور العباسى الذى وسع المسجد الحرام فى سنة ثمان وستين ومائة وهى بدورين ثم تهدمت فى زمن الناصر فرج بن برقوق فى سنة عشر وثمانمائة وهى باقية الى الآن وثالثها منارة على واول من عمرها المهدى العباسى لما عمر منارة باب السلام واستمرت الى أن أدركناها وقد آلت الى الخراب وكانت بدور واحد فى أعلاها فأمر المرحوم المغفور له المقدس المبرور السلطان سليمان خان عليه التحية والروح والريحان فهدمت وأعيدت من الحجر الأصفر الشميسى وجعل لها دوران أعلا وأسفل وغير رأسها على اسلوب منائر الروم * ورابعها منارة الحزورة وهى بدورين أول من بناها المهدى العباسى ثم عمرت فى زمن الاشرف شعبان بن حسين صاحب الموصل وكانت سقطت فى سنة احدى وسبعين وسبعمائة فتوسل الناس منها فوصل المعمرون لعمارتها وفرغوا منها فى مفتتح محرم الحرام سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة بتقديم السين فيهما وهى باقية الى الآن * وخامسها منارة باب الزيادة وهى قديمة بدورين بناها المعتضد العباسى لما بنى زيادة دار الندوة ثم سقطت وأنشأها الاشرف برسباى فى عام ثمان وثلاثين وثمانمائة كما هو فى حجر بجنب المأذنة والله أعلم * وسادسها منارة مدرسة السلطان قايتباى رحمه الله تعالى بناها على عقد باب مدرسته الذى الى جهة المسعى فى غاية الصناعة بثلاثة أدوارا فتخر بصنعتها مهندس عصره على مهندس زمانه وبنى نظيرها منارة أخرى على عقد باب مسجد الخيف بمنى فى حدود سنة * والسابعة منارة السلطان الاعظم المغفور له الاقدس السلطان سليمان تغمده الله بالرحمة والرضوان أمر ببنائها فى أحد مدارسه الشريفة فيما بين باب السلام وباب الزيادة وهى منارة فى غاية العلو والارتفاع مشرفة على البقاع مبنية بالحجر الشميسى الأصفر مسبوكة سبك الذهب الاحمر لها ثلاث دوائر مرفوعة وأساسات محكمة موضوعة رأسها على أسلوب بلاد الروم تكاد تلازم معارج النجوم وتغوص فى الأرض الى مدارج التخوم بناها المرحوم قاسم أمين العمارة السلطانية السليمانية وسنجق جدة المعمورة وفرغ من بنائها فى اثناء سنة ثلاث وسبعين وتسعمائة رحمه الله وهذه هى المنائر السبعة التى هى حول المسجد الحرام الآن عليها عمل المؤذنين فى الأوقات الخمس وفى رمضان وغيره وكانت على المسجد منائر أخرى ذكرها أصحاب التاريخ * منها على باب ابراهيم منارة شبه صومعة هدمها بعض أمراء مكة المشرفة لاشرافها على داره ذكرها التقى الفاسى رحمه الله تعالى * ومنها منارة ذكرها ابن جبير على باب الصفا قال وهى أصغرها وهى علم لباب الصفا ولا يصعد اليها لضيقها انتهى * ومنها منارة على الميل الذى يهرول عنده من يسعى بين الصفا والمروة ذكرها الفاكهى وهذه المنائر الثلاثة كانت على المسجد الحرام وهدمت ولا يعلم من بناها ولا متى هدمت

وبعلو مكة منارة على مسجد يقال له مسجد الراية على يسار النازل من المعلاة بقرب بئر عدى بن مطعم ابن نوفل يقال ان النبى صلى الله عليه وسلم ركز رايته يوم فتح مكة فيه وهى منارة عتيقة ذهب رأسها وكان لها دوران لا أعلم من بناها يؤذنون فيها بعض أهل الخير فى مغرب شهر رمضان ويعلق قنديلا لاعلام أهل ذلك المكان بدخول المغرب للافطار فى رمضان ويسحر عليها آخر الليل ويطفى قنديلها بعد السحور اعلاما بدخول اول الفجر ليمتنع الصائمون من الاكل والشرب وهو باق الى الآن * وذكر التقى الفاسى رحمه الله تعالى ان المنائر بمكة على غير المسجد الحرام كانت كثيرا فى الشعاب والمحلات وكان المؤذنون يؤذنون عليها الصلوات وكانت لهم أرزاق تجرى عليهم وأول من جدد تلك المنائر على رؤس الجبال وفجاج مكة وشعابها هرون الرشيد وأجرى على المؤذنين بها ارزاقا وكان لعبد الله بن مالك الخزاعى على جبل أبى قبيس منارة وعلى القلة منارة ومنارة مشرفة على أجياد ومنارة الى جنبها ولعبد الله بن مالك منارة تشرف على الجزرة ومنارة فى شعب عامر وعلى جبل تفاحة وجبل الاعرج وعلى الجبل الاحمر ومنائر كثيرة عددها ورأيت فى تعليقة انها كانت خمسين منارة فى شعاب مكة ثم قال التقى وقد ترك الأذان على جميع هذه المنائر ومابقى شئ منها والله أعلم

خاتمة فى ذكر المواضع المباركة والاماكن المأثورة بمكة المشرفة

فنها المواضع التى نص العلماء رحمهم الله تعالى ان الدعاء فيها مستجاب * وذكر الحسن البصرى رضى الله عنه خمسة عشر موضعا يستجاب الدعاء فيها وعددها وزاد غيره مواضع أخرى فبلغت ثلاثة وخمسين موضعا وذكر منها مواضع غير معروفة الآن فاقتصرنا على المعروف منها * وهى مكان الطواف جميعه وعند الملتزم وقد جربته مرارا وتحت ميزاب الرحمة وداخل الكعبة وعند زمزم خلف المقام وعلى الصفا وعلى المروة وفى المسعى وفى عرفات وفى المزدلفة وفى منى وعند الجمرات وعدتها ثلاث مواضع غير ان علماءنا ذكروا أن الحاج يقف للدعاء بعد الرمى عند الجمرة الأولى وعند الجمرة الثانية ولا يقف بعد الرمى عند الجمرة الثالثة وهى جمرة العقبة ويظهر من كلامهم ان الوقوف للدعاء بعد جمرة العقبة غير مأثور لانه لا يدعى هنالك فقد ذكر الحسن البصرى ان الدعاء عندها مستجاب كالجمرتين الأوليين * وعد أبو سهل النيسابورى من المواضع التى يستجاب فيها الدعاء باب النبى صلى الله عليه وسلم ويقال له باب الحرير وباب القفص عد منها باب الصفا وباب السلام وعد القاضى مجد الدين الفيروزابادى فى كتابه الوصل والمنا فى فضل منى مواضع أخرى يستجاب الدعاء فيها فنها نقلا عن النقاش المفسر فى نسكه فقال يستجاب الدعاء فى ثبير وفى مسجد الكبش وزاد غيره فقال وفى مسجد الخيف وزاد آخر وفى مسجد النحر وهو موجود الآن بمنى غير انه داثر عمر الله من عمره نحر فيه النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ثلاثا وثلاثين بدنة وأمر أمير المؤمنين على بن أبى طالب أن يكمل نحر تتمة مائة بدنة عنه وهو موضع مأثور مشهور وزاد الحافظ بن الجوزى وفى مسجد الخيف على يمين الذاهب الى عرفات فى هذا الغار تحويف فى سقفه تزعم العامة انه لان لرأس النبى صلى الله عليه وسلم فأثر فيه تجويفا فيضع الزائر رأسه فيها يمنا وتبركا بموضع رأس النبى صلى الله عليه وسلم ولم أقف على خبر اعتمده فى ذلك الا أن الاثر وارد بنزول سورة والمرسلات * قال النقاش ويستجاب الدعاء فى دار خديجة رضى الله عنها أم المؤمنين وهى معروفة بمكة وتعرف بمولد السيدة فاطمة رضى الله عنها لانها ولدت فيها وهى وجميع أولاد خديجة رضى الله عنها من النبى صلى الله عليه

وسلم ولم يزل النبي صلى الله عليه وسلم ساكنها الى أن هاجر الى المدينة فأخذها عقيل بن أبي طالب ثم اشتراها منه معاوية بن أبي سفيان فجعلها مسجدا يصلى فيه كذا ذكره الازرقي وعمر هذا المحل الشريف في زمان الناصر العباسي وفي زمان الاشرف شعبان صاحب مصر وعمره أيضا الملك المظفر الغساني صاحب اليمن وكان المرحوم المقدس السلطان سليمان خان سقى الله تعالى عهده صوب الرحمة والرضوان أمر بتعميرهذا الجانب الشريف فعمر قبة ومسجدا يصلى فيه ويزار يجتمع فيه الفقراء للذكر كل جمعة بعد الصلاة الى العصر وكل ليلة ثلاثاء من العشاء الى الصبح يذكرون الله تعالى وكان عمارتها في سنة خمس وثلاثين وتسعمائة * قال ويستجاب الدعاء في مولد النبي صلى الله عليه وسلم وهو موضع مشهور يزار الى الآن ومن لحفه مسجد يصلى فيه ويكون في كل ليلة اثنين فيه جمعية يذكرون الله تعالى ويزار في الليلة الثانية عشر من شهر ربيع الأول في كل عام فيجتمع الفقهاء والاعيان على نظام المسجد الحرام والقضاة الاربعة بمكة المشرفة بعد صلاة المغرب بالشموع الكثيرة والمفرغات والفوانيس والمشاعل وجميع المشايخ مع طوائفهم بالاعلام الكثيرة ويخرجون من المسجد الى سوق الليل ويمشون فيه الى محل المولد الشريف بازدحام ويخطب فيه شخص ويدعو للسلطنة الشريفة ثم يعودون الى المسجد الحرام ويجلسون صفوفا في وسط المسجد من جهة الباب الشريف خلف مقام الشافعية ويقف رئيس زمزم بين يدي ناظر الحرم الشريف والقضاة ويدعو للسلطان ويلبسه الناظر خلعة ويلبس شيخ الفراشين خلعة ثم يؤذن للعشاء ويصلي الناس على عادتهم ثم يمشي الفقهاء مع ناظر الحرم الى الباب الذي يخرج منه من المسجد ثم يتفرقون وهذه من أعظم مواكب ناظر الحرم الشريف بمكة المشرفة ويأتي الناس من البدو والحضر واهل جدة وسكان الاودية في تلك الليلة ويفرحون بها وكيف لا يفرح المؤمنون بليلة ظهر فيها أشرف الانبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم وكيف لا يجعلونه عيدا من أكبر أعيادهم غير أن بعض المتقشفين انكر خصوص هذه الجمعية على هذا الوجه لزعم انه يجتمع فيه من الملاهي والغوغاء واجتماع الرجال والنساء وافضاء ذلك الى ما لا يصح شرعا فيكون بدعة ولم ينقل عن السلف شيء من ذلك * والصواب أن هذه الجمعية ان حفظت على ما ينكر فيها من الجمع بين الرجال والنساء ويقع فيها ما يتوهم من وقوع الملاهي فهي بدعة حسنة تتضمن تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر والدعاء والعبادة وقراءة القرآن وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى فضيلة هذا الشهر العظيم بقوله صلى الله عليه وسلم للذي سأله عن صوم الاثنين ذاك يوم ولدت فيه فتشريف هذا اليوم متضمن لتشريف هذا الشهر الذي هو فيه فينبغي أن يحترم غاية الاحترام ليشغله بالعبادة والصيام والقيام ويظهر السرور فيه بظهور سيد الانام عليه افضل الصلاة والسلام * وأما المبتدعات السيئة والمنكرات فهي محرمة في كل مقام والله ولي الاعتصام وقال بعض العلماء قيد اجابة الدعاء في مولد النبي صلى الله عليه وسلم عند الزوال * وفي دار السيدة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أفضل المواضع بمكة بعد المسجد وذلك لسكنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ولكثرة نزول الوحي عليه بها فيها ولد فاطمة الزهراء رضي الله عنها * ومنها دار الخيزران وهو من قرب الصفا كانت تسمى دار الارقم المخزومي ثم عرفت بدار الخيزران * والمختبى هو أفضل المواضع بمكة بعد دار أم المؤمنين رضي الله عنها لكثرة مكث النبي صلى الله عليه وسلم فيه يدعو الناس للاسلام مستخفيا عن أشرار قريش الكفار ذكره التقي الفاسي في شفاء الغرام * وقد وقت بعض العلماء الدعاء فيها بين العشاءين

والمختبي

والمختبى قبة تزار وهو الموضع الذى كان صلى الله عليه وسلم يختبئ فيه من الكفار ويجتمع فيه من آمن به ويصلى بهم الاوقات الخمسة مسرا الى أن أسلم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فجهر بالاسلام وبالصلاة وأعز الله الاسلام به * ودار الخيزران هى دور حول المختبى ملكتها الخيزران أم الرشيد شهرا فماجت وتناقلت فى يد الملاك الى أن صارت الآن من جملة املاك سلطان سلاطين العالم خليفة الله على خليقته من بنى آدم سلطان الروم والعرب والعجم الملك المظفر المنصور الاعظم * مراد خان الاكرم الافخم عمر الله بعدله الربع المسكون وأسعده فى كل مايظهر منه من الحركة والسكون ومنها فى جبل ثور عند الظهر وجبل ثبير وحراء مطلقا ومنها مسجد البيعة وهو مسجد على يسار الذاهب الى منى بينه وبين العقبة التى هى حد منى مقدار غلوة سهم أو اكثر وهو مسجد منهدم فيه حجران مكتوب فيهما مايدل على ذلك فى أحدهما أمر عبد الله أمير المؤمنين اكرمه الله تعالى ببناء هذا المسجد مسجد البيعة التى كانت أول بيعة بايع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عقدها له العباس بن عبد المطلب وانه بنى فى سنة اربع واربعين ومائة والمشار اليه ابو جعفر المنصور العباسى وعمره ايضا المستنصر العباسى كما فى حجر آخر بناه فى سنة تسع وعشرين وستمائة وتلك الاحجار ملقاة بذلك المسجد الخراب يخشى عليها الضياع فيندثر أثر هذا المسجد * وكان المرحوم ابراهيم دفتردار مصر سابقا أمين عرفات رحمه الله تعالى وأسكنه فسيح جنته شرع فى تجديد هذا المسجد وأسسه وبنى بعض طاقاته وجدرانه وتوفى الى رحمة الله تعالى قبل ان يتمه وما وفق احد بعده الى الآن لاتمامه وهو من المساجد المأثورة النبوية وهو الذى بايع فيه النبى صلى الله عليه وسلم سبعون من الانصار بحضرة عمه العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه فنادى ازب العقبة وهو شيطان ذلك المكان معاشر قريش ان الاوس والخزرج بايعوا محمدا على أن ينصروه فامسكت الأنصار بقوائم سيوفها وقالوا لنقاتلن الاسود والأحمر دون رسول الله صلى الله عليه وسلم فكفاهم الله تعالى ببركة نبيه صلى الله عليه وسلم شر ذلك الشيطان ثم هاجر النبى صلى الله عليه وسلم هو وأبو بكر رضى الله عنه الى المدينة لما أذن لهما فى الهجرة وهذا مسجد شريف يستجاب الدعاء فيه رحم الله من يكون سببا فى تجديده وعمارته * ومنها مسجد المتكى يستجاب فيه الدعاء يوم وأنكر الأزرقى وجوده وقال القاضى أبو البقا بن الضياء الحنفى فى البحر العميق ان بأجياد الصغير موضع يقال له المتكى وهو دكة مرتفعة عن الارض ملاصقة لدار بعض بنى شيبة * قلت وهذه الدار دثرت الآن وما بقى منها الا بعض أحجارها وطال ماسألت كثيرا من الاعيان أن يعمروها ويعيدوها كما كانت فما وفق أحد لذلك ليكون ذلك الثواب نصيبا لمن وفقه الله لذلك * وذكر النقاش فى مناسكه المواضع التى يستجاب فيها الدعاء بمكة ووقت لكل بقعة أوقاتا معينة * قال أما خلف المقام وتحت الميزاب ففى السحر وعند الركن اليمانى وقت الفجر وعند الحجر الاسود نصف النهار وعند الملتزم نصف الليل وداخل زمزم عند غيبوبة الشمس وداخل البيت عند الزوال وعلى الصفا والمروة عند العصر وبمنى ليلة البدر شطر الليل وبالمزدلفة عند طلوع الشمس وبعرفة وقت الزوال تحت السدرة وهى غير معروفة الآن وبالموقف عند غيبوبة الشمس كذا ذكره النقاش ومنها جبل أبى قبيس وانما سمى به لان رجلا من اياد يكنى أبا قبيس صعد فيه وبنى فيه بناء فعرف به * قال الفاكهى ان الدعاء فيه يستجاب وان وفد عاد قدموا الى مكة للاستقاء لقومهم فامروا بالطلوع الى أبى قبيس للدعاء وقيل لهم لم يعلم خاطئ يعرف الله منه الانابة الا أجابه الى مادعاه اليه وفيه على احدى الروايات قبر آدم وحواء وشيث

بياض فى الأصل

عليهم السلام * قال الذهبي في جزئه في تاريخ آدم وبنيه ما نصه وخلفه بعده شيث ابنه ونزلت عليه ثلاثون صحيفة وعاش تسعمائة سنة ودفن مع ابويه في غار ابي قبيس * وقال وهب بن منبه حفر لآدم في موضع من أبي قبيس يقال له غار الكنز فاستخرجه نوح عليه السلام وجعله في تابوت معه في السفينة فلما نضب الماء رده الى مكانه انتهى وقيل غير ذلك وفي أعلى الجبل ضريح يزوره الناس وليس ذلك بقبر آدم عليه السلام وانما هو ضريح كان يعد للماء لما كان على رأسه قلعة قديما وزعم الناس أن من اكل يوم السبت في جبل أبي قبيس رأسا مطبوخا يسلم من وجع الراس طول عمره والناس يتهافتون على ذلك في كل صبح يوم سبت وفيه موضع يزعم الناس أن القمر انشق فيه للنبي صلى الله عليه وسلم وليس لذلك صحة كذا ذكره السيد التقي الفاسي رحمه الله تعالى * قال وهو اول جبل وضعه الله في الارض وذكر بعض العلماء انه افضل جبال مكة وفضله على جبل حراء ونوقش في ذلك ومنها رباط قديم بمكة يسكنه فقراء المغاربة يسمى رباط الموقف وقفه القاضي الموفق جمال الدين علي بن عبد الوهاب الأسكندري في سنة اربع وستمائة يحكى عن الشيخ خليل انه كان يكثر اتيانه ويقول ان الدعاء يستجاب فيه اوعند بابه ويروي عن الولي المشهور الشيخ عبد الله بن مطرف انه قال ما وضعت يدي في حلقة هذا الرباط الا تذكرت ووقع في نفسي كم لله ولي وضع يده في هذه الحلقة وفي مقبرة المعلاة مواضع يستجاب فيها الدعاء منها قبر أم المومنين سيدتنا خديجة الكبرى رضي الله عنها وهو محل في شعب بني هاشم كان فيه تابوت من خشب يزار فبني عليه قبة من الحجر الشميسي الامير الكبير السعيد الشهيد محمد بن سليمان جركز دفتردار مصر في ايام المرحوم داود باشا نائب الديار المصرية في أيام السلطان الاقدس المرحوم المقدس السلطان سليم خان عليهم الرحمة والتحية والرضوان بناه في سنة خمسين وتسعمائة وكسى التابوت الشريف كسوة فاخرة وعين له خادما ورتب له علوفة من خزائن الصدقات الشريفة السلطانية العثمانية جارية عليه الى الآن وكان من أهل الخير والجميل والمعروف كريما جوادا بذولا له احسان كثير وجميل وافر أحسن الله اليه كما أحسن الى وضاعف حسناته ومحى سيآته حج الى بيت الله تعالى وهو أمير الركب الشامي وأحسن الى الناس كثيرا وعم احسانه وكان يحب العلماء والصلحاء ويكرمهم ويحسن اليهم ويقضي حوائجهم بحيث كانوا يسمون أيامه تنفسات الدهر ثم قتل مظلوما وعند الله تجتمع الخصوم والله غفور رحيم ومنها عند قبر سيدنا الفضيل بن عياض رضي الله عنه وهما في محوطة فيها جماعة أولياء أجلاء كبراء منهم الشيخ تقي الدين السبكي والشيخ عبد الله بن عمر المعروف بالطواشي وكثير من مشاهير الصلحاء آخرهم مولانا الشيخ عبد اللطيف النقشبندي الرومي رحمه الله تعالى ومنها عند قبر سفيان بن عيينة رضي الله عنه ومنها عند قبر الشيخ أبي الحسن علي الشولي رضي الله عنه ذكر الشيخ خليل المالكي ان الدعاء عنده مستجاب وكذلك عند قبر عماسرة الخير بالمعلاة ويقال انه اذا أراد أن يدعو عنده عماسرة الخير يستقبل القبلة بحيث يكون تربة الملك المسعود بحذائه عن يساره وقد اندثرت تربة الملك المسعود الآن محلها فوق البئر المعروف ببئر ام سليمان الموجودة الآن مرتفعا عن طريق السيل ومنها عند قبر الداعي بالقرب من الجبل قال المرجاني في بهجة النفوس الدعاء عند قبره يستجاب ومن المواضع التي جربتها انا لقبول الدعاء تربة شيخنا المرحوم مولانا علاء الدين الكرماني النقشبندي طيب الله تعالى ثراه ونفع ببركاته أحباه توفي سنة تسع وعشرين وتسعمائة وله كتب جليلة في الطريق أجلها كتاب منظوم في مقابلة المثنوي رحمه الله وفي مكة مواضع مباركة

وموالید متیمنة ومساجد مأثورة غیر هذه فمنها مولد سیدنا أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب رضی الله عنه وهو بقرب مولد النبی صلی الله علیه وسلم بقرب جبل أبی قبیس من قفاه فی شعب یقال له شعب علی به مسجد یصلی فیه ومولد یزار الا انه منهدم الآن عمر الله من عمره ومنها موضع یقال له مولد سیدنا حمزة رضی الله عنه فی أسفل مكة لاصق بموضع یسمی بازان وهو مجری عین حنین الی بركة ماجن قال السید التقی الفاسی رحمه الله لم أر شیأ یدل علی صحة ان هذا المكان مولد السید حمزة رضی الله عنه لان هذا المحل لیس محلا لبنی هاشم وطول هذا المحل خمسة عشر ذراعا وثلث وعرضه سبعة أذرع وربع فی صدره محراب وبابه فی الجدار الذی الی جهة بركة ماجن انتهی وقد خرب الآن وامتلأ بالتراب فلا یظهر له محراب ولا باب ولا جدر وهو قد سمی بمولد سیدنا حمزة فرحم الله من أحیاه وعمره ومنها موضع فی أعلا جبل یقال له جبل النوبی یقال انه مولد سیدنا أمیر المؤمنین عمر بن الخطاب رضی الله عنه یطلع الناس الیه للسیر والفرجة لاشرافه علی مكة ومن الناس من یقصده للزیارة قال التقی الفاسی رحمه الله لا أعلم فی ذلك شیأ یستأنس به غیر أن جدی أبا الفضل النویری كان یزور هذا الموضع فی جمع من أصحابه فی اللیلة الرابعة عشر من شهر ربیع الاول من كل سنة انتهی *قلت وهذا باق الی الآن یجتمع بعض الفقراء فی اللیلة الرابعة عشر من كل شهر یذكرون الله تعالی فیه احیاء لتلك اللیلة ومنها موضع بقرب باب العجلة یقال انه مولد سیدنا جعفر الصادق بن أبی طالب یقال ان النبی صلی الله علیه وسلم دخله والله أعلم بحقیقة ذلك ومنها فی زقاق المرفق محل فیه مسجد یقال انه دكان سیدنا أبی بكر الصدیق رضی الله عنه ویقال انها داره وبناه نور الدین بن عمر بن علی بن رسول الغسانی صاحب الیمن قبل أن یؤول الملك الیه فی سنة ثلاث وعشرین وستمائة ویقابل هذه الدار حجر یتبرك الناس بلمسه یقال انه كان یسلم علی النبی صلی الله علیه وسلم متی اجتاز قال التقی الفاسی رحمه الله تعالی هذا الحجر ان صح كلامه للنبی صلی الله علیه وسلم هو الحجر الذی عناه النبی صلی الله علیه وسلم بقوله انی لأعرف حجرا بمكة كان یسلم علی لیالی بعثت انتهی *قلت وبقرب هذا الحجر قبل أن یوصل الیه فی مقابلته علی یسار صفة حجر مبنی فی الجدر فی وسطه حفرة مثل محل المرفق یزوره العوام ویزعمون ان النبی صلی الله علیه وسلم اتكأ علیه فغاص مرفقه الشریف فی ذلك الحجر وهو یكلم الحجر الذی أمامه علی شماله قال القاضی أبو البقاء بن الضیاء فی البحر العمیق ذكر سعد الدین الاسفراینی فی كتاب زبدة الاعمال ان أهل مكة یمشون اذا زاروا الموالید من دار خدیجة رضی الله عنها الی مسجد یقولون انه دكان أبی بكر الصدیق كان یبیع فیه الخز وأسلم فیه علی یده عثمان بن عفان رضی الله عنه وطلحة والزبیر رضی الله عنهم قال وفی جدار هذا الدكان أثر مرفق رسول الله صلی الله علیه وسلم یروی أن رسول الله صلی الله علیه وسلم جاء دار أبی بكر رضی الله عنه ذات یوم ونادی یا أبا بكر انتهی *قلت الجدار الذی فیه المرفق بعید عن دكان أبی بكر رضی الله عنه الی ناحیة القبلة بینهما دروب وما رأیت فی كلام أحد من المؤرخین من حقق شیأ من ذلك والله أعلم بحقیقته *ومن الدور المباركة بمكة دار سیدنا العباس رضی الله عنه بالمسعی عند أحد المیلین الاخضرین وهی الآن رباط یسكنه الفقراء ومنها موضع بلحف جبل قیقعان یلصق دار سیدنا ومولانا قاضی القضاة وناظر المسجد الحرام القاضی حسین بن أبی بكر الحسینی أطال الله بقاه وأدام علاه یقال له معبد الجنید أحیا المشار الیه مآثره قال سعد الدین الاسفراینی انه معبد الجنید ومعبد ابراهیم بن أدهم رضی الله عنهما *ومن الجبال المأثورة بمكة جبل حراء بكسر الحاء المهملة وفتح الراء الممدودة ممدوحا وكانت

قوله جعفر الصادق الخ لعل المناسب جعفر ذو الجناحین لان جعفر الصادق من ذریة الحسین وحرر اه

الجاهلية تعظمه أيضا وتذكره فى اشعارها فمن ذلك قول أبى طالب عم النبى صلى الله عليه وسلم

وثور ومن أرسى ثبيرا مكانه * وراق ليرقى فى حراء ونازل

ويقال له جبل نور بالنون أيضا لظهور أنوار النبوة ولكثرة اقامة النبى صلى الله عليه وسلم فيه وتعبده ونزول الوحى عليه فيه وذلك فى غار أعلاه صهريج ماء يجتمع فيه أيام المطر أيام ماء عذب سائغ قال السهيلى فى الروض الأنف ان قريشا لما طلبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليهموا بقتله كان على جبل ثبير فناداه وهو على ظهره اهبط عنى يارسول الله فانى أخاف ان تقتل وأنت على ظهرى فيعذبنى الله فناداه حراء الى يارسول الله قال القاضى أبو البقاء بن الضياء فى البحر العميق ان النبى صلى الله عليه وسلم اختبأ من المشركين فى غار ثور فيحتمل ان يكون النبى صلى الله عليه وسلم اختبأ عن المشركين فى حراء فى واقعة ثم اختفى منهم فى غار ثور وقت الهجرة * قلت لم ينقل وقوع ذلك له صلى الله عليه وسلم مرتين وليس فى حديث السهيلى ان حراء لما نادى النبى صلى الله عليه وسلم الى اختفى من المشركين خصوصا وقد قال السهيلى لما نقل هذا الحديث فى الهجرة قال وأحسب فى الحديث ان ثورا ناداه لما قال له ثبير اهبط عنى

﴿ومن الجبال المباركة المأثورة جبل ثور﴾ وهو جبل أكبر من حراء وأبعد منه بالنسبة الى مكة سمى بثور ابن مناة لسكناه به وصح ان النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر الصديق دخلا واختبيا فيه عن المشركين لما قصدوه بالقتل فنجاه الله تعالى منهم * قال صاحب البحر العميق يروى ان أبا بكر رضى الله عنه لما خرج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم متوجها الى الغار جعل طورا يمشى امامه وطورا يمشى خلفه وطورا عن يمينه وطورا عن شماله فقال صلى الله عليه وسلم ماهذا يا أبا بكر فقال يارسول الله بأبى أنت وأمى أذكر الرصد فأحب أن أكون أمامك وأتخوف الطلب فأحب أن أكون خلفك واحفظ الطريق يمينا وشمالا فقال لا بأس عليك يا أبا بكر ان الله معنا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مخصر القدم بل كان يطأ الأرض بجميع قدمه وكان حافيا لخفى رسول صلى الله عليه وسلم فحمله أبو بكر رضى الله عنه على كاهله حتى انتهى به الى الغار فلما وضعه أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يدخل الغار فقال أبو بكر والذى بعثك بالحق لا تدخل حتى أدخل فأستبرئه قبلك فدخل أبو بكر رضى الله عنه فجعل يلمس بيده الغار فى ظلمات الليل مخافة أن يكون فيه شئ يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما لم ير شيأ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الغار وباتا فيه فلما أسفر بعض الاسفار رأى أبو بكر رضى الله عنه خرقا فى الغار فألقمه قدمه حتى الصباح مخافة ان يخرج منه شئ فيؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر الله العنكبوت فنسجت على فم الغار والراء فنبتت وحمامتين وحشيتين فعشتا عليه وباضتا وأقبل فيتان قريش من كل بطن رجل بعصيهم وسيوفهم ومعهم كوز بن علقمة القصاص فقص الاثر حتى انتهى الى الغار فقال لهم الى هنا انتهى أثره فما أدرى بعد ذلك أصعد السماء أم غاص فى الارض فقال لهم قائل ادخلوا الغار فقال لهم أمية بن خلف ما أربكم فى الغار وان عليه لعنكبوتا من قبل ميلاد محمد ثم بال حتى سال بوله فى الغار بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه فنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن العنكبوت وقال انها جند من جنود الله تعالى والراء شجرة لها زهر دقاق بيض يحشى به المخاد وحمام الحرم من نسل تلك الحمامتين ذكره السهيلى * وفى الصحيحين والترمذى عن ابى بكر رضى الله عنه قال نظرت الى أقدام المشركين وهى على رؤسنا فقلت يارسول الله لو أن أحدهم نظر الى قدمه أبصرنا تحت قدميه فقال يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما انتهى

وكان

وكان خوف الصديق رضى الله عنه على النبى صلى الله عليه وسلم لا على نفسه فانه قال يارسول الله ان قتلت فانا رجل واحد من امتك وان اصبت أنت هلكت الامة وكان النبى صلى الله عليه وسلم يسكن روعه ويقوى جاشه ويقول له لاتحزن ان الله معنا فرجع المشركون خزايا وعصم الله تعالى نبيه وصاحبه منهم وقد ثبت فى صحيح البخارى انهما مكثا فى الغار ثلاثا * وعن طلحة البصرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مكثت أنا وأبو بكر رضى الله عنه بضعة عشر يوما ومالنا طعام الا تمر البرير قال أبو داود البرير الاراك * وفى حديث الهجرة ان ابابكر رضى الله عنه أمر ابنه عبد الله ان يتسمع لهما مايقوله المشركون فيهما نهاره ثم يأتيهما بالليل عما يكون فى ذلك اليوم من الخبر وأمر مولاه عامر بن فهيرة أن يرعى غنمه نهاره ثم يرحها عليهما فى الغار اذا أمسى وكانت اسماء ابنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه تأتيهما بالليل بما تصلحه لهما من الطعام وكان عبد الله بن أبى بكر يكون نهاره فى قريش يتسمع مايقولون فى شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأتيهما اذا أمسى ويخبرهما الخبر وكان عامر بن فهيرة يرعى غنمه فى رعيان مكة فاذا أمسى اراح عليهما غنم ابى بكر فأحتلبهما لهما فاذا راح عبد الله بن ابى بكر من عندهما الى مكة اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم فقفاه حتى يعمى أثره على الكفار حتى اذا مضت الثلاث وسكت عنهما الناس أتاهما صاحبهما الذى استاجراه ليريهما الطريق واتتهما أسماء رضى الله عنها بسفرتهما وارتحلا وبقية اخبار هجرتهما فى السير فليراجعها من أرادها * ورحم الله الأبوصيرى حيث قال فى بردته

وماحوى الغار من خير ومن كرم * وكل طرف من الكفار عنه عمى

فالصدق فى الغار والصديق لم يرما * وهم يقولون ما بالغار من ارم

ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على * خير البرية لم تنسج ولم تحم

وقاية الله أغنت عن مضاعفة * من الدروع وعن عال من الأطم

قال المرجانى فى بهجة النفوس ذكر لى ان رجلا كان له أموال و بنون وانه أصيب بذلك فلم يحزن ولم يجزع على مصائبه لقوة صبره وتحمله فقال روى انه من دخل غار ثور الذى آوى اليه النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر رضى الله عنه وسأل الله تعالى أن يذهب عنه الحزن لم يحزن على شئ من مصائب الدنيا وقد فعلت ذلك فما وجدت حزنا * قال المرجانى رحمه الله تعالى هذه الخاصية من تأثير قوله تعالى ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لاتحزن ان الله معنا انتهى * وهذا الغار مشهور معروف يتلقاه الخلف عن السلف ويزوره الناس و يدخلون اليه من بابه الكبير الذى يروى ان جبريل عليه السلام ضربه بجناحه ففتحه وقل أن يدخل اليه أحد من بابه الضيق لأن الدخول عسر ويحتاج الى فطنة والمشهور عند العوام أن من احبس فيه لايكون ابن أبيه وذلك كلام باطل لا أصل له وقد تعوق فيه قديما وحديثا كثير من الناس وأخذ لهم حجارون من مكة وقطعوا عنه وتكرر ذلك كثيرا فى كل عصر ومع ذلك لم يتسمع كثيرا بل يتعوق الناس فيه للجهل بكيفية الدخول خصوصا اذا كان شخصا بطينا * وطريق الدخول فيه ان الداخل اليه ينبطح على وجهه ويدخل رأسه وكتفيه ثم يميل الى جانب يساره فلا يجد مايعوقه ويسلك مائلا الى اليسار وأما من لايعرف طريق الدخول يدخل رأسه وكتفيه يستمر داخلا بباقى جسده فتصادمه صخرة أمامه وتعوقه فيرفع رأسه الى فوق ويخشن بوسطه فلا يمكنه الولوج لسمنه وكلما شدد فى الدخول تعوق وانحبس فيحتاج الى حجار يقطع

قيل لا يخاصه ولا يتفطن للميل الى جهة ليخلص بسهولة ولكن الخرق قد اتسع كثيرا الآن * ومن الجبال المباركة فى الحرم جبل ثبير وهو على يسار الذاهب الى عرفات فى منى وهو الذى أهبط عليه الكبش الذى فدى به سيدنا اسماعيل عليه السلام قال مجد الدين الفيروزابادى فى كتابه الوصل والمنى فى فضل منى ان أبا بكر النقاش المفسر قال فى مناسكه ان الدعاء يستجاب فى ثبير الاثبر الذى بالخيف مغارة الفتح لان النبى صلى الله عليه وسلم كان يتعبد فيه قبل النبوة وأيام ظهور الدعوة وذكر ان بقرب المغارة التى انشأها بالخيف ثبير تعتكف عائشة رضى الله عنها * قال التقى الفاسى ويعرف هذا الموضع بصخرة عائشة انتهى * قلت هذه الصخرة غير معروفة الآن * قال رحمه الله تعالى حدثنى محمد بن يحيى قال حدثنا عبد العزيز بن عمران عن معاوية الأزدى عن معاوية بن قرة عن الجلد بن أيوب عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تجلى الله عز وجل للجبل تشظى فطارت من قطعه ثلاثة أجبل فوقعت بمكة وثلاثة أجبل بالمدينة فوقع بمكة حراء وثبير وثور ووقع بالمدينة أحد وورقان ورضوى * ومنها الجبل المقابل لثبير الذى بالخيف مسجد الخيف لان فيه غارا يقال له غار المرسلات فيه أثر رأس النبى صلى الله عليه وسلم * قال ابن جبير بعد أن ذكر مسجد الخيف وبقربه على يمين المار فى الطريق حجر مستند الى سفح الجبل مرتفع عن الارض يظل ما تحته ذكر ان النبى صلى الله عليه وسلم قعد تحته مستظلا ومس رأسه الكريم فلان الحجر حتى أثر فيه تأثيرا بقدر دورة الرأس فيضع الناس رؤسهم فى هذا الموضع تبركا بموضع رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم كيلا تمس رؤسهم النار برحمة الله عز وجل * وقال ابن خليل يستحب أن يزور مسجد المرسلات نزلت فيه المرسلات وهو يمين مسجد الخيف * وذكر المحب الطبرى فى كتابه الغزى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال بينا نحن مع النبى صلى الله عليه وسلم فى غار بمنى اذ وثبت علينا حية فقال النبى صلى الله عليه وسلم اقتلوها فابتدرناها فذهبت فقال النبى صلى الله عليه وسلم وقيت شركم كما وقيتم شرها أخرجه البخارى * قال السيد التقى الفاسى رحمه الله بلغنى عن شيخنا المجد الفيروزابادى أنه قرأ فى هذا الغار سورة المرسلات فى جماعة فخرجت عليهم حية فابتدروها ليقتلوها فهربت وهذا من غريب الاتفاق لموافقته للقصة التى اتفقت للنبى صلى الله عليه وسلم * ومنها جبل الخندمة وهو جبل كبير خلف أبى قبيس * قال الفاكهى حدثنى أبو بكر أحمد بن محمد المليكى حدثنا عبد الله بن عمر بن أسامة قال حدثنا أبو صفوان المروانى عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضى الله عنهما قال ما طرت مكة قط الا وكان الخندمة غرة وذلك ان فيها قبر سبعين نبيا انتهى وهى مشرفة على أجياد الصغير وشعب عامر وهى معروفة الآن عند الناس بمكة * وأما المساجد المأثورة المباركة فمنها ما قد انمحى أثره ولا يعرف مكانه فلا نطول كتابنا بذكره * وأما الموجود المعروف منها فعدة مساجد * منها مسجد الاجابة على يسار الذاهب الى منى فى شعب بقرب ثنية أذاخر يقال ان النبى صلى الله عليه وسلم صلى فيه وهو منهدم وفيه حجر مكتوب فيه انه مسجد الاجابة وانه عمر فى سنة عشرين وسبعمائة وعمر قريبا ثم انهدم وبنى حوله العربان بيوتا وهم يصلون فيه ويصونونه الا انه يحتاج الى أعظم من هذا * ومنها مسجد بأعلى مكة * يقال انه مسجد الجن قال الازرقى فى تسمية أهل مكة مسجد الحرس فى مقابل الحجون وأنت مصعد على يمينك وانما مسجد الحرس لان العسس يجتمعون عنده ليلا قال وهو فيما يقال الموضع الذى خطه رسول الله صلى الله

عليه وسلم لابن مسعود ليلة استمع عليه الجن وان الجن بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه اهـ
* قلت وهذا المسجد الذى تحت الموضع الذى يسمى الآن الفرهادية بينهما طريق ضيق والله أعلم
ومنها مسجد الراية فيه مأذنة ذات دور بن تهدم رأسها الآن ويقال لها منارة أبي شامة وامامه الى جانب
اليسار بئر معطلة الآن يقال انها بئر جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل ويقال ان النبي صلى الله عليه وسلم
ركز رايته يوم الفتح فى هذا المسجد ومنها مسجد بالدعاء عند الميل الاعين للمسة قبل فى مقابلة زقاق
الجزرة * قال السيد الفاسى رحمه الله تعالى يقال ان النبى صلى الله عليه وسلم صلى فيه المغرب على ماهو
مكتوب فى حجرين بهذا المسجد أحدهما بخط عبد الرحمن بن أبي حرى وفيه انه عمر فى رجب سنة ثمان
وثمانين وخمسمائة * وفى الآخر انه عمر فى سنة سبع وأربعين وستمائة وذكره الازرقى أيضا فى
المواضع التى يستحب الصلاة فيها بمكة * قلت هو مسجد لطيف جدا موجود الآن ومعروف أحاطت به
الدور الا الجهة الجنوبية منها التى هى الطريق وهو بين دكاكين السوقة يتعين على أهل الخير بناؤه
وصونه وتعظيمه وفقهم الله تعالى لذلك * ومنها مسجد بأسفل مكة ينسب الى سيدنا أبى بكر الصديق رضى
الله عنه يسمى الآن دار الهجرة ويقال انه ركب منها مع النبي صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة
يزوره الناس وفيه يذكرون الله تعالى * ومنها مسجد فوق التنعيم على يمين المستقبل يقال له مساجد عائشة
رضى الله عنها وهو بعيد عن أميال حد الحرم وكان يسمى مسجد الهليلجة لشجرة كانت هناك قديما وقد
تهدم هذا المسجد وما بقى منه الا آثار جدارات قائمة وكان المكان الذى أرسل اليه النبى صلى الله عليه
وسلم أم المؤمنين عائشة مع أخيها رضى الله عنهما ليعتمر منه ولا يصل اليه المعتمرون الآن بل يقتصرون
على اميال الحرم فيبرزون منها قليلا ويحرمون بالعمرة ويعودون ومسجد عائشة رضى الله عنها مما
يتعين تجديده وتعميره ولانه من الآثار المباركة القديمة وقد ترك الناس لتهدمه واقتصروا على مساجد
مرضومة بالاحجار بحاريب مرضومة من الاحجار الصغار تتهدم ويرضم غيرها وكأنها من وراء الاميال
بمرأى منها وهناك صهريج عظيم قديم يمتلئ من السيول أيام المطر يتوضأ المعتمرون منه فلما حج الوزير
المعظم المجاهد فى سبيل الله حضرة * سنان باشا يسر الله له ماشاء فى سنة ثمان وسبعين وتسعمائة اعتمر
من التنعيم وكان هذا الصهريج خاليا لانه لم يكن أيام المطر حينئذ ورأى المعتمرين يحملون ماء الوضوء
معهم من مواضع بعيدة يتعبون فى ذلك وكانت هناك بئر بعيدة متهدمة مملوءة بالتراب فأمر سيدنا ومولانا
شيخ الاسلام ناظر المسجد الحرام السيد القاضى حسين الحسينى أن يحصل له من يحفر ذلك البئر ويبنى
له مجرى يجرى فيه الماء من البئر الى الموضع الذى يعتمر الناس فيه بقرب الاميال وعين جاذبا يجذب الماء
من البئر فى كل وقت ويسكبه فى ذلك المجرى فيسيل الماء الى موضع يتوضأ فيه المعتمرون على الاتصال
والدوام ويشرب منه الناس والدواب والمعتمرون وأهل القوافل المارين منه هناك وابناء السبيل
وينتفعون بذلك انتفاعا عاما ويدعون لصاحب هذا الخير وهذا أثر عظيم لهذا الوزير المعظم من جملة
خيراته الجارية دائما ان شاء الله تعالى اجرى الله تعالى على يديه الخيرات وأثابه عليها أعظم الأجر
وأسنى المثوبات وبلغه من ألطافه وعناياته ما يتمنى وختم لنا وله أجمعين بالحسنى * هذا آخر ما أردنا جمعه
فى هذه الأوراق من كل خبر لطيف وأثر مبارك شريف رق معناه وراق ولطف مؤداه فى الاسماع
والاذواق كله نخب درر ونصائح وجميعه نخب غرر ومنائح يشمر بها الراكب العجلان حاجته ويصبح

الحاسد الغضبان يطربها كأنها النجوم فى سماء اللطافة زاهره أو زهور فى رياض الاناقة زاهره تحت كل ذرة منها درة فاخرة وضمن كل لفظة نكتة خفية أو حكمة ظاهرة جلية أصبحت للقلوب قوتا وأضحت قرط أذن والواحظ قرة ولعمرى يحق لو كتبوها بسواد العيون فوق المجرة فدونك أيها الفاضل اللوذعى الكامل الفطن الألمعى الناظر فى هذا الكتاب المتصفح لوجنات هذه العذار الكعاب ما أودعت من لطائف الآداب وأدرجته من زبد الحكم واللباب ولا يحملك الحسد الذى جبلت عليه الاقران انكار ما يجد لغيره من المزايا الحسان. ولا يستميلك استقصار مؤلفه الى نبذ فرائده والاستهلال بعظيم فوائده فان لك غنمها وعلى غيرك غرمها

وما عبر الانسان عن فضل نفسه * بمثل اعتراف الفضل فى كل فاضل

ومع ذلك فلا أدعى رتبة الكمال ففوق كل ذى علم عليم ولا أزعم النزاهة عن النقص والعيب فالمنزه عن كل عيب هو الله الملك القدوس العزيز الحكيم ولقد قيل لا يعرى ذو كمال من نقص ولا يخلو ذو نقص من كمال فلا يمنعك نقص الكامل من استفادة كماله ولا يرغبك كمال الناقص فى الميل الى نقصه * ولقد كتب أستاذ البلغاء القاضى عبد الرحيم الفاضل البيانى الى العماد الاصفهانى الكاتب معتذرا عن كلام استدركه عليه وقد وقع لى شئ وما أدرى أوقع لك أم لا وها أنا أخبرك به وذلك انى رأيت أن لا يكتب انسان كتابا فى يومه الا قال فى غده لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد هذا لكان يستحسن ولو قدم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر انتهى فالأليق بالفاضل اذا عثر بشئ مما كان فيه المؤلف وعثران يستر الزلل ويقبل العثار ويسد الخلل والعوار والكريم غفار والحليم ستار ولقد رأيت أن أجعل ختام هذا الكتاب مسكا وأنظم له الجواهر المفاخر سلكا فأختمه كما بدأته بالدعاء لدوام سلطاننا الاعظم خليفة الله الاكبر الافخم صاحب السيف والعلم مولى ملوك الترك والروم والعرب والعجم سلطان سلاطين هذا الزمان الخافض لكلمة الكفر والرافع لكلمة الايمان عالم السلاطين وسلطان العلماء الاعاظم الاعيان الذى تتصاغر فى أبواب سلطنته تيجان كسرى وقيصر وتسعى الى لثم أعتابه ملوك الشرق والغرب وامثال دارا والاسكندر قبلة اقبال قلوب العالمين المحسن الى أهل الحرمين الشريفين المتكرم على جيران الله وجيران نبيه صلى الله عليه وسلم فى هذين البلدين العظيمين المنيفين الباذل عدله واحسانه على كافة الرعايا والامن فى ظل منه ولطفه ورأفته جميع البرايا الذى هو بحر كرم تحدث الالسن مكارمه بالعجائب ولا حرج ويلوذ بأعتابه الشريفة من نالته شدة الافتقار تدخل اليه السعادة من باب الفرج

له دولة أسماها الله فى العلى * مقاما وأعلاها جنابا واسماها

لقد أعربت عن سيرة عمرية * تبوأها عثمان بالعدل مبناها

﴿السلطان ابن السلطان ابن السلطان الملك المؤيد مراد خان بن سليم خان﴾ نصر الله تعالى عزائمه وأمضى فى رؤس الأعداء صوارمه وشيد به بنيان الاسلام ودعائمه وجعل مغارمه فى سبيل الله مغانمه ولا زالت ألوية نصره منشورة الذوائب مشهورة القواضب مشرقة كالشمس يغشى ضوءها المشارق والمغارب صاعدة فى أفق السماء حتى تزاحم مناكب مواكب الكواكب ولا برحت

أسباب سعادته تقوى وأحاديث المكارم اليه تسند وعنه تروى والقلوب تمسك من عبوديته وصدق رأيه بالسبب الأقوى فى عز مديد ونصر مشيد وعمر مزيد وسلطنته ثابتة لا تزول ولا تبيد وسعادة دائمة تتضاعف وتزيد واقبال يلازم ركابه السعيد

مالاح نجم على أفق السماء وما * هب النسيم على العشاق بالطيب

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام الاتمان الاكملان على سيد الانبياء والمرسلين محمد وعلى آله وصحبه والطيبين الطاهرين وسائر الانبياء والمرسلين وآل كل والتابعين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين * وقد فرغ مؤلفه من تحريره ووقفت أنامل أقلامه من تحبيره فى ليلة يسفر صباحها عن سبع مضين من شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وتسعمائة

نحمدك يامن زينت المسجد الحرام بالكعبة المشرفة حيث جعلته حرما آمنا وأمرت بتطهيره فلبالك الملبون وأزلت عنهم البأس والعنا ونصلى ونسلم على سيدنا محمد القائل ومانطق عن الهوى من بنى مسجدا لله ولو كمفحص قطاة أوأصغر بنى الله له بيتا فى الجنه وعلى آله وصحبه نجوم الهدى ومصابيح الدجنه ﴿أما بعد﴾ فان من أجل العلوم التى شحنت بها الكتب والاسفار فن علم التاريخ المحتوى على وقائع الدهر وحوادث الاخبار لاسيما الكتاب المسمى بالاعلام بأعلام بيت الله الحرام فهو من أجل كتب التاريخ وضعا وأحسنها ترتيبا وأبدعها صنعا وبالجملة فهو كتاب عزيز فى مثاله بديع فى منواله لانه جمع ماحواه الأوائل والأواخر وزياده جزى الله مؤلفه خيرا وأعطاه الحسنى وزياده فهو جدير بأن يتسابق فى تحصيله المتسابقون ويتنافس فى اقتنائه المتنافسون فلهذا وجهت همة المحترم الفاضل الأستاذ الشيخ محمد مراد الطرابلسى نحو التزام طبعه لتعطير أرجاء الأكوان بعبير نفعه وذلك بالمطبعة العامرة العثمانيه التى مركزها فى مصر حارة الفراخة بباب الشعريه ادارة مديرها ومنشيها الهمام الفائق الفاضل الشيخ عثمان عبد الرازق وكان الفراغ منه بعون رب البريه فى أوائل جمادى الأولى عام ألف وثلاثمائة وثلاث هجريه صلى الله عليه وعلى آله وكل منتم اليه وناسج على منواله ماهبت نسمات الوصال على أرباب الأحوال آمين